أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

أنزلوهم

بأحسن منازل القرآن

غسان نعمان ماهر

مؤسسة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر

يتقدم المؤلف بخالص الشكر إلى الأخوين خضير فاضل عباس والدكتور محمد الحكيمي على مراجعتهما الكتاب وتصحيحه وإبداء الملاحظات القيمة.

جميع الحقوق محفوظة

لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب ، ولا خزنه في أي وسيلة استرجاعية ، ولا إرساله ، بأي شكل أو واسطة ، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم غيرها ، بدون الموافقة المسبقة من الناشر .

الطبعة الأولى 1432هـ / 2011م

الناشر: مؤسسة الفجر للنشر / بيروت – لندن

هاتف: 691031 7939 / 384499 7810 (0044)

بريد إلكتروني: alfajr.publishing@gmail.com

المحتوى

مقدمة 9

القسم الأول – النص موضوع البحث 15

الفصل الأول – النص والمعنى الإجمالي 17

الخطبة 18

الجزء من الخطبة موضوع الكتاب 20

المعنى الإجمالي 21

القسم الثاني – دور عترة النبي(ص) وأداء علي(ع) 25

الفصل الثاني – تنبيه وتوجيه إلى عترة النبي(ص) 27

الحق والضلال 28

دليل الهدى 31

عمى البصيرة 33

تشخيص أئمة الهدى 34

دور العترة النبوية 36

الإقبال على الأئمة(ع) 40

حديث جامع في وصف العترة الشريفة 43

دورهم الخالد 45

التوقف عند الجهل 47

الفصل الثالث – علي(ع) وأداء الواجب كاملاً 49

أولاً: العمل بالقرآن الكريم 52

ثانيًا: الأئمة من ولده(ع) 54

عجب وأي عجب 55

ثالثًا: أصول الدين وضرورياته 63

كمال معرفته وتوحيده سبحانه . كيف وصف المولى عز وجل في خطبة الأشباح . هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟! . التنـزيه التام . وصف الملائكة . وصف الأنبياء(ع) . وصف النبي(ص)

رابعًا: فروع الدين 72
جميع المدارس الفقهية منه(ع) . وعلم القرآن منه(ع) . وبالتالي الرجوع في الفتوى إليه(ع) . كيف ذكّرهم علي(ع) صلاة رسول اللّه(ص)
خامسًا: عدله(ع) 77
العدل الذي جرّ المشاكل عليه(ع) . أقضاهم علي(ع) . عدله(ع) بين الرعية
سادسًا: سيرته(ع) 84
حقوق الراعي والرعية . زهده(ع) . حقوق الإنسان . طريقته(ع) في الحكم . وحتى حقوق الحيوان! . نصائحه وتوجيهاته(ع) . التشجيع على الثقافة والمعرفة . شذرات من المعروف من قوله(ع)
سابعًا: أخلاقه(ع) 99
أريحيته ورقيّ أخلاقه(ع) . خلقه(ع) مع من حاربه . بين البشاشة والهيبة
الفصل الرابع – الرأي مقابل التسليم 105
نعمة العقل ودوره . متى يتوقف دور العقل . الثقة بتعليم الإمام(ع) . من علمه(ع) ما لا تحتمله العقول . سلوني قبل أن تفقدوني

القسم الثالث – أنزلوهم بأحسن منازل القرآن 115

الفصل الخامس – القرآن وعترة النبي(ص) 117
منازل القرآن وأهل البيت(ع) 118
أسماء القرآن في القرآن 119
كيف وصفه النبي(ص) 120
وكيف وصفه علي(ع) 121
العلاقة بين القرآن والسنّة والعترة 125
هل يمكن للسنّة أن تختلط بالقرآن؟ . جمع القرآن وتدوين السنّة . الفارق بين الكتاب والسنّة . لا بد من المفسّر المعصوم . التلازم بين القرآن والسنّة والعترة
منازل القرآن وما يقابلها في عترة النبي(ص) 133

الفصل السادس – أولاً: منـزلة التبجيل والاحترام 135
تبجيل القرآن واحترامه 136
تبجيل العترة الشريفة واحترامها 138
الفصل السابع – ثانيًا: منـزلة البركة والآثار 141
بركة القرآن الكريم وآثاره 142
بركة العترة النبوية وآثارها 146
الفصل الثامن – ثالثًا: منـزلة القراءة 149
قراءة القرآن وتلاوته 150
قراءة العترة الشريفة وسيرتها وأيامها 154
الفصل التاسع – رابعًا: منـزلة التدبّر 157
تدبّر القرآن الكريم 158
تدبر سيرة العترة المباركة 164
النبي(ص) والثبات في الدرب . الإمام علي(ع) والاحتياط على الإسلام . الزهراء(ع) والدعاء للآخرين . الإمام الحسن(ع) ودفع الأذى بالحلم والكرم . الإمام الحسين(ع) وعزة المؤمن . الإمام السجاد(ع) ودور الأنساب . الإمام الباقر(ع) وموعظة الحاكم . الإمام الصادق(ع) والحوار . الإمام الكاظم(ع) والمعاناة فرصة للقرب . الإمام الرضا(ع) والتواضع . الإمام الجواد(ع) وحقيقة المالكية . الإمام الهادي(ع) في مكانته وهيبته . الإمام العسكري(ع) وحراسة الدين . الإمام المهدي(ع) وأحوال شيعته
الفصل العاشر – خامسًا: منـزلة العمل 195
العمل بالقرآن الكريم 196
إتّباع أهل الذكر من العترة المباركة 202
أمثلة على تفسيرهم وتأويلهم(ع) 205
النبي(ص) وآية الصلاة . علي(ع) والمروءة . الزهراء(ع) وتطبيق القرآن على الموقف . الحسن السبط(ع) والاستجابة لنداء اللّه تعالى . الحسين(ع) وتفسير عملي لآية التحية وآية كظم الغيظ . السجاد(ع) وأداء الأمانة . الباقر(ع) وتنـزيه اللّه تعالى . الصادق(ع) وربط العمل بالعلم والفهم . الكاظم(ع) والتعامل مع الجار . الرضا(ع) وتنـزيه الأنبياء(ع) . الجواد(ع) ورد الأحاديث

الموضوعة . الهادي(ع) وآفاق الشكر . العسكري(ع) وفلسفة الفريضة ويضمنها الولاية . المهدي(ع) والتفسير الصحيح
إدعاءات الاتّباع . هل هناك اتّباع حقًا؟ 220
الفصل الحادي عشر – سادسًا: منـزلة الدعوة 225
حمل القرآن والدعوة إلى اللّه 226
الدعوة إليه والدعوة به 231
الدعوة إلى أهل البيت(ع) 235
خريجو مدرسة محمد(ص) 239
أحيوا أمرنا 241
طريقان للدعوة أو لإحياء أمرهم . الصورة الحقيقية للشيعة . الإفراط والتفريط . حول الزهراء(ع) . تنقية التراث . إحياء أمرهم(ع) وعلماء أهل السنة . مسؤولية الشيعة، عود على بدء . حديث جامع للصادق(ع)
الفصل الثاني عشر – سابعًا: منـزلة الشفاعة في الآخرة 273
شفاعة القرآن الكريم 274
شفاعة العترة المباركة 278
شكوى الثقلين 281

ويبقى سؤال: كيف؟ 283

خاتمة 287

ملاحق 299
ملحق 1: نسبة كتاب نهج البلاغة إلى الإمام علي(ع) 300
ملحق 2: الوصيّة 304
ملحق 3: إضافة في مرجعية العترة النبوية 309
ملحق 4: حديث الثقلين 311
ملحق 5: بين ادّعاء الأئمة(ع) وملاحقة الحكام 328

مقدمة

هل يعرف الناس الحقيقة؟ وهل إذا عرفوها يعرفون الواجب إزاءها؟ وهل سيجدون موانع في العمل بهذا الواجب؟

ثم، كم من الناس من يهمه ذلك؟

بغض النظر عن كل ذلك، تبقى مهمة من يعلم محاولة إيصال ما يعلم لمن لا يعلم، وتنبيه من يعلم إلى الواجب تجاه ما يعلم، وإلا فكيف تنتشر الكلمة الطيبة إن لم يلهج بها أصحابها، وكيف ينتشر النور إن لم يوجهه أصحابه إلى حيث العتمة.

إتفق المسلمون على صحة القرآن أنه كتاب اللّه تعالى المنـزل على نبيه وصفيه وخاتم رسله محمد بن عبد اللّه(ص)، واتفقوا على وجوب العمل بما جاء فيه من أمر ونهي، وعلى الفائدة التي تعود على البشر من الأخذ بنصائحه وإرشاداته. كما اتفقوا على أهمية تبليغ القرآن لمن يؤمن به، أعني المسلمين، ومن لا يؤمن به، أعني غير المسلمين. إن هذه الحقيقة تسهّل طرح موضوع هذا الكتاب، حيث أن تبليغ الواجبات الدينية أمر متسالم عليه بين المسلمين.

فإذا ما استطعنا إيصال المعلومة التي مفادها أن عترة النبي(ص)، أي أهل بيته(ع)، لهم موقع مركزي في الإسلام بحيث قرنهم اللّه ورسوله(ص) بكتاب اللّه – الذي اتفقوا على صحته ووجوب العمل به ووجوب تبليغه إلى المسلمين وغيرهم –، عندها نستطيع الاتفاق على صحة هذا الموقع، وعلى وجوب اتباع من تبوأه، وعلى وجوب تبليغ خصائصه وخصائص الذين تبوأوه إلى الناس. في هذا الكتاب، نتناول نصاً من نصوص كلام الإمام علي بن أبي طالب(ع) ينبه فيه إلى دور عترة النبي(ص) في الإسلام والحياة، وذلك بشكل مختصر لا يحتاج معه إلى إسهاب. ذلك أنه يقرنهم بالقرآن، فيحث المسلمين على التعامل معهم كأحسن تعاملهم مع كتاب اللّه تعالى.

ولكن تبقى نقطة لعلها أساسية في هذا البحث، وهي وزن هذه الكلمات من أمير المؤمنين(ع). فإن المسلمين من غير أتباع أهل البيت(ع) لا يصححون ما يصححه أتباع أهل البيت(ع) مما روي عنهم(ع)، حتى وإن كان قد أقر به بعض علمائهم، بل وشرحوه كما هو شأن كتاب نهج البلاغة – الذي قام بشرحه الشيخ محمد عبده (1849-1905) مفتي الديار المصرية في أوائل القرن الماضي، وقام بفهرسته وشرحه الشيخ صبحي الصالح رئيس المجلس الشرعي الأعلى (1925-1986)، وحقق شرح عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي، الذي يعد من أهم شروحه على الإطلاق، علماء من أهل السنة –، بل يشككون في الكثير مما روي عنهم(ع). لهذا السبب، قمنا بإيراد بعض ما يجيب على هذه النقطة في أحد ملاحق الكتاب.

إن موضوعاً يقرن عترة النبي(ص) بالقرآن الكريم يقودنا إلى التساؤل عن مدى معرفة المسلمين بهذين، أي كم يعرفون من حقيقة القرآن وحقيقة عترة النبي(ص). لا شك في أن هناك اتفاقاً على دور القرآن المركزي في الإسلام وأنه دستور الرسالة الخاتمة للحياة. ولكن هل هناك اتفاق بشأن عترة النبي(ص)؟ كم يا ترى يعرف المسلمون هذه العترة المباركة، بل كم يعرفون كبيرها وأولها، وهو الإمام علي بن أبي طالب(ع)، الذي يفترض أن يكون معروفاً بشكل كامل أو شبه كامل من المسلمين؟

ما أراه يقيناً هو أن المسلمين لا يعرفون أفراد هذه العترة النبوية جيداً. ولكن ربما يقول البعض أن هذا لا ينطبق على الإمام الأول علي بن أبي طالب(ع)، لأن المسلمين يعرفونه جيداً ويعرفون فضائله ويحترمونه ويحبونه. ولكن هل يعرف المسلمون علياً(ع) حقاً؟ كم يعرف المسلمون من غير شيعته عنه؟

سيقولون إنه قتل المشركين في بدر وأحد والخندق وخيبر، وأنه صهر النبي(ص) وأنه رابع الخلفاء الراشدين، وانتهى الأمر. ولكن غيره قتل المشركين أيضاً – وإن كان ما فعله علي(ع) مما لم يسمع به من قبله أو بعده، لا في أعداد الذين قتلهم على الشرك نسبة إلى ما فعله الآخرون، ولا في طريقة دفاعه عن الإسلام ورسوله(ص)؛ وإن غيره صهر النبي(ص)؛ وإن غيره كانوا أول وثاني وثالث الخلفاء الراشدين. ما أريد قوله هو أن فضائل علي(ع) التي

يعرفها ويعترف بها المسلمون من غير شيعته لم تستطع أن تصعد به إلا إلى درجة رابع فقط!

ولا شك في أن هذا كان من فعل الذين غطوا الكثير من فضائله من جانب، واخترعوا الكثير من الفضائل لغيره، حتى "تتساوى الرؤوس" كما يقال، ثم آمنت الرعية بما وصلها (وهو شيء صرح به أمثال الإمام الشافعي وغيره). وقد ذكر هو(ع) نفسه ذلك بقوله: ((**كنت في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله كجزء من رسول الله صلى الله عليه وآله، ينظر إلي الناس كما ينظر إلى الكواكب في أفق السماء، ثم غض الدهر مني، فقرن بي فلان وفلان، ثم قرنت بخمسة أمثلهم عثمان، فقلت: وا ذفراه! ثم لم يرض الدهر لي بذلك، حتى أرذلني، فجعلني نظيراً لابن هند وابن النابغة! لقد استنت الفصال حتى القرعى!**))[1]

أما أولياؤه أنفسهم – أي الشيعة – فهم، إضافة إلى حملاته الجهادية وسابقته وقرابته من النبي(ص)، يعرفون كلامه ونهجه وسيرته، ولكنهم لا يبدو أنهم يعرفونها كما يجب، أو قل لا يضعون جوانبها المختلفة في موازينها الصحيحة. فتراهم يركزون على الخلافة التي ضاعت ويبكون عليها، وهو أمر لا يستطيعون فعل أي شيء لتصحيحه الآن، في حين يهملون الكثير من نصائحه وتوجيهاته، بل أوامره ونواهيه التي هي كلها من تعليم النبي(ص). ولعل مردّ ذلك هو أنهم لن يشعروا بالتقصير في موضوع الخلافة، في حين أنهم مسؤولون عن القيام بواجبهم تجاه نهجه وسيرته، بل والائتمام به، وإلا ما هي الإمامة إذاً؟

إن الذين يركزون على موضوع الخلافة ويتناسون الجوانب الفريدة في شخصية هذا الإمام الكريم، الذي لم يتخذ أحد رسول اللّه(ص) أسوة حسنة كما أمر القرآن كما فعل هو، إنما يصغرونه ويضعونه في إطار الإجراءات الدنيوية الإدارية التي يعنى بها منصب الخلافة. وللّه أبيات المرحوم الشيخ أحمد الوائلي وهو ينبه إلى هذه النقطة بالذات: صغر الخلافة التي تقلدها الكثيرون ممن لا يمكن مقارنتهم بعلي(ع)، وعظم الإمامة التي نزلت من السماء لتقود الأرض إلى الهدى والخلاص:

---

[1] نهج البلاغة، ج 4، الكلمة 733

إنِّي أَتيتُكَ أَجتَليكَ وأبْتغِي وِرداً فعِندَكَ للعُطاشِ مَعِينُ
وأغُضُّ مِن طَرفي أمامَ شَوامخٍ وقعَ الزَّمانُ وأُسُّهُنَّ مَتينُ
وأراكَ أكبرَ مِنْ حَديثِ خِلافةٍ يَسنامُها مَروانُ أوْ هارونُ
لَكَ في النُّفوسِ إمامةٌ، فَيهُونُ لوْ عَصَفَتْ بِكَ الشُّورى أوِ التَّعيينُ

موضوع الكتاب

إن موضوع الكتاب هو كلام الإمام علي(ع)، هذا الكلام الذي يسلط ضوءاً على شخصيته(ع)، كما يسلط ضوءاً على الإسلام ومبادئه التي جسدها في حياته الشريفة المليئة بصنوف الأحداث والمتغيرات في فترة غيرت وجه التاريخ. والذي يلفت النظر في هذا الأمر، أن الجميع اضطروا للاعتراف بعلو كلامه(ع) على أي كلام، خلا كلام اللّه ورسوله(ص)، حتى وصف كلامه بأنه "دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوقين"[1]. ولعل وصف الشيخ محمد عبده، في مقدمة شرحه لنهج البلاغة، لمدى التنوع في كلامه يسلط ضوءاً على هذه الشخصية العجيبة التي جمعت الأضداد، في الأفعال والأقوال، رغم أن هذه الأضداد جميعها مما يحسن ويجمل. بعبارة أخرى، وضع علي(ع) كل شيء في موضعه، مجسداً الحكمة كما يعرفها الفلاسفة والعلماء والباحثون.

ويروق لي ما وجدته في تقديم إحدى الكتب المدرسية لكلام علي(ع) عند استخدامها إحدى خطبه في منهج كتاب الأدب[2]، حيث قال المؤلفون: "عليّ بنُ أبي

[1] شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد، ج 1، ص 24

[2] كتاب "الأَدَبُ نُصُوصُهُ وَتارِيخُهُ" للصف الأول الثانوي، الرئاسة العامة لتعليم البنات، المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة، 1400هـ/1980م، ص 191. وقد نجح المؤلفون في تعداد العوامل التي "كونت عبقرية علي الخطابية، وهي: (1) تربيته في بيت النبوة علي يدي رسول الله(ص) وتتلمذه على بلاغته (2) علمه بكتاب الله وتأويله وأسراره وتشريعه ومقاصده (3) حياته الحافلة بالأحداث والفتن، وبخاصة بعد توليه الخلافة". كما، وفي تحليلهم للخطبة التي استخدموها في الكتاب، وصفوا كلامه(ع): "ألفاظ الإمام علي ذات موسيقى مؤثرة، وهي ألفاظ منتقاة ينظمها الإمام في عبارات رائعة التقسيم"، وأن في الخطبة "ظهور أثر الثقافة الواسعة في كلام الإمام، الثقافة القرآنية والثقافة اللغوية. فهو إلى جانب استشهاده بالقرآن وأحكام الدين يستعمل الأمثال والحكم، وقد يتمثل بالشعر..."

طالب، رضي اللّه عنه، أعظم خطيب شهدته اللغة العربية، وإذا صح أن جميع الخطب المذكورة في كتاب نهج البلاغة هي للإمام علي، فهو أعظم خطيب شهدته الدنيا". فهذه شهادة دقيقة تماماً، يستطيع حتى طلبة المتوسطة أن يفهموها، ينبغي على الناس أن يلتفتوا إليها، لأنه في خصوص كتاب نهج البلاغة، فإن الشريف الرضي، جامع خطب ورسائل ومواعظ وكلمات الإمام(ع)، سماه "نهج البلاغة" مما يعني أن أحد أهم أهداف الكتاب، إن لم يكن أهمها، هو الاستفادة من كلامه(ع) كطريق منير للخطباء والوعاظ والمتكلمين. إنه لمن المؤسف حقاً أن يخسر المسلمون هذا النبع الفياض وهم يرون العلماء يهتمون بشرحه وفهرسته وتحقيقه، وهم يرون المدرسين المختصين – من غير أتباع مذهبه الفقهي – يعلنون بأن عند المسلمين أعظم خطيب أنجبته أمة العرب، وأنه ربما يكون أعظم خطيب أنجبته البشرية.

ولقد جاءت المرويات باستفادة مشاهير الخطابة والبلاغة من مجرد حفظ بعض خطب علي(ع) عن ظهر قلب[1]. لذا، يحق للشاعر الكبير المرحوم مصطفى جمال الدين أن يقول:

ظامِئَ الشِّعرِ ، هاهُنا يُولَدُ	الشِّعرُ ، وتَنمو نُسُورُهُ وتِطِيرُ
هاهُنا تَنشُرُ البَلاغةُ فَرعَيها	فتَستافُ مِنْ شَذاها الدُّهورُ
هَدَرَتْ حَولَهُ بِكُوفانَ يوماً	ثُمَّ قَرَّتْ ، وما يزالُ الهَديرُ
وسَيَبقى يَهُزُّ سَمعَ اللَّيالِي	مِنبَرُ مِنُ بَيانِهِ مَسحُورُ

أقسام الكتاب

أخيراً، كلمة حول أقسام الكتاب. صحيح أن الموضوع المركزي للكتاب هو كلمته(ع): "أنزلوهم بأحسن منازل القرآن"، إلا أنني قمت بتناول الفقرات والجمل

[1] ذكر ابن أبي الحديد في شرحه (ج 1، ص 24) قول عبد الحميد بن يحيى الكاتب "حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع – أي علي(ع) –، ففاضت ثم فاضت". وذكر قول الأصبغ ابن نباتة "حفظت من الخطابة كنـزاً لا يزيده الإنفاق إلا سعة وكثرة، حفظت مائة فصل من مواعظ علي بن أبي طالب" .

الأخرى في الجزء المختار من الخطبة لما له من علاقة بهذه الكلمة. ولكن لكون هذه الكلمة – موضوع البحث – وردت في الفقرة الأولى من الجزء المختار، فإنني ارتأيت أن أتناول بشكل مختصر جميع الفقرات والجمل الأخرى أولاً، ثم أتناول هذه الكلمة بالتفصيل بعد ذلك. لذلك، فقد جعلت عنوان القسم الثاني هو "دور عترة النبي(ص) وأداء علي(ع)" لتمييزه عن القسم الرئيس "أنزلوهم بأحسن منازل القرآن" والذي استغرق القسم الثالث من الكتاب.

وأما القسم الأول الذي يسبق هذين فهو يحتوي على الخطبة كاملة، وعلى الجزء المختار من الخطبة، مع الشرح الإجمالي.

هذا، ومن أجل الإجابة على بعض التساؤلات أو الشبهات، فقد أضفت ملاحق خمسة في آخر الكتاب، منها ما يتعلق بكتاب نهج البلاغة ذاته، كون الكلمة موضوع البحث مأخوذة منه، ومنها ما يتعلق ببعض جوانب تطبيقات تلك الكلمة – أي منازل عترة النبي(ص) بموازاة منازل القرآن الكريم.

أرجو أن أكون قد وفقت إلى شرح مراد أمير المؤمنين(ع) من هذه الكلمة التي ما وجدنا مثلها، لا في التعبير ولا في أشخاص آخرين غير عترة النبي(ص)، وأن يتقبله القراء بما فيه الفائدة المرجوة منه. واللّه هو المسؤول أن يثيب على الجهد الذي أرجو أن يكون خالصاً لوجهه، ففيه الحث على كتابه العزيز وعلى أعدال كتابه العزيز من أهل بيت نبيه وصفيه(ص).

والحمد للّه أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، وصلى اللّه على النبي المختار وعلى آله الأطهار وصحبه الأبرار.

القسم الأول

الـنص

موضوع البحث

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

الفصل الأول

النص والمعنى الإجمالي

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

نهج البلاغة

الخطبة 87

من خطبة له (عليه السلام)، وهي في بيان صفات المتقين، وصفات الفساق، والتنبيه إلى مكانة العترة الطيبة، والظن الخاطئ لبعض الناس:

عِبَادَ اللهِ إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللهِ إِلَيْهِ عَبْداً أَعَانَهُ اللهُ عَلَى نَفْسِهِ فَاسْتَشْعَرَ الْحُزْنَ وَتَجَلْبَبَ الْخَوْفَ فَزَهَرَ مِصْبَاحُ الْهُدَى فِي قَلْبِهِ وَأَعَدَّ الْقِرَى لِيَوْمِهِ النَّازِلِ بِهِ فَقَرَّبَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَعِيدَ وَهَوَّنَ الشَّدِيدَ نَظَرَ فَأَبْصَرَ وَذَكَرَ فَاسْتَكْثَرَ وَارْتَوَى مِنْ عَذْبٍ فُرَاتٍ سُهِّلَتْ لَهُ مَوَارِدُهُ فَشَرِبَ نَهَلًا وَسَلَكَ سَبِيلًا جَدَداً قَدْ خَلَعَ سَرَابِيلَ الشَّهَوَاتِ وَتَخَلَّى مِنَ الْهُمُومِ إِلَّا هَمّاً وَاحِداً انْفَرَدَ بِهِ فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ الْعَمَى وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ الْهَوَى وَصَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ الْهُدَى وَمَغَالِيقِ أَبْوَابِ الرَّدَى قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ وَسَلَكَ سَبِيلَهُ وَعَرَفَ مَنَارَهُ وَقَطَعَ غِمَارَهُ وَاسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَى بِأَوْثَقِهَا وَمِنَ الْحِبَالِ بِأَمْتَنِهَا فَهُوَ مِنَ الْيَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ للهِ سُبْحَانَهُ فِي أَرْفَعِ الْأُمُورِ مِنْ إِصْدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْهِ وَتَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلَى أَصْلِهِ مِصْبَاحُ ظُلُمَاتٍ كَشَّافُ عَشَوَاتٍ مِفْتَاحُ مُبْهَمَاتٍ دَفَّاعُ مُعْضِلَاتٍ دَلِيلُ فَلَوَاتٍ يَقُولُ فَيُفْهِمُ وَيَسْكُتُ فَيَسْلَمُ قَدْ أَخْلَصَ للهِ فَاسْتَخْلَصَهُ فَهُوَ مِنْ مَعَادِنِ دِينِهِ وَأَوْتَادِ أَرْضِهِ قَدْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ الْعَدْلَ فَكَانَ أَوَّلَ عَدْلِهِ نَفْيُ الْهَوَى عَنْ نَفْسِهِ يَصِفُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ لَا يَدَعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلَّا أَمَّهَا وَلَا مَظِنَّةً إِلَّا قَصَدَهَا قَدْ أَمْكَنَ الْكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقَلُهُ وَيَنْزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنْزِلُهُ.

صفات الفساق

وَآخَرُ قَدْ تَسَمَّى عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّالٍ وَأَضَالِيلَ مِنْ ضُلَّالٍ وَنَصَبَ لِلنَّاسِ أَشْرَاكاً مِنْ حَبَائِلِ غُرُورٍ وَقَوْلِ زُورٍ قَدْ حَمَلَ الْكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ وَعَطَفَ الْحَقَّ عَلَى أَهْوَائِهِ يُؤْمِنُ النَّاسَ مِنَ الْعَظَائِمِ وَيُهَوِّنُ كَبِيرَ الْجَرَائِمِ يَقُولُ أَقِفُ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ وَفِيهَا وَقَعَ وَيَقُولُ أَعْتَزِلُ الْبِدَعَ وَبَيْنَهَا اضْطَجَعَ فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ وَالْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ لَا يَعْرِفُ بَابَ الْهُدَى فَيَتَّبِعَهُ وَلَا بَابَ الْعَمَى فَيَصُدَّ عَنْهُ وَذَلِكَ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ.

عترة النبي(ص)

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ وَالْأَعْلَامُ قَائِمَةٌ وَالْآيَاتُ وَاضِحَةٌ وَالْمَنَارُ مَنْصُوبَةٌ فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ وَهُمْ أَزِمَّةُ الْحَقِّ وَ أَعْلَامُ الدِّينِ وَأَلْسِنَةُ الصِّدْقِ فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ وَرِدُوهُمْ وُرُودَ الْهِيمِ الْعِطَاشِ أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ (صلى الله عليه وآله) إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ وَيَبْلَى مَنْ بَلِيَ مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ فَلَا تَقُولُوا بِمَا لَا تَعْرِفُونَ فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ وَاعْذِرُوا مَنْ لَا حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ وَهُوَ أَنَا أَ لَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ الْأَكْبَرِ وَأَتْرُكْ فِيكُمُ الثَّقَلَ الْأَصْغَرَ قَدْ رَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ الْإِيمَانِ وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الْحَلَالِ وَ الْحَرَامِ وَأَلْبَسْتُكُمُ الْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي وَفَرَشْتُكُمُ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي وَأَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ الْأَخْلَاقِ مِنْ نَفْسِي فَلَا تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيمَا لَا يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ وَلَا تَتَغَلْغَلُ إِلَيْهِ الْفِكَرُ .

ظن خاطئ

ومنها:

حَتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ تَمْنَحُهُمْ دَرَّهَا وَتُورِدُهُمْ صَفْوَهَا وَلَا يُرْفَعُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَوْطُهَا وَلَا سَيْفُهَا وَكَذَبَ الظَّانُّ لِذَلِكَ بَلْ هِيَ مَجَّةٌ مِنْ لَذِيذِ الْعَيْشِ يَتَطَعَّمُونَهَا بُرْهَةً ثُمَّ يَلْفِظُونَهَا جُمْلَةً .

الجزء من الخطبة موضوع الكتاب

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ! وأَنَّى تُؤْفَكُونَ، والأَعْلامُ قَائِمَةٌ، وَالآيَاتُ وَاضِحَةٌ، وَالْمَنارُ مَنْصُوبَةٌ! فَأَيْنَ يُتاهُ بِكُمْ! وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ، وَهُمْ أَزِمَّةُ الْحَقِّ، وَأَعْلامُ الدِّينِ، وأَلْسِنَةُ الصِّدْقِ! **فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ**، وَرِدُوهُمْ وُرُودَ الْهِيمِ الْعِطَاشِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيينَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ: إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ، وَيَبْلَى مَنْ بَلِيَ مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ. فَلاَ تَقُولُوا بِمَا لا تَعْرِفُونَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ.

وَأَعْذِرُوا مَنْ لا حُجَّةَ لَكُم عَلَيْهِ – وهُوَ أَنَا:

أَلَمْ أَعْمَلْ فِيْكُمْ بِالثَّقَلِ الأَكْبَرِ؟

وَأَتْرُكْ فِيْكُمُ الثَّقَلَ الأَصْغَرَ؟

قد رَكَزْتُ فِيْكُمْ رَايَةَ الإِيمَانِ؛

وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الحَلالِ وَالْحَرَامِ؛

وَأَلْبَسْتُكُمُ العَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي؛

وَفَرَشْتُكُمُ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي؛

وَأَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ الأَخْلاقِ مِنْ نَفْسِي.

فَلا تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِي مَا لاَ يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ، وَلاَ تَتَغَلْغَلُ إِلَيْهِ الْفِكَرُ.

المعنى الإجمالي

عند مطالعة الخطبة بكاملها نجد أن الهدف الأساس منها هو التنبيه إلى الفرق بين طريق الهدى وطريق الضلال، وأن صفات أهل الهدى تتناقض مع صفات أهل الضلال. فالخطبة تفصّل ذلك، ثم تطبقها على أفضل مصاديقها وهو الإمام.

الخطبة تتحدث عن صفات لأحب عباد اللّه إليه، وهو العبد الذي أعانه اللّه على نفسه، كما في بدايتها أنه «**قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ، وَسَلَكَ سَبِيلَهُ، وَعَرَفَ مَنَارَهُ**». وأنه «**اسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَى بِأَوْثَقِهَا، وَمِنَ الْحِبَالِ بِأَمْتَنِهَا**». فيصبح نتيجة لذلك «**مِصْبَاحُ ظُلُمَاتٍ، كَشَّافُ عَشَاوَاتٍ، مِفْتَاحُ مُبْهَمَاتٍ، دَفَّاعُ مُعْضِلاَتٍ**». وأنه «**يَصِفُ الحَقَّ وَيَعْمَلَ بِهِ، لاَ يَدَعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلاَّ أَمَّهَا**». وأنه «**قَدْ أَمْكَنَ الْكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ، فَهُوَ قَائِدُهُ وإِمَامُهُ**».

وأما ذلك الذي يسير في طريق الضلال فيصفه الإمام بالقول «**وَآخَرُ قَدْ تَسَمَّى عَالِمَاً وَلَيْسَ بِهِ، فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّالٍ، وَأَضَالِيلَ مِنْ ضُلاَّلٍ**». وأنه «**قَدْ حَمَلَ الكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ، وَعَطَفَ الحَقَّ عَلَى أَهْوَائِهِ**». ويصفه أيضاً بأنه «**يَقُولُ: أَقِفُ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ، وَفِيْهَا وَقَعَ، ويقول: أَعْتَزِلُ البِدَعَ، وَبَيْنَهَا اضْطَجَعَ**»، أي أنه يقع في المفارقة، إذ بينما يدّعي أنه يحذر من الشبهات فإنه يقع فيها وأنه يحذر البدع ويجانبها ولكنه في داخلها. ثم يقول «**لاَ يَعْرِفُ بَابَ الْهُدَى فَيَتَّبِعَهُ، وَلاَ بَابَ العَمَى فَيَصُدَّ عَنْهُ، وَذَلِكَ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ!**» فهذا هو الوصف الملخص للذي يسير في طريق الضلال.

بعد أن يعطي الوصف للسائرين في طريق الهدى والذين يصلون في آخر الأمر إلى أن يكونوا من الهداة، والسائرين في طريق الضلال الذين يكونون في نهاية الأمر من المضلين، يأتي الإمام إلى التنبيه إلى ما كان يراه من توجّه الناس ذات اليمين وذات الشمال بعيداً عن أهل الهدى وأئمة الحق، فيقول «**فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ، وأَنَّى تُؤْفَكُونَ**»، ومعنى

الإفك هو الكذب، فيكون المعنى هو: أين تسيرون في الطريق الذي يُصَوَّر إليكم كذباً أنه الطريق الصحيح...

ذلك الاستفهام الاستنكاري لأن دلائل الطريق واضحة – ‹‹**والأَعْلامُ قَائِمَةٌ**››، والأعلام هي الدلائل في الطريق، فأما أن تكون الأعلام الأعلام التي توضع كرايات لكي يفيء إليها الناس كالذي نراه في القوافل أو في المواكب أو غيرها، وحيث يحمل العلم ألوانًا خاصة أو كتابات حتى تعرف الناس جماعتها، وأما أن تكون الأعلام كما فُسّرت بأنها المعجزات أو الكرامات، وهي التي تشير إلى أهل الحق، حيث نعلم أن الأنبياء مثلاً يأتون بالمعجزات ليثبتوا أنهم مبعوثون وهكذا. ‹‹**وَالآيَاتُ وَاضِحَةٌ**››، وهنا أيضاً يمكن تفسير الآيات بأنها العلامات الإعجازية، كما يمكن أن تكون آيات الكتاب العزيز. ‹‹**وَالْمَنارُ مَنْصُوبَةٌ**››، والمنار هي موضع النور، أو هو العلم الذي يُجعل للاهتداء به في الطريق بحيث يكون مرئياً من بُعد، وبالتالي فينتظر أو يتوقع من السائرين أن يصلوا إليه ويتجنبوا الطريق الخطأ.

وأما كلمة ‹‹**فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ**›› فهي أيضاً استفهام استنكاري، تحذّر أو تتساءل عن الاتجاه الذي يتيه به المخاطبون في الضلال وفي الطرق المنحرفة عن الحق.

ثم يكمل باستفهام استنكاري آخر ‹‹**وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ**››، أي كيف تتحيرون في الطريق وتترددون في الضلال، لأن العمى هو عمى البصيرة، فيتساءل ‹‹**وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ**››، والعترة هم أقرب الناس إلى الرجل سواء هم من نسله أم من رهطه حيث تُفسّر بأنها أهله الأدنون. وهنا فإن الإمام(ع) يعجب من أن يتردد الناس في الضلال عندما تكون عترة النبي (ص) وهم أهل بيته معهم.

ثم يصف أهل البيت بقوله ‹‹**وَهُمْ أَزِمَّةُ الْحَقِّ، وَأَعْلامُ الدِّينِ، وأَلْسِنَةُ الصِّدْقِ**››. أَزِمَّةُ الحَقّ أي ما يقود الإنسان به أو يشد به من بهائم في ركوبها أو أي شيء آخر، فالزمام هو ما يشد به الإنسان أو يربط شيئاً آخر؛ وإذا كان الرجل زماماً لقومه فإنه صاحب أمرهم وهو الذي يقدمونه ليحكم بينهم ويرتب أمورهم. فأَزِمَّةُ الحَقّ هنا إذاً هم الذين

يشدّون إلى الحق. وأما أَعلامُ الدِّين فهي أيضاً ككلمة الأعلام التي سبقت أعلام الدين، هي الرايات أو هي العلامات التي تشير إلى موقع الدين، أي موقع تعاليم الدين ومفاهيمه وأفكاره. وألسِنَةُ الصِّدْق هم إذاً الذين لا يتحدثون إلا بالصدق، أو كأن الصدق له لسان هم ألسنته – إن الصدق، كمفهوم أو كفكرة، عندما يخرج إلى الخارج يخرج بمركب فهذا المركب من كلام مكتوب أو مقروء، فالعترة إذاً هم هذا اللسان.

نتيجة لذلك، ينصح الإمام(ع) السامعين بأن يتعاملوا مع العترة بـ: أولاً أن يُنـزلوهم بأحسن منازل القرآن، أي بحسب دور القرآن أو أدوار القرآن في حياتهم وبحسب علاقتهم بالقرآن الكريم؛ وثانياً أن يأتوهم كما تأتي الحيوانات العطشى إلى الماء.

ثم ينتقل الكلام إلى تبيان أن عترة النبي(ص) لهم خصوصيات بحيث أنهم يختلفون عن سائر الناس وذلك بقوله «**خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيينَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ وَيَبْلَى مَنْ بَلِيَ مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ**»، فهو أولاً ينبه إلى أن هذه الكلمة من رسول اللّه (ص) وذلك لكي يمنع التكذيب، وثانياً يقول أن الفرد من هذه العترة عندما يموت لا ينتهي كما ينتهي الناس، وعندما يبلى في القبر، أي عندما يبلى جسمه، فإنه لا ينتهي به المطاف كالآخرين، فالبلى هو انتهاء الجسم من لحم وعظم؛ فهذا له معان نأتي إليها في موضعه.

هنا ينبه إلى أن هذا هو مدعاة لأن يتوقف الإنسان عن أن يدلي بدلوه في شيء لم يوضح له، بل هو يقول «**فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ**»، أي ما لا تعتقدونه أو الذي تعتقدون ببطلانه فإن الكثير من الحق هو من ذلك.

هنا يأتي إلى نفسه(ع) وكيف سار بهم وما الذي أداه بحسب وظيفته في إمامة الأمة بادئاً بالقول أنه لا يوجد لديهم ما يمكن أن يلوموه أو يؤنبوه عليه «**وَاعْذِرُوا مَنْ لَا حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ وَهُوَ أَنَا**»وذلك لأنه قام بما يلي:

أولاً- عمل بالثقل الأكبر وهو القرآن الكريم، ووُصِفَ بالثقل لأنه الشيء النفيس والشيء العظيم؛

ثانياً- ترك الثقل الأصغر، وهو أيضاً الشيء العظيم الشيء النفيس، وهو الحسن والحسين والأئمة من أولاد الحسين(ع). وهذان الثقلان هما المجموعان في حديث الثقلين الشهير الذي نتعرض له في موقعه؛

ثالثاً- ركز راية الإيمان، وراية الإيمان هي الإيمان باللّه ورسوله واليوم الآخر وبملائكته وكتبه فيما يمكن أن نقول عنه أنه أصول الدين؛

رابعاً- «**وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الحَلالِ وَالْحَرَامِ**»، وقفتكم أي جعلتكم تقفون أي تعرفون وتتعلمون حدود اللّه من الحلال والحرام، وهذا يمكن أن نصفه بأنه فيما يخص الفروع؛

خامساً- العافية هي الصحة التامة، وهنا «**وَأَلْبَسْتُكُمُ العَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي**» أي سرت فيكم بسيرة العدل وأقمت فيكم العدل بحيث كنتم في صحة بعيدين عن الأذى وهو الظلم في الحكم؛

سادساً- «**وَفَرَشْتُكُمُ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي**»، هي إشارة عامة إلى سيرته(ع)؛

سابعًا- «**وَأَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ الأَخْلاقِ مِنْ نَفْسِي**» وكرائم الأخلاق هي الأخلاق السامية والأخلاق العالية؛

ويختم بقوله «**فَلا تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِي مَا لاَ يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ، وَلاَ تَتَغَلْغَلُ إِلَيْهِ الْفِكَرُ**» منبهاً إلى ما كان نبه إليه فيما يخص إنكارهم ما لا يفهمونه أو ما لا يعرفونه فيحذرهم من أن يحاولوا أن يعملوا فكرهم وآراءهم في الأمور التي لا يمكن أن يصل إلى مكنونها عقلهم ولا يفصح عن أسرارها فكرهم.

فهذا هو المعنى الإجمالي لموضوع البحث والذي سنتناول في الفصول القادمة معانيه بالتفصيل، مع التنبيه إلى نقطة مهمة وهي أننا سنتناول الموضوع بالتسلسل الذي جاء في كلامه(ع) ما عدا كلمة «**فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآن**» لأن هذا هو الموضوع الأساسي من هذا البحث فسيأتي بعد ذلك في القسم الثالث.

القسم الثاني

دور عترة النبي (ص)

وأداء علي (ع)

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

الفصل الثاني

تنبيه وتوجيه إلى عترة النبي(ص)

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

الحق والضلال

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ. وأنّى تُؤْفَكُونَ

جاءت الرسالات لتحقيق العبودية للّه تعالى من خلال إعمار الأرض والعلاقات الصحيحة بين البشر والعبادات المختلفة، وكل ذلك في إطار نستطيع أن نسميه الحق. وبطبيعة الحال، سيقف الكثيرون بوجه الحق من خلال عداوة الشيطان ومن خلال النفس الأمارة بالسوء، لتدفع الناس إلى طرق الضلال. وليس هناك من موقف وسط أو طريق وسط أو مساحة وسطى بين الحق والضلال فإن الوقوف بعيداً عن الحق ولو بدرجة قليلة إنما هو الوقوع في الضلال بعضه أو كله، ولذلك قال تعالى: ﴿**فماذا بعد الحق إلا الضلال، فأنى تصرفون**﴾ يونس:32، وقال: ﴿**وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**﴾ الأنعام:153. فكان من أهم واجبات قادة الحق، وهم الأنبياء والأوصياء والمصلحون، هو التحذير من الوقوع في الضلال والبعد عن الحق بغض النظر عن الأسباب والوسائل التي تؤدي إلى ذلك.

وهكذا كان مع أمير المؤمنين(ع)، فإنه بصفته الإمام الأول من أئمة أهل البيت(ع) وأول خليفة لرسول اللّه(ص) – بحسب نص النبي(ص) لا بالترتيب التاريخي لما وقع – كان من واجبه منع حصول الانحراف. فإن واجبات الأئمة(ع) يمكن تلخيصها في أمرين: الأول تبيان الهدى من خلال تبيان الأحكام الشرعية والمفاهيم الدينية الصحيحة، والثاني هو تبيان طريق الضلال ومحاولة منع الناس والمجتمع والوطن الإسلامي من الوقوع فيه. ففي هذه الخطبة يحذر الإمام(ع) من الوقوع في الضلال بهذا الاستفهام الاستنكاري «**فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ! وأَنَّى تُؤْفَكُونَ**» أي – كما قلنا – أين تذهبون بعيداً عن الحق وفي طرق الضلال، وكيف تصرفون وتدفعون إلى طرق الضلال نتيجة للكذب عليكم وخداعكم والمكر بكم حتى تؤفكون وينتهي بكم الأمر إلى الضلال. وكان من شأنه(ع) أن يحذر الأمة من ذلك في

مناسبات عديدة، فإننا نجده يقول محذراً، كما في هذه الخطبة، من الوقوع في فخ إتباع الهوى وعدم إتباع المعصوم فيقول[1]: ‹‹**فيا عجبًا! وما لي لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها، لا يقتصون أثر نبي، ولا يقتصون بعمل وصي، ولا يؤمنون بغيب، ولا يعفون عن عيب، يعملون في الشبهات، ويسيرون في الشهوات، المعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا، مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المهمات على آرائهم، كأن كل امرئ منهم إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يرى بعرى ثقات، وأسباب محكمات**››. هنا يبدو أن خط الضلال قد توثق في الأمة بحيث صار له مجاميع مختلفة، بل أن أمير المؤمنين(ع) يسميها فرقاً ويقرعها بأنها لا تتبع النبي ولا الوصي، وأنها تعمل بالشبهات وتسير في الشهوات، حتى يبدو أن واحدهم كأنه إمام نفسه!

ونجده في مناسبة أخرى يقول[2]: ‹‹**حتى إذا قبض اللهُ رسوله(ص) رجع قوم على الأعقاب، وغالتهم السبل، واتكلوا على الولائج، ووصلوا غير الرحم، وهجروا السبب الذي أمروا بمودته، ونقلوا البناء عن رص أساسه، فبنوه في غير موضعه؛ معادن كل خطيئة، وأبواب كل ضارب في غمرة؛ قد ماروا في الحيرة، وذهلوا في السكرة، على سنة من آل فرعون، من منقطع إلى الدنيا راكن، أو مفارق للدين مباين**››.

هنا الإمام(ع) يقول أنهم غالتهم السبل أي أهلكهم اختلاف الأهواء والآراء، وكأنهم اتبعوا السبل التي حذر منها القرآن كما مرّ في الآية السابقة. ويحذر من هذه الطرق التي تؤدي إلى الضلال بقوله ‹‹**وأبواب كل ضارب في غمرة**›› أي كل داخل ومعتقد بضلالة أو جهالة، كائناً ما كانت. فصاروا نتيجة لذلك في الحيرة يسبحون فيها كما يسبح الإنسان في الماء على حد تعبيره(ع) ‹‹**قد ماروا في الحيرة**››.

---

[1] نهج البلاغة، الخطبة 87

[2] نهج البلاغة، الخطبة 150

أخيراً، استخدم الإمام(ع) آية سورة التكوير ﴿**فَأَيْنَ تَذْهَبُون**›› التي جاءت في سياق آيات مباركة، ﴿**وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ . وَلَقَدْ رَآَهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ . وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ . فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ**﴾ التكوير:22-26، تستنكر على الكافرين ذهابهم وتخبطهم ورميهم للنبي(ص) بالتهم، فكما أن أولئك الكافرين ذهبوا بعيداً عن الحق الواضح الذي جاء به النبي(ص) فإن هؤلاء المسلمين ذهبوا بعيداً عن الالتزام بالدور الواضح لعترة النبي التي ينبه إليها الإمام(ع)؛ وكما نبه القرآن الكريم بالاستفهام الاستنكاري إلى الحق الذي مع النبي(ص) ينبه الإمام(ع) هنا، بالاستفهام الاستنكاري أيضاً، إلى الحق الذي مع عترة النبي(ص).

دليل الهدى

والأَعْلامُ قَائِمَةٌ، وَالآيَاتُ وَاضِحَةٌ، وَالْمنارُ مَنْصُوبَةٌ

بعد أن حذر الإمام(ع) واستنكر ذهابهم إلى طريق الباطل وتعجب من انصرافهم عن الحق لأن الدليل إلى الحق وإلى الهدى موجود بشكل واضح وذلك أن...

«**الأَعْلامُ قَائِمَةٌ**»، والأعلام هي الرايات التي ترفع على الرماح أو ترفع على قوائم حتى يفيء الناس إليها كل جماعة تعرف أن هذه هي منطقتها حتى لا تتيه عنها، والناس أنفسهم أشخاص من الممكن أن يوصفوا بأنهم أعلام فإن سيد القوم هو علمهم لأنه هو الذي يجتمعون حوله، كما يشار إليه بالبنان. فإذا كانت الأعلام قائمة، أي قائمة واضحة يمكن أن ترى من بعيد، فكيف لأحد أن يذهل عنها وأن يذهب بعيداً عنها؟

«**وَالآيَاتُ وَاضِحَةٌ**»، والآيات من الممكن أن تكون الدلائل، والتي يمكن أن يكون من المعجزات أو الكرامات، فإذا كانت موجودة دلت على خصوصية لصاحبها، فإننا نعرف بأن الأنبياء(ع) لا بد أن يأتي معهم ما يدل على نبوتهم، وهذه هي المعجزات التي تكون آيات أو علامات على صدق دعواهم. ونفس الشيء بالنسبة إلى الأوصياء والأولياء، وإن كان البعض يطلق على مثل هذه الآيات كلمة "كرامات" عندما تكون لغير الأنبياء. على أية حال، إذا كانت هذه المعجزات أو الكرامات أو الدلائل واضحة فكيف يمكن لأحد أن ينحرف عنها أو يذهب عنها بعيداً إلى حيث من يدعي دعاوى دون دليل – دونما آيات أو علامات أو كرامات أو معجزات تعضلها.

ومن الممكن أيضاً أن يكون المقصود بالآيات هو آيات الكتاب العزيز، فإن القرآن الكريم هو عبارة عن مجموعة من الأوامر والنواهي والنصائح والتحذيرات كلها تقود إلى طريق الهدى، فإذا كان ذلك كذلك وإذا كان المخاطبون هم المسلمين الذين لا بد أن يؤمنوا بآيات الكتاب ويتبعوا آيات الكتاب فكيف لهم أن يتيهوا وأن يذهلوا عن

طريق الحق؟ وهنا لا نريد أن نذكر أمثلة من ذلك لأن هذا العرض لا يسع، فإن القرآن الكريم كريم جدًا في هذا المجال، فمن آيات في توحيد اللّه والتحذير من الذهاب والانحراف بعيداً إلى الشرك، إلى الآيات التي تشير إلى الأنبياء والتحذير من الانحراف عنهم، إلى الآيات التي تشير إلى طرق الخير والتحذير من الذهاب بعيداً إلى الشرك، إلى الآيات التي تشير إلى المرجع الحقيقي للمؤمنين، والذي نعتقد أنه في أئمة أهل البيت(ع) والذي سيأتي أمير المؤمنين في هذا الجزء من خطبته على ذكرهم.

«**وَالْمَنَارُ مَنْصُوبَةٌ**» والمنار من الممكن أن يكون موضع النور، فالكلمة مشتقة من النور. ومن الممكن أيضاً أن يكون ذلك البناء العالي الذي يمكن رؤيته من بعيد وبالتالي يكون علماً أو دليلاً للطريق. وفي الحالتين يتوقع من الناس أن تهتدي إليه إما لضوئه ونوره وإما لبيان موقعه وارتفاعه، فحاله حال الأعلام القائمة في هذا الشأن، بل حاله حال الآيات الواضحة في توضيح طريق الهدى.

فكيف يمكن التصور بأن يذهب الناس بعيداً عن الأعلام القائمة والآيات الواضحة والمنار المنصوبة؟ إنه من الممكن أن يحصل ذلك إما باختيار الناس أصلاً، وهذا يكون مع أئمة الضلال أو الأئمة الذين يدعون إلى النار، فإن هؤلاء يأخذون زمام المبادرة في التصدي للحق وأهل الحق ويقررون الذهاب بعيداً في طريق الضلال، وبالتالي فليس هناك من موضوع للبحث بالنسبة إليهم، لا يهمهم هذه الأعلام القائمة ولا الآيات الواضحة ولا المنار المنصوبة. فهؤلاء هم الذين يقومون بدفع الآخرين، عن طريق الإفك وعن طريق المكر وعن طريق التزيين، بعيداً عن الحق. أو أن الذين يذهبون بعيداً في طريق الضلال إنما يفعلون ذلك لأنهم صاروا لا يرون هذه الأدلة على الهدى؛ فكما أن أعمى البصر لا يستطيع أن يرى الأعلام ولا المنار فهؤلاء لا يستطيعون، اللهم إلا بالدليل الذي يقود الأعمى إلى حيث النجاة. وهنا يحدث تزاحم بين أئمة الهدى وأئمة الضلال، والغلبة تكون في نفوس الناس إما لهؤلاء حيث النجاة، وإما إلى أولئك حيث الخسران.

عمى البصيرة

فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ! وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ؟

على نفس الشاكلة يستنكر الإمام(ع) أن يذهب أحد بعيداً عن طريق الحق بهاتين الكلمتين. والأولى ربما تقع في إحدى الحالتين اللتين ذكرناهما في الفصل الماضي، وهو أن هذا التيه والبعد عن الحق يقع بفعل أئمة الضلالة لأن الكلمة «**يُتَاهُ بِكُمْ**» مبنية للمجهول، أي أنهم وقعوا في التيه والحيرة إنما كان بدفع الآخرين. وأما الكلمة الثانية «**وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ**» فإنها موجهة إليهم مباشرة، يسألهم كيف يحصل لكم عمى البصيرة.

وبالجملة، فإن الاستنكار إنما وقع لأن أدلة الهدى والحق موجودة بحيث ينتظر من الناس أن ينبثق في صدورهم نور البصيرة لا العكس، وأن ينجحوا في الانحياز إلى جانب الحق وتجنب طريق الضلال.

إن عدم الإيمان باليوم الآخر لا يبقي للإنسان غير الدنيا هدفاً ونهاية لآماله وطموحاته، ولما كان هذا لا يكون إلا بالبعد عن الطريق الصحيح للمولى عز وجل (لأن هناك من الملل من يؤمن بالله الخالق ولكن لا يؤمن باليوم الآخر) فإن سبل الهداية ستكون منغلقة أمامه فيسقط في العمه، أي عمى البصيرة، بل ويحصل ما لا علاج له وهو أن الله تعالى يتركه وما اختار ﴿**فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون**﴾ يونس:11.

تشخيص أئمة الهدى

وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ

هنا يحدد الإمام(ع) الأعلام القائمة والآيات الواضحة والمنار المنصوبة التي ينتظر من الناس أن تهتدي إليها وتنجح في تفادي الانحراف عنها. ولنذكر أولاً ما قيل في تشخيص هذه العترة، ذلك لأن الانحراف الذي حصل في الأمة جعل أهل الحق في حاجة إلى تبيان الواضحات. قال ابن أبي الحديد في شرحه[3] أن "عترة رسول اللّه(ص): أهله الأدنون ونسله، وليس بصحيح قول من قال أنهم رهطه وإن بعدوا، وإنما قال أبو بكر يوم السقيفة أو بعده "نحن عترة رسول اللّه(ص) وبيضته التي تفقأت عنه" إنما كان موجوداً على طريق المجاز، لأنهم بالنسبة إلى الأنصار عترة له، لا في الحقيقة. ألا ترى أن العدناني يفاخر القحطاني فيقول له: أنا ابن عم رسول اللّه(ص)، ليس يعني أنه ابن عمه على الحقيقة بل هو بالإضافة إلى القحطاني كأنه ابن عمه، وإنما استعمل ذلك ونطق به مجازاً". إلى أن يقول: "وقد بيّن رسول اللّه(ص) عترته، لما قال: «**إني تارك فيكم الثقلين...**» فقال: «**عترتي أهل بيتي**». وبيّن في مقام آخر مَنْ أهل بيته حيث طرح عليهم كساءً. وحين نزلت ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت**﴾ الأحزاب:33 قال: «**اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب الرجس عنهم**».

ولا نريد أن نتناول هذا الموضوع هنا فقد كتبت فيه الكتب وجرت المناقشات، ولكن يكفي أن نقول أن حديث الكساء، مع غيره من الاعتبارات اللغوية، أوضح بشكل لا غبار عليه أن أهل البيت هم علي وآل علي، ولا يدخل معهم نساء النبي(ص) كما في رأي القلة القليلة من المفسرين، حيث أنه(ص) عندما نزلت آية التطهير في بيت أم سلمة(رض) وطرح الكساء على نفسه الزكية وعلى علي وفاطمة والحسنين وقال: «**إن هؤلاء أهل بيتي**» أرادت أم سلمة أن تدخل معهم فجذب(ص) الكساء فقالت: ألست من أهل البيت؟ قال: «**أنت من أزواج**

---

[3] شرح نهج البلاغة، شرح الخطبة موضوع البحث

النبي›› ثم أردف: ‹‹**وأنت إلى خير**››. فأثبت بذلك أمرين: الأول أن النساء غير داخلات في الآية: والثاني أن أم سلمة(رض) عاقبتها إلى خير وبالتالي دفع أية شبهة كان من الممكن أن ينطلق منها بعض المشككين بأنه إنما لم يدخلها تحت الكساء لأنها غير مرضي عنها تماماً.

وقد أخرج المحدثون الأحاديث الكثيرة التي شخص فيها النبي(ص) العترة، منها قول رسول اللّه(ص): ‹‹**من سره أن يحيا حياتي ويموت مماتي ويسكن جنة عدن غرسها ربي فليوالِ علياً من بعدي، وليوالِ وليه، وليقتدِ بالأئمة من بعدي، فإنهم عترتي، خلقوا من طينتي، ورزقوا فهماً وعلماً** – وفي رواية **ورزقوا فهمي وعلمي** – **فويل للمكذبين بفضلهم من أمتي القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي**››[4]. وهذا الحديث يحدد أن العترة هم الأئمة(ع).

وقد شخص علي(ع) دليل الهدى هذا، وهو عترة النبي(ص) في مواضع أخرى في نهج البلاغة، منها: ‹‹**أنظروا أهل بيت نبيكم فألزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى؛ فإن لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا**››[5]. وجاء أيضاً قوله: ‹‹**نحن شجرة النبوة، ومحط الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينابيع الحكم**››[6]. وقوله(ع): ‹‹**وعندنا أبواب الحكم، وضياء الأمر**››[7].

وقوله(ع): ‹‹**نحن النمرقة الوسطى، التي يلحق بها التالي وإليها يرجع الغالي**››[8]. والنمرقة الوسادة الصغيرة، والمعنى: "أن كل فضيلة فإنها مجنحة بطرفين معدودين من الرذائل، والمراد أن آل محمد عليه وعليهم السلام هم الأمر المتوسط بين الطرفين المذمومين، فكل من جاوزهم فالواجب أن يرجع إليهم، وكل من قصّر عنهم فالواجب أن يلحق بهم"[9].

---

[4] حلية الأولياء، ج 1، ص 86؛ وينابيع المودة، باب 43، ص 379، حديث 2

[5] نهج البلاغة، الخطبة 96

[6] نهج البلاغة، الخطبة 108

[7] نهج البلاغة، الخطبة رقم 119

[8] نهج البلاغة، الموعظة 106

[9] شرح ابن أبي الحديد لهذه الموعظة

دور العترة النبوية

وَهُمْ أَزِمَّةُ الْحَقِّ، وَأَعْلامُ الدِّينِ، وأَلْسِنَةُ الصِّدْقِ

بعد أن بيّن أمير المؤمنين(ع) أن الأمان من العمى والذهاب في حيرة الضلالة هو وجود عترة النبي(ص) في الأمة، طفق(ع) يصف هذه العترة بأوصاف تبيّن دورها في الأمة. وهنا ثلاث صفات:

أولاً: «**أَزِمَّةُ الْحَقِّ**» – كما ذكرنا أن الزمام هو ما يشد به أو هو المِقْود، وعندما تأتي في وصف الناس والأشخاص فإن الزمام هو الذي يقدمه القوم أمامهم، وبالتالي فإن عترة النبي(ص)، وهم الأئمة من أهل البيت، هم المِقْود في هذه الأمة. وعندما يعبر عنهم بأنهم «**أزمّة الحق**» فكأن الحق يحتاج إلى من يقود الناس به وإليه، أو أن الحق يحتاج إلى من يشد عليه لكي يضمن السير على طريقه المستقيم فلا يذهب يمنةً أو يسرة ولا يتبع السبل فتتفرق بهم عن سبيله كما عبّر القرآن الكريم، فإن هؤلاء الأئمة(ع) هم الذين يشدون الناس إلى الحق. ولكن من الممكن أن يكون الحق بمثابة الدابة وأن الأئمة بمثابة زمام الدابة وأن الناس بمثابة الراكب، فهنا بدون الزمام فإن هذا الراكب معرض للسقوط والأذى، وحتى إذا بقي راكباً فإنه يبقى في وضع قلق غير مستقر. وربما أن السبب في ذلك أن الحق، وهو ها هنا الدين، فيه من الخفايا وفيه من الأمور الصعبة التي تكون عامل قلق أو حتى فتنة للناس إذا تمّ التعرض لها أو الأخذ بها دون قيادة معصومة عالمة عارفة بما يراد. قد ورد عن رسول الله(ص) في الحديث المشهور: «**إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق**»، كما سيأتينا في الفقرات القادمة قولُه(ع) «**فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ**».

وبالتالي فإن شئت أن تكون العترة هي الزمام الذي يُمكّن الناس من الاستقرار في أمر الدين وفي أمر الحق فلا يميل يمنة أو يسرة ولا يسقط ولا يترك الحق ولا يتعرض إلى

الأذى فهو ممكن، وإن شئت أنهم هم الذين يشدون الناس إلى الدين وإلى الحق كقيادة فهو ممكن أيضاً، وهما كما ترى متشابهان بعض الشيء.

ثانياً: «**وَأَعْلامُ الدِّين**» – سبق أن ذكرنا أن العلم هو الراية التي يجتمع إليها الناس وهو الذي يرفع على الرمح، أو هو سيد القوم ورئيسهم، فبالتالي أن عترة النبي هي العلم، والأئمة من هذه العترة هم الأعلام الذين يدلون الناس إلى الدين بفقهه وأخلاقياته وأصوله. وهكذا فإن الإمام(ع) عندما يقول أن العترة هم أعلام الدين وقبلها قال أن «**الأعْلامُ قَائِمَةٌ فأَيْنَ تَذْهَبُونَ وأَنَّى تُؤْفَكُون**» إنما يقول لهم أن وجود الأئمة ووضوح شخوصهم ووضوح دورهم مما لا يمكن معه أن يتيه الناس في الضلال فيصرفون عن الحق ويذهبون عنه بعيداً ويتاه بهم عنه من قِبل أئمة الضلال.

ثالثاً: «**وألْسِنَةُ الصِّدْق**» – الصدق مفهوم غير مادي، وإن كان متعلقاً بالماديات حيناً وبالمعنويات حيناً آخر. ولا يبدأ الصدق بأداء دوره إلا عندما يخرج إلى الخارج، فكأن الصدق يحتاج إلى مركب لكي يُعرف، وهذا المركب من الممكن أن يكون صفحة في كتاب أو كلمة في تسجيل أو كلمة على لسان إنسان. هنا يقول أمير المؤمنين(ع) أن أصدق مصاديق هذا الصدق ومن يتلفظون به هم عترة النبي(ص) فهم «**ألْسِنَةُ الصِّدْق**»، أي كأنه يشبه الصدق بشيء مادي له لسان أو ألسنة والوصل ما بين الصدق بمفاهيمه أو بحقائقه والناس هم الأئمة(ع).

ومن المناسب هنا أن نذكر بسرعة بعض الأحاديث عن عترة النبي وعلاقتهم بالحق وبالصدق. فقد أخرج الترمذي[10] أن رسول الله(ص) قال: «**رحم الله علياً، اللهم أدر الحق معه**

[10] صحيح الترمذي، ج 2، ص 298، حديث 3798. وقد علق الترمذي على الحديث بالقول: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وها ئنذا أدرج تمام الحديث برواية الترمذي هذه لنرى إن كان الحديث غريباً. حدثنا أبو الخطاب زياد بن يحيى البصري أخبرنا أبو عتاب سهل بن حماد أخبرنا المختار بن نافع أخبرنا أبو حبان التيمي عن أبيه عن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رحم الله أبا بكر، زوجني ابنته، وحملني إلى دار الهجرة، وأعتق بلالاً من ماله. رحم الله عمر يقول الحق وإن كان مراً، تركه الحق وماله صديق. رحم الله عثمان تستحييه الملائكة. رحم الله علياً؛ اللهم أدر الحق معه حيث دار». ونحن نسأل الترمذي: لماذا اعتبرت الحديث غريباً؟ ألست تؤمن – كما يعرف جميع الخلق – بأن أبا بكر زوج النبي(ص) ابنته

حيث دار››. وأخرج الخطيب البغدادي[11] حديثاً عن أم سلمة(رضي الله عنها) أنها قالت سمعت رسول اللّه(ص) يقول: ‹‹**علي مع الحق والحق مع علي ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض**››.

وفي الدر المنثور للسيوطي في آخر تفسير الآية الكريمة ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾ التوبة:119 أن ابن مردويه أخرج عن ابن عباس أنه قال: مع علي بن أبي طالب(ع). وأخرج مثله الحافظ ابن عساكر.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أننا عندما نأتي بالحديث عن علي(ع) ونحن نتكلم عن العترة بشكل عامٍ والأئمة جميعاً فذلك لأنه إن قام الدليل على دورٍ معينٍ خاصٍ للإمام علي بصفته إماماً فإن هذا الدور يجري لباقي الأئمة من ولده(ع). فإن دوره كإمام ليس كصفة ربما تطلق عليه لا على غيره. فمثلاً عندما نقول أن علياً(ع) هو نفس النبي استناداً إلى آية المباهلة ﴿**فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعو أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم**﴾ آل عمران:61 فإن المقصود بها علي(ع) فحسب، فهي صفة له دون غيره. وعندما نقول "علي أمير المؤمنين" ولا نطلقها على أحد من أولاده فلأن النصوص جاءت بأن ذلك له فحسب. أما الأدوار التي له كإمام للناس

وكان معه في طريق الهجرة (بغض النظر عن أن أبا بكر هو الذي يشكر اللّه على مصاهرته النبي(ص) لا العكس، وبغض النظر عن أننا لا نفهم معنى أن أبا بكر حمل النبي(ص) إلى دار الهجرة)، وتؤمن بأنه أعتق بلالاً من ماله؟ ألست تؤمن بأن عمر يقول الحق وإن كان مراً ولا يخاف في اللّه لومة لائم، وأنه ماله صديق بسبب ذلك (وهي عبارة وردت على لسان علي(ع) كما نعلم)؟ ألست تؤمن بأن عثمان تستحييه الملائكة (بغض النظر عن أني شخصياً – شهد اللّه – لا أفهم معنى ذلك)؟ إذاً، يمكن القول أن الغرابة في الحديث هي لأجل القول في علي ‹‹اللهم أدر الحق معه حيث دار›› وذلك لمعرفة الترمذي أن الحديث ينطوي على أمرين: الأول أن الدعاء مستجاب لأنه دعاء النبي(ص)، والثاني هو – لأن الدعاء مستجاب بالقطع – فإن علياً(ع) لا يمكن أن ينحرف عن الحق مطلقاً، وفي هذا تعريض بكل من خالفه أو ناوأه أو حاربه أو عاداه، بل ويشير بشكل واضح إلى عصمته(ع) التي يرفضها علماء مدرسة الخلافة ومحدثوهم. لهذا، استغرب الترمذي رحمه اللّه هذا الحديث. وإني شخصياً أتعاطف مع الترمذي في ذلك، لأن مثل هذا يمس الكثير مما يعتقد به. أقول، ليس مناقشة طريقة بعض المحدثين في تضعيف الأحاديث هي موضوع بحثنا، ولكن أردت أن أوجه النظر إلى من يقرأ مثل هذه التعليقات أن ينظروا بعين الناقد لا المتلقي دون تفكير، فإنهم قد نجحوا في أن يختلط الحابل بالنابل.

[11] تاريخ بغداد، ج 14، ص 321، حديث 7643

بعد رسول الله(ص) والهادي لهم وحجة الله على خلقه فإن ذلك لأولاده أيضاً. وبالتالي فعندما نقول أن ‹‹**علياً مع الحق والحق مع علي**›› فإن ذلك يعني أن الحسن مع الحق والحق مع الحسن، وأن الحسين مع الحق والحق مع الحسين، وهكذا إلى آخر الأئمة. وعندما نقول أن الصادقين في الآية الكريمة تنطبق على أئمة من أهل البيت فإن ذلك جاء من أن علياً مصداق الآية الكريمة لعصمته المنبثقة من إمامته، وهذا هو شأن الأئمة من أولاده(ع)، وبالتالي فإن الأحاديث التي أعلنت هذا الدور لعلي تنطبق على باقي الأئمة من أهل البيت.

ويصف الإمام علي(ع) عترة النبي(ص) بصفات ربما ترسم صورة أكثر تفصيلاً لهم، فيقول[12]: ‹‹**هم عيش العلم، وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقهم. لا يخالفون الحق، ولا يختلفون فيه. وهم دعائم الإسلام، وولائج الاعتصام. بهم عاد الحق إلى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته. عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية، لا عقل سماع ورواية، فإن رواة العلم كثير، ورعاته قليل**››. وموضع الشاهد هنا أن الأئمة هم دعائم الإسلام، وهذه الدعامة هي – كما وردت أيضاً في خطب أخرى – ولائج الاعتصام، أي أنهم هم المواضع التي يعتصم بها ويستتر فيها من الضلال ومن الباطل ومن التيه ومن العمى. وربما يعلّل الإمام(ع) ذلك بقوله أنهم تلبسوا بالدين بأمرين: الأول وعايتهم له أي معرفة من وعى الشيء وفهمه وأتقنه، والثاني حفظه ورعايته أي حفظه وحياطته كأنهم هم الحراس، حراس العقيدة، إضافة إلى كونهم خزنتها. ويقول بأن ذلك ليس كالآخرين الذين إنما أخذوا بشكل سماعي ورددوه ربما بلا حفظ كامل لما تلقونه.

[12] نهج البلاغة، الخطبة 239

الإقبال على الأئمة

وَرِدُوهُمْ وُرُودَ الْهِيمِ الْعِطَاشِ

نعيد ثانية توجيه نظر القارئ الكريم إلى أن الفقرة التي تسبق هذه أي «**فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن**» سنبحثها في آخر البحث لأنها هي الموضوع الأساسي هنا.

بعد أن يبين الإمام(ع) دور عترة النبي(ص)، وأنها هي مصداق الأعلام القائمة والآيات الواضحة والمنار المنصوبة، ويقول بأنهم أزمّة الحق وأعلام الدين وألسنة الصدق، يطلق نصيحته الذهبية للناس حول كيفية التعامل مع هذه العترة، فينصحهم بأن ينـزلوهم بأحسن منازل القرآن – وهو ما سنتكلم عنه في آخر البحث كما قلنا – وأن يردوهم كما ترد الإبل العطشى الماء.

إن الإبل العطشى عندما تبحث عن الماء ثم تجده ستأتي إليه على الشكل التالي: أولاً، تذهب إليه مسرعةً، وهذا يعني أن الإمام(ع) ينصح بعدم التسويف وعدم تضييع الوقت وعدم الكسل عن طلب العلم والحق والصدق، وإنما الإسراع في طلبه. أما لماذا، فأولاً لأن الإنسان المسلم الذي يريد أن يكون على الجادة الوسطى، جادة الحق، فإنه يريد أن يكون على ذلك في حياته لكي يضمن القيام بالتزاماته تجاه اللّه سبحانه وتعالى وتجاه الناس على الوجه الصحيح. وأما ثانياً فلأن الإنسان لا يدري متى يحين أجله، أو حسب تعبير أمير المؤمنين «**فإن العبد لا يدري متى يؤخذ**»[13]، فبالتالي إن الإسراع في الوقوف على الحق والصدق والدين مما لا نقاش حوله حتى لا تذهب النفس حسرات يوم القيامة.

ثانياً، تذهب الإبل العطشى وهي مقبلة بتركيز تام على مصدر الماء. بمعنى أنها لا تنظر يمنة ولا يسرة وإنما هدفها ذلك المعين الذي وجدته. أي أن الإمام(ع) ينصح الناس

[13] الخصال، الشيخ الصدوق، ص 619

بالانقطاع إلى عترة النبي(ص)، فإنه إذا أراد أن يحصل على العلم الصحيح وأن لا يزيغ عن الحق فإنه حري به أن ينقطع إليهم ولا يخلط مع علومهم من غيرهم أو يشيبها بشيء به، لأن ذلك معناه إما أن علومهم تحتاج إلى من يُكْمِلها، وهذا لا نعتقد به لأننا نعتقد أنهم قاموا بواجبهم رغم الظروف الصعبة التي مرت بهم ورغم كل محاولات التحجيب والتضييق التي تعرضوا إليها، أو أن هناك فسحة للمرء أن يختار إما منهم وإما من غيرهم، وهذا غير متيسر لأن الأوامر الإلهية جاءت بالركون إليهم كما في قوله تعالى: ﴿**وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ النساء:59 وقال: ﴿**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون. ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم المفلحون**﴾ المائدة:55-56؛ وهذا لا يدع مجالاً للأخذ من غيرهم. وفي الحديث الشريف أن رسول اللّه(ص) قال: ‹‹**مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق**›› كما في مستدرك الصحيحين[14] وغيرها الكثير من المصادر التي جاءت بخبر السفينة، وغير ذلك كثير. كما أنهم(ع) لم يسمحوا بأن يختار الإنسان حسب هواه وحذروا من ذلك، حتى أن الإمام الباقر(ع)، عندما ذكر له قول الحسن البصري بخصوص كتمان العلم، قال: ‹‹**فليذهب الحسن يميناً وشمالاً فوالله ما يوجد العلم إلا هاهنا**››[15]. وبالتالي فإن الإمام ينصح الناس بأن يتوجهوا بانقطاع تام وبرجاء كامل في أخذ ما يحتاجونه في أمر دينهم من عترة النبي(ص).

ثالثاً، عندما تصل الإبل العطشى أو الهيم العطاش إلى الماء فإنها تشرب منه حتى ترتوي. وهذا يعني أن المرء حري به أن يأخذ من علوم أهل البيت حتى يرتوي. عندما نقول حتى يرتوي فإننا نضع نصب أعيننا أمرين: الأول هو أنه يأخذ ما يكفيه لتحقيق الالتزام الصحيح في أمور دينه وليس أقل من ذلك، أما الثاني فإنه يأخذ فيما عدا ذلك حسب مزاجه وكفاءته وظروفه، بمعنى أنه عندما يأتي الأمر إلى السنن والمستحبات فإنه سينهل منها بحسب طاقته وظروفه ومزاجه.

---

14 مستدرك الصحيحين، ج 2، ص 343

15 المحتضر، حسن بن سليمان الحلي، ص 29

رابعاً، بعد أن يرتوي من هذه العلوم فإن المتوقع منه أن يبقى قريباً من هذا الماء، من هذا المورد، من هذا المعين، ولا يبتعد عنه كثيراً لأنه ضمان لسلامته، ضمان لحياته، فإن الحياة كل الحياة في إتباع أَزمة الحق وأعلام الدين وألسنة الصدق، قال تعالى: ﴿**استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم**﴾ الأنفال:24.

وهكذا، فإن الإمام ينصح الناس بأن يذهبوا بلا تسويف ولا تأخير وبانقطاع تام وبرجاء تام دون أن ينظروا يمنةً إلى سراب هنا أو يسرةً إلى سراب هناك، وأن يصلوا إلى ذلك المورد فينهلوا منه حتى يرتووا كي يكفيهم في أمور دينهم وزيادة بقدر ما يستطيعون، ثم يبقون على تماس قريبين من ذلك لا يذهلون عنه بعيداً ولا يخدعون منه إلى سراب وإنما يبقون حوله، فهو الضمان لهم من الموت عطشاً.

في هذا المجال يناسب أن نذكر ما جاء عن علي(ع)، كقوله: «**نحن شجرة النبوة، ومَحَطّ الرسالة، ومُختَلَف الملائكة، ومعادِن العِلم، وينابيع الحُكم**»[16]. وموضع الشاهد هنا كلمة «**ينابيع الحكم**»، فإن الينبوع هو كما ورد للماء المشار إليه في كلمته «**وَرِدُوهُمْ وُرُودَ الْهِيمِ الْعِطَاش**».

وورد عنه(ع)[17]:«**نحن الشّعار والأصحاب، والخَزَنة والأبواب، ولا تؤتى البيوت إلا من أبوابها، فمن أتاها من غير أبوابها سمّي سارقاً**». وموضع الشاهد هو «**الخزنة والأبواب**»، فهم خزنة العلم، فالذي يبحث عن العلم والذي يريد أن يهتدي إلى الحق فلا بد له من أن ينطلق إلى حيث خزائن هذه العلوم لا إلى مكان آخر.

أيضاً فإن أمير المؤمنين يعلم بأن هذه الأبواب إنما هي أبواب البيوت التي لا يجوز أن تؤتى إلا منها، فعليه إذا أراد إنسان أن يصل إلى حقائق الدين، التي نزل بها القرآن الكريم وبيّنها رسول الله(ص)، من طريق آخر غير طريق العترة، فكأنما يريد أن يقوم

---

[16] نهج البلاغة، الخطبة 108

[17] نهج البلاغة، الخطبة 154

بعملية سرقة بأن يريد دخول البيت لا من الباب وإنما يتسور من مكان آخر. فإن قيل ماذا إن استطاع أن يحصل على هذا العلم من الشباك وليس من الباب، بمعنى أن الهدف هو الوصول إلى الحق فهل هناك أهمية للوسيلة؟ نقول أن النصوص الإلهية نزلت في أنه من المتعذّر الوصول إلى الحق إلا من هذا الطريق، فبالتالي كأنه ‹‹**من أتاها من غير أبوابها سمي سارقاً**››. وهذا حق ظاهراً وباطناً، أما الظاهر فلأن من يتسور البيوت من غير أبوابها هو السارق، وأما الباطن فلأن "من طلب العلم من غير أستاذ محقق فلم يأته من بابه فهو أشبه شيء بالسارق" كما قال ابن أبي الحديد في شرحه.

حديث جامع في وصف العترة الشريفة

بعد أن بينّا المراد من قوله(ع) في وصف العترة بأنهم الأعلام والمنار وأَزمة الحق وأَلْسِنَةُ الصِّدْق وأنه ينبغي للمسلمين أو يردوهم وُرُودَ الْهِيمِ الْعِطَاشِ، نأتي هنا بحديث جامع هو جزء من خطبة له(ع).

قال(ع)[18]: ‹‹**لا يُقاس بآل محمد(ص) من هذه الأمة أحد، ولا يُسَوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً! هم أساس الدين، وعماد اليقين؛ إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي؛ ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة. الآن إذ رجع الحق إلى أهله، ونقل إلى مُنتَقَلِه!**››

وهنا يصف أئمة أهل البيت(ع) بأنهم أساس الدين وعماد اليقين، فإذاً هم ما يقوم عليه البنيان، فإن البنيان يقوم على الأساس تحت الأرض ثم تصعد العُمُد التي يبنى عليها السقف، فبدونهم يتخلخل الأساس ويسقط البناء.

[18] نهج البلاغة، الخطبة 2. ومما يلفت هو قوله(ع) افتتاحاً لهذه الفقرة: ‹‹زرعوا الفجور وسقوا الغُرور وحصدوا الثُّبور››، مما يشير إلى من أدار ظهره لآل محمد(ص)، واصفاً عملهم بأنه أصله الفجور واعتماده على الغرور فكانت نتيجته الثبور فيهم وفي الأمة.

ثم يوضح أن الذي يذهب بعيداً عنهم، وهو «**الغالي**»، ينبغي أن يرجع إليهم وإلا بعُد عن الحق، وأما «**التالي**» الذي تخلف عنهم وعن ركبهم فينبغي أن يلحق بهم حتى يصير مع الحق. بمعنى أنهم المنطقة الوسطى التي فيها النجاة لمن ذهب بعيداً وأفرط أو لمن تخلف وفرّط – إذاً هم أَعْلامُ الدِّينِ والمنارُ المنصوبة إلى آخر ما ذكرنا.

وأما «**خصائص حق الولاية والوصية والوراثة**» فهذه تثبت ولايتهم على الأمة وتثبت وصيتهم لرسول اللّه ووراثتهم له كما ذكرنا فيما مضى.

وفي آخر الكلام يعلن أمير المؤمنين﴿ع﴾ أنه «**الآن رجع الحق إلى أهله ونقل إلى منتقله**»، وهنا ينبغي التفريق بين الحق المقصود هنا وبين الحق الذي هو في بحثنا. فإن الحق الذي ورد في هذا البحث هو الدين، هو المعرفة الصحيحة للحقائق الإلهية، أما الحق الوارد هنا في كلمته «**رجع الحق إلى أهله**» فيعني مقام التصدي للمجتمع في دوره كإمام حقٍ فيه خصائص الولاية والوصية، أي رجع حق الخلافة إلى من له الحق في الإمامة والخلافة؛ ذلك أن الحق الذي يعني المعرفة الصحيحة للدين لا يذهب ولا يعود، بمعنى أن الأئمة من أهل البيت لم يستطع، ولا يستطيع، أحد أن يسلبهم ذلك لأنه خلاف المقدور، ولذا لم يدع أحد من معاصريهم ذلك أبدًا، بخلاف حق التصدي للخلافة والإمامة العامة على المجتمع، فهي يمكن أن تمنع، وقد منعت فعلاً (بخلاف ما يقل عن ست سنوات هي مجموعة خلافة أمير المؤمنين وابنه الحسن عليهما السلام). علماً أن هذا الكلام كان منه بعد أن بويع بالخلافة سنة 35 هجرية.

دورهم الخالد

أَيُّهَا النَّاسُ: خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيينَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ، وَيَبْلَى مَنْ يَلِيَ مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ

هنا يجذب أمير المؤمنين(ع) انتباه الناس بقولته ‹‹**أَيُّهَا النَّاس**››، ثم يقول: ‹‹**خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيينَ صَلَّى اللهُ عَلَيْه**›› وذلك لأن ما سيقوله ربما يستغربه البعض ويستهجنه آخرون وينكره غيرهم أيضاً، لذلك قال ما قال كناقلٍ عن النبي(ص). ثم قال: ‹‹**إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّت**›› والتي فسرها الشيخ محمد عبده في شرحه المختصر لنهج البلاغة بالقول: "إنه يموت الميت من أهل البيت وهو في الحقيقة غير ميت لبقاء روحه ساطع النور في عالم الظهور". وهذه الكلمة ربما ليست بالوضوح التام، فنقول إن الموت يصيب جميع البشر دون استثناء وذلك لقوله تعالى: ﴿**إنك ميت وإنهم ميتون**﴾ الزمر:30، وقوله تعالى: ﴿**أفئِن مات أو قتل**﴾ آل عمران:144. وبالتالي فإن الموت الذي يصيب عامة البشر يصيب النبي(ص) وأهل بيته(ع)، إذاً ما معنى بأنه ميت وليس بميت، وما معنى قول الشيخ محمد عبده بأنه تبقى روحه ساطع النور في عالم الظهور؟

نحن نؤمن بأن النبي(ص) وأهل البيت(ع) هم سادة الشهداء، بمعنى الذين يشهدون على الناس وعلى الأمة بما صنعت في واجباتها الدينية. بل إن رسول اللّه(ص) يشهد على جميع الأمم كونه الشاهد على شهداء الأمم وهم الأنبياء(ع) لقوله تعالى: ﴿**فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا**﴾ النساء:41. فبما أن النبي(ص) شاهد على الناس، وأن الأئمة من أهل بيته شهداء على الناس من بعده من ضمن مقام إمامتهم وقيادتهم وكونهم حجج اللّه على خلقه، إذاً لا بد أنهم بعد موتهم يشهدون أفعال الناس

وذلك بتمكين اللّه سبحانه وتعالى لهم بما لا وجود له لغيرهم من البشر، اللهم في ما عدا الذين يقتلون في سبيل اللّه حيث يطلعهم اللّه تعالى على بعض ما يجري في الدنيا وذلك قوله: ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عن ربهم يرزقون. فرحين بما أتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ آل عمران:169-170.

ونستطيع أن نتناول هذه الكلمة بشكل معاكس فنقول: إذا آمنا بقول أمير المؤمنين(ع) المنقول عن رسول اللّه(ص) ‹‹**إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنهم وَلَيْسَ بِمَيِّت**›› فلا بد أن يكون ذلك لسبب ولحكمة عند اللّه تعالى؛ وهذه الحكمة نستطيع أن نقول أنها تتعلق بشهادة هذا الميت على الناس، لأن شهادته عليهم إطلاعه على ما يقومون به إنما يجعله غير ميتٍ في واقع الأمر. أي أن هذه الكلمة تثبت لهم مقام الشهادة على الناس.

ثم قوله ‹‹**وَيَبْلَى مَنْ بَلِيَ مِنَّا وَلَيْسَ بِبَال**››، فإن هذا يحتمل الوجهين: أما أن أجسادهم الشريفة لا تتعرض للبلى في القبور، وهذا ما لا نعرفه بالمشاهدة، وإن كان قيل بأن الشهداء أو الذين يقتلون في سبيل اللّه عموماً لا يجري عليهم ما يجري على الآخرين ولكن هذا غير مثبت. وأما أنه يعني شيئاً مشابهاً أو توكيداً للكلمة التي قبلها وهو ‹‹**إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنهم وَلَيْسَ بِمَيِّت**›› أي أنه لا يبلى من الذكر ولا ينتهي دوره في الحياة.

التوقف عند الجهل

فَلاَ تَقُولُوا بِمَا لا تَعْرِفُونَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ

هنا يوجه أمير المؤمنين(ع) نصيحة أخرى بأن يتوقف المرء عن أي يدلو بدلوه في شيء يجهله إجمالاً أو تفصيلاً، وذلك لأن أكثر الحق هو في داخل الأمور التي ينكرها ويجحدها ويستغرب منها الناس.

وإن كان الشيخ محمد عبده قد جعل تفسير ذلك بالقول: "الجاهل يستغمض الحقيقة فينكرها وأكثر الحقائق دقائق" جاعلاً الأمر يتعلق بمن يمكن أن يطلق عليه صفة الجهل، إلا أن النصيحة تبدو عامة للجميع حيث أن الأمور التي ربما يشير إليها أمير المؤمنين(ع) هي أمور متعلقة ببعض حقائق الدين التي يصعب تفسيرها بحسب محدودية عقول الناس. ومن ذلك منـزلة الأئمة(ع) بحيث لا يتمكن الناس أو أكثر الناس من الوصول إلى التقييم الحقيقي لمنازلهم وأدوارهم. بل أكثر من ذلك سيكون مستغرباً وربما مستهجناً عندما يتم التعرف عليه. والأمر يبدو واضحاً إذا نظرنا إلى التشكيك الذي حصل عبر التاريخ وإلى الآن في خصوص فضائل الإمام علي وأولاده(ع). ولعل البعض قد قرأ كيف رد حذيفة بن اليمان(رضوان الله عليه) على مالك بن ربيعة السعدي الذي جاء يسأله عن فضائل علي(ع) فعندما قال له حذيفة بأن أعمال أمة محمد(ص) كلها لا تعدل عملاً واحداً لعلي(ع)، قال الرجل: "هذا المدح الذي لا يقام له ولا يقعد! إني لأظنه إسرافاً يا أبا عبد اللّه! عندها أجابه حذيفة بالقول: يا لُكَع! وكيف لا يحمل؟ وأين كان المسلمون يوم الخندق وقد عبر إليهم عمرو وأصحابه، فملكهم الهلع والجزع، فدعا (عمرو) إلى المبارزة فأحجموا عنه، فبرز إليه علي فقتله؟ والذي نفس حذيفة بيده لعمله ذلك اليوم أعظم أجراً من أعمال أمة محمد(ص) إلى هذا اليوم وإلى أن تقوم القيامة!"[19] مشيراً إلى قوله

[19] شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد، ج 5، ص 513

تعالى: ﴿**إذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً**﴾ الأحزاب:10-11.

بل إن النبي(ص) كان يتوجس أحياناً من أن يظهر فضائل أمير المؤمنين(ع) إلى الناس لأنهم سيرفضون ذلك، أو لأن بعضهم سيرفض ذلك والبعض الآخر ربما يذهب بها في خط المغالاة فيه(ع)، حتى ورد حديث النبي(ص) لعلي(ع): ‹‹**لولا أن تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك اليوم مقالا بحيث لا تمر على ملأ عن المسلمين إلا أخذوا من تراب رجليك وفضل طهورك يستشفون به ، ولكن حسبك أن تكون منى وأنا منك ، ترثني وأرثك ، وأنت منى بمنـزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**››[20].

ونحن ربما لا نستطيع أن نفهم، وأشك أن هناك فهماً واضحاً لوصف علي(ع) بأنه نفس النبي(ص) كما في آية المباهلة حيث تصعب المزاوجة ربما بين كون النبي(ص) سيد البشر الذي لا يدانيه أحد في فضيلة ولا يقاربه أحد في منـزلة ومع ذلك يكون علي(ع) نفس النبي(ص)، لذلك يكون من الصعب على الناس قبول هذا الأمر.

فهنا يقول الإمام(ع) أنه ينبغي على الإنسان أن يتوقف عندما يجهل الأمور. وهنا نجد نصيحة له(ع) عامة من ضمن خطبة الأشباح حيث يقول: ‹‹**فانظر أيها السائل: فما دلّك القرآن عليه** - أي اللّه سبحانه وتعالى – **من صفته فائتمّ به، واستضئ بنور هدايته، وما كلفك الشيطان علمه، مما ليس في الكتاب عليك فرضه، ولا في سنة النبي صلى اللهُ عليه وآله وسلم وأئمة الهدى أثره، فكِلْ علمه إلى اللهِ سبحانه، فإن ذلك منتهى حقِّ اللهِ عليك**››[21].

---

[20] ينابيع المودة، ج 1، ص 200

[21] نهج البلاغة، الخطبة 90

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

الفصل الثالث

علي(ع) وأداء الواجب كاملاً

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

علي(ع) وأداء الواجب كاملاً

وَأعْذِرُوا مَنْ لا حُجَّةَ لَكُم عَلَيْهِ، وهُوَ أَنَا

يقول لهم الإمام(ع) أنه ينبغي أن يستشعروا أنهم لا يجدون من لوم أو مؤاخذة عليه(ع) حيث أنهم لا يجدوا من مأخذٍ عليه في أداء دوره وواجبه. فقد أدى دوره كاملاً ونصح لهم وجاهد وأفرغ الوسع في ذلك، فلم يعد لهم حجة لخصامه أو للومه على تقصير.

وقد نبه إلى ذلك في أماكن كثيرة من خطبه، منها قوله: «**أيها الناس: إني قد بثثت لكم المواعظ التي وعظ بها الأنبياء أممهم، وأديت إليكم ما أدت الأوصياء إلى من بعدهم**»[1].

أي إني نشرت لكم المواعظ التي تمثل واجبات الأنبياء(ع) والأوصياء(ع) ولذا قمت بدوري كاملاً.

وهنا من المناسب أن نقول بأنه من الصعب جداً على الإنسان أن يدعي أنه قام بواجبه كاملاً لأنه يعرف أنه قصّر، أو من المحتمل جداً، أو من الراجح، أو على الأقل من الممكن أن يكون قصّر في أداء واجب، أما أنه نسيه تماماً، وأما أنه قصر في أدائه بحيث لم يتمه كما يجب، وأما أنه وضع الشيء في غير موضعه، أو جاء به في غير وقته، وما إلى ذلك. وقد ورد عن بعض الخلفاء التمني بعدم القيام بأفعال قام بها[2] وما ذلك إلا لأنه لا يعرف كم استطاع أن يفعل وإلى أي مستوى، هذا ناهيك عن الأمور التي يعلم أنه ما كان يجب أن يقوم بها.

ولذلك فإن الإمام(ع) عندما يدعي هذا الإدعاء العريض بأنه لا يوجد هناك حجة لأحد عليه فإما يقول ذلك وهو يعلم عكسه أو احتمال عكسه، وهذه تهمة لم تخطر ببال أحد ولا حتى من أعدائه ومناوئيه، فقد كان مثال الصدق التام؛ وإما لأنه يعلم تماماً بأنه

[1] نهج البلاغة، الخطبة 183

[2] شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد، ج 2، ص 47، حديث أبي بكر عند موته وتمنيه عدم الهجوم على بيت فاطمة(ع) لإجبار علي(ع) ومن معه على البيعة، وتمنيه عدم إحراق الفجأة السلمي، وتمنيه أموراً أخرى.

قام بواجبه بالكامل، وهنا نستطيع أن نستعمل هذه الكلمة للدلالة على عصمته لأنها هي الملكة الوحيدة التي تمكن صاحبها من أن يدعي أداء الواجب بتمامه، بل التي تمكنه من أدائه في الأساس.

أما كيف فعل ذلك، أو ما تفصيل ذلك، فهو بالأمور السبعة التالية التي سنتناولها بإيجاز واحداً واحداً.

أولاً: العمل بالقرآن الكريم

أَلَمْ أَعْمَلْ فِيْكُمْ بِالثَّقَلِ الأَكْبَرِ

الثقل الأكبر هو القرآن الكريم وذلك بقول رسول اللّه(ص) في حديث الثقلين[3]: ‹‹**إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض**››. وبهذا أشار رسول اللّه(ص) إلى أن القرآن الكريم هو الثقل الأكبر فقدمه على الثقل الأصغر كما سيأتي.

أما الثقل فمعناه ما يتركه المرء من متاعه وحشمه وما يعود إليه، وقد عبّر النبي(ص) عن القرآن وعن أهل البيت بأنهم ثقلاه أي ما يتركه في الأمة.

كذلك فإن الثقل هو كل أمر عظيم أو نفيس أو مهم. وعلى هذا يكون رسول اللّه(ص) قد بين أن تركته في الأمة هما الأمران العظيمان كتاب اللّه وأهل بيته(ع).

أما أن القرآن الكريم هو الثقل الأكبر فذلك ربما لأمرين: الأول أنه كلام اللّه تعالى والعهد الذي بينه وبين العباد وكلمته التي ألقاها بوحيه إلى نبيه وصفيه(ص)، في حين أن أهل البيت(ع) هم العاملون بهذا الكتاب وهم الهادون الناس إلى أوامره ونواهيه وحدوده. وبهذا فإن الكتاب العزيز هو المادة التي يعمل بها أهل البيت(ع) ويهدون إليها.

في هذه الكلمة يقول الإمام(ع) بأن أول الأمور التي تجعله يدعي صادقاً بأنه أدى واجبه والأمانة التي عليه فلم يعد هناك حجة للناس عليه من لوم بتقصير أو تفويت أنه عمل بكتاب اللّه العزيز فلم يتعدّ حدوده قيد شعرة. كيف لا وقد كان المهيأ لذلك من قبل رسول اللّه(ص) حيث كان الهادي للأمة من بعده عليه الصلاة والسلام. فقد ورد في مستدرك الصحيحين[4] في تفسير قوله تعالى ﴿**إنما أنت منذر ولكل قوم هاد**﴾ الرعد:7 عن الإمام علي قال: ‹‹**قال رسول الله(ص): أنا المنذر وأنت الهادي**››. وفي تفسير الطبري[5] عن ابن عباس قال لما

---

[3] انظر الملحق: حديث الثقلين، في آخر الكتاب

[4] مستدرك الصحيحين، ج 3، ص 129

[5] تفسير ابن جرير، ج 13، ص 72

نزلت ﴿**إنما أنت منذر ولكل قومٍ هاد**﴾ وضع النبي(ص) يده على صدره فقال: ‹‹**أنا المنذر ولكل قوم هاد**›› ثم أومأ بيده إلى منكب علي(ع) فقال: ‹‹**أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون بعدي**››. وقد ذكر ذلك السيوطي[6] والفخر الرازي[7] والمتقي الهندي[8] وغيرهم.

وعلى هذا فإن علياً(ع) عمل بالقرآن كما ينبغي له وكما علمه رسول اللّه(ص). وهو المنتظر تماماً منه(ع) لأنه قد تلبس به وصار، كما قيل، قرآناً يمشي على الأرض. ويمكن الاستفادة بهذا من حديث النبي(ص) الذي رواه جملة من المحدثين، منهم الحاكم[9] الذي أخرج حديثاً عن أبي ثابت مولى أبي ذر وذكر ذهابه بعد معركة الجمل إلى المدينة ولقاءه أم المؤمنين أم سلمة(رض) التي سألته: أين كنت حين طارت القلوب مطائرها؟ فقال: إلى حيث كشف اللّه ذلك عني عند زوال الشمس، فقالت: "أحسنت، سمعت رسول اللّه(ص) يقول: ‹‹**علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا علي الحوض**››[10].

أما صاحب الصواعق المحرقة فقد رواه في رواية تجمع بين حديث الثقلين وهذا الحديث[11] أن رسول اللّه(ص) قال في مرض موته: ‹‹**ألا إني مخلف فيكم كتاب ربي عز وجل، وعترتي أهل بيتي**›› ثم أخذ بيد علي(ع) فرفعها فقال: ‹‹**هذا علي مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض فأسألهما ما خُلِّفت فيهما**››.

وعلى هذا فإنه(ع) اندك اندكاكاً في القرآن الكريم لأن التعبير أن علياً(ع) مع القرآن مفهوم بأنه مع حدود القرآن وأوامره ونواهيه وجميع ما نزل به، ولكن أن يكون القرآن معه فكأنه هو الحامل الحقيقي للقرآن، سلام اللّه عليه.

---

[6] الدر المنثور، ج 4، ص 45

[7] التفسير الكبير، ج 19، ص 13

[8] كنز العمال، ج 2، ص 441

[9] مستدرك الصحيحين، ج 3، ص 124

[10] ذكره الهيثمي في المجمع، ج 9، ص 134 حديثها وقال أن الطبراني رواه والشبلنجي أيضاً.

[11] الصواعق المحرقة، ص 75

ثانياً: الأئمة من ولده(ع)

وَأَتْرُكْ فِيْكُمُ الثَّقَلَ الأَصْغَرَ

أما الأمر الثاني الذي يقول أمير المؤمنين(ع) بأنه مما قطع حجج أي من يريد أن يعترض عليه أو يلومه عن أي تقصير أو تسويف هو أنه يترك في الأمة الثقل الأصغر. والثقل الأصغر كما في حديث الثقلين[12] هم أهل البيت(ع) ومن ضمنهم الإمام علي(ع) نفسه؛ لكنه هنا يعني أنه ترك الحسن والحسين(ع). ذلك بأنه من الثقل الأصغر الذي تركه رسول اللّه(ص) كما في حديث الثقلين عندما يغادر الدنيا فما يتركه يترك ما تبقى من الثقل الأصغر وهم الأئمة التالين أو هم ولداه الحسن والحسين، وكل إمام يعمل بكتاب اللّه وهو الثقل الأكبر ويترك الإمام الذي يليه الثقل الأصغر وهذا واضح.

ولكن السؤال هو ما الفائدة من قوله «**وَأَتْرُكْ فِيْكُمُ الثَّقَلَ الأَصْغَرَ**»، فإن الذي أوجد هذا الثقل هو اللّه سبحانه وتعالى والذي جعله ثقلاً هو رسول اللّه حيث جعله ثقلاً لنفسه أي ما يتركه في الأمة بعد رحيله، فإذاً ما الفائدة من هذا القول؟ لا بد أن يكون المعنى هو أن أمير المؤمنين(ع) يترك الحسن والحسين(ع) مشخصين كإمامين يقومان من بعده، بمعنى أنه لا يتركهما كشخصين موجودين في الحياة لأن هذا ليس له وإنما هو للّه تعالى، ولكنه يتركهما مشخصين بالإمامة من بعده، وهذا من جانب أداء عن رسول اللّه الذي أوصى بهما والذي شخصهما بقوله في الحسن والحسين(ع): «**إبناي هذان إمامان قاما أو قعدا**»[13]، ومن جانب آخر أنه يشخصهما كجزء من وظيفته أن كل إمام يعلن اسم الإمام الذي يليه.

والدليل على هذا هو أن الناس في الكوفة التي كانت عاصمة الدولة الإسلامية بايعوا الإمام الحسن السبط(ع) بعد وفاة أمير المؤمنين(ع) بلا إبطاء، فكأن الأمر مُسَلّم به دون اعتراض. ويثبت ذلك أن جميع المناطق التي كانت خاضعة لحكم علي(ع) أرسلت بالبيعة

---

[12] أنظر ملحق حديث الثقلين في آخر الكتاب.

[13] بحار الأنوار، ج 36، ص 289 و ص 325، و ج 43، ص 278

إلى الحسن(ع). فقد بايعه الناس في العراق، أي الكوفة والبصرة والمدائن وما حولها، وفي الجزيرة العربية، أي الحجاز واليمن والبحرين وغيرها، وخراسان وما بعدها، في حين بقيت خارج البيعة الأراضي التي كانت تحت سيطرة معاوية وهي بلاد الشام ومصر وما بعد مصر من شمالي إفريقيا.

إن تركة أمير المؤمنين(ع) وهي الحسن والحسين(ع) تعني أن هذا هو بعض واجباته التي كان عليه أو يؤديها بأمر اللّه ورسوله للحفاظ على الشرع الأقدس. وهنا نقول مرة أخرى أن هذه إشارة أخرى إلى عصمة الحسن والحسين(ع) لأنهما عندما يُقامان كقوام على الشريعة لا يمكن إلا أن يكونا معصومين حسب ما نعتقد لأن في ذلك وحده الضمان أن ما يخرج للناس من أحكام في الأمور الحادثة تخرج من معين صاف لا شبهة فيه، وبنفس الوقت نضمن أن هناك من يقوّم الانحراف، أي يمنع الانحراف إذا ما حصل وهو ما وجدناه في فعل الإمامين الحسنين(ع) بأجلى صوره.

إنه بتركة أمير المؤمنين(ع) ولديه الحسنين(ع) في الأمة إنما هو يستمر في أداء دوره وواجبه، حيث أن الحسنين(ع) امتداد له في حراسة الشريعة وتبيان أحكامها. ولذا فإنه لم يترك الأمة هملاً دون إمام كما أن رسول اللّه(ص) لم يتركها هملاً دون إمام بل بادر وعين لها علياً(ع) كما جاء عنه في المناسبات العديدة مما هو معروف مشهور.

عجبٌ وأيّ عجب

رووا أن النبي(ص) قال[14]: ‹‹**فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين بعدي، عضّوا عليها بالنواجذ**››. ولا نريد هنا إيراد مناقشة صحة هذا الحديث المشهور[15]، ولكن نريد منه ما يتعلق بخلافة الإمام الحسن بن علي(ع).

---

[14] المستدرك، الحاكم، ج 1، ص 95، وسنن البيهقي، ج 10، ص 114، وغيرهما

[15] أنظر مثلاً مناقشة العلامة السيد مرتضى العسكري، حيث ذهب رحمه اللّه تعالى إلى عدم صحة الحديث بسبب علل عديدة فيه: (1) أن لفظ "الخليفة" لم يستخدم لوحده بمعنى الحاكم في زمن النبي(ص)، وبأن وصف الخلفاء الأربعة بالراشدين إنما كان بعد استخلاف بني أمية وبني العباس وذلك للتفريق بين هؤلاء وأولئك (2) أن الحديث يجعل سنة الخلفاء في مقابل الكتاب والسنة عند الاختلاف (حيث صدر الحديث) وهذا مستحيل

ورووا – وهو حديث مشهور – أن النبي(ص) أخبر بأن الأمر بعده سيتحول من خلافة تستمر ثلاثين سنة إلى ملك عضوض. روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث سعيد بن جهمان عن سفينة مولى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: ‹‹**الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً عضوضاً**››[16].

كانت خلافة الإمام الحسن(ع) حوالي سبعة أشهر بعد مقتل أبيه(ع) وحتى الصلح مع معاوية بن أبي سفيان وانتقال الخلافة إليه. وكما ذكرنا أعلاه، فإن الحسن(ع) بويع بالخلافة من جميع الولايات التي كانت تحت سلطة أبيه، بمعنى أنه بايعه الذين كانوا راضين بخلافة علي(ع) سواءً أكانت بالرضا القلبي والظاهري أم بالرضا الظاهري نتيجة البيعة كما كان يحصل. بل إنه(ع) إعتبر أن "المسلمين" بايعوه، أعني ليس قسماً منهم. فهو(ع) يقول في رسالته إلى معاوية[17]: ‹‹**إنّ علياً لما مضى لسبيله ـ رحمةُ الله عليه يوم قبض ويوم منّ الله عليه بالإسلام ويوم يبعث حيّاً، ولاّني المسلمون الأمر بعده**››. ويؤكد فيها أحقيته بالخلافة بقوله: ‹‹**فدع التمادي في الباطل، وادخل في ما دخل فيه الناس من بيعتي، فإنّك تعلم أنّي أحق بهذا الأمر منك عند الله، وعند كلِّ أوّاب حفيظ، ومن له قلب منيب. واتق الله، ودع البغي، واحقن دماء المسلمين، فوالله ما لك من خير في أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه به، وادخل في السِّلم والطاعة، ولا تنازع الأمر أهله ومن هو أحق به منك**››[18].

عليه(ص) (3) لا يمكن أن يأمر النبي(ص) بالتناقض لأن الخلفاء الأربعة تناقضوا في أحكامهم. أنظر معالم المدرستين، ج 2، ص 233.

[16] نقلاً عن تفسير ابن كثير، ج 3، ص 312

[17] شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد، ج 16، ص 34

[18] هذا، بعد أن أكد(ع) على أحقية أهل البيت(ع) في خلافة النبي(ص)، حيث قال في تلك الرسالة – بعد ذكر النبي(ص) وحسن بلائه في تبليغ رسالة ربه: ‹‹فلما توفي، تنازعت سلطانه العرب، فقالت قريش: نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه، ولا يحل لكم أن تنازعونا سلطان محمد وحقّه، فرأت العرب أنّ القول ما قالت قريش، وأنّ الحجّة لهم في ذلك على من نازعهم أمر محمد، فأنعمت لهم، وسلّمت إليهم. ثم حاججنا نحن قريشاً بمثل ما حاججت به العرب، فلم تنصفنا قريش إنصاف العرب لها؛ وأنّهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالإنصاف والاحتجاج، فلما

هذا من جانب. ومن جانب آخر فإن النبي(ص) توفي – أرواحنا فداه – في 12 ربيع الأول عام 11 للهجرة (وهو ما أجمع عليه مؤرخو أهل السنة مع الشيخ الكليني صاحب الكافي من الشيعة)، ولما كان مقتل علي(ع) في 21 رمضان عام 40 للهجرة، فإن الثلاثين سنة التي أخبر بها النبي(ص) قبل الملك العضوض لم تتم، حيث أن المدة ما بين هذين اليومين، يومي المصيبتين الكبريين، تساوي 29 سنة و 6 أشهر أو تزيد قليلاً. لذا، فإن مدة خلافة الإمام الحسن(ع)، وهي حوالي ستة أشهر، هي التي تكمل الثلاثين سنة التي أخبر عنها النبي(ص). وهو ما قال به المناوي[19]: "فلما بويع له بعد أبيه وصار هو الإمام الحق مدة ستة أشهر تكملة للثلاثين سنة التي أخبر المصطفى صلى اللّه عليه وسلم أنها مدة الخلافة وبعدها يكون ملكاً عضوضاً".

إذاً لماذا أحجم المؤرخون عن أن يسموا الإمام الحسن(ع) بالخليفة الراشدي الخامس؟ فهم يعدون أبا بكر وعمر وعثمان وعلي(ع) أنهم الخلفاء الراشدون المهديون حسب تفسيرهم لحديث رسول اللّه، فما السبب في أن الحسن(ع) لا يعد الخليفة الراشدي الخامس؟

وهنا ربما يجيب البعض بأن الأمر لم يتم له. ولكن هذا مردود بأنه استمر في الخلافة على جميع الأراضي التي أرسلت إليه بالبيعة تمام المدة التي بقي فيها حتى الصلح مع معاوية.

وإن قيل أن الأمر لم يكن تاماً له، فإن ذلك مردود بأن أباه علياً(ع) لم يكن له الأمر تامًا مطلقاً، فإنه عندما بويع بعد مقتل عثمان أرسلت له جميع الولايات بالبيعة ما عدا الشام التي بقي معاوية فيها رافضاً لأن يبايع علياً. ثم بعد ذلك سقطت مصر بيد عمرو ابن العاص وقتل محمد بن أبي بكر(رض) وخرجت مصر وربما ما بعدها من إفريقيا عن سلطة علي(ع)، ومع ذلك لم يقل أحد أن علياً انتهت صفته أنه من الخلفاء الراشدين.

وإن أجاب أحد بأن جرى العلماء على تسمية الخلفاء الراشدين الأربعة ثم سكتوا بعد ذلك فلا يوجد هناك خليفة راشدي خامس، نقول بأنهم سموا عمر بن عبد

صرنا آل بيت محمد وأولياءه إلى محاجتّهم وطلب النصف منهم، باعدونا، واستولوا على الخلافة بالاجتماع على ظلمنا ومراغمتنا والعنت منهم لنا. فالموعد اللّه، وهو الوليّ النصير».

[19] فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج 2، ص 519، الحديث 2167 وهو حديث «إبني هذا سيد وسيصلح اللّه بن بين فئتين عظيمتين من المسلمين»

العزيز بالخليفة الراشدي الخامس وذلك لعدله، مع أن عمراً استخلف سنة 99 أي بعد ذلك بما يزيد عن الخمسين عاماً.

وإن قيل أن مدة الخلافة كانت سبعة أشهر فلم تكن لتذكر، نجيب بأن عمر بن عبد العزيز كانت خلافته سنتين، وغيره من حكام الخلفاء المسلمين ولاسيما في الدولة العباسية كثير منهم لم يحكموا إلا شهوراً بل أياماً في البعض.

بل أن البعض من العلماء الذين أرادوا أن يجدوا تخريجاً لحديث الأئمة الاثني عشر الذين كلهم من قريش، وهو الذي سنذكره في ملحق حديث الثقلين في آخر الكتاب، أرادوا التهرب من ذلك فأرادوا أن يخرجوها تخريجاً آخر غير ما تعتقده الشيعة في أئمة أهل البيت الاثني عشر، فجاؤوا بالأربعة الراشدين ثم انتقلوا مباشرة إلى عمر بن عبد العزيز وذهبوا منه إلى المهدي العباسي وذلك لعدلهما كما قالوا. أو أنهم يأتون بالأربعة من أبي بكر إلى علي(ع) ثم يقولون بأن الباقي سيأتون فيما بعد: "وقد وجد منهم أربعة على الولاء وهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي اللّه عنهم، ثم كانت بعدهم فترة"[20] — أي أن خلافة الحسن(ع) هي بداية الفترة!

فلم يا ترى لم يُعدّ الحسن السبط(ع)، وهو سيد شباب أهل الجنة[21] وريحانة رسول اللّه[22] وهو سبط من الأسباط[23] وهو إمام قام أو قعد[24] ومن الذين أذهب اللّه عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً[25] والذين باهل بهم النبي(ص) في يوم المباهلة[26]، لماذا لم يُعد من الخلفاء الراشدين؟!

والعجيب هو أن البعض من هؤلاء أثبتوا، خلافاً للسائد حتى بين الشيعة من أن الحسن(ع) لم تكن عنده القوة المناسبة لقتال معاوية، بأنه(ع) "سار إلى معاوية بكتائب كأمثال الجبال وبايعه منهم أربعون ألفاً على الموت فلما تراءى الجمعان علم أنه لا يغلب أحدهما حتى يقتل الفريق الآخر فنـزل له عن الخلافة لا لقلة ولا لذلة بل رحمة

---

[20] تفسير ابن كثير، ج 3، ص 312

[21] سنن ابن ماجة، ج 1، ص 44، وغيره

[22] صحيح البخاري، ج 4، ص 217، وغيره

[23] معجم الطبراني، ج 3، حديث 2586

[24] بحار الأنوار، ج 36، ص 289 و ص 325، و ج 43، ص 278

[25] مستدرك الحاكم، ج 3، ص 146، وغيره

[26] سنن الترمذي، ج 5، ص 301، وغيره

للأمة"[27]. وهذا يعني أن الحسن(ع) لم يبايع بعد أبيه(ع) فحسب، وإنما كانت له القوة الكافية لتأييد حكمه، حتى وإن بالمقدار الذي كان عليه أبوه(ع)، وهو ما يؤهل حكمه أن يعد استمراراً للخلافة الراشدة.[28]

وأعجب منه أنهم أثبتوا أنه(ع) التزم الشروط التي شرطها مع معاوية في بنود الصلح في الوقت الذي لم يف معاوية ولا بواحد منها: إن معاوية قال في خطبته بالنخيلة: ألا إن كل شيء أعطيته الحسن بن علي تحت قدمي هاتين لا أفي به!" وعلق الراوي أبو إسحاق السبيعي: "وكان واللّه غداراً"[29].

وما هو أعجب من هذا كله هو إثباتهم أن معاوية، لم يكتف فقط بعدم الالتزام بتنفيذ الشروط، وإنما أقدم على واحدة من أبشع جرائم التاريخ بقتله الحسن(ع) سمًّا. قال ابن الجوزي: "قال ابن سعد في الطبقات[30] سمه معاوية مراراً، لأنه كان يقدم عليه الشام هو وأخوه الحسين. قال أبو الفرج الاصبهاني[31]: كان الحسن شرط على معاوية في شروط الصلح أن لا يعهد إلى أحد بالخلافة بعده، وأن تكون الخلافة له من بعده، وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد، فلم يكن شيء أثقل عليه من أمر الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص فدس إليهما سماً فماتا منه، أرسل إلى ابنة الأشعث أني مزوجك بيزيد ابني على أن تسمي الحسن، وبعث إليها بمائة ألف درهم، فسوغها المال ولم يزوجها منه."[32]

---

[27] فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج 2، ص 519

[28] راجع بحوث سماحة العلامة السيد سامي البدري (أنظر موقعه على الانترنت) في تحليله الصحيح لقرار الإمام الحسن(ع) عقد الصلح مع معاوية، وكيف أن هذا الصلح كان "فتحاً مبيناً" كما كان صلح الحديبية فتحاً مبينًا حيث عندما وضعت الحرب أوزارها بدأ شيعة علي(ع) بنشر أحاديث النبي(ص) في علي(ع) وأهل البيت(ع) والتي كانت ممنوعة – بضمن ما منع من حديث النبي(ص) منذ وفاته(ص) (ولم يدون إلى بأمر عمر بن عبد العزيز بعد تسعين سنة من وفاة النبي(ص) الأمر الذي سبب دخول كل هذا الكم الهائل من الكذب والاختلاق)، ولولا هذه السنوات التسع، بين الصلح وسم الحسن(ع)، لربما كان من الصعب أن يصل إلينا أكثر ما وصل في هذا الأمر الحيوي الذي يثبت المرجع الحق بعد النبي(ص). (أما عن تفاصيل الصلح والكثير من التحليلات المهمة فارجع إلى صلح الحسن(ع) للشيخ راضي آل ياسين.)

[29] مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الإصفهاني ص 45

[30] ولكن لا وجود لهذا في طبقات ابن سعد الموجودة اليوم، فيا لها من أمانة علمية عند المنافحين عن معاوية!

[31] مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الإصفهاني ص 73

[32] تذكرة الخواص ص 211

وإن رُمِيت التهمة على يزيد لا أبيه، وكأن يزيداً كان يتحرك خطوة دون أمر أبيه، هذا على فرض أنه هو الذي طلب من جعدة وأمّلها؛ ولكن لما كان السلف قد قرر سد الباب أمام القدح في معاوية، الصحابي، ولما كان يزيد شمّاعة جيدة لحمل أفعال أبيه، فقد رميت التهمة في هذا المرجع على الإبن بدلاً من الأب.

"وهكذا أصبحت الخلافة ملكاً عضوضاً على يد معاوية الذي ورثها لإبنه اليزيد، وأجبر الناس على بيعته في حياته لا ينازعه في ملكة منازع من بعده"[33].

كل هذا معترف به ومع ذلك فإن ملك معاوية يعتد به ويحتسب من ملوك أو خلفاء المسلمين ولكن الحسن(ع) لا يعد منهم. هذا مع أن البعض أعلن أن خلافة معاوية ما كانت لتصبح معترف بها – من قبلهم – إلا بعد أن تنازل الحسن(ع) عنها: "لم تصح له الخلافة الا بعد تنازل الحسن عنها له، وكان قد أخذ البيعة من أهل الحل والعقد كما بويع لأبيه الإمام علي من قبل"[34].

ونحن لا نقول ذلك أسفاً على ذهاب الملك عن الحسن(ع)، فهو(ع) كأبيه(ع) من قبله، لا تساوي الإمرة عنده شسع نعله إلا أن يقيم حقّاً أو يدفع باطلاً، بل نقوله أسفاً على عدم استقرار الأمر له، أمر الإمامة بشقّها الإداري المبسوط اليد الذي لا يخطئ[35]، وهو ما بدأ الملك العضوض الذي جرّ كل الكوارث بعده وإلى يومنا هذا.

فهل كل هذا الإنكار لضم خلافة الحسن(ع) في الراشدين لهذه الدواعي، مثل قصر المدة أو عدم استتباب الأمر في كامل الدولة الإسلامية، أم أن هناك سبباً آخر، كأن يكون لمنع فتح الباب أمام السؤال المنطقي التالي: إذا كان الحسن(ع) هو الخليفة الراشدي

---

[33] الإصابة، إبن حجر، ج 1، ص 64

[34] نفسه

[35] قال الإمام الحسن(ع) في خطاب بيعته بعد مقتل أبيه(ع): ‹‹نحن حزب اللّه الغالبون، وعترة رسول اللّه الأقربون، وأهل بيته الطيبون الطاهرون، وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول اللّه في أمته، ثاني كتاب اللّه الذي فيه تفصيل كل شيء، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالمعول علينا في تفسيره، لأنتظنن تأويله بل نتيقن حقائقه، فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة، إذ كانت بطاعة اللّه ورسوله مقرونة، قال اللّه عز وجل: يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم فان تنازعتم في شئ فردوه إلى اللّه والرسول، وقال: ولو ردوه إلى الرسول وأولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم›› صلح الحسن، راضي آل ياسين، ص 59.

الخامس، أليس منطقياً، ومتوقعاً، أن يكون الحسين(ع) هو الخليفة الراشدي السادس لولا مقتله بعد بيعة يزيد؟

يعرف المسلمون جميعاً كيف أن النبي(ص) قرن بين سبطيه الحسن والحسين(ع) بشكل لا مزيد عليه بحيث لا يتصور أن يكون للحسن(ع) منـزلة لا تصلح لأخيه الحسين(ع)، وبالتالي فإن أي مفصل من حياة الحسن(ع)يتوقع له أن يجد له مثيلاً أو موازياً في حياة الحسين(ع). فإن انفتح هذا الباب، باب من كان ينبغي أن يكون الخليفة الراشدي السادس، إنفتح باب أغلقه علماء السلف، وهو باب أن الإمامة تكون بما أخبر عنه النبي(ص) – ولا نريد أن نقول بالنص كما نعتقد –، أي ما كانت الفضائل التي أخبر بها النبي(ص) هي المؤشر لتشخيص الخليفة الراشدي الحق، وهذا كان سيكون مخالفاً تماماً لما جرى عليه علماء غير مدرسة أهل البيت(ع) من أن الخلافة والملك يكون لمن يتربع عليه، بغض النظر عن الطريقة – بيعة اثنين كما في بيعة أبي بكر، أو نص كما في بيعة عمر، أو شورى ستة كما في بيعة عثمان، أو بيعة عامة من الناس كما في بيعة علي(ع)، أو تنصيب ولي عهد بحد السيف كما في الدولة الأموية والعباسية وغيرهما.

بمعنى: أن الباب كان سيفتح أمام قبول ما تحاول الشيعة أن توصله إلى الناس من أمر اللّه تعالى ورسوله(ص) من أن الإمامة بعد النبي(ص) لا يمكن أن تكون كيفما اتفق ولأي من الناس، بل استناداً إلى كتاب اللّه وحديث النبي(ص). هذا الباب كان سيبدأ بحساب الحسين(ع) في قبالة يزيد، ثم علي بن الحسين(ع) في قبالة عبد الملك بن مروان وأولاده، ومحمد بن علي بن الحسين(ع) في قبالة من عاصرهم من الأمويين وهكذا في باقي أئمة أهل البيت(ع) في قبالة من عاصروهم. وهو باب يرسم الصورة الوحيدة التي تجمع جميع هذه العناصر: الإمامة الصحيحة هنا والملك العضوض هناك، عدد الإثني عشر إماماً هنا والعدد الكبير من الملوك هناك، العلم الجمّ الصحيح هنا والجهل هناك، السيرة العطرة هنا والسيرة الجائرة هناك، وهكذا.

لذا، لا راحة من هذا الصداع سوى بالتعتيم على خلافة الحسن(ع) وإنكار أنها من الخلافة الراشدة بحيث أن خلافته تبدو للمسلمين وكأنما كانت فترة انتقالية لتسليم الحكم لمعاوية.

ولكن الحقيقة التي تجعلنا نطوي صفحاً حتى عن هذا التساؤل في خصوص الإمام الحسن(ع) هو أن الخلفاء الراشدين كانوا في بدء الأمر ثلاثة فقط وهم أبو بكر وعمر وعثمان لأن علياً(ع) لم يدخل من ضمنهم، حتى ورد عن البعض القول بأنهم كانوا يفاضلون بين أصحاب رسول اللّه فيذكرون أبا بكر وعمر وعثمان ثم يتوقفون[36] أي أن علياً(ع) كغيره. ويبدو أن علياً(ع) أدخل في الراشدين بعد ذلك بزمان طويل، لأنه من غير المعقول أن يدخل في زمان بني أمية وهم يلعنونه على المنابر. ولذا فإنه إن كان الإمام علي(ع) ليس من الخلفاء الراشدين المهديين فلا عجب أن لا يكون ابنه الحسن(ع) منهم![37]

---

[36] فضائل الصحابة، إبن حنبل، ج 1، ص 87

[37] والمفارقة هنا أن هذا العبد الصالح الذي لم يعد من الخلفاء الراشدين يعلن ضمنياً أن من سبقه وأباه ليسوا من الراشدين لأنهم لم يتبوؤا مقام الخلافة كاستحقاق إلهي، بل إنه يصف ذلك بأنه "تَوَثُّب" – قال(ع) في رسالته إلى معاوية المذكورة في المتن أعلاه: ‹‹ولقد كنّا تعجبنا لتوثّب المتوثّبين علينا في حقّنا وسلطان نبيّنا، وإن كانوا ذوي فضيلة وسابقة في الإسلام، وأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدّين أن يجد المنافقون والأحزاب في ذلك مغمزاً يثلمونه به، أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا من إفساده...››.

فنحن نجد أنفسنا أمام موقفين: موقف الحسن بن علي(ع) – الذي لا يستطيع أحد أن يكذبه فيما يدعيه من أن الراشدين أبوه وهو والأئمة من آل محمد(ص)، وموقف المؤرخين والفقهاء الذين، ليس فقط أدخلوا غيره في الراشدين، بل لم يدخلوه هو في جملتهم! فمن نصدّق؟

ثالثاً: أصول الدين وضرورياته

قد رَكَزْتُ فِيْكُمْ رَايَةَ الإِيمَانِ

في هذا المقطع يقول أمير المؤمنين(ع) بأنه ثبت في الأمة الإيمان، وهذا يعني أصول الدين وضرورات الدين التي تدور في دائرة الاعتقاد.

فإن الإيمان يعني الإيمان بالله الواحد الأحد الذي لا شريك له ولا مدبر سواه ولا مهيمن سواه، والإيمان بالأنبياء(ع) والنبوات وبنبوة نبينا محمد(ص)، والإيمان باليوم الآخر بما فيه من بعثٍ ونشرٍ وحشرٍ وحسابٍ وصراطٍ وميزانٍ وجنةٍ ونار؛ وما يتفرع من هذه من الإيمان – حسب اعتقادنا – بالعدل الإلهي كونه هو الموجود في كل صفة من صفات الله وكونه هو الذي يجعل عملية الثواب والعقاب مقبولة للإنسان؛ أيضاً الإيمان بالإمامة كونها الامتداد للنبوة وضمانة لإرشاد الناس وإيقافهم على الحق ومنع الانحراف، ولاسيما وأن هذه هي النبوة الخاتمة حيث لا نبي بعده(ص) كي يصحح الانحراف كما حصل في الأمم السابقة. ولا شك في أن هذا موضوع كبير جداً ولكننا هنا نشير إلى بعض القبسات من قوله(ع) في الله تعالى وملائكته ونبيه(ص) حيث تبين كيف أنه(ع) ثبّت، أو ،حسب تعبيره، ركز فعلاً الإيمان الصحيح والاعتقاد الصحيح.

كمال معرفته وتوحيده سبحانه

ولنأخذ أولاً شيئاً من الخطبة الشهيرة في نهج البلاغة، قال[38]: «**أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة – فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه ومن ثنّاه فقد جزأه،**

[38] نهج البلاغة، الخطبة رقم 1

ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال فِيمَ؟ فقد ضمنه، ومن قال عَلاَمَ؟ فقد أخلى منه.

كائن لا عن حدثٍ، موجود لا عن عدمٍ. مع كل شيءٍ لا بمقارنةٍ، وغير كل شيءٍ لا بمزايلةٍ. فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه، متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده.

أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأه ابتداءً، بلا روية أجالها، ولا تجربة استفادها، ولا حركة أحدثها، ولا همامة نفس اضطرب فيها».

وهنا يزيل(ع) جميع ما يمكن أن يتعلق في الذهن من أمورٍ تنافي التوحيد الخالص للّه تعالى، فهو يقول بأن صفات اللّه تعالى إن تعلّق في ذهن الإنسان أنها عين ذاته فإن ذلك يشوب كمال الإخلاص، وذلك لأن كل صفة غير الموصوف بل هي أمر آخر يطلق على الموصوف لرسم صورة ما في الذهن. فهنا كأنه يذهب إلى ما ذهب إليه بعض متصوفة المسلمين عندما يشيرون إلى اللّه تعالى فيقولون: هو هو، أي هو كما هو ولا نَصِفُه بشيء.

ثم يقول أن من يصف اللّه تعالى فقد قرن به شيئاً آخر وهو الصفة، وبالتالي صار بدل الواحد اثنين، إذاً فقد ثناه، وإذا ما ثناه فقد جزأه؛ لماذا؟ لأنه صار هناك أكثر من إله وصارت الألوهية تشتمل على أكثر من إله، فهي مجزأة في الآلهة، وهذا هو الجهل. وبالتالي فهو ينتج عنه أن الجاهل سيحدّه، وإذا ما حدّه فقد عدّه لأنك إذا حددت شيئاً فقد جعلته في مكان ما له حدود، وبالتالي إذا صار في مكان ما، ليس هناك مانع من أن يكون آخر هناك، وبالتالي عده واحد وسيكون هناك آخر.

ثم يصف وجوده سبحانه وتعالى وكيفية خَلْق الخلق بلا حركاتٍ ولا رويةٍ ولا تجارب ماضية، وهكذا من تنـزيه كامل للّه تعالى في حقيقته وفي توحيده وفي خلقه الخلق.

ويقول[39]: «**وامتنع على عين البصير، فلا عين من لم يره تُنكِرهُ، ولا قلب من أثبته يُبصره**».

ثم يقول فيها أيضاً: «**لم يُطلع العقول على تحديد صفته، ولم يَحجُبها عن واجب معرفته**».

[39] نهج البلاغة، الخطبة 49

وبالتالي فهو ينفي إمكانية رؤيته تعالى، ولكن في نفس الوقت جعل معرفته في القلوب بحيث أن العين التي لا ترى لا تستطيع أن تقول أنه غير موجود كما يحصل مع غيره.

ويقول(ع)[40]: «**الحمد لله الذي لم تسبق له حالٌ حالاً، فيكون أولاً قبل أن يكون آخرًا، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً**». ثم يقول: «**وكل ظاهرٍ غيره باطنٌ، وكل باطنٍ غيره غيرُ ظاهر**».

هنا ينفي حصول التغير على اللّه سبحانه وتعالى، وبالتالي لا يمكن أن يقال أنه كان أولاً ثم حصل كذا ثم حصل كذا وتغير بعد ذلك أو أنه كان باطناً ثم ظهر. ثم يقول أن جميع الموجودات الظاهرة للإنسان هي في حقيقتها باطنة بمعنى أنها غير موجودة بنفسها وإنما وجدت به سبحانه وتعالى، في حين أن جميع الموجودات الباطنة عداه غير ظاهرة لأنها يجب أن تظهر بنفسها وبحدودها بعكسه هو الذي هو باطن ولكنه ظاهر. بمعنى آخر، أنه سبحانه وتعالى هو الوحيد الذي كان واجب الوجود وفي نفس الوقت هو باطن للعيان، فإن كونه واجب الوجود هو عين ظهوره.

قال(ع)[41]: «**ولا تناله التجزئة والتبعيض، ولا تحيط به الأبصار والقلوب**». وهنا ينفي أولاً أن يكون اللّه تعالى جزءاً أو بعضاً من شيء أو يقسم إلى أجزاء، وبالتالي ينفي فكرة إله الشمس وإله القمر وإله الزرع وإله الأمور الأخرى كما كان يعتقد الرومان وغيرهم. وهنا أيضاً ليس فقط ينفي إمكانية إحاطة الأبصار به، وإنما حتى إمكانية إحاطة القلوب به. وهذا لا يناقض ما سبق من أن القلوب تعرفه وتحس به وتعرف بوجوده، ولكنه يشير إلى إمكانية معرفته المعرفة الكاملة وذلك بقوله «**ولا تحيط به**».

كيف وصف المولى عز وجل في خطبة الأشباح

وقال(ع)[42]، وهي خطبة الأشباح التي من أعاظم خُطَبِه(ع) والتي روي عن الإمام الصادق(ع) أن رجلاً سأل أمير المؤمنين: صف لنا ربنا مثلما نراه عياناً لنزداد له حباً وبه

---

[40] نهج البلاغة، الخطبة 65

[41] نهج البلاغة، الخطبة 85

[42] نهج البلاغة، الخطبة 91

معرفة، فغضب(ع) ونادى الصلاة جامعة، فصعد المنبر وهو متغير اللون، فحمد اللّه وأثنى عليه وصلى على النبي(ص) ثم قال: ‹‹**الحمد لله الذي لا يَفِرّه المنع والجمود**››.

ومنها: ‹‹**الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله، والآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده، والرادع أناسي الأبصار عن أن تناله أو تدركه**››.

ومنها: ‹‹**ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال**››.

في هذه الخطبة، ينفي الإمام وجود أي شيء قبل اللّه تعالى وينفي أن يكون هناك بعده شيء، وذلك إخباراً عن فناء الدنيا كما سيأتي في كلماته الأخرى. كما أنه يثبت أن الأبصار لا يمكن أن تنظر إليه، فيمنع رؤية اللّه تعالى مطلقًا – لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهو شيء يعتقده المسلمون من غير أتباع مذهب أهل البيت. كما ينفي أن يجوز عليه الانتقال من مكان إلى آخر، وهذا ينفي بذلك الحديث الذي يعتقد به المسلمون من غير أتباع أهل البيت بأنه سبحانه وتعالى ينـزل كل ليلة جمعة إلى السماء الدنيا كما ورد في صحيح البخاري[43] وغيره.

وقال[44]:‹‹**من وصفه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن عدّه فقد أبطل أزله. ومن قال كيف؟ فقد استوصفه؛ ومن قال أين؟ فقد حيّزه**››. وهنا أيضاً يقول بأن وصف اللّه تعالى يعني أن نضع له حدوداً، وبالتالي صار محدوداً، فصار واحداً من مجموع، فإذا ما صار واحداً من مجموع فقد أبطل أزله، وذلك بمعنى لطيف وهو أنه لا يمكن أن يكون الإله الأزلي معدوداً وهذا ينفي جميع الآلهة. فإن شئت قلت أن نفي كونه معدوداً يجعله أزلياً أو أن كونه أزلياً ينفي كونه معدوداً، وبهذا ينفي جميع الآلهة المزيفة.

وهو يردّ أيضاً على من يريد معرفة اللّه بكيفيته لأنه إن تم الجواب على كلمة "كيف" سيكون بوصف وهو الذي نفاه الإمام(ع) في ما مر أعلاه من أن صفته غير حقيقته. كما يرد على من يريد أن يعرف مكانه فيقول "أين" لأن ذلك يعني أن اللّه تعالى موجود في مكان معين، فإذا ما كان في مكان معين فقد خلت منه أماكن أخرى وهذا يبطله(ع).

---

[43] سنن الترمذي، ج 2، ص 332، حديث 469، وغيره

[44] نهج البلاغة، الخطبة 152

هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟!

قال(ع) في ردٍ لسؤال ذعلب اليماني: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال(ع): «**أفأعبد ما لا أرى؟!**» فقال: وكيف تراه؟ فقال[45]: «**لا تدركه العيون بمشاهدة العِيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان. قريب من الأشياء غير مُلابِس، بعيد منها غير مُبايِن، متكلم لا برَوِيّة، مُريد لا بِهِمّة، صانع لا بجارِحة**». هنا ينفي مرة أخرى إمكانية رؤيته سبحانه وتعالى، وهنا نلاحظ أن الذين يعتقدون برؤيته في الآخرة سوف لن يخرجوا من معضلة أن رؤيته المزعومة ستجعله يكون في مكان معين وبحدود معينة وأنه سيكون بشكل يمكن الإحاطة به من الإنسان المحدود، ذلك أن الآخرة لا تختلف عن الدنيا في هذا المجال. أما كيف رآه(ع) في جوابه فهو يقول «**تدركه القلوب بحقائق الإيمان**» أي ما يقع في القلب من معرفته سبحانه. ثم ينفي كونه متكلماً أو مريداً أو صانعاً بالطرق التي يعرفها البشر، وبذلك فهو ينفي أي صفة ممكن أن تتعلق بذهن الإنسان في الكلام أو الإرادة أو الصمت أو الخلق.

التنـزيه التام

وفي خطبة أخرى[46] يقول: «**وبمضادّته بين الأمور عُرِف أن لا ضَدّ له، وبمقارنته بين الأشياء عُرف أن لا قرين له – رادّ النور بالظُلمة، والوضوح بالبُهمة، والجمود بالبلل**». وهنا طريقة جديدة جميلة في تنـزيه اللّه سبحانه وتعالى، فهو يقول أنه سبحانه وتعالى لما جعل لكل شيء من الأشياء ضداً أو لكل شيء قريناً فإنه بذلك جعل نفسه بعيداً عن الأضداد والقرناء، لأن الذي يخلق الأضداد والقرناء لا يمكن أن يكون له ضد أو قرين.

وفي هذه الخطبة أيضاً قال: «**ولا يجري عليه السكون والحركة؛ وكيف يجري عليه ما هو أجراه، ويعود فيه ما هو أبداه، ويحدث فيه ما هو أحدثه؟! إذاً لتفاوتت ذاته، ولتجزأ كُنهه، ولامتنع من الأزل معناه، ولكان له وراء إذ وجد له أمام، ولا التمس التمام إذ لزمه النقصان، وإذاً**

---

[45] نهج البلاغة، الخطبة 179

[46] نهج البلاغة، الخطبة 186

لقامت آية المصنوع فيه، ولتحول دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه، وخرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ما يؤثر في غيره››. هنا ينفي مرة أخرى إمكانية الحركة والسكون عليه لأن ذلك هو الذي أجراه في الخلق فكيف يجري عليه. ثم يقول لو أن ذلك حدث إذاً لأصبحت ذاته في حالات مختلفة، وكنهه أي حقيقته وماهيته بأجزاء كل منها لا يشبه الآخر، وهذا ما هو ممتنع عليه. أيضاً، وكما قال في مكان آخر ذكرناه آنفاً، أنه بذلك يمتنع من كونه أزلياً، لأنه لو كان له بداية، أي لم يكن أزلياً، لكان له نهاية. إلى أن يقول أنه بذلك يصبح دليلاً على الشيء بعد أن كان هو الذي يُدل به على الأشياء التي خلقها.

ويقول فيها في تنـزيه آخر للّه تعالى: ‹‹**لا تناله الأوهام فتقدره، ولا تتوهمه الفِطَن فتصوره، ولا تدركه الحواس فتحسه، ولا تلمسه الأيدي فتمسه**››.

وفيها: ‹‹**يقول لمن أراد كونه: كن فيكون، لا بصوت يُقرأ، ولا بنداء يُسمع، وإنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه ومثله، لم يكن من قبل ذلك كائناً، ولو كان قديماً لكان إلهاً ثانياً**››.

وهذا من أدق ما يمكن في التوحيد الخالص بحيث أن كلامه سبحانه كما في تكليمه لموسى أو كما في قوله كل الأشياء هي شيء أنشأه هو لأنه لو كان ذلك معه منذ الأزل لكان قديماً إلهاً ثانياً وهو ممتنع عن الواحد الأحد.

وأخيراً يقول عن علمه سبحانه وتعالى[47]: ‹‹**العالم بلا اكتساب ولا ازدياد، ولا علم مستفاد**››. وبالتالي فإن علمه كامل أزلي لم يكتسبه ولم يستفد منه من خارج إذ لا خارج عنه كما لم يزدد هذا العلم وإنما هو هو منذ أن كان.

وفيها: ‹‹**ليس إدراكه بالإبصارِ، ولا علمه بالإخبار**››.

إن هذا ما لم يسمع من أحد قبله ولا بعده(ع)، وإلا فليدلنا من يدعي ذلك عليه. إذاً يحق له(ع) أن يقول: ‹‹**قد ركزتُ فيكم راية الإيمان**››، بمعنى أن الذين سبقوه كان لهم جهد في الحكم، وربما في الفقه، ولكن ليس بهذا المستوى من تثبيت دعائم التوحيد الذي هو الأساس الأول في الإسلام، والذي بدونه ينهار الدين من أساسه.

---

[47] نهج البلاغة، الخطبة 213

وصف الملائكة

إن ما تقدم، وإن كان نقطة من بحره(ع) في وصف اللّه تعالى وتنـزيهه وتوحيده وتوجيه الناس إلى معرفتهم الحق، يكفي في الإشارة إلى ما ادعاه أنه ركز راية الإيمان. إلا أنه من المناسب هنا أن نذكر شيئاً عن وصفه للملائكة إذ أن الإيمان بالملائكة من ضروريات الدين، فندرج هنا ما جاء في نهج البلاغة من تفصيل لأنواع الملائكة مما لم يرد من غيره(ع).قال[48]: ‹‹**ثم فتق ما بين السموات العلا، فملأهن أطواراً من ملائكته، منهم سجود لا يركعون، وركوع لا ينتصبون، وصافّون لا يتزايلون، ومسبّحون لا يسأمون، لا يغشاهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان، ولا غفلة النسيان. ومنهم أمناء على وحيه، وألسنة إلى رسله، ومختلفون بقضائه وأمره. ومنهم الحَفَظَة لعباده، والسَّدَنَة لأبواب جنانه. ومنهم الثابتة في الأرضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم، والخارجة من الأقطار أركانهم، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم، ناكسة دونه أبصارهم، متلفّعون تحته بأجنحتهم، مضروبة بينهم وبين من دونهم حجب العِزّة، وأستار القُدرة. لا يتوهمون ربهم بالتصوير، ولا يجرون عليه صفات المصنوعين، ولا يحدّونه بالأماكن، ولا يشيرون إليه بالنظائر**››.

وصف الأنبياء(ع)

وأما في الأنبياء(ع) وهو الأصل الثاني من أصول الدين فقد قال في ذات الخطبة: ‹‹**واصطفى سبحانه من ولده – آدم – أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم**››. ثم يقول: ‹‹**ولم يخلِ الله سبحانه خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منـزل، أو حجة لازمة، أو محجة قائمة. رسل لا تقصر بهم قلة عددهم، ولا كثرة المكذبين لهم، من سابق سمي له من بعده، أو غابر عرفه من قبله**››.

---

[48] نهج البلاغة، الخطبة 1

وصف النبي(ص)

ثم يقول فيها في النبي(ص): ‹‹**إلى أن بعث الله سبحانه محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لإنجاز عدته، وإتمام نبوته، مأخوذاً على النبيين ميثاقه، مشهورة سماته، كريماً ميلاده**››. وهنا يثبت العقيدة في أن رسول اللّه(ص) وإن كان آخر الأنبياء مبعثاً إلا أنه أولهم ميثاقاً لأن النبيين قد أخذ عليهم الميثاق به، بمعنى أنه سيكون بشريعته المهيمنة عليهم وعلى شرائعهم.

ثم يقول: ‹‹**فقبضه إليه كريماً صلى الله عليه وآله، وخلّف فيكم ما خلّفت الأنبياء في أممها، إذ لم يتركوهم هَملاً، بغير طريق واضح، ولا علم قائم**››. وفيها تثبيت أن النبي(ص) لم يترك الأمة هملاً يختارون لأنفسهم من شاءوا لخلافته(ص)، وإنما فعل كما فعلت الأنبياء من قبله في أممها إذ عين لها قواماً على الشريعة الخاتمة.

وقد ذكر الإمام(ع) النبي(ص) في أماكن كثيرة من مواعظه وخطبه إلا أنّا نختصر منها ما جاء في واحدة منها[49] قال(ع): ‹‹**فتأسّ بنبيك الأطيب الأطهر صلى الله عليه وآله فإن فيه أسوة لمن تأسّى، وعزاءً لمن تعزّى، وأحب العباد إلى الله المتأسي بنبيه، والمقتص لأثره. قضم الدنيا قضماً، ولم يُعِرها طرفاً، أهضم أهل الدنيا كشحاً، وأخمصهم من الدنيا بطناً، عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها، وعلم أن الله سبحانه أبغض شيئاً فأبغضه، وحقر شيئاً فحقره، وصغر شيئاً فصغره. ولو لم يكن فينا إلا حبنا ما أبغض الله ورسوله وتعظيمنا ما صغر الله ورسوله، لكفى به شقاقاً لله ومحادّة عن أمر الله**››.

إلى أن يقول: ‹‹**ولقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله ما يدلّك على مساوئ الدنيا وعيوبها، إذ جاع فيها مع خاصته، وزويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته؛ فلينظر ناظر بعقله: أكرم الله محمداً بذلك أم أهانه؟! فإن قال أهانه فقد كذب والله العظيم بالإفك العظيم،**

[49] نهج البلاغة، الخطبة 160

وإن قال أكرمه فليعلم أن الله قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له وزواها عن أقرب الناس منه. فتأسى متأسٍّ بنبيه واقتص أثره وولج مولجه، وإلا فلا يأمن الهلكة، فإن الله جعل محمداً صلى الله عليه وآله علماً للساعة، ومبشراً بالجنة، ومنذراً بالعقوبة. خرج من الدنيا خميصاً، وورد الآخرة سليماً، لم يضع حجراً على حجرٍ، حتى مضى لسبيله، وأجاب داعي ربه. فما أعظم منّة الله عندنا حين أنعم علينا به سلفاً نتبعه، وقائداً نطأ عقبه››.

ثم يردف(ع) بعد ذلك بالقول: ‹‹**والله لقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها. ولقد قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت: أُغرب عني، فعند الصباح يحمد القوم السُّرى!**›› وهنا يفعل أمير المؤمنين(ع) ما لا يفعله الكثيرون من الوعاظ ممن يدعي أنه من المصلحين إذ يعظون الناس بشيء وهم يفعلون غيره، لكنه يدعو الناس للإقتداء برسول اللّه(ص) عملاً بأمر اللّه تعالى ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً**﴾ الأحزاب:21، فيتأسى به مخبراً عن مدرعته وهو يقول شيئاً يراه الناس بأعينهم من فعله(ع).

رابعاً: فروع الدين

وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الحَلالِ وَالحَرَامِ

ذهبنا أن هذه الكلمة تعني بشكل أخص فروع الدين في فقه الصلاة والصيام والحج والجهاد إلى آخر الفروع، ذلك أن حدود الحلال والحرام متعلقة بشكل خاص بهذه الأمور الإبتلائية؛ إن هذه الأمور هي التي يشتغل بها الفقهاء وبالتالي فإن علم الفقه هو موضع حاجة أمير المؤمنين في هذا الكلام.

جميع المدارس الفقهية منه(ع)

قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة في مقدمته: "ومن العلوم علم الفقه، وهو(ع) أصله وأساسه، وكل فقيه في الإسلام فهو عيال عليه ومستفيد من فقهه. أما أصحاب أبي حنفية كأبي يوسف ومحمد (بن الحسن) وغيرهما فأخذوا عن أبي حنيفة، وأما الشافعي فقرأ على محمد بن الحسن، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة. وأما أحمد بن حنبل فقرأ على الشافعي، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة. وأبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد(ع)، وقرأ جعفر على أبيه(ع)، وينتهي الأمر إلى علي(ع). وأما مالك بن أنس فقرأ على ربيعة الرأي، وقرأ ربيعة على عكرمة، وقرأ عكرمة على عبد اللّه بن عباس، وقرأ عبد اللّه بن عباس على علي بن أبي طالب؛ وإن شئت فرددت إليه فقه الشافعي بقراءته على مالك كان لك ذلك. فهؤلاء الفقهاء الأربعة. وأما فقه الشيعة فرجوعه إليه ظاهر.

وأيضاً فإن فقهاء الصحابة كانوا عمر بن الخطاب وعبد اللّه بن عباس، وكلاهما أخذ عن علي(ع)، أما ابن عباس فظاهر، وأما عمر فقد عرف كل أحد رجوعه إليه في كثير من المسائل التي أشكلت عليه وعلى غيره من الصحابة، وقوله غير مرة: لولا علي لهلك عمر، وقوله: لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن، وقوله: لا يفتين أحد في المسجد وعلي حاضر، فقد عرف بهذا الوجه أيضاً انتهاء الفقه إليه.

وقد روت العامة والخاصة قوله(ص): ‹‹**أقضاكم علي**››[50] والقضاء هو الفقه، فهو إذاً أفقههم".

ثم يقول: "وهو(ع) أفتى في المرأة التي وضعت في الستة أشهر، وهو الذي أفتى في الحامل الزانية[51]. وهو الذي قال في المنبرية: ‹‹**صار ثمنها تسعاً**››.[52] وهذه المسألة لو فكر الفرضي فيها فكراً طويلاً لاستُحسن منه بعد طول النظر هذا الجواب، فما ظنك بمن قاله بديهاً واقتضبه ارتجالاً!"

وعلم القرآن منه(ع)

وقال: "ومن العلوم علم تفسير القرآن، وعنه أخذ ومنه فرّع. وإذا رجعت إلى كتب التفسير علمت صحة ذلك لأن أكثره عنه وعن عبد اللّه بن عباس، وقد علم الناس حال ابن عباس في ملازمته له وانقطاعه إليه وأنه تلميذه وخريجه".

ثم يقول في مكان آخر من المقدمة: "أما قراءته القرآن واشتغاله به فهو المنظور إليه في هذا الباب. اتفق الكل على أنه كان يحفظ القرآن على عهد رسول اللّه(ص) ولم يكن غيره يحفظه. ثم هو أول من جمعه." ثم يقول: "وإذا رجعت إلى كتب القراءات وجدت أئمة القراء كلهم يرجعون إليه، كأبي عمر بن العلاء وعاصم بن أبي النجود وغيرهما، لأنهم يرجعون إلى أبي عبد الرحمن السلمي القارئ، وأبو عبد الرحمن كان تلميذه وعنه أخذ القرآن، فقد صار هذا الفن من الفنون التي تنتهي إليه أيضاً مثل كثير مما سبق".

---

50 نقله السيوطي في الجامع الصغير، ج 1، ص 58، عن مسند أبي يعلى.

51 ذكر القرطبي في تفسيره، ج 16، ص 193، عند تفسير قوله تعالى ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ الأحقاف:15 أن عثمان قد أتي بامرأة قد ولدت لستة أشهر فأراد أن يقضي عليها بالحد فقال له علي(رضي الله عنه) : ‹‹ليس ذلك عليها›› ثم قرأ الآية الكريمة.

52 سميت المنبرية لأنه سئل عنها وهو على المنبر فأفتى من غير روية. وبيانها أنه سئل في إبنتين وأبوين وامرأة، فقال: ‹‹صار ثمنها تسعاً››. أنظر النهاية لأبن الأثير، ج 3، ص 139 وغيرها.

وبالتالي الرجوع في الفتوى إليه(ع)

إن معرفتنا بأنه(ع) كان المحتوي على علوم القرآن حفظاً وقراءة وفقهاً وأنه هو الذي ترجع إليه سلسلة التدريس بالنسبة إلى فقهاء المذاهب الأربعة، ناهيك عن فقهاء الشيعة، فإننا نستطيع أن نقول بأن الصحابي الأكثر وثوقاً من غيره في تبيان حدود الحلال والحرام هو علي(ع). أما إذا جئنا إلى ما نعتقده من عصمته أولاً، ومن كونه باب العلم إلى علوم رسول اللّه(ص) وأنه هو الذي قد عينه النبي(ص) مرجعاً ومفزعاً بعده(ص) ثانياً، فإننا نستطيع القول بأنه يصبح ليس فقط الأكثر وثوقاً بل الموثوق بما يحدد للناس ويفتي بين الناس بدرجة كاملة تامة لا شبهة فيها.

إن فقه أمير المؤمنين(ع) انتقل بعد ذلك إلى أولاده الذين ملؤوا الدنيا بعلمهم وفقههم، والذين لولا ما تعرضوا إليه هم وشيعتهم من المحاصرة والتضييق لكان فقههم اليوم هو الفقه السائد في العالم الإسلامي. وعندما صارت الأمور أخف وطأة في هذا المجال فإننا نجد أن الإمامين الباقرين الصادقين صار لهم طلبة علم بالمئات على رواية الذي قال بأنه وجد في مسجد الكوفة تسعمائة شيخ كل يقول حدثني جعفر بن محمد[53]. ولعل هذا الذي أدى إلى انتشار فقههم في العالم الإسلامي في الدول المختلفة التي قامت وانقرض بعضها وبقي البعض الآخر.

كما ذكر ابن أبي الحديد أن الخليفة الثاني عمر كان يرجع إلى أمير المؤمنين عندما ترد مسألة ويسأل أصحاب رسول اللّه فلا يجد الجواب فكان علي(ع) هو الذي يفتي فيها، فمنه تعلم الناس أوائل الأحكام في الأمور الحادثة بعد رسول اللّه(ص). ومن هذه الأمور التي ذكرت في قضايا الحدود وفي قضايا الجهاد وفي قضايا الميراث وغير ذلك.

كيف ذكّرهم علي(ع) صلاة رسول الله(ص)

على أننا لا نحتاج في الإشارة في هذا الباب إلا إلى مسألة ذكرها المحدّثون ومن ضمنهم البخاري في صحيحه وهو ما يخص الصلاة. فإن الصلاة عمود الدين وأنها أول ما ينظر إليه من عمل العبد، بل إنها من الأمور القليلة التي هي موضع الابتلاء بالنسبة

[53] أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، ج 1، ص 35

للمكلفين بشكلٍ يومي. فقد ذكر المحدثون بأن علياً عندما بويع في الخلافة صلى بصلاة رسول اللّه(ص) وفي بعضهم القول بأنه صلى بهم صلاة كادوا أن ينسوها.

أخرج البخاري[54] عن إسحاق الواسطي قال حدثنا خالد بن جرير عن أبي العلاء عن مطرّف عن عمران بن الحصين أنه صلى مع علي(رض) في البصرة فقال: ذكّرنا هذا الرجل صلاة كنا نصليها مع رسول اللّه(ص)، فذكر أنه كان يكبر كلما رفع وكلما وضع.

وأخرج[55] عن أبي النعمان قال حدثنا حماد عن غيلان بن جرير عن مطرف بن عبد اللّه قال: صليت خلف علي بن أبي طالب(رض) أنا وعمران بن حصين فكان إذا سجد كبّر وإذا رفع رأسه كبّر وإذا نهض من الركعتين كبّر، فلما قضى الصلاة أخذ بيدي عمران بن حصين فقال: قد ذكرني هذا صلاة محمد(ص)، أو قال: لقد صلى بنا صلاة محمد(ص).

وفي الحديث الذي يليه[56] قال حدثنا عمر بن عون قال حدثنا هشيم عن أبي بشر عن عكرمة قال: رأيت رجلاً عند المقام يكبّر في كل خفض ورفع وإذا قام وإذا وضع، فأخبرت ابن عباس(رض) قال: أو ليس تلك صلاة النبي(ص) لا أمّ لك! ويبدو من هذا الحديث أن الرجل هو علي(ع) وذلك لأمرين: الأول أن الراوي هو عكرمة، وعكرمة كان معروفاً أنه على مذهب الخوارج وهو مسؤول عن كثير من الأحاديث أو اللعب في الأحاديث كما أوضح ذلك الباحثون؛ أما الثاني فلأن ابن عباس رده بما يشبه التوبيخ بكلمة أن هذه هي صلاة النبي(ص) وبالتالي فإن عكرمة كان يبدو متعجباً من طريقة الصلاة، وثانياً في قوله "لا أُمَّ لك". إن تعجب عكرمة هذا يدل على أن ما كان يراه من صلاة الكثيرين غير علي تختلف عنها.

وروى البخاري بطريق آخر أيضاً عن عكرمة نفس الشيء وذكر أنه صلى خلف شيخ بمكة وإن عكرمة قال بأن ذلك الرجل أحمق فقال ابن عباس: ثكلتك أمك، سنّة أبي القاسم.[57]

---

[54] ج 1، كتاب الأذان، الحديث 172

[55] نفسه، الحديث 174

[56] نفسه، الحديث 175

[57] صحيح البخاري، ج 1، ص 199، كتاب الصلاة، باب التكبير إذا قام من السجود

والذي يدل على أن هذه كانت طريقة النبي(ص) ما أخرجه البخاري في أحاديث كثيرة نأخذ منها فقط الحديث الذي يلي ذلك[58] عن يحيى بن بكير بسنده إلى أبي هريرة أنه قال كان النبي(ص) إذا قام إلى الصلاة يكبر حين يقوم ثم يكبر حين يركع إلى آخر الحديث.

إن مسألة الصلاة هذه تلفت النظر إلى أن التغيير الذي حدث بعد رسول اللّه(ص) في أمر الإمامة نتج عنه تغييرات كثيرة في أمور الدين. ذلك أن الصلاة كانت مسألة يومية يؤديها النبي(ص) كل يوم عدة مرات في مسجده والناس خلفه، مع ذلك فقد اختلفوا في كيفية صلاته حتى صارت الصلاة بمثل صلاته أمراً مستغرباً. وإن هذا الأمر لا ينطبق على شكل الصلاة فقط وإنما حتى على مسائل الصلاة الأخرى، أو على فقه الصلاة، لا سيما مسألة الجمع بين الصلاتين، فإننا في هذا اليوم نرى بأم أعيننا استهجان ورفض الكثيرين لمسألة الجمع بين الصلاتين مع أن المحدثين أثبتوا بأن النبي(ص) كان يصلي بالمدينة سبعاً وثمانياً الظهر والعصر والمغرب والعشاء في أحاديث كثيرة[59]. بل يبدو أنه من الممكن أن النبي(ص) كان يكثر من ذلك الجمع وليس أمراً استثنائياً فإن البخاري أخرج[60] بسنده إلى عثمان بن سهل بن حنيف قال سمعت أبا أمامة يقول صلينا مع عمر بن عبد العزيز الظهر ثم خرجنا حتى دخلنا على أنس بن مالك فوجدناه يصلي العصر فقلت يا عمي ما هذه الصلاة التي صليت؟ قال: العصر، وهذه صلاة رسول اللّه(ص) التي كنا نصلي معه.

وهكذا فإن الصلاة التي هي من أهم الأمور، إن لم يكن أهمها بالنسبة إلى المسلم حيث هي أمر ابتلاء يومي وحيث هي لا تترك بأي حال ولأي عذر، فإن ما جرى في أمر الإمامة مما حذر منه الإمام علي(ع) كما ذكرنا فيما تقدم من الكتاب قد حصل فيها، فكيف بغيرها. أخرج البخاري[61] بسنده إلى الزهري يقول: دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قال: لا أعرف شيئاً مما أدركت إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضُيِّعَت!

---

[58] ج 1، كتاب الأذان، الحديث 177

[59] منها صحيح البخاري، ج 1، كتاب الأذان، الحديث 20، وصحيح مسلم، ج 2، ص 659، باب 23، حديث 957، وكذا باقي أصحاب الصحاح الستة وغيرهم

[60] نفسه، الحديث 26

[61] نفسه، الحديث 9

خامساً: عدله(ع)

وَأَلْبَسْتُكُمُ العَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي

لا يكفي أن يكون الحاكم عالماً بما يجب أن يكون عليه العدل أو بما يجب أن تكون عليه سيرة العدل ولكن ينبغي، بل يجب أن يأخذ نفسه بالعدل بما علم. كلما كان الحاكم ملتزماً أكثر بتفاصيل العدل ودقائقه متوجهاً على الدوام لتحقيقه في المجتمع كلما كان أكثر عدلاً. ولقد روي الكثير عن عدل أمير المؤمنين(ع) مما يبهر العقول حقاً، حتى أن هذا العدل جرّ عليه المصاعب في الدنيا بحيث لم تصفُ له يوماً واحداً ولاسيما بعد بيعته الجماهيرية في الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان.

وفي هذا البحث المختصر لا يسعنا إلا أن نأتي بقبسات مما حوته الروايات التاريخية والحديثية عن عدله(ع) لنرى كيف أنه في قوله هذا كان محقاً وصادقاً أيما صدق.

ولكن أولاً إن كلمته «**وَأَلْبَسْتُكُمُ العَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي**» قد اختارها(ع) بدلاً من غيرها كأن يقول أقمت فيكم العدل أو نشرت العدل أو أفشيت العدل، ربما لأنه عندما يلبس المجتمع ثوب العافية فإنه يكون مجتمعاً سليماً متطوراً يرجى له التقدم المستمر. أما هذه العافية وربطها بالعدل فكأنه يريد أن يقول بأن الجور يعني المرض، أو أن الجور بإصابته أفراد المجتمع بالأذى فكأنه يصيبهم بالمرض وبالتالي يصاب المجتمع كله بالمرض. فهنا يقول لهم أنني كنت بمثابة الطبيب الذي منع أمراض الظلم والجور عنكم واستطعت بسيرتي وهي سيرة العدل أن أعافيكم مما يمكن أن تتعرضوا إليه وما تعرضتم إليه قبلي من الظلم والجور.

العدل الذي جرّ المشاكل عليه(ع)

هذا العدل جرّ عليه المشاكل، ولم يكن جاهلاً بما يمكن عمله في هذا، إضافة إلى ما قدمه البعض من آراء. فقد روى علي بن يوسف المدائني[62] أن بعض أصحابه(ع) قالوا له: يا أمير المؤمنين أعطِ هذه الأموال وفضّل الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم

[62] شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد، ج 2، ص 203

واستمل من تخاف من خلافه وفراره إلى معاوية بن أبي سفيان. فقال لهم: ‹‹**أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور؟ لا والله لا أفعل ذلك ما طلعت الشمس وما لاح في السماء نجم. والله لو كان المال لي لواسيت بينهم – أو لساويت بينهم – فكيف وإنما هي أموالهم**››.

وفي رواية للمدائني[63] قال بأن علياً(ع) عندما شكا للأشتر تخاذل الناس عنه أجابه: يا أمير المؤمنين إنك تأخذهم بالعدل وتعمل فيهم بالحق... إلى أن قال: وصارت صنائع معاوية عند أهل الغنى والشرف فتاقت أنفسهم إلى الدنيا... ثم قال: فإن تبذل المال يا أمير المؤمنين تُمِل إليك أعناق الناس وتصفو (لك) نصيحتهم وتستخلص ودهم. فأجابه الإمام(ع): ‹‹**الله تعالى يقول: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾** فصلت:46، **وأنا من أن أكون مقصراً في ذلك أخوف**››. ثم قال: ‹‹**وأما ما ذكرت من بذل المال واصطناع الرجال فإنا لا يسعنا أن نؤتي أمرءاً من الفيء أكثر من حقه**››.

إن أمير المؤمنين(ع) أعلن أن على الوالي أو الحاكم أو الإمام أن يقيم الشرع ويحاول إصلاح دنيا ذلك المجتمع وبنفس الوقت يكون منتبهاً إلى حاله هو حيث قال: ‹‹**أتروني لا أعلم ما يصلحكم؟ بلى، ولكني أكره أن أصلحكم بفساد نفسي**››[64].

أقضاهم علي(ع)

حتى يفشو العدل فإنه يجب أن يكون الحاكم عادلاً بالقضاء فكيف إذا كان ولي الأمر. أجمع المؤرخون والمحدثون على أن أقضى الصحابة كان علياً(ع). فقد أخرج المحدثون في تفسير الآية ﴿**ما ننسخ من آية أو ننسها**﴾ البقرة:106 قول عمر وغيره: أقضانا علي[65].

وروى ابن ماجة[66] بسندين قول النبي(ص): ‹‹**وأقضاهم علي بن أبي طالب**››.

---

[63] الغارات، أبو إسحق الكوفي، ص 72

[64] موسوعة سنن المعصومين، سنن الإمام علي، قسم الحديث، معهد باقر العلوم، ص 80

[65] المعجم الأوسط، الطبراني، ج 7، ص 357، والاستيعاب، إبن عبد البر، ص 68، والطبقات الكبرى، ابن سعد، ج 2، ص 339، وغيرهم

[66] صحيح ابن ماجة، باب فضائل أصحاب رسول الله(ص)، ص 14

وفي مستدرك الصحيحين[67] عن ابن مسعود أنه قال: كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة علي بن أبي طالب(ع). وهذا الحديث رواه الحاكم وابن سعد وابن الأثير وابن عبد البر وابن حجر وغيرهم. وتجد أمثال هذا الحديث في مسند أحمد[68] وفي كنـز العمال[69] وغيرهما.

وقد كان من قضائه(ع) ما ذكر قبل استخلافه، أي على عهد رسول اللّه(ص) عندما بعثه إلى اليمن، وأيضاً على عهده(ص) عندما قضى وأمضى النبي قضاءه أو قضى بحضرته وصدّق على ذلك. ثم بعد ذلك على عهد أبي بكر وعمر وعثمان حيث جاءت الروايات الكثيرة في رجوعهم إليه فيما أشكل عليهم من القضايا الحادثة أو التي لم يعرفوا حكم رسول اللّه(ص) فيها.

من ذلك ما رواه أبو داود[70] أن عمر جاؤوه بمجنونة قد زنت فاستشار فيها أناساً فأمر بها عمر أن ترجم، فمر بها على علي بن أبي طالب(ع) فقال: ‹‹**ما شأن هذه؟**›› قالوا: مجنونة بني فلان زنت فأمر بها أن ترجم، قال: ‹‹**إرجعوا بها**››، ثم أتاه فقال: ‹‹**يا عمر أما علمت أن القلم قد رفع عن ثلاثة: عن المجنون حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يعقل؟**›› قال: بلى، فقال: ‹‹**فما بال هذه ترجم؟**›› قال: لا شيء، قال: ‹‹**فأرسلوها**›› فجعل عمر يكبّر.

وفي حد شارب الخمر أخرج البيهقي[71] أن عمر استشار في الخمر يشربها الرجل فقال له علي(ع): ‹‹**نرى أن يجلد ثمانين، فإنه إذا شرب سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى افترى**›› فجلد عمر في الخمر ثمانين. وقد روى مثل ذلك في مستدرك الصحيحين وغيرهم[72].

---

[67] المستدرك للحاكم، ج 3، ص 135

[68] مسند أحمد، ج 5، ص 113

[69] كنز العمال، ج 2، ص 592، حديث 4807

[70] سنن أبي داود، مجلد 2، ص 339، حديث 4399

[71] سنن البيهقي، ج 8، ص 320

[72] يعني بجلد المفتري ثمانين نفس الحد الذي يجلد به من يرمي بالزنا دون أن يأتي بالشهود فيجلد ثمانين جلدة على ما جاء في القرآن الكريم ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة...﴾ النور: 4 – مستدرك الحاكم، ج 4، ص 375.

من المعروف أن أول من بدأ باستعمال التاريخ الهجري هو الخليفة الثاني عمر. وجاءت الروايات بأن ذلك كان بتوجيه من أمير المؤمنين(ع)، حيث روى الحاكم[73] بسنده عن سعيد بن المسيب أنه قال: جمع عمر الناس فسألهم من أي يوم يكتب التاريخ، فقال علي(ع): «**من يوم هاجر رسول الله(ص) وترك أرض الشرك**» وفعله عمر.

وأخرج البيهقي[74] أن عمر بلغه أن امرأة بغي يدخل عليها الرجال فبعث إليها رسولاً فأتاها الرسول فقال: أجيبي أمير المؤمنين، ففزعت فزعاً فوقعت الفزعة في رحمها فتحرك ولدها فخرجت فأخذها المخاض فألقت غلاماً جنيناً. فأتي عمر بذلك فأرسل إلى المهاجرين فقصّ عليهم أمرها فقال: ما ترون؟ فقالوا: ما نرى عليك شيئاً يا أمير المؤمنين، إنما أنت معلم ومؤدب؛ وفي القوم علي(ع) وهو ساكت، قال: فما تقول أنت يا أبا الحسن؟ قال: «**أقول إن كانوا قاربوك في الهوى فقد أثموا، وإن كان هذا جهد رأيهم فقد أخطأوا، وأرى عليك الدية...**» إلى أن قال عمر: صدقت.

عدله(ع) بين الرعية

أما عدله العام في المجتمع وسياسته في الحكم فكانت أن الناس يستوون أمام القانون كائن ما كانوا؛ وأن الكفالة الاجتماعية شاملة لكل الناس بغض النظر عن دينهم أو موالاتهم لشخص الحاكم وآرائه. وأن الفئات تنعم بالعدل في ضوء القوانين العامة، وفي أحوالها الشخصية تحكمها قوانينها الدينية الخاصة بها لقوله(ع): «**لو ثنيت لي الوسادة لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم حتى تزهر تلك القضايا إلى الله عز وجل وتقول: يا رب إن علياً قضى بين خلقك بقضائك**».[75]

أما عن عدله(ع) فقد كان شاملاً لجميع المواطنين. فمن ناحية المال، أرجعه إلى الأصل في توزيع الفيء دون تمييز عنصري أو غيره، فقد رد المرأة العربية التي طالبته

---

[73] المستدرك، ج 3، ص 14

[74] سنن البيهقي، ج 6، ص 123

[75] غاية المرام، هاشم البحراني، باب 43، ذكر روايات عديدة من طرق الفريقين بهذا اللفظ وبغيره.

بعطاء أعلى من الأعجمية بقولها: يا أمير المؤمنين إني امرأة من العرب وهذه المرأة من العجم، بقولته المشهورة: ‹‹**إني لا أجد لبني إسماعيل في هذا الفيء فضلاً على بني إسحاق**››[76].

أيضاً، في التمييز الديني، فقد قال(ع) عندما رأى شيخاً أعمى من النصارى: ‹‹**إستعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه؟! أنفقوا عليه من بيت المال**››[77].

أما دخل الدولة من غير غنائم الفتوح، فإنه كان دقيقاً في عدم ظلم المواطنين عند جمع الضرائب في نفس الوقت الذي يريد منهم أن يفهموا أن جباة الضرائب لن يكونوا متساهلين فيه. من ذلك توجيهاته لأحد عماله، أولاً بالقول أمام الناس ما يلي: ‹‹**أنظر خَراجك فَجِدَّ فيه، ولا تترك منه درهماً، فإذا أردت أن تتوجه إلى عملك فمُر بي**››؛ ولكنه عندما جاءه كما أمره فاجأه بالقول: ‹‹**إن الذي سمعت مني خدعة ، إياك أن تضرب مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً في درهم خراج، أو تبيع دابة عمل في درهم، أورزقاً يأكلونه، ولا كسوة شتاء ولا صيف!**›› وعندما اعترض العامل بالقول: إذاً أرجع إليك كما ذهبت من عندك! قال: ‹‹**وإن رجعت كما ذهبت، ويحك إنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو**››[78].

وأما من ناحية القضاء والعقوبة فقد كان مراقباً لهما بدقة مطلقة، حتى أنه كان يجلس – وهو الحاكم الأعلى – أمام المدعي عليه من المواطنين – مسلمين وغير مسلمين – أمام القاضي، وينبه القاضي إذا عامله بشكل فيه تمييز على خصمه، كما في القصة المشهورة لادعائه(ع) على اليهودي بسرقة درعه عند القاضي شريح وحكم شريح لليهودي.

أخيراً نسأل عن هذه الخصوصية في عدله(ع). أي أن بعض الباحثين يعتبر أن من سبق علياً(ع) في الخلافة كانوا أيضاً مثال العدل المطلق، ربما مع بعض الملاحظات البسيطة التي لاحظوها على الخليفة الثالث عثمان، فإذاً ما هو الوجه لأن يقول علي(ع) بأنه ألبسهم العافية من العدل؟ أو بكلمة أخرى: هل كان ذلك استمرارية للعدل للذي سبق أم أنه كان العدل كما ينبغي؟ جواباً على ذلك نقول بأنه في الأيام الأولى من خلافته(ع) وزع

---

[76] شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد، ج2 ص 200

[77] التهذيب، الشيخ الطوسي، ج6

[78] الكافي، ج 3، ص 540، وتاريخ دمشق ج 42 ص 487، وأسد الغابة ج4 رواية 3789

الأموال على الجميع بالسوية، في حين أن التفاوت في توزيع الأموال كان بالغاً أقصى حدوده في عهد من سبقوه. ففي عهد الخليفتين أبي بكر وعمر كان التوزيع من إثني عشر ألفاً إلى خمسة آلاف وأربعة وثلاثة وألفين لعامة الناس وفقرائهم. وفي عهد الثالث لم يكن للتفاوت حدود وحواجز، فالأقربون من أسرته قد رفعهم على رؤوس الناس وحصر القيادة والسلطة بهم، وهم الذين كانوا يتولون من قبل قيادة المشركين لحرب الإسلام.

إن ذلك التفاوت في العطاء، والذي استمر ما يزيد عن عشرين عاماً (خلافة عمر وعثمان)، جعل حتى كبار الصحابة الأولين يعتادون عليه إلى درجة عدم قبولهم تغييره إلى مساواة الإسلام. وهذا الكلام بين علي(ع) وطلحة والزبير يدل على ذلك، بل ويشير إلى بعض أسباب نكثهما البيعة وخروجهما عليه ومعركة الجمل التي نشبت:

قال(ع) لهما: «**لقد نقمتما يسيراً، وأرجأتما كثيراً، فاستغفرا الله يغفر لكما. ألا تخبراني أدفعتكما عن حق وجب إياه؟** قالا: معاذ اللّه.

قال(ع): فهل استأثرت من هذا المال لنفسي بشيء؟ قالا: معاذ اللّه.

قال(ع): أَفَوقع حكم أو حقّ لأحد من المسلمين فجهلته أو ضعفت عنه؟ قالا: معاذ اللّه.

قال(ع): فما الذي كرهتما من أمري حتى رأيتما خلافي؟

قالا: خلافك عمر بن الخطاب في القسم إنك جعلت حقّنا في القسم كحقّ غيرنا، وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا، فيما أفاء اللّه تعالى بأسيافنا ورماحنا، وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا، وظهرت عليه دعوتنا، وأخذناه قسراً وقهراً ممن لا يرى الإسلام إلاّ كرهاً.

فقال(ع): ...[79] وأمّا ما ذكرتما من أمر الأسوة فإنّ ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي، ولا وليته هوًى مني، بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله(ص) قد فرغ منه، فلم أحتج إليكما في ما قد فرغ الله من قسمه، وأمضى فيه حكمه، فليس لكما والله عندي ولا لغيركما في هذا عتبى، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحقّ وألهمنا وإيّاكم الصبر»[80].

---

[79] أنظر أول رده عليهما في موضوع الاستشارة في الفقرة التالية.

[80] بحار الأنوار، ج 32، ص 21، باب 1، رواية 7

أقول: يبدو أن مسألة التفاوت بالعطاء ومسألة التعامل بميوعة مع الأحكام الشرعية قد صار سمة للولاة بحيث صار هو الطبيعي. بعبارة أخرى، إنه وإن كان الحال ليس كما نعيشه اليوم إلا أننا نستطيع أن نتصور ما نتصوره اليوم من أن الحاكم، ملكاً كان أم رئيساً أم غير ذلك، صرنا نعتقد بأن من حقه أن يعيش بشكل آخر ويتصرف بشكل آخر، ولم يعد الناس يرون بأساً في أن الأقارب والحواشي والأصدقاء يكون لهم الحظوة بالتعامل بالمقارنة مع الآخرين[81]. ودليل ذلك ما قاله الشعبي أنه دخل الرحبة بالكوفة عندما كان غلاماً فرأى علياً(ع) قائماً على جرتين من ذهب وفضة ومعه مخفقة يطرد الناس بها ثم يرجع إلى المال فيقسمه بين الناس إلى أن لم يبق منه شيء ثم انصرف ولم يحمل معه من ذلك شيئاً. يقول الشعبي أنه عندما رجع إلى أبيه قال له: لقد رأيت اليوم خير الناس أو أحمق الناس! قال من هو يا بني؟ قال: رأيت علي بن أبي طالب، وقصصت عليه ما رأيته منه. فبكى وقال: بل رأيت خير الناس يا بني[82]. إن هذا الحديث يدل على أن ما شاهده هذا الغلام من سيرة أمير المؤمنين إنما كان غريباً مختلفاً عما سبق حتى ظن بأنه حمق. وهكذا، فإن الاختلاف في السيرة بينه وبين ما صار متعارفاً عليه بين الحكام كان قد بدأ يظهر منذ العصر الأول.

وتكفي كلمة واحدة في تبيان الفارق بينه وبين غيره وهي كلمة عمر بن الخطاب إذ قال في أكثر من مناسبة، ولاسيما عندما وضع شورى الستة بعد أن جرح قبل وفاته، إذ قال قولته الشهيرة: أما إن وَلِيَ - أي علي بن أبي طالب - أمرهم لحملهم على المحجة البيضاء والصراط المستقيم[83]. وفي عبارة أخرى: يحملهم على كتاب ربهم وسنة نبيهم[84].

[81] لو اقتصر الأمر على الحكام لهانت، ولكن ما بال من يدعي الولاية، بل ويتصدى لمواقع القيادة في أولياء العترة المباركة يتصرف كتصرف الذين يتبرأ هو منهم ليل نهار؟! فإن البعض يغدق على أقاربه ويحرم منه المسلمين المحرومين بينما يرتقي أعواد المنابر ليتشكى مما فعله الخليفة الثالث وتفضيله أقاربه الأمويين في العطاء!

[82] شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد، ج 2، ص 198

[83] نفسه، ج 12، ص 52

[84] نفسه، ج 6، ص 326

سادساً: سيرته(ع)

وَفَرَشْتُكُمُ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي

الإمام(ع) يقول لهم أنه بسط لهم ومهد لهم الطريق الصحيح للسيرة الصحيحة على مستوى الفرد من الرعية وعلى مستوى الفرد الراعي بما سمعوه منه بالقول وبما رأوه منه من فعل. ويصف الإمام ذلك بأنه المعروف، ويعني به المقبول من الخير من فعلٍ أو قول، وإن كان التاريخ لم يحدثنا من سيرته الزكية ما يؤشر إلى أي نقطة سوداء ولو صغيرة في ذلك التاريخ على الرغم من أنه كان تاريخاً حافلاً عريضاً كبيراً ملؤه الأحداث الجسام التي غيرت وجه التاريخ وكان فيها في القلب أو كما عبّر في الشقشقية «**كالقطب من الرحى**».

طريقته(ع) في الحكم

أول ذلك هو تعليم الناس أن البيعة لأي حاكم لا تؤخذ بالإكراه، بل إنه تمنع عليهم إلى أن لم يجعلوا لا له ولا لهم مجالاً للرفض «**فما راعني إلا والناس كعرف الضبع ينثالون عَليّ من كل جانب ، حتى لقد وطئ الحسنان ، وشق عطفاي ، مجتمعين حولي كربيضة الغنم**»[85]، وذلك لأن المواطنين إذا وجدوا أنهم أكرهوا على الحاكم أصلاً فإنه سيكون من الصعب لهم أن يتعاملوا له بالنصيحة والمؤازرة والإنكار برغبة صادقة، وإنما سيكون ذلك في إطار الخوف والنفاق ما يعود على المجتمع ككل بالخراب – وهو ما حصل ويحصل[86].

---

[85] نهج البلاغة، ج 1، الخطبة الشقشقية

[86] إن الباحث في كيف أخذت البيعة في التاريخ الإسلامي ربما لن يجد غير بيعة علي(ع) ومن بعده ابنه الحسن(ع) بيعة أخذت من الناس برغبتهم وبحماسهم حيث "كانت بيعة أبي بكر – في السقيفة – فلتة" كما عبر عنها عمر وأن الذين ناصروا تلك البيعة أخذوا البيعة من البعض بالقوة ومن البعض الآخر بالتهديد كما حصل مع أهل البيت مما هو معروف منشور. (أنظر الإمامة والسياسة، إبن قتيبة الدينوري، ج 1.) أما البيعات التي تمت في الدولة الأموية والدولة العباسية وغير ذلك من دول المسلمين فكانت كلها تؤخذ بالإكراه من الناس بعد أن يعينوا ولياً للعهد دون استشارتهم سواء قبلوا أو لا. وحدها هي بيعة علي التي جاءت بطلب وإلحاح من

حدد الإمام علي(ع) طريقته(ع) في الحكم منذ أول خلافته بأنها: ‹‹**منهج عليه باقي الكتاب والسنة وآثار النبوة**››[87]، وهذا يعني أنه ملتزم بحكم الكتاب والسنة وهدي النبي(ص). وفي ذلك أمران: أنه لا يحيد عن كتاب اللّه وسنة رسول اللّه(ص) المبينة للكتاب، وأنه لا يعتبر لسيرة من سبقه شرعية ملزمة – وهو الشرط الذي كان رفضه هو وقبله عثمان عندما عرضه عبد الرحمن بن عوف عليهما في الشورى بعد مقتل عمر.

ثم أكد على مرجعية القرآن والسنة بقوله(ع): ‹‹**إنما أنا متبع ولست بمبتدع**››[88]. وهذا يبين قمة الإيمان والبخوع للّه ورسوله(ص)، مع أنه(ع) كان القمة في الذكاء والقدرات كلها – دع عنك العصمة لمن لا يؤمن بها –، بينما وجدنا من هم أقل منه علماً وقدرة يخالفون ويبتدعون دون حرج، هذا مع أن الأكثر ذكاء وعلماً ربما يسوغ لنفسه الابتداع أكثر ممن هو أقل منه، ولكنه الفارق بين من أعده اللّه ورسوله(ص) وغيره.

هذا لمن لا يؤمن بإمامته وعصمته(ع)، وإلا فإن الأمر يصبح أشد أن يكون هو – وهو الإمام المعصوم – من يدعو الناس إلى مراقبته ومحاسبته مع أنه من تلك العترة الهادية التي وصفها بقوله(ع): ‹‹**ألا وإنا أهل بيت من علم الله علمنا، وبحكم الله حكمنا، ومن قول صادق سمعنا، فإن تتبعوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا ... ألا وبنا يدرك ترة كل مؤمن، وبنا تخلع ربقة الذل عن أعناقكم**››. فهي العترة التي لا تنطلق إلا من علم اللّه تعالى، ولا تحكم إلا بحكم اللّه تعالى، ولا يحصل باتباعها إلا الهدى، ولا تذهب حقوق المؤمنين معها سدى، وبها يرتفع الذل عن المجتمع والمواطنين.

إلا أن قبول الحاكم أو رفضه – معيناً من قبل السماء أو لا – يبقى للناس إذ لا إكراه لهم على بيعة أي حاكم، وهو ما علمه الإمام علي(ع) للناس، كما ينبه إليه العلامة السيد سامي البدري بالقول[89]: "أنه عليه السلام يريد أن ينبه الأمة إلى حقيقة

الثوار، الذين جاؤوا من العراق ومصر ومن وقف معهم نفس الموقف من أهل المدينة من المهاجرين والأنصار والتابعين.

[87] شرح نهج البلاغة، ج 1، ص 275

[88] نفسه، ج 2، ص 56

[89] شيعة العراق التأسيس التاريخ المشروع السياسي، ص 25 هامش 8

أن القدرة السياسية للحاكم حتى لو كان معيناً بشخصه من اللّه ورسوله إنما هي ناشئة من بيعة الناس، فهي مدنية وليست إلهية، بمعنى أنَّ تنفيذ القانون إنما هو بقدرات الناس وليس بقدرات إلهية خارقة، ومن ثم يريد أن يربّي الأمة على مراقبة الحاكم بصفته أميناً على قدراتها ويكسبها تجارب ناجحة، لتستفيد منها حين يكون الحاكم من غير الإثني عشر من أهل بيته عليهم السلام، لأن قضية الحكم مفتوحة وغير مقيدة بعدد معين بخلاف الإمامة الإلهية فهي محصورة بعد النبي صلى اللّه عليه وآله بعدد محدود وفي أسرة معينة. مضافاً إلى أن الإنسان في موقع الحكم مهيأ أكثر من أي موقع آخر لأن يسيء استعمال القدرات التي بين يديه أو يسخرها لأهوائه، وقد نجح علي عليه السلام في تربيته هذه بشكل لم يملك نفسه معاوية حين كان يواجه من وفود العراقيين رجالاً ونساءاً فقهاً وجرأة على مناقشته في أمور الحكم يقول: "هيهات يا أهل العراق لقد فقهكم علي فلن تطاقوا"[90] (أو قوله)"لقد لـمَّظكم علي الجرأة على السلطان وبطيء ما تفطمون"[91].

حقوق الراعي والرعية

وقد أوضح بإيجازٍ حقوق الراعي والرعية بقوله(ع)[92]: ‹‹**أيها الناس: إن لي عليكم حقاً، ولكم عليّ حقٌّ – فأما حقكم عليّ فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا. وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم**››. وفيها يحدد أن واجب الحاكم الراعي هو أن ينصحهم ويعلمهم ويدفعهم ويشجعهم على السيرة الصحيحة ويوفر لهم عطاءهم كما ينبغي. أما هم فعليهم بعد بيعته أن يفوا بها بالنصح له في جميع الأحوال وبالطاعة عند الأمر وبالاستجابة لدعوته إلى أي فعل، ومنه البناء والقتال والدفاع وغير ذلك.

---

[90] تاريخ دمشق، إبن عساكر، ج 69، ص 292

[91] نفسه، ص 226

[92] نهج البلاغة، الخطبة 34

مع ذلك، لو شعرت الرعية أنها تستطيع أن تدلو بدلوها في سير الحكم، من نصائح أو اقتراحات أو اعتراضات أو غير ذلك، فلها ذلك وينبغي أن يتعامل معها الراعي باهتمام حقيقي ورحابة صدر. قال(ع): ‹‹**أنظروا فإن أنكرتم فأنكروا، وإن عرفتم فآزروا. حق وباطل ولكل أهل، ولأن رجعت إليكم أموركم إنكم لسعداء**››[93] - وهي دعوة صريحة في أن ينكروا ما يجدونه خطأ ويساندوا ما يجدونه حقاً.

وعندما اعترض طلحة والزبير عليه أنه سوى بينهما وبين غيرهما – في العطاء وفي المكانة – فإنه أجاب بقوله(ع): ‹‹**أمّا ما ذكرتموه من الاستشارة بكما فوالله ما كانت لي في الولاية رغبة ولكنكم دعوتموني إليها وحملتموني عليها، فلما أفضت إليّ نظرت إلى الكتاب وما وضع لنا، وأمرنا بالحكم به فاتبعته، وما استنّ النبي(ص) فاقتديته، فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ولا رأي غيركما، ولا وقع حكم جهلت فأستشيركما وإخواني من المسلمين، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما...**››[94]. فهو يقول بكل تواضع بأنه لو وجد نفسه محتاجاً لرأيهما أو رأي غيرهما لاستعان به.

ثم قال(ع): ‹‹**رحم الله امرءاً رأى حقاً فأعان عليه، أو رأى جوراً فردّه وكان عوناً بالحق على صاحبه**››[95]. وهذه هي النصيحة ومساندة الحق ودفع الظلم للراعي والرعية.

حتى الخوارج، لم يضق ذرعاً بما قالوه وفعلوه حتى رميهم إياه بالكفر! وبقي يحاورهم دون عقاب، وما خرج لقتالهم إلا بعد أن بدأوا بالعدوان على الآمنين وقتلهم.

بل حتى التغيير في العبادات أو البدع التي ظهرت في عهد من قبله، كما في جمع الناس على صلاة التراويح في رمضان، وهو ما لم يكن على عهد النبي(ص)، فإن علياً(ع) لما أراد إرجاع الناس إلى الطريقة النبوية اعترضوا وأبوا إلا سنة عمر، فتركهم وشأنهم ولم يجبرهم.[96]

---

[93] شرح نهج البلاغة، ج 1، ص 276

[94] بحار الأنوار، ج 32، ص 21، باب 1، رواية 7

[95] نهج البلاغة، ج 2، خطبة 205

[96] شرح النهج، إبن أبي الحديد، ج 12 ص 283

حقوق الإنسان

وأما ما يتحدث به الناس اليوم عن حقوق الإنسان وحقوق المواطنين من غير أهل الملة الغالبة وحقوق الحيوان وغير ذلك فقد سبقهم علي بها قبل قرون. فقد جاء[97] أنه قال عندما بلغه أن جيشاً لمعاوية قد غزا الأنبار في غرب العراق فقال: «**فلقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة، فينتزع حجلها وقلبها وقلائدها ورعثها، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام. ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كلْم، ولا أريق لهم دم. فلو أن امرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً!**» فالإمام هنا يرى أن الموت كمداً في هذه الغارة ومنها التهجم على النساء المسلمات وغير المسلمات حتى تنتزع قلائدهن وغير ذلك، ثم تسترجع إليهن ولكن بالاسترحام وبالتذلل، يرى أن الموت كمداً غير مستنكر بل هو متوقع ممن له حسّ مرهف في حقوق المسلمين والغيرة عليهم.

وحتى حقوق الحيوان!

رعاية حقوق الحيوان لا تخطر ببال أكثر الناس اليوم فضلاً عن قبل أربعة عشر قرناً من الزمن، ولكن علياً(ع) كان إمام الهدى والرحمة الموصولة من النبي الذي كان رحمة للعالمين. فقد وجدنا أن علياً(ع) لا يغفل عن توجيه عماله بخصوص الحيوانات بشكل فيه تفصيل جميل، ببيان بديع، يفيض رحمة على خلق اللّه كله: «**فإذا أخذها أمينك – أي جابي صدقات الحيوانات – فأوعز إليه أن لا يحول بين ناقة وبين فصيلها، ولا يمصر لبنها فيضر ذلك بولدها، ولا يجهدنها ركوباً، وليعدل بين صواحباتها في ذلك وبينها... ولا يعدل بها عن نبت الأرض إلى جواد الطرق، وليروحها في الساعات، وليمهلها عند النطاف والأعشاب**»[98].

---

[97] نهج البلاغة، الخطبة 27

[98] شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد، ج 15، ص 142

زهده(ع)

وقد تحدث المؤرخون والمحدثون عن سيرته في الزهد الذي ألزم نفسه به، وأحبه، وحث عليه عماله وولاته في أرجاء الدولة الإسلامية. فقد كان يقول(ع): ‹‹**وإنما هي نفسي أروضها لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المنـزلق. ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولُباب هذا القمح ونسيج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة**››[99].

ويقول(ع): ‹‹**ما لعليٍّ ونعيم يفنى ولذة لا تبقى**››[100]. وكان يقول لأهل الكوفة: ‹‹**إذا أنا خرجت من عندكم بغير راحلتي ورحلي وغلامي فلان فأنا خائن!**››[101]

وكان يقسم ما في بيت المال بين المسلمين ثم يأمر بكنسه فيكنس ويصلي فيه حتى يشهد له يوم القيامة[102]. وبلغ من دقته في ذلك أن مالاً جاء فقسمه سبعة أسباع ثم وجد فيه رغيفاً فقسمه سبعة كسر وجعل على كل قسم كسرة[103]!

وربما لم يعرف تاريخ الحكم، لا في المسلمين ولا في غيرهم، أن حاكماً يأكل من طحين يده فيطحن الشعير فيأكل منه خبزاً يابساً يكسره بركبتيه ولا يعرف الشبع في يومه خوفاً من أن يكون في بعض أطراف الدولة التي يحكمها من لم يشبع من الخبز[104]. وربما لم يعرف التاريخ حاكماً كان يحاسب عماله بهذه الشدة حتى يقول لأحدهم: ‹‹**أقسم بالله قسماً صادقاً لئن بلغني أنك خنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً لأشدّنّ عليك شدّة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر ضئيل الأمر!**››[105] ويقول لآخر: ‹‹**فاتق الله واردد إلى هؤلاء**

---

[99] نهج البلاغة، محمد عبده، ج 3، الكتاب 45

[100] عيون الحكم والمواعظ، الليثي الواسطي، ص 145

[101] بحار الأنوار، ج 41، ص 137

[102] شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد، ج 2، ص 199

[103] نفسه

[104] نهج البلاغة، محمد عبده، ج 3، الكتاب 45

[105] نفسه، الكتاب 20

القوم أموالهم، فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك لأعذرن إلى الله فيك ولأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلا دخل النار!››[106]

وكان إذا اشترى ثوباً فإنه يشتري لخادمه خيراً منه، فقد رُوي أنه اشترى ثوباً بثلاثة دراهم وآخر بدرهمين فأعطى خادمه قنبر الثوب الأغلى وأبقى لنفسه الثاني، فقال له قنبر: أنت أولى به مني يا أمير المؤمنين، تصعد المنبر وتخطب الناس، فقال له علي(ع): ‹‹**يا قنبر أنت شاب ولك شَرَه الشباب، وأنا أستحيي من ربي أن أتفضل عليك، لأني سمعت رسول الله(ص) يقول: ألبسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تأكلون››**[107].

كان يتأسى برسول اللّه(ص) وبمن سبقه من الأنبياء والمرسلين كما في أقواله التي رويت عنه. كيف لا وهو وصيه ووارثه كما قد بينّا من قبل.

نصائحه وتوجيهاته(ع)

أما أقواله ونصائحه فهي تدهش العقول في الفكر والعمق والسعة، وفي سبق الناس جميعاً بسنين بل بقرون فيها. وأما بلاغته فقد تكون هي المثال الذي يحتذى، أو هي نهجاً للبلاغة كما سماها الشريف الرضي رحمة اللّه عليه. كيف لا وهو الذي جاء بما يقرب المعجز من جمع كلام العرب في قواعده، حيث اتفق جميع المؤرخين على أنه(ع) هو الذي حدد لتلميذه أبي الأسود الدؤلي الإطار العام لقواعد اللغة العربية قائلاً بأن الكلام هو اسم وفعل وحرف فالاسم هو ما دل على الشيء والفعل ما دل على فعل الشيء والحرف هو ما ليس باسم ولا بفعل، ثم حدد له الناصب والجازم وغير ذلك ثم قال له ‹‹**أنحُ هذا النحو**›› أي سر بهذا الطريق الذي اختططه لك، ومنه جاءت كلمة "النحو"[108].

والملاحظ من كلامه(ع) أن هذه البلاغة العالية مع هذا العمق مع هذه الآفاق الواسعة في الفكر، والتي تهدف كلها إلى ربط الإنسان باللّه تعالى في خط مرضاته للفوز

---

[106] نفسه، الكتاب 41

[107] بحار الأنوار، ج 71، ص 143

[108] أعيان الشيعة، مجلد 1، ص 161 و 330

بالآخرة، وهي الوظيفة الأساسية للإمام(ع)، الملاحظ أن ذلك كله تجده في جميع المناسبات وأقسام الكلام. فإن ذلك من سمات خطبه كما هو من سمات وصاياه العامة، كما هو من سمات رسائله في المجالات المختلفة كما هي من سمات كلماته هنا وهناك، ولعل ذلك مما يجعله متفرداً بين الخطباء والمتكلمين والكتاب والمفكرين.

فإذا ما أردنا أن نأخذ شذرات من كلامه(ع) نأخذ شيئاً مما جاء من وصيته(ع)، وهي آخر وصاياه بعد أن ضُرب في التاسع عشر من رمضان سنة أربعين للهجرة حيث جاء من وصيته لولديه الحسنين: ‹‹**أوصيكم وجميع ولدي ومن بلغه كتابي بتقوى الله ونظم أمركم**››[109].

فكم نحن اليوم، كما في كل يوم، في حاجة إلى هذين الأمرين: التقوى والتنظيم لأمورنا جميعها، وفي التعامل فيما بيننا، وفي الأطر العامة والتفاصيل، وفي المناهج والوسائل، وفي الوقت والجهد المطلوبين، وفي العمل الجماعي والتعاون الصادق، وفي وضع كل شيء في موضعه، وفي التحليل والتركيب واستخلاص الدروس والتطوير، مع خلوص النية في ذلك كله. فلئن اكتفى الإمام(ع) بهذا وصية للناس وعملوا بها لتغيرت دنيانا، فكيف وقد أوصى بالإصلاح بين الناس والأيتام والجيران، وبالقرآن والصلاة، وببيت اللّه تعالى، وبالجهاد، وبالتواصل والتباذل، وبالاهتمام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

التشجيع على الثقافة والمعرفة

من أجل إشاعة روح العلم ونشره فإن المسلمين "شهدوا منه(ع) أيضاً دأبه وحرصه على تثقيفهم رجالاً ونساءً بالقانون وبحقوقهم كمواطنين"[110]؛ و "وشهدوا منه تشجيعاً لهم على السؤال عن الصغيرة والكبيرة في المعارف المختلفة وكان يحثهم على كتابة ذلك كله"[111].

---

[109] نهج البلاغة، ج 3، كتاب/وصية 47

[110] شيعة العراق، السيد سامي البدري، ص 24، وذكر في الهامش قول الباقر(ع): ‹‹كان علي(ع) إذا صلى الفجر لم يزل معقباً إلى أن تطلع الشمس، فإذا طلعت اجتمع إليه الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس، فيعلمهم الفقه والقرآن، وكان له وقت يقوم فيه من مجلسه ذلك›› (شرح نهج البلاغة، ج 4، ص 109). ومن كتاب له(ع) إلى قثم بن العباس، وهو عامله على مكة: ‹‹أما بعد فأقم للناس الحج، وذكرهم بأيام اللّه، وأجلس لهم العصرين، فافْتِ المستفتي وعلّم الجاهل وذاكر العالم›› (نهج البلاغة، الكتاب 67).

أقول: هنا أيضاً يقوم الإمام(ع) بما يراه واجباً من تعليم الناس وفي نفس الوقت يأمر عماله بعمل الشيء ذاته وسلوك ذات المنهج وذلك لكي تنتشر سيرته في الأمصار.

ثم طلب(ع) من الصحابة نشر ما يعرفون من الحقائق التي جاء بها النبي(ص) وكان يحدثهم عن النبي(ص) يومياً صباحاً ومساء[112]. أي أنه طلب من العامة التعلم ومن الصحابة التعليم، وقام هو بنفسه بهذه المهمة بشكل يومي.

شذرات من المعروف من قوله(ع)

إنه من المناسب أن نذكر شذرات من كلامه(ع) لنعطي فكرة بسيطة عن "المعروف من قوله" الذي جعله متيسراً للأمة، في أيام حكمه وما بعده وإلى يومنا هذا. ولكي ندلل على ما قلناه من أن كلامه وصل القمة في بلاغة التعبير في اختصار معجز وذلك في موارد الكلام المختلفة، سنأتي باختيارات لبعض من كلماته القصيرة من كتاب نهج البلاغة فقط، وفي عجالة، وإلا لو أردنا أن نهتم بالاختيار لأجل الاختيار لاستطعنا أن نأتي بالكثير الكثير غيره ومن مصادره المختلفة. ولكنه علي الذي لا تحتاج لإعطاء أي فكرة عنه لأي جهد، فإنه كان كالشمس الطالعة في جميع أحواله. ولمزيد من الفائدة، سنعلق تعليقات خاطفة على هذه الكلمات.

---

111 روى ابن عبد البر (في جامع بيان العلم وفضله، ج 1، ص 113) عن وهب بن عبد اللّه ابن أبي الطفيل قال شهدت علي ابن أبي طالب وهو يخطب على المنبر وهو يقول: ‹‹سلوني فواللّه لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلا أخبرتكم به، وسلوني عن كتاب اللّه فواللّه ما منه آية إلا وأنا أعلم بليل نزلت أم بنهار أم بسهل أم بجبل››. وروى ابن جرير الطبري (جامع البيان، ج 26، ص 240) بسنده عن أبي الطفيل قال سمعت علياً يقول: ‹‹لا تسألوني عن كتاب ناطق ولا سنة ماضية إلا حدثتكم››، وفي رواية أبي الصهباء: ‹‹لا يسألني أحد عن آية من كتاب اللّه إلا أخبرته›› (نفس المصدر). وكان(ع) يصعد المنبر ويقول: ‹‹من يشتري مني علماً بدرهم!›› فسئل كيف؟قال: ‹‹تشتري قرطاساً وتجلس تحت المنبر تكتب الحديث›› (كنز العمال، ج 10، حديث 29385، العلل، أحمد بن حنبل، ج 1، حديث 234).

112 وهنا فارق كبير بين سيرته(ع) وسيرة من قبله ومن بعده، حيث أن سيرتهم كانت عدم تشجيع الحديث عن رسول اللّه(ص) بل المنع من ذلك بل وحتى العقاب الشديد على ذلك، حيث رووا أنهم لم يريدوا أن يشيبوا القرآن بشيء مما حدا بهم ليس فقط أن يمنعوا التحديث بل وحرق ما جمعه الصحابة كتابة من حديث رسول اللّه(ص). وفي قصة صبيغ التميمي الذي عوقب بالجلد مائة سوط، ثم مائة أخرى، ثم حمل على جمل إلى عشيرته وحرم على الناس مجالسته، لأنه كان يسأل عن تفسير قوله تعالى ﴿والذاريات ذرواً﴾ الذاريات:1 كفاية في ذلك، راجع الإصابة، ج 3، ص 375، والدر المنثور، ج 6، ص 111 وغيرهما.

قال(ع) في الخطبة رقم 4: ‹‹**لم يوجس موسى(ع) خِيفة على نفسه، بل أشفق من غلبة الجهال ودول الظلال**›› وفيها تصحيح للتفسير السائد بأن موسى(ع) خاف على نفسه كما روت الآية ﴿فأوجس في نفسه خِيفة موسى﴾ طه:67.

وقال(ع) في الخطبة رقم 15: ‹‹**مجتني الثمرة بغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه**››.

وفي الخطبة رقم 5 قال(ع)، وهو يعلن بأن ما يأخذه الحاكم لنفسه أو يقطعه لغيره فإنه لا بد من رده حتى وإن طال الأمل: ‹‹**والله لو وجدته قد تُزوج به النساء وملك به الإماء لرددته، فإن في العدل سعة. ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق**››. وفيها أيضاً توضيح للناس أن لا يتوهموا بأنهم إن سلكوا مسلكاً ربما يبدو أن فيه سعة لهم في حين أن نتيجته ستكون أسوأ، فبالتالي من يرى أن العدل ضيق ويجده ثقيلاً على نفسه فإن في واقع الأمر أن الظلم هو أضيق من ذلك.

وقال(ع) في الخطبة رقم 21: ‹‹**تخفّفوا تلحقوا**››. وعلّق الشريف الرضي عليه بأن هذا الكلام لو وزن بعد كلام اللّه ورسوله(ص) بكل كلام آخر لرجحه وبزّه، فإن هذه الكلمة مع فوائدها العظيمة للبشر جميعاً – بأن يتخففوا من الدنيا وعلائقها لكي يلحقوا بالصادقين – لا يمكن أن يكون أكثر منها اختصاراً.

وقال(ع): ‹‹**ولسان الصدق يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال يرثه غيره**››، فإنه يبقى ذخراً له في الدنيا بعد وفاته، وذخراً له في الآخرة لأنه من نتائج عمله الحسن.

وقال(ع) فيما يخص الجهاد، موضحاً للناس فائدة منع العدو من أن يصل إلى ديارهم، فقد قال في الخطبة 27 بعد أن قال: ‹‹**فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل**››، قال كلمته الشهيرة: ‹‹**فوالله ما غُزِيَ قوم قطُّ في عقر دارهم إلا ذلوا**››.

وحذر في الخطبة 28: ‹‹**وإن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: إتباع الهوى وطول الأمل**››، فإن اتباع الهوى يؤدي إلى الانحراف، وطول الأمل يلهي عن الاستعداد للآخرة.

وقال فيما يخص الخليفة الثالث ومقتله كلمة جامعة لأمره وأمر من ثار عليه في الخطبة 30: ‹‹**وأنا جامع لكم أمره: استأثر فأساء الأثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع، ولله حكم واقع في المستأثر والجازع**››؛ ولو كان غير علي لربما لم يذهب إلى إدانة الثائرين بقوله ‹‹**أسأتم الجزع**›› لأنهم هم الذين كانوا عماد بيعته، ولكنه لم يكن يجامل أحداً على حساب الصدق وعلى حساب أداء واجبه من تبيان الطريق الشرعي لاسترداد الحقوق وتصحيح الأخطاء لأن من واجبه منع حدوث الخطأ فيما يأتي من الأيام بعده.

وقال؏ في ضرورة الدولة وضرورة الحكومة في الخطبة 40 عندما سمع قول الخوارج "لا حكم إلا للّه" فقال: ‹‹**كلمة حق يراد بها باطل**››، وهي كلمة صارت مضرباً للمثل يستخدمها الناس في كل زمان ومكان. ثم قال: ‹‹**لا بد للناس من أمير بر أو فاجر يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، ويبلغ الله فيها الأجل، ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدو، وتأمن به السبل. ويؤخذ به للضعيف من القوي، حتى يستريح بر، ويستراح من فاجر**››. وهذا يعني أن الحكومة حتى وإن كانت فاجرة أفضل من الفوضى.

ويقول؏ في الصدق في الخطبة 41: ‹‹**إن الوفاء توأم الصدق، ولا أعلم جنة أوقى منه**››.

وقال؏ في الخطبة 50: ‹‹**إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، ويتولى عليها رجال رجالاً، على غير دين الله**››.

وقال في الخطبة 51: ‹‹**فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين**››. وهذا وجدناه لعمري في خلود الذين قتلوا أعزاء، ولاسيما في الإمام الحسين؏ ومن معه، وأن الذل ارتبط وصمة في جبين الذين عاشوا أذلاء.

وقال؏ في الخطبة 55 في موقفه من القتال والإبطاء في القتال: ‹‹**فوالله ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي، وتعشو إلى ضوئي، وذلك أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها، وإن كانت تبوء بآثامها**››. وهذا من شدة رحمته بالناس حيث أنه

يعلم أن من يقاتله سيء الخاتمة خفيف الميزان يوم القيامة، هذا غير من يمكن لهؤلاء أن يضلوه في الدنيا.

وقال(ع) في الخطبة 61: ‹‹**فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه**›› وذلك بعد نصحه أصحابه بأن لا يقاتلوا الخوارج من بعده لأن الخوارج أرادوا الحق ولكن في الطريق الخطأ فضلوا أما معاوية فقد طلب الباطل، وهو يعلم أنه باطل، وأصابه وأدركه.

وقال(ع) في تهيئة النفس لما بعد الموت في الخطبة 90: ‹‹**زنوا أنفسكم من قبل أن توزنوا، وحاسبوها من قبل أن تحاسبوا، وتنفسوا قبل ضيق الخناق، وانقادوا قبل عنف السياق**››؛ ثم قال: ‹‹**واعلموا أنه من لم يُعَن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر، لم يكن له من غيرها لا زاجر ولا واعظ**››.

وقال(ع) في الخطبة 153: ‹‹**كما تدين تدان، وكما تزرع تحصد**››.

وقال(ع) في الخطبة 154: ‹‹**فإن العامل بغير علم كالسائر على غير طريق، فلا يزيده بعده عن الطريق الواضح إلا بعداً عن حاجته**››.

وقال(ع) في الكلمة القصيرة رقم 297: ‹‹**ما أكثر العبر وأقل الاعتبار!**›› وهذا لعمري ما نراه ونشاهده كل يوم وفي كل مكان! وهذه من كلماته التي طارت اشتهاراً.

وقال(ع) في الكلمة 306: ‹‹**كفى بالأجل حارساً**››. وهذه من أورع الكلمات التي تمنح الإنسان ثقة وقوة ومقدرة على التخلص من المخاوف والعقد في هذا المجال.

وقال في الكلمة 310: ‹‹**ما يصدق إيمان عبد حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده**››. وهذه إشارة إلى المؤمنين بأن ينظروا في إيمانهم عندما يتزلزلون وعندما يدبرون لأمورهم الحياتية المختلفة.

وقال(ع) في الكلمة 324: ‹‹**اتقوا معاصي الله في الخلوات، فإن الشاهد هو الحاكم**››.

وقال في الكلمة 328: ‹‹**فما جاع فقير إلا بما متع به غني**››. وهذه الكلمة سبقت الماركسية وغير الماركسية في أن الفقر يأتي من سوء توزيع الثروات لأن اللّه سبحانه وتعالى أعدل من أن يخلق الناس ولا يخلق لهم معهم ما يكفيهم.

وقال في الكلمة 336: ‹‹**المسؤول حر حتى يعد**››، حيث عندما يعد يصبح أسير كلمته – وهي من روائع كلماته في اختصارها.

وقال في الكلمة 342: ‹‹**الغنى الأكبر اليأس عما في أيدي الناس**››؛ وفيه تنبيه إلى أن المالك هو اللّه والمتصرف هو اللّه والرحيم الكريم هو اللّه وليس الناس، فمن يئس مما في أيديهم لا بد أنه توكل بشكل تام على اللّه تعالى، وبذا نال الغنى الأكبر.

وقال في الكلمة 352 ينصح بعض أصحابه: ‹‹**لا تجعلن أكثر شغلك بأهلك وولدك – فإن يكن أهلك وولدك أولياء الله فإن الله لا يضيع أولياءه، وإن يكونوا أعداء الله فما همك وشغلك بأعداء الله؟!**›› وهذه نصيحة ذهبية لجميع الناس أن لا يبالغوا في القلق والتفكير في أهلهم وأولادهم إلى الدرجة التي يتعدون فيها الحدود أو يقصرون في حق أنفسهم في علاقتهم باللّه تعالى وبالآخرين.

وقال في الكلمة 360، وما أعلاها من كلمة: ‹‹**لا تظنن بكلمة خرجت من أحد سوءاً وأنت تجد لها في الخير محتملاً**››. فهذه النصيحة من أحسن ما يمكن لو انتشرت بين الناس في القضاء على الكثير من الضغائن وسوء الظن وما يستتبع ذلك من مشاكل.

وقال في الكلمة 390، يقسم للناس حياتهم وأوقاتهم بالشكل المتوازن: ‹‹**للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة يناجي فيها ربه، وساعة يرم معاشه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذتها في ما يحل ويجمل**››.

وقال في الكلمة 392: ‹‹**المرء مخبوء تحت لسانه**››؛ لأن الإنسان قبل أن يتكلم لا تدري ما يخرج منه فإن خرج منه الكلام بان ربما ما في نفسه أو ما في عقله وبدأت ملامح شخصيته بالظهور. وهذه من كلماته التي صارت مثلاً.

وحدد(ع) في الكلمة 399، حقوق الولد والوالد: «**فحق الوالد على الولد أن يطيعه في كل شيء إلا في معصية الله سبحانه، وحق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه ويعلمه القرآن**».

وقال(ع) في الكلمة 403: «**من أومأ إلى متفاوت خذلته الحيل**». أي الذي يتطلع إلى أمر بعيد سيجد ذلك صعباً، وبالتالي فإنه ينبغي له أن يخطط لذلك وربما يسلك طريق المراحل لنيل مراده. وهذه – على قصرها الشديد – من أروع الكلمات في النصح الذي يمتد في جوانب الحياة المختلفة.

وقال(ع) في الكلمة 418: «**الحلم عشيرة**» ذلك لأن الحلم يجذب الناس ويحببهم إليه فيكونون كعشيرته. وهاتان الكلمتان تكفيان – لو اتخذتا منهجاً – لتقوية وضع الإنسان الاجتماعي بما يحقق الفائدة له ولغيره.

وقال(ع) في الكلمة 423: «**من أصلح سريرته أصلح الله علانيته**» وهذا من أدعى الأمور لأن يحاول الإنسان أن يجاهد نفسه ويصلحها فإن اللّه تعالى سيتكفل بإصلاح علانيته. إلا أن الملاحظ أن الناس يهتمون أيما اهتمام بالظاهر من أجسامهم وظروفهم تاركين دواخلهم مع أن المنتظر أن يكونوا أقدر على إصلاح دواخلهم من أن يتحكموا بالآخرين والظروف الخارجية التي ربما تكون من الصعوبة بمكان ولا يستطيع غير اللّه تعالى أن يصلحها له.

وقال(ع) في الكلمة 428: «**وكل يوم لا يُعصى الله فيه فهو عيد**». إذ ما فائدة العيد وأنت تعصي اللّه، وما أحسن اليوم الذي لا تعصي فيه اللّه. فكم عيد يعصى اللّه فيه فينقلب تعاسة، وكم يوم لا يعصى اللّه فيه ينبغي للمرء أن يشعر فيه بفرحة العيد لطاعته.

وقال(ع) في الكلمة 438: «**الناس أعداء ما جهلوا**». وهذا ملاحظ في الموقف السلبي في الذي يقفه الناس عادة في ما لا يعرفونه. وهذه كلمة أخرى من كلماته التي صارت مثلاً شائعاً.

وقال(ع)، في اتخاذ الأوطان بما يناسب الظروف، في الكلمة 442: «**ليس بلد بأحق بك من بلد – خير البلاد ما حملك**». إنه يقول أن حب الوطن لا يعني أن ترضى بأن تصبح

حياتك حياة فارغة لا عطاء فيها وذلك لأن وطنك لم يستطع أن يحمل آمالك وطموحاتك ومساعيك إلى التطور والتقدم والعطاء.

وقال في الكلمة 448: ‹‹**من عظّم صغار المصائب ابتلاه الله بكبارها**››. وهذه نصيحة تشجع على احتمال المصائب والبلايا الصغيرة حتى يلطف اللّه تعالى بالإنسان بأن يحميه من كبار المصائب. وقد أثبتت البحوث الحديثة أن الذي يعيش في الكآبة والسوداوية ناقماً مولولاً على ما أصابه لا يلبث إلا ويصاب بغيره مما ربما يكون أكثر سوءاً.

وقال في الكلمة 454 حول الفخر والكبر: ‹‹**ما لابن آدم والفخر – أوله نطفة، وآخره جيفة، ولا يرزق نفسه، ولا يدفع حتفه**››. فأنت بدأت من نطفة ضعيفة لا ترى، وتنتهي جسداً متحللاً يهرب الناس من رائحته الكريهة، وما بين هذين تحتاج إلى الرزاق الوهاب كي تستمر حياتك، ثم عندما تأتي نهاية هذه الحياة لا تستطيع أن تمنع ذلك – فكيف يتكبر من هو هكذا؟!

وقال(ع) في الكلمة 457: ‹‹**منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب دنيا**››.

وقال(ع) في الكلمة 474، عن الذي يعفو عند التمكن: ‹‹**ما المجاهد الشهيد في سبيل الله بأعظم أجراً ممن قدر فعف – لكاد العفيف أن يكون ملكاً من الملائكة**››. وهي دعوة عظيمة للعفو عند المقدرة إذ فيها نوال الجزاء العظيم.

وقال في الكلمة 475: ‹‹**القناعة مال لا ينفذ**››، وهي تشبه "القناعة كنـز لا يفنى".

وحذر في الكلمة 477 من احتقار الذنوب: ‹‹**أشد الذنوب ما استخف به صاحبه**››.

وأخيراً قال(ع) الكلمة 479: ‹‹**شر الإخوان من تُكُلِّفَ له**››؛ ذلك لأن هذا سيحملك بعض المتاعب أو بعض المصاعب في حين أن الذين تستقبلهم وتسير معهم ويسيرون معك دون تكلف على طبيعتك وحسب ظروفك فإن هؤلاء خير الأُخوة.

سابعاً: أخلاقـه(ع)

وَأَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ الأَخْلاقِ مِنْ نَفْسِي

لا شك في أن الأخلاق هي انعكاس للداخل بشقيه النفس والعقل، ولا شك في أن التربية والتهيئة تلعب دوراً في ذلك، إضافة إلى الاستعداد الشخصي. ونحن نعلم أن علياً(ع) حظي بما لم يحظ به غيره من رعاية اللّه ورسوله(ص). فبالإضافة إلى الملكة الأصيلة التي هيأته لأن يكون إماماً معصوماً وصياً للنبي(ص)، نجد التهيئة والإعداد له من وقت مبكر على يديه(ص). فقد شاء له تعالى أن ينتقل إلى بيت رسول اللّه(ص) وخديجة(ع) وهو بعمر ثلاث سنوات أي سبع سنوات قبل البعثة النبوية. وقد حكى عن هذه المرحلة وما بعدها بقوله: ‹‹**كنت أتبعه إتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي كل يوم علماً من أخلاقه ويأمرني بالاقتداء به**››[113].

فهذا يعني أن سيد النبيين(ص) الذي احتوى على أعظم الأخلاق كما في وصف اللّه سبحانه وتعالى ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ القلم:4 أنه هو الذي تولى تنشئته الخُلُقية كما روى عنه.

إن مثل هذه الأخلاق الكريمة، وهذا النبل، يمكن أن يتجاوز المشاكل في العلاقات مع الآخرين إلى درجة معينة كما هو الملاحظ، أما أن يتمكن من الثبات على هذا الإطار العظيم في شخص تعرض إلى ما تعرض له الإمام علي(ع) فهذا مما يبهر العقول، ولا نظن أن أحداً مرّ بالظروف التي مرّ بها أمير المؤمنين(ع)، مع ما فيها من جحود وإيذاء وتآلب وتآمر، استطاع أن يبقى ثابتاً فلا تهتز طريقته في تعامله الخلقي العالي مع الآخرين.

أريحيته ورقيّ أخلاقه(ع)

من أمثلة تلك الأريحية وكرم الأخلاق ما رواه ابن أبي الحديد[114]:

---

[113] نهج البلاغة، ج 2، الخطبة 192 التي تعرف بالقاصعة

[114] شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد، ج 1، ص 22

"وأما الحلم والصفح فكان أحلم الناس عن ذنب، وأصفحهم عن مثيب، وقد ظهر صحة ما قلناه يوم الجمل حيث ظفر بمروان بن الحكم وكان أعدى الناس له وأشدهم بغضاً، فصفح عنه. وكان عبد اللّه بن الزبير يشتمه على رؤوس الأشهاد، وخطب يوم البصرة فقال: قد أتاكم الوغد اللئيم علي بن أبي طالب! وكان علي(ع) يقول: ‹‹**ما زال الزبير رجلاً منا أهل البيت حتى شب عبد الله**›› فظفر به يوم الجمل فأخذ أسيراً فصفح عنه، وقال: ‹‹**إذهب فلا أرينّك**›› ولم يزده على ذلك. وظفر بسعيد بن العاص بعد وقعة الجمل بمكة، وكان له عدواً، فأعرض عنه ولم يقل له شيئاً".

ويقول عبد الفتاح عبد المقصود عن ذلك[115]: "وكما كانت أريحيته تدفعه إلى الجود بالمال وإن هو أعوز وعانى الجوع، فقد كانت أيضاً تدفعه إلى الكرم بالحلم وإن هو ضيع حقه وغصّ بالأذى والكنود... إنها الأريحية التي تسخوا بالماديات...

فهو أقبل الناس لإنابة منيب تائب، وأسرعهم لغفران زلة خاطئ مذنب. إن ناله من عدوه ضرر، كان أعجل إليه منه بالعفو منه العقوبة، وبالصفح منه إلى رد الصاع.

وكان يقول: ‹‹**إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه**››؛ ويقول: ‹‹**العفو زكاة الظفر**››. وكم أدّى من أمثال هذه الزكاة".

خلقه(ع) مع من حاربه

ويتابع عبد المقصود: "وحاربه أهل البصرة وضربوا وجهه ووجوه أولاده بالسيوف، وشتموه ولعنوه، فلما ظفر بهم رفع السيف عنهم ونادى مناديه في أقطار العسكر: ألا لا يتبع مُوَلٍّ ولا يجهز على جريحٍ ولا يقتل مستأثر، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن تحيز إلى عسكر الإمام فهو آمن. ولم يأخذ أثقالهم ولا سبا ذراريهم ولا غنم شيئاً من أموالهم، ولو شاء أن يفعل كل ذلك لفعل ولكنه أبى إلا الصفح والعفو، وتقيل سنة رسول اللّه(ص) يوم فتح مكة، فإنه عفا والأحقاد لم تبرد والإساءة لم تنس".

[115] السقيفة والخلافة ، ص289

وقال ابن أبي الحديد[116]: "ولما ملك عسكر معاوية عليه الماء وأحاطوا بشريعة الفرات وقالت رؤساء الشام له: اقتلهم بالعطش كما قتلوا عثمان عطشاً، سألهم علي(ع) وأصحابه أن يشرعوا لهم شرب الماء، فقالوا: لا واللّه، ولا قطرة حتى تموت ظمأً كما مات ابن عفان! فلما رأى(ع) أنه الموت لا محالة تقدم بأصحابه وحمل على عساكر معاوية حملات كثيفة حتى أزالهم عن مراكزهم بعد قتل ذريع سقطت منه الرؤوس والأيدي، وملك عليهم الماء، وصار أصحاب معاوية في الفلاة لا ماء لهم. فقال له أصحابه وشيعته: إمنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك ولا تسقهم منه قطرة واقتلهم بسيوف العطش، وخذهم قبضاً بالأيدي فلا حاجة لك إلى الحرب. فقال: ‹‹**لا والله لا أكافئهم بمثل فعلهم، إفسحوا لهم عن بعض الشريعة ففي حد السيف ما يغني عن ذلك!**›› فهذه إن نسبتها إلى الحلم والصفح فناهيك بها جمالاً وحسناً، وإن نسبتها إلى الدين والورع فأخلق بمثلها أن تصدر عن مثله(ع)".

وقد روى المؤرخون ما كان من قتال يوم الجمل وهزيمة جيش الناكثين ومع ذلك عامل قيادتهم بنفس الخلق الكريم، على الرغم من أن هذه كانت أول حرب أهلية بين المسلمين أدت إلى مقتل الألوف منهم وجرت ما جرت بعدها. فإن جماعة الجمل بعد أن فشلوا وقتل منهم الكثيرون عُقِر الجمل وهوى إلى الأرض فتفرق الناس حوله وبقيت أم المؤمنين عائشة في هودجها وحدها في ميدان المعركة، فقال لأخيها محمد بن أبي بكر: ‹‹**أدرك أختك حتى لا تصاب بأذى**››، وبعد أن جاء إليها محمد وتكلم معها جاءها أمير المؤمنين(ع) ووقف على الهودج وضربه بيده وقال: ‹‹**يا حميراء ألم يأمرك رسول الله أن تقرّي في بيتك؟ والله ما أنصفك الذين صانوا عقائلهم وأبرزوك!**›› ثم أمر أخاها أن ينـزلها في دار صفية بنت الحرث ابن أبي طلحة العبدي[117].

على الرغم من هذا الموقف النبيل بقيت على موقفها منه حتى أنه عندما دخل عليها عبد اللّه بن عباس رسولاً من أمير المؤمنين(ع) وقال لها إني رسول من أمير المؤمنين أجابت: "رحم اللّه أمير المؤمنين ذاك عمر بن الخطاب"، فقال ابن العباس: "نعم وهذا

---

[116] شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد، ج 1، ص 22

[117] أنساب الأشراف، البلاذري، ص 248، وغيره

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أيضاً" فقالت: "أبيت أبيت!" فقال لها ابن عباس: "ما كان إباؤك إلا فواق ناقة بكية ثم حرتي لا تحلين ولا تمرين ولا تأمرين ولا تنهين..." إلى آخر الكلام[118]. مع ذلك أمر أمير المؤمنين بحرس لها وأرسلها إلى المدينة محروسة مكرمة معززة دون أن يصيبها منه أو من جيشه شيء[119].

إن بعض أعدائه عندما كانوا يتوسلون بوسائل وضيعة كان لا يستغل ذلك الموقف لأن خلقه الرفيع يمنعه من ذلك. مثلاً أن عمرو بن العاص، وهو الساعد الأيمن لمعاوية في حربه علياً(ع)، عندما خرج إليه للمبارزة وقع على الأرض فكان الذي توسل به هو أنه أبرز عورته، فأشاح أمير المؤمنين بوجهه عنه واستطاع الهرب. وهذا لا يدل على وضاعة أعدائه فحسب، ولا على خلقه الرفيع فحسب، وإنما يدل على أن أعداءه يعرفون المستوى الرفيع لخلقه ونبله بحيث يتوسلون بهذه الوسائل متيقنين بأنها ستنجح معه لما يتمتع به من هذه الروح العالية التي تتسامى عن مثل هذه المواقف.

وهنا مسألة تتعلق بدوافع التصرفات النبيلة. فإن البعض من الناس يتصرف بتصرف نبيل من أجل مصلحة ومن أجل نيل غاية، بمعنى أن عقله يتدخل في الأمر ليس من أجل أن ينال مرضاة اللّه وإنما لينال حظاً من الدنيا. بعبارة أخرى أن التصرف هو تصرف دبلوماسي لا تصرف أخلاقي صرف.

يقول عبد المقصود[120]:"وكان، إلى هذه الأريحية الكريمة، لا يقرن صفحهُ بمنٍّ ولا يتطلع من ورائه لشكر. وكيف لا وصفحه تقدمة إلى اللّه وحده تترفع عن مثوبة العبيد".

ثم يضيف عبد المقصود نقطة أخرى وهي معرفة علي(ع) بأن ما قابلهم به من الصفح لن ينفع في الحد من غلوائهم في عداوته فيقول[121]: "بل لم يكن لغيب عن فطنته أن معظم من أظلهم حلمه ووهبهم الحياة والحرية لن يلبثوا أن ينكصوا على الأعقاب فيقابلوه بالكفران دون الشكران، وبالجحود دون العرفان ما أن تتاح لهم فرصة للتنكر والتنمر. ومع ذلك فقد كان دائماً يتوقى مدافعة الإساءة بالإساءة، ومغالبة العيب بالعيب، متنـزهاً عن تناول سير

---

[118] أحاديث أم المؤمنين عائشة، مرتضى العسكري، ج 1، ص 249، نقلاً عن جملة من المؤرخين

[119] نفسه

[120] السقيفة والخلافة، ص 291

[121] نفسه

شانئيه بالقدح والتجريح. وتلك لا ريب مكرمة تعز في الخلائق وتستعصي على أنفس البشر إلا من طهر اللّه قلبه من الغل، وعصم لسانه وفمه عن نهش الجيف ولعق الأوحال".

واستمر أمير المؤمنين(ع) على هذه الأريحية والكرم الفريد حتى مع من وصل إلى تكفيره – ويا للمهزلة – فلا يتزلزل ولا ينفعل، بل يستثمر الفرصة لتعليم الناس كيف ينبغي لهم أن يتصرفوا بعلو نفس وعفو، أو عدم الإسراف في الرد. فعندما سمع أحداً يقول: "قاتله اللّه كافراً ما أفقهه؟" وأراد الحاضرون قتل الخارجي، منعهم(ع) قائلاً: ‹‹**رويداً إنه سب بسب أو عفو عن ذنب**››[122].

هذا السب الذي لم يحبه لأنصاره، حتى مع من بغى عليهم وحاربهم وقاتلهم وقتل الألوف منهم. فعندما سمع أن بعض كبار أنصاره يسبون زعيم البغاة معاوية وجيش الشام قال(ع) لهم: ‹‹**إني أكره لكم أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم وأهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به**››[123].

واستمر هذا إلى آخر حياته عندما ضربه ابن ملجم فإنه قال قولته الشهيرة لأهله: ‹‹**يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون في دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين، ألا لا يقتل بي إلا قاتلي**››[124]. وبعد ذلك أمرهم بأن ينتظروا إن توفي من تلك الضربة فإنهم يضربون عنق ابن ملجم وحسب ولا يمثلون به، وإن عاش من تلك الضربة فإنه سيتولى الأمر، وأوصاهم إلى أن يحين ذلك أن يعاملوا ابن ملجم بالمعاملة الحسنة، في مأكله ومشربه وما إلى ذلك، في حبسه هناك. وربما أستطيع القول يقيناً أنه(ع) لو عاش من تلك الضربة لعفا عن ذلك المجرم أسوة بما صنع مع الذين قاتلوه وقاتلوا أولاده وأصحابه وأولياءه.

[122] نهج البلاغة، ج 4 قصار الحكم، حكمة 420

[123] نهج البلاغة، ج 1، خطبة/كلام رقم 206

[124] المناقب، الموفق الخوارزمي، ص 386

بين البشاشة والهيبة

وأخيراً لم تكن المواقف هي وحدها التي أظهرت كرم أخلاقه(ع)، وإنما كانت حتى تعبيرات وجهه تنم عن ذلك. قال ابن أبي الحديد[125]: "وأما سجاحة الأخلاق، وبشر الوجه، وطلاقة المُحيّا والتبسم، فهو المضروب به المثل فيه، حتى عابه بذلك أعداؤه. قال عمرو بن العاص لأهل الشام: إنه ذو دعابة شديدة. وقال علي(ع) في ذاك: «**عجباً لابن النابغة! يزعم لأهل الشام أني فيّ دعابة، وإني امرؤ تلعابة، أعافس وأمارسّ!**»[126] وعمرو بن العاص إنما أخذها عن عمر بن الخطاب لقوله له، لما عزم على ترتيب الشورى لاستخلافه: "للّه أبوك لولا دعابة فيك!" إلا أن عمر اقتصر عليها، وعمرو زاد فيها وسمجها!

والحقيقة أن ذلك كان لا ينفصل عن هيبته التي يشعر بها جلساؤه حيث قال صعصعة بن صوحان وغيره من شيعته وأصحابه[127]: "كان فينا كأحدنا، لين جانب وشدة تواضع، وسهولة قياد، وكنا نهابه مهابة الأسير المربوط للسياف الواقف على رأسه!"

ثم ذكر المحاورة ما بين معاوية وقيس بن سعد بن عبادة[128] حيث قال معاوية: رحم اللّه أبا حسن فلقد كان هشاً بشاً ذا فكاهة! قال قيس: نعم، كان رسول اللّه(ص) يمزح ويبتسم إلى أصحابه، وأراك تُسِرّ حَسواً في ارتِغاء[129] وتعيبه بذلك! أما واللّه لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيب من ذي لبدتين قد مسه الطّوى، تلك هيبة التقوى وليس كما يهابك طغام أهل الشام!" ثم يقول ابن أبي الحديد: "وقد بقي هذا الخلق متوارثاً متناقلاً في محببه وأوليائه إلى الآن، كما بقي الجفاء والخشونة والوعورة في الجانب الآخر، ومن له أدنى معرفة بأخلاق الناس وعوائدهم يعرف ذلك".

أقول عوداً على بدء، أن قول قيس يذكر بما قلناه من قوله(ع) بأنه كان تلميذ رسول اللّه(ص) وكان يرفع له كل يوم علماً من أخلاقه ثم يأمره بالاقتداء به فصار كأنه نسخة من رسول اللّه(ص) في هديه وخلقه وسيرته مما لم يكن لأحد حظ كحظه(ع) في ذلك.

---

[125] شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد، ج 1، ص 25

[126] ابن الأثير، النهاية، ج 1، ص 117، وغيره

[127] شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد، ج 1، ص 25

[128] نفسه

[129] أي أنت تقول شيئاً ولكن تريد شيئاً آخر، بمعنى أنت تظهر المدح ولكن تريد الذم

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

الفصل الرابع

الرأي مقابل التسليم

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

الرأي في مقابل التسليم

فَلا تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِي مَا لاَ يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ، وَلاَ تَتَغَلْغَلُ إِلَيْهِ الْفِكَرُ

نعمة العقل ودوره

إنه من أهم نعم اللّه سبحانه وتعالى على الإنسان نعمة العقل، فإنه بالعقل عرف اللّه وتعالى وصدقت النبوات واتبعت الأوامر والنواهي، وبالعقل تتم عمارة الأرض في إطار استخلاف الإنسان فيها مدة عمره. وحتى عندما يسأل البعض عن حساب الناس الذين لم ترسل إليهم نبوات – وربما إن ذلك غير صحيح حيث أن اللّه سبحانه وتعالى لا بد أن يرسل للناس من يهديهم لطفاً منه بعباده، قال تعالى: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾ الإسراء:15، فإن الجواب هو أنهم يحاسبون حسبما توصلت إليه عقولهم في التمييز بين الخير والشر وفي معرفة ضرورة وجود الخالق المهيمن.

ويُعد العقل ودور العقل من الأمور التي تتميز بها الشيعة الإمامية الإثنا عشرية حيث تؤمن بالحُسن والقبح العقليين، بمعنى أن العقل يستطيع التمييز بين ما هو حسن وما هو قبيح دون الحاجة إلى انتظار الشرع في ذلك. فمثلاً أن العقل يدرك ويحكم بأن الصدق حسن وأن الكذب قبيح حتى وإن لم تخبرنا الشريعة المطهرة بذلك. هذا في قبالة المذاهب الأخرى التي تؤمن في هذه الأمور بما ذهب إليه أبو الحسن الأشعري وغيره بأن الحسن ما حسّنه الشرع والقبح ما قبّحه الشرع، أي أنه من الممكن أن يكون الكذب حسناً والصدق قبيحاً إذا ما حكم الشرع بذلك. إلا أنهم يستدركون بأن الشرع لا يمكن أن يحكم إلا بالحسن وينبذ القبيح، وهذا لعله يشكل تناقضاً إذا قلنا أن الشرع لا يمكن أن يحكم بالحسن إلا أن يكون حسناً وبالقبيح إذا كان قبيحاً، إذاً كان هناك رأي منفصل عن الشرع أصلاً يقول بأن هذا حسن وهذا قبيح ثم جاء الشرع على ذلك، وهذا يناقض القول بأنه ينتظر ما تقول الشريعة فيه. على أن هذا ليس بحثنا ها هنا.

إن العقل يشكل أهمية ليس في باب العقائد والكلاميات فحسب وإنما يدخل كدليل رابع من أدلة الاجتهاد للوصول إلى الحكم الشرعي، هذا عند الشيعة الإمامية، في قبالة القياس أو الاستحسان أو غيره كما في المذاهب الأخرى.

متى يتوقف دور العقل

مع هذا، فإن الشيعة، أسوة بغيرهم من المسلمين، وعملاً بأمر اللّه تعالى ورسوله(ص) والأئمة الهداة من أهل بيته(ع)، يتوقفون عن إعمال العقل في ما يجب التسليم له. فمثلاً مسألة هيئة المصلي في حركات الصلاة في أركانها، أو مناسك الحج، أو غير ذلك من الأمور التي يدخل فيها الأعداد أو الأشكال أو الأوقات، في كثير منها لا يمكن للعقل أن يصل إلى نتيجة قطعية، بل ربما يقف عاجزاً تماماً فلا يصل إلى أي نتيجة في بعضها.

إن الكثير من الأمور التي ربما لا يمكن أن يتحملها العقل، أو نستطيع أن نقول أنه لا يتحملها الإنسان بما نشأ في إطاره، بحيث يصبح من الأسلم له أن لا يتعرض لها. وبما أن البشر يختلفون في إمكاناتهم الذهنية فقد جاء التحذير من مغبة الذهاب بعيداً في إعمال العقل في ما لا يمكن أن يدركه أو يتوصل إليه.

إن القرآن مدح الذين يسلمون لما لا يمكن التوصل إلى الحكمة فيه، في الوقت الذي يسلمون للذي توصلوا إلى معرفة أسراره، وسماهم "الراسخون في العلم". ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا**﴾ آل عمران:7.

في خطبة للإمام علي(ع)[1] علم الناس كيف تكون صورة المولى عز وجل في أذهانهم: ‹‹**فَانْظُرْ أَيُّهَا السَّائِلُ: فَمَا دَلَّكَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائْتَمَّ بِهِ وَاسْتَضِيءْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ، وَمَا كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عِلْمَهُ مِمَّا لَيْسَ فِي الْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ، وَلاَ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ** (صلى اللّه عليه وآله) **وَأَئِمَّةِ الْهُدَى أَثَرُهُ، فَكِلْ عِلْمَهُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ ذلِكَ مُنْتَهَى حَقِّ اللهِ عَلَيْكَ**››.

[1] خطبة الأشباح، نهج البلاغة، ج 1، خطبة 90

فهو يصف كل فكرة خارج إطار القرآن الكريم بأنها من وساوس الشيطان فيما يتخبط الناس به – هذا الإطار القرآني الذي تجده في آيات الكتاب وفي سنة النبي(ص) وفي تعاليم الأئمة(ع)؛ وأن الفكرة إذا كانت تستهدف المعرفة حقاً ولكنها فشلت في أن تجد لها صدى في هذا الإطار فإن الواجب هو ترك الأمر إلى علم اللّه تعالى.

ثم قال(ع) فيما يخص نقطة الراسخين في العلم: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ اقْتِحَامِ السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ الْاقْرَارُ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْـمَحْجُوبِ، فَمَدَحَ اللهُ ـ تَعَالَى ـ اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيما لَمْ يُكَلِّفْهُمُ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخاً، فاقْتَصِرْ عَلَى ذلِكَ، وَلاَتُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ**».

أي أن هذا منهج الراسخين في العلم في الاعتراف بما جهلوه هو الذي أغناهم عن المحاولة الفاشلة في اقتحام الغيوب التي سدت أبوابها؛ وهذا الاعتراف منهم بالعجز صار سبباً لمدح اللّه تعالى لهم، بل أن تركهم محاولة التعمق فيما لا يمكن الوصول إليه سماه رسوخاً في العلم. أي ما يتصور من أن الاعتراف بالعجز دليل ضعف أو قلة علم صار دليلاً على رسوخ العلم، وذلك لأنه يدل على المعرفة الحقيقية، المعرفة بالعجز في هذه الأمور بالذات (بينما سيكون الاستمرار في المحاولة لكشف الغيوب المستورة مطلقاً محاولة جاهل لا يريد أن يفهم أنها مستحيلة الوصول).

أخيراً، يحذر(ع) من أن يقود الاستمرار في محاولة استكناه ذات اللّه التي ضربت دونها الحجب إلى خلق صور ذهنية لا يمكن إلا أن تكون بقدر القدرات الذهنية المحدودة للإنسان، ما يهبط بالمولى المطلق إلى مستوى الذهن المحدود.

ولعل في هذا إشارة تربوية تمتد إلى باقي المجالات تنصح الإنسان أن يتناول بالتفكير ما يمكن بحسب قدراته الذهنية وخبراته وتعليمه، ويتجنب الخوض فيما لا يملك وسائله لأنه سيضيع وقته وجهده من جهة وربما سيقود إلى إشاعة الجهل من جهة أخرى.

أما الروايات التي قالت بأن الراسخين في العلم هم أهل البيت(ع)، كما في حديث الصادق(ع): ‹‹**والراسخون في العلم هم آل محمد**››[2] وقوله: ‹‹**نحن الراسخون في العلم**››[3] فهو أولاً "من باب الجري والانطباق"[4]، أي من باب جريان هذه الآية على آل محمد(ص) أسوة بالكثير من الآيات التي لم تخصص بهم(ع) ولكن طبقتها الأحاديث الشريفة عليهم، وثانيًا لأنهم(ع) السابقون إلى كل خير، وطالما كان التوقف عند حدود تعليم اللّه تعالى وإيكال ما أبقاه تعالى في غيبه الذي لم يطلع عليه أحداً هو الموقف الصحيح فإنهم عليهم السلام سيكونون أفضل مصداق لمن يتخذ هذا الموقف، فيكونونالراسخين في العلم حقاً وصدقاً.

وفي بحثنا هذا مررنا بكلمة للإمام(ع) عندما تحدث عن موتهم وما يحدث لهم أو لا يحدث من البلاء قال: ‹‹**فَلاَ تَقُولُوا بِمَا لا تَعْرِفُونَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ**››.

في آخر هذا الجزء الذي هو موضع بحثنا ها هنا تأتي هذه الكلمة التي ينصح فيها الإمام بعدم استعمال الرأي في الأمور التي لا يمكن للنظر فيها أن ينجح في إدراكها ولا التفكر فيها أن ينجح في التغلغل فيها والوصول إلى كنهها وأسرارها.

الثقة بتعليم الإمام(ع)

فيما نفهم، إن الإمام(ع) هنا يتناول أمرين: الأول هو التحذير من استعمال الرأي فيما لا مجال للرأي فيه كما قلنا؛ والثاني يشير إلى أنه(ع) له من العلم في الشريعة وما إليها وأيضاً في الأمور الذي ستحدث بما لا معرفة للآخرين به. بعبارة أخرى يقول لهم إني مسؤول عن هدايتكم، وإن وظيفتي هي أن أبين لكم الحق وأحذركم من الباطل وأسير فيكم بالسيرة التي تجعلكم تأمنون من الضلال في المستقبل، وذلك من خلال علمي بالأسرار، وأيضاً من خلال توقفكم عن الإدلاء بدلوكم فيما لا علم لكم به والذي سيؤدي إلى الاختلاف وإلى التطاول على الأمور المختلفة مما سينتج عنه الضلال المبين.

[2] تفسير العياشي، ج 1، ص 162
[3] كتاب الكافي، ج1، باب فرض طاعتهم عليهم السلام حديث 6
[4] تفسير الميزان، الطباطبائي، ج 3، ص 69

روى المحدثون روايات كثيرة عن علم الإمام علي(ع). من ذلك ما رواه الإمام أحمد[5] عن أبي إسحاق عن هبيرة قال: خطبنا الحسن بن علي(ع) فقال: ‹‹**لقد فارقكم رجل بالأمس لم يسبقه الأولون بعلمٍ ولا يدركه الآخرون**››. وقد رواها أبو نعيم[6] والمتقي الهندي[7] وغيرهما.

وروى الترمذي[8] أن رسول اللّه(ص) قال: ‹‹**أنا دار الحكمة وعليٌ بابها**›› وروى مثله السيوطي[9] والمتقي الهندي[10] وغيره.

وروى أبو نعيم[11] أن النبي(ص) سُئِل عن علي فقال: ‹‹**قُسمت الحكمة عشرة أجزاء فأُعطي عليٌ تسعة أجزاء والناس جزءاً واحداً**››. وذكره صاحب كنـز العمال[12] ولكن زاد في آخره: ‹‹**وعلي أعلم بالواحد منه**››.

وأخرج الحاكم[13] في المستدرك بسنده عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول اللّه(ص) قال: ‹‹**أنا مدينة العلم وعليّ بابها، فمن أراد المدينة فليأت الباب**›› أو ‹‹... **فمن أراد العلم فليأته من بابه**››[14]. وهذا حديث شهير رواه السيوطي[15] والمتقي الهندي[16] وغيرهما.

---

[5] مسند الإمام أحمد، ج 1، ص 199

[6] حلية الأولياء، ج 1، ص 65

[7] كنـز العمال، ج 6، ص 412

[8] صحيح الترمذي، ج 2، ص 299

[9] الجامع الصغير، ج 1، حديث 2704

[10] كنـز العمال، ج 11، حديث 32889

[11] حلية الأولياء، ج 1، ص 64

[12] كنـز العمال، ج 5، ص 154

[13] المستدرك، ج 3، ص 126

[14] المعجم الكبير، الطبراني، ج 11، ص 55

[15] الجامع الصغير، ج 1، حديث 2705

[16] كنـز العمال، ج 11، حديث 32890

من علمه(ع) ما لا تحتمله العقول

وقد بين الإمام(ع) للناس أن ما أُلقي في علمه من أنواع العلوم والمعارف ما لا تحتمله العقول ولا يحتمله الناس فقال[17]: «**اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطويِّ البعيدة**». أي أن العلم الذي عنده لا يباح به لأنه لو فعل ذلك لتنزلزل الناس كما تتنزلزل الحبال في الآبار العميقة. ويعلّق ابن أبي الحديد في شرحه على هذه الكلمة بالقول بأن في هذا إشارة إلى الوصية التي خصّ بها الإمام علي(ع) وذلك أنه كان من جملتها الأمر في ترك النـزاع في مبدأ الاختلاف عليه، مشيراً إلى ما كان في صدر الخطبة عن كيفية التعامل مع الفتن وبالشكل الذي يضمن سلامة الأمة.

وقال أيضاً(ع)[18]: «**إن أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلا عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، ولا يعي حديثنا إلا صدور أمينة، وأحلام رزينة.**

أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني، فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض، قبل أن تشغر برجلها فتنة تطأ في خطامها وتذهب بأحلام قومها».

وهذا واضح في أن الكثير مما يختص الأئمة(ع) فيه مما لا يحتمله الكثيرون، وربما الأكثرون، بحيث أن الذي يحتمله هو الإنسان المؤمن الذي امتحن قلبه للإيمان، وامتحان القلب هو الذي اختبر وجرد حتى صار قادراً على احتمال ما يتطلبه.

ويذكر ابن أبي الحديد في شرحه أن الإمام(ع) قال هذه الكلمة مراراً، وأن في بعضها أنه قال: «**إن أمرنا صعب مستصعب، لا يعرف كنهه إلا ثلاثة: ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان، فإذا انكشف لكم سر أو وضح لكم أمر فاقبلوه، وإلا فاسكتوا تسلموا، وردوا علمنا إلى الله فإنكم في أوسع مما بين السماء والأرض**».

---

[17] نهج البلاغة، الخطبة 5

[18] نهج البلاغة، الخطبة 189، وعيون الحكم والمواعظ، الليثي الواسطي، ص 143

سلوني قبل أن تفقدوني

وأما قوله ‹‹**سلوني قبل أن تفقدوني**›› فهو قول مشهور معروف، ربما لأنه(ع) كان الوحيد الذي يقول هذا القول. أما لماذا، فربما أولاً لأن الآخرين لم يكونوا قادرين على أن يدّعوا هذا الادعاء العريض بأنهم يعرفون ما سيسألهم الناس عنه، وهو المعروف المتوقع من البشر. وأما الثاني فربما لأن البعض من هؤلاء لم يرد الناس أن يتعلموا على السؤال والبحث لأن ذلك ربما يقود إلى أن يصبح هؤلاء الناس في وضع يسمح لهم بمناقشة هؤلاء.

وأما قوله(ع) أنه أعلم بطرق السماء منه بطرق الأرض ففيه إشارة – كما قال الشراح – لما يحصل في المستقبل من أخبار الملاحم والدول وغير ذلك. من ذلك أنه أخبر حجر بن قيس المدري، وهو من القريبين أو المختصين بخدمة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، على ما روى عبد اللّه بن طاووس عن أبيه حيث قال الإمام علي له يوماً: ‹‹**يا حجر إنك تقام بعدي فتأمر بلعني فالعنّي ولا تبرأ مني**››؛ قال طاووس: فرأيت حجر المدري وقد أقامه أحمد بن إبراهيم خليفة أمية في الجامع ووكل به ليلعن علياً(ع) أو يقتل[19].

وأخرج ابن سعد[20] في ترجمة مروان بن الحكم قال: قال علي بن أبي طالب له يوماً ونظر إليه: ‹‹**ليحملن راية ضلالة بعدما يشيب صدغاه، وله أمرة كلحسة الكلب أنفه**››.

وأخرج ابن حجر[21] في تهذيب التهذيب أنه لما ولد علي بن عبد اللّه بن العباس جاء أبوه – أي ابن عباس – إلى علي بن أبي طالب(ع) فقال: ‹‹**ما سميته؟**›› فقال: أو يجوز لي أن أسميه قبلك؟ فقال علي(ع): ‹‹**قد سميته باسمي وكنيته بكنيتي، وهو أبو**

---

[19] مستدرك الصحيحين، ج 2، ص 358

[20] الطبقات الكبرى، ج 5، ص 30

[21] تهذيب التهذيب، ج 7، ص 358

الأملاك›› ويشير إلى أنه أبو ملوك بني العباس، ذلك أن أول خلفاء بني العباس السفاح والثاني أبو جعفر المنصور الذي استمرت الخلافة في عقبه هم أولاد داوود بن علي هذا.

وأخرج الهيثمي[22] في مجمعه عن جندب الحديث عندما خرج الخوارج عن الإمام علي(ع) وتركوه ثم أحدثوا ما أحدثوه وخرج في طلبهم أن جندباً هذا قال: قد قطعوا النهر، فقال الإمام علي(ع): ‹‹**ما قطعوه، ولا يقطعوه وليقتلن دونه – عهد من الله ورسوله**››.

ثم ذكر قول الإمام علي: ‹‹**يا جندب أما أنه لا يُقتَل منا عشرة ولا ينجو منهم عشرة**›› فحدث ما أخبر عنه(ع)". وأخرج صاحب الرياض النضرة[23] عن الأصبغ قال: أتينا مع علي(ع) فمررنا بموضع قبر الحسين(ع) فقال علي(ع): ‹‹**ها هنا مناخ ركابهم، وها هنا موضع رحالهم، وها هنا مهراق دمائهم، فتية من آل محمد(ص) يقتلون بهذه العرصة تبكي عليهم السماء والأرض**››. وهو حديث ذكره آخرون كالطبري في ذخائر العقبى[24].

وخلاصة القول أنه(ع) بعلمه الغزير الذي أخذه عن رسول اللّه(ص)، بشكل أو بآخر – حيث أن تعليمه ألف باب من العلم يفتح كل بابٍ ألفَ باب، كما أخبر عندما خرج من عند رسول اللّه(ص) يوماً[25]، لا يمكن أن يكون بالتعليم العادي وإنما بطريق آخر يتجاوز الزمن لأن الزمن المحدود الذي نعرفه يستحيل أن يمكّن من مثل هذا العلم – هو الذي جعله على معرفة تامة ليس فقط بالعقائد وليس فقط بالأحكام الشرعية وليس فقط بالأخلاقيات الإسلامية وما يجب عليه أن يكون عليه المسلمون أفراداً ومجتمعات، وإنما جعله يعلم بأن من أخطر ما يمكن أن يرد على الإنسان وعلى المجتمع الخوض فيما لا يمكن أن يتوصل إليه عقله مهما حاول وذلك سواء كان من المفكرين في هذا المجتمع أم

[22] المجمع، ج 6، ص 341
[23] ج 2، ص 222
[24] ذخائر العقبى، ص 97
[25] بحار الأنوار، ج 22، ص 461، و كنز العمال، ج 133، حديث 36372، وتفسير الرازي، ج 8، ص 23، وغيرها

ذاك أم لا، وإلا كيف يستطيع كائن من كان أن يفكر في التوصل إلى نتيجة في قضايا تخص الذات الإلهية – الذات والصفات، أو في الحكمة من وراء الكثير من الأحكام الشرعية والحلال والحرام. بمعنى أن هذه أمور يتساوى فيها الجميع. ويستثنى من ذلك الذين امتحن اللّه قلوبهم للإيمان أو قلوبهم للتقوى، لا بأنهم يستطيعون الوصول إليها ولكن بمعنى أنهم يستسلمون لها إذا ما ألقيت إليهم من علي(ع) أو من الأئمة الهداة ومن قبلهم من رسول اللّه(ص)، كما حكي بخصوص بعض الصحابة والتابعين من أمثال سلمان أو كميل بن زياد أو غيرهما.

القسم الثالث

أنزلوهم

بأحسن منازل القرآن

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

الفصل الخامس

القرآن وعترة النبي (ص)

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

منازل القرآن وأهل البيت(ع)

أَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ

قلنا أن المحور الأساس في هذا البحث هو هذه العبارة الواضحة البليغة من خطبة أمير المؤمنين(ع) التي يوصي فيها الأمة بأن تنـزل عترة النبي(ص) بأحسن منازل القرآن[1]. ويفهم من ذلك أنه(ع) يحثهم ويوصيهم بأن ينظروا إلى أهل بيت النبي(ص) وإلى مكانتهم نظرة رفيعة تتناسب مع سمو القرآن الكريم الذي اقترنت العترة الطاهرة به وأمر النبي الكريم(ص) أمته بالتمسك بهما معاً ضماناً للهداية وحصناً من الضلال واطمئناناً للفوز برضا اللّه تعالى، هذا إجمالاً. وأما تفصيلاً، فإنهم ينبغي أن يعاملوا مثلما يتم التعامل مع منازل القرآن، واحدة واحدة، حسبما يناسب الحال، وملاحظة وتمييزاً ومراعاة لحقيقة كون القرآن كلام اللّه تعالى الذي يمثل الدستور العقائدي والتشريعي والأخلاقي وكون عترة النبي(ص) الأفراد من البشر الذين أنيطت به مهمة تفعيل هذا الدستور في حركة الحياة.

وفي هذا الباب سنتناول هذه الكلمة على الشكل التالي:

1. القرآن الكريم بأسمائه ووصفه.
2. الإشارة إلى العلاقة بين القرآن والسنة والعترة المباركة.
3. تبيان منازل القرآن عند المسلمين.
4. مراقبة هذه المنازل مع العترة الشريفة.
5. نخلص إلى الحكم بفَرادة القرآن الكريم وعترة النبي(ص).

---

[1] إن كلمة «أحْسَن» لا نفهم منها بأن هناك منازل للقرآن أحسن من غيرها (وإن كان ذلك كذلك في المقارنة بين منازل القرآن، ولكن ليس هاهنا تطبيقها) ولكن أن تنزل الأمة عترة النبي(ص) بأحسن ما تنزل القرآن الكريم في حياتها، تبجيلاً وتناولاً واتباعاً.

أسماء القرآن في القرآن

وردت عدة أسماء للقرآن الكريم في آياته البينات وذلك بلحاظ صفاته في دوره أو وظيفته. فقد وصف بأنه **القُرآن**، كما في قوله تعالى: ﴿**فإذا قرأت القُرآنَ فاستعذْ باللهِ من الشيطانِ الرجيم**﴾ النحل:98. وكلمة القرآن مشتقة من القراءة، أي هو الكلام الذي يُقرأ.

ووصف أيضاً بأنه **الكِتاب** كما في قوله تعالى: ﴿**نزل عليك الكِتابَ بالحق مصدقاً لما بين يديه**﴾ آل عمران:3. وكلمة الكتاب بلحاظ أنه مجموع في كتاب، وبلحاظ أن ما ينـزل هو كتاب مكتوب من عند اللّه تعالى إلى البشر كما نزلت بذلك التوراة والإنجيل والصحف الأولى.

ووصف بأنه **الفُرقان**، كما في قوله تعالى: ﴿**وأنزل الفُرقانَ**﴾ آل عمران:4. والفرقان مشتقة من كلمة الفرق أو التفريق بمعنى أنه يفرق بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال وبين طرق مرضاة اللّه وطرق سخطه.

ووصف بأنه **الذِّكْر**، كما في قوله تعالى: ﴿**وأنزلنا إليك الذِّكْرَ لتبينَ للناسِ ما نُزل إليهم ولعلهم يتفكّرون**﴾ النحل:44. وكلمة الذِّكْر مشتقة من التذكير أي أنه يذكر الناس بمسؤولياتهم وبماهية خلقهم وعلاقتهم باللّه تعالى وما إلى ذلك.

كيف وصفه النبي(ص)

وقد وصف القرآن الكريم بأعظم الأوصاف، منها ما روي عن النبي(ص): «**فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنه شافع مشفَّع وماحل مصدق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل، وهو كتاب تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم، لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة، ودليل على المعروف لمن عرف الصفة، فليجل جال بصره، وليبلغ الصفة نظره ينج من عطب ويتخلص من نشب، فإن التفكر حياة قلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور، فعليكم بحسن التخلص وقلة التربص**»[2].
وهذا وصف جامع شامل لصفة القرآن أنه يهدي إلى الجنة وهو الذي يدل على خير السبل وأنه كلام فصل لا هزل فيه وأن فيه طبقات من الظاهر والباطن، وفيه إشارة إلى أنه سيبقى يُخرج للناس عجائبه وغرائبه وأنه سيكون الدليل على المعروف. وفي آخره ينصح الناس بالتفكر فيه حتى ينتفعوا بقيادته لهم إلى الجنة ورضوان اللّه تعالى.

وبالطبع فإن القارئ يذكر أننا ذكرنا أنه(ص) وصف القرآن بأنه أكبر ما يترك بعد وفاته حيث سماه الثقل الأكبر. فراجع ما قلناه عندما تحدثنا عن كلمة أمير المؤمنين في هذا البحث «**ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر**» وما ذكرناه عن الثقلين في الملحق الخاص بذلك.

---

[2] الكافي، ج 2، كتاب فضل القرآن، حديث 2

وكيف وصفه علي(ع)

أما أمير المؤمنين(ع) فقد وصفه في مواضع كثيرة في خطبه ومواعظه، فمن ذلك قوله[3] أن الكتاب يصدق بعضه بعضاً وأنه لا اختلاف فيه، وأن «**القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلا به**»، متحدثاً عما بينهم لهم رسول اللّه(ص) في شأن القرآن والذي ذكرناه في أعلاه.

وقال(ع)[4]: «**وتعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص. وإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله، بل الحجة عليه أعظم، والحسرة له ألزم، وهو عند الله ألوم**»، فهو يحذر من العمل بغير علم منه ونور منه، فهو جهل لا يستفيق صاحبه منه.

وقال[5]: «**كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله، ولا يخالف بصاحبه عن الله**»، وهو أحسن الوصف في ضمان الأمن من الاختلاف والضلال عن الحق بإتباع القرآن الكريم.

وقال(ع)[6]: «**وعليكم بكتاب الله فإنه الحبل المتين والنور المبين، والشفاء النافع، والري الناقع، والعصمة للمتمسك، والنجاة للمتعلق. لا يعوجّ فيقام، ولا يزيغ فيستعتب، ولا تخلقه كثرة الرد، وولوج السمع. من قال به صدق، ومن عمل به سبق**». وفي هذه الكلمة عدة أمور تبين أن القرآن هو النور والشفاء والري للهيف وهو العصمة وهو النجاة وأنه لا يمكن أن يتعرض للاعوجاج أو الزيغ. كما يصفه بصفة يعرفها من قرأه، سواء في الصلاة أو في

---

[3] نهج البلاغة، الخطبة 18

[4] نفسه، الخطبة 110

[5] نفسه، الخطبة 133

[6] نفسه، الخطبة 156

غيرها: أنه لا يخلق من كثرة الرد، أي لا يبلى من كثرة الإعادة، فالقارئ الذي يكرره لا يمل منه، وهذا نعرفه من تكرارنا لآياته كل يوم في الصلاة عدة مرات دون أن نمل منها. وفي آخرها يعلن بأنه صادق يصدق من قال به وأن العمل به يضمن السبق والفوز.

وقال(ع)[7]: «**فجاءهم** – أي النبي(ص) – **بتصديق الذي بين يديه، والنور المقتضى به، ذلك القرآن فاستنطقوه، ولن ينطق، ولكن أخبركم عنه: ألا أن فيه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائكم ونظم بينكم**». وفي هذه إشارة أنه يحتاج لمن يخبر عنه ويستنطق آياته. أيضاً، فيه حديث التاريخ عن الماضي وأن فيه علم ما يأتي المستقبل وأن فيه حل مشاكلهم وأن فيه ما يحتاج إليه لنظم أمورهم أفراداً ومجتمعات.

وقال(ع)[8]: «**واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب. وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدًى، أو نقصان من عمى. واعلموا أنه ليس على أحدٍ بعد القرآن من فاقةٍ، ولا لأحدٍ قبل القرآن من غنىً، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم، فإن فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر والنفاق، والغي والضلال، فاسألوا الله به، وتوجهوا إليه بحبه، ولا تسألوا به خلقه، إنه ما توجه العباد إلى الله تعالى بمثله. واعلموا أنه شافع مشفّع، وقائل مصدق، وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة شفّع فيه، ومن محل فيه القرآن يوم القيامة صدّق عليه، فإنه ينادي مناد يوم القيامة: ألا أن كل حارث مبتلىً في حرسه وعاقبة عمله غير حرسة القرآن. فكونوا من حرسته وأتباعه واستدلوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آرائكم، واستغشوا فيه أهواءكم**». وهذا الوصف لوحده يحتاج إلى أبحاث في هذه الصفات الكبرى التي بيّنها أمير المؤمنين(ع) لكتاب اللّه تعالى، ولكن ما يلفت فيه كلمة أن الذي يجالس القرآن من الممكن أن يقوم منه بزيادة أو نقصان أما يزيد في الهدى أو ينقص من العمى،

---

[7] نفسه، الخطبة 158

[8] نفسه، الخطبة 176

بمعنى أما أن يستفيد من تبيان الخطأ الذي كان عليه من فكرة أو عقيدة أو غير ذلك أو يتعلم شيئاً جديداً. ويبين أيضاً أن للقرآن شفاعة يوم القيامة وأنه سيشفع لمن يشفع له وسيُشفّع. وكذلك أن أمير المؤمنين(ع)، كما هو المعروف من بلاغته الرائعة، ينصح بكلماته ‹‹**استدلوه على ربكم واتهموا عليه آراءكم واستشغوا في أهوائكم**››، فكأنما ينصح بأن يعرض الإنسان آراءه على القرآن ويقفها موقف التهمة إن وجد أو شك أن فيها معارضة له، وكذا بالنسبة لأهوائه التي من الممكن أن تغشه وتدفعه إلى طريق الضلال.

وقال(ع)[9]: ‹‹**ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقده، وبحراً لا يدرك قعره، ومنهاجاً لا يضل نهجه، وشعاعاً لا يظلم ضوءه، وفرقاناً لا يخمد برهانه، وتبياناً لا تهدم أركانه، وشفاءً لا تخشى أسقامه، وعزاً لا تهزم أنصاره، وحقاً لا تخذل أعوانه. فهو معدن الإيمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافي الإسلام وبنيانه، وأودية الحق وغيطانه. وبحر لا ينـزفه المستنـزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لا يجوز عنها القاصدون. جعله الله رياً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاج لطرق الصلحاء، ودواءً ليس بعده داء، ونوراً ليس معه ظلمة، وحبلاً وثيقاً عروته، ومعقلاً منيعاً ذروته، وعزاً لمن تولاه، وسلماً لمن دخله، وهدى لمن ائتم به، وعذراً لمن انتحله، وبرهاناً لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفلجاً لمن حاج به، وحاملاً لمن حمله، ومطية لمن أعمله، وآيةً لمن توسم، وجنة لمن استلأم، وعلماً لمن وعى، وحديثاً لمن روى، وحكماً لمن قضى**››[10]. إنه هنا يشبه القرآن بالسراج والضوء ويشبهه بالبحر ويشبهه بأساسات وأثافي البناء، ويقول بأنه غيطان الحق وأوديته، وأن بحوره وعيونه ومناهله ومنازله وأعلامه وأركامه كلها لا تنضب ولا يمكن أن يضل عنها ولا ينصرف عنها

---

[9] نفسه، الخطبة 198

[10] إن الإنسان يقف حائراً عما يمكن أن يصف به هذا الكلام وعما يمكن أن يتكلم عنه وهو يشعر بالضآلة أمام كتاب اللّه وأمام أمير المؤمنين، الذي هو عدل الكتاب، في وصفه، فلا تدري عما تتكلم: أعن الأوصاف أم طريقة الوصف أم العمق أم الأفكار التي فيها أم الآفاق التي يفتحها، فسلام اللّه عليه وعلى أولاده الطاهرين.

ولا تستنـزف. ثم يصفه بلسماً للعلماء والفقهاء والصلحاء ونوراً وحبلاً ومعقلاً وعزاً وسلماً وهدىً لمن يريد. كما هو العذر والبرهان والنصر لمن يعتمد عليه. وهو فيه آيات للمتوسمين والمتفكرين، وفيه العلوم لمن وعاها والأحاديث لمن رواها والأحكام لمن قضى بها.

وأخيراً، هناك وصف لعلي(ع) عن حال القرآن في زمان (عسى أن لا يكون زماننا) يقول فيه[11]: ‹‹**وأنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله، وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تُلي حق تلاوته، ولا أنفق منه إذا حُرِّف عن مواضعه، ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر! فقد نبذ الكتاب حملته، وتناساه حفظته، فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيان، وصاحبان مصطحبان في طريق واحد لا يؤويهما مؤوٍ. فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليس فيهم، ومعهم وليس معهم! لأن الضلالة لا توافق الهدى، وإن اجتمعا. فاجتمع القوم على الفرقة، وافترقوا على الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم، فلم يبق عندهم منه إلا اسمه، ولا يعرفون إلا خطّه وزبره. ومن قبل ما مثلوا بالصالحين كل مثلةٍ، وسمّوا صدقهم على الله فريةً، وجعلوا في الحسنة عقوبة السيئة**››. يقول أنه يأتي زمان يكون القرآن الكريم غير مرغوب فيه، يقل الاهتمام به إلا إذا حُرّف عن مواضعه. ويقول بأن حملة الكتاب (أي الذين يدعون الناس إليه ويدعونهم به) نبذوه، وحفظته تناسوه، فصار الكتاب وأهله طريدين لا يؤويهما مؤوٍ. وهنا إشارة إلى من هم أهل الكتاب العزيز، لأنه إذا كان الحملة والحفظة قد نبذوه وتناسوه فمن أهله الذين هم معه طريدان منفيان؟ ثم يعبر بتعبير جميل أن الكتاب وأهله سيكونون موجودين في الناس ولكن كأنهم ليسوا فيه، وهذا وصف لغربة الكتاب وأهله في الناس. ثم ينعى عليهم بأنهم صاروا كأنهم هم الذين يحددون لكتاب اللّه الحق وليس أن الكتاب هو إمامهم هاديهم، وبالتالي فكأنه لم يبق عندهم إلا اسمه وخطّه من الأمور الثانوية، لا حقيقته ومضامينه ووظيفته.

---
[11] الخطبة 147

العلاقة بين القرآن والسنّة والعترة

نتكلم في هذا القسم وبشكل سريع عن العلاقة بين القرآن والسنة والعترة النبوية، وذلك قبل أن نعرج على ذكر منازل القرآن وإتمام البحث. فقد ذكرنا فيما مضى أن القرآن الكريم وعترة النبي(ص) قُرنا اقتراناً مستمراً بحيث النبي(ص) قال أنهما لا يفترقان، والذي فُهم منه أمران: الأول عصمتهم(ع)، والثاني استمرار وجودهم مع وجود القرآن. إن الحديث الشريف يُبين المراد من آيات الكتاب العزيز وذلك قوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ النحل:44. إلا أن المشكلة في السنة أنها لم تكن مجموعة في وقت النبي(ص)، بل ربما كان هناك بعض من كتب شروحاً على صحف تحوي سور القرآن الكريم كما جاء في تفسير أو تبيان طبيعة مصحف فاطمة أو غير ذلك. وقد جاءت الأحاديث تؤكد أن النبي(ص) لم يترك السنة مكتوبة أو مرتبة أو مجموعة، فقد أخرج البخاري[12] عن عبد العزيز بن رفيع قال دخلت أنا وشداد بن معقل على ابن عباس(رض) فقال له شداد بن معقل أترك النبي(ص) من شيء؟ قال: ما ترك إلا ما بين الدفتين. قال ودخلنا على محمد بن الحنفية فسألناه فقال: ما ترك إلا ما بين الدفتين. وبهذا فإن ما ترك النبي من علم مكتوب كان هو القرآن الكريم.

إذاً كيف يمكن القول بأنه(ص) قال بأنه ترك الكتاب والسنة في حديث «**إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي**»، والذي أشرنا إليه في البحث ونوقش أيضاً في ملحق حديث الثقلين في آخر الكتاب؟ حسب ذلك الحديث فإنه(ص) يقول «**إني تارك فيكم**»، وكلمة «**فيكم**» تعني أنها موجودة، وهذا الحديث الذي ذكرناه والذي أخرجه البخاري يثبت عن طريقين، عبد اللّه بن عباس ومحمد بن الحنفية، أن النبي(ص) لم يترك إلا القرآن الكريم وهو بين الدفتين. هذا بالإضافة إلى أنه من المعلوم عند جميع المسلمين أن السنة لم تجمع إلا بعد تسعين سنة من وفاة النبي(ص)، وتحديداً على عهد الخليفة

---

[12] صحيح البخاري، ج 6، باب كتاب فضائل القرآن، الحديث 38

الأموي عمر بن عبد العزيز. فقد كتب المحدثون والمؤرخون كيف أن الخليفة الأول، ومن بعده الخليفة الثاني، طلب من الناس أن يجمعوا ما عندهم من حديث، فلما جمع لم يكتبوه بل على العكس من ذلك أُحرق لأنه، حسب الخليفة الثاني عمر، خشي أن يتأسس الاشتباه بين السنة المكتوبة وبين القرآن الكريم.

هل يمكن للسنّة أن تختلط بالقرآن؟

وهنا لا نريد أن نناقش هذا الأمر والدوافع من ورائه لأن الخليفة الثاني وقبله الخليفة الأول، حيث يتكلمان العربية كما أنزل القرآن، يعرفان قيمة لغة القرآن وسمُوّه على غيره مما يجعل من المستحيل أن يختلط بغيره، هذا علاوة على أن اللّه سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظه[13]، فبالتالي من غير المعقول أن تختلط السنة بالقرآن. بل إننا إذا قبلنا هذا القول فإننا نفتح الباب على أن القرآن الكريم ليس بهذا السّموّ اللغوي والبلاغي بحيث يمكن أن يختلط به غيره مع أننا نقرأ آيات الكتاب التي تحدت فطاحل العربية في وقت التنـزيل أن يأتوا بمثله ثم من أن يأتوا بعشر سور ثم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، وعجزوا عن ذلك، واستمر هذا التحدي وسيستمر حتى قيام الساعة.

هذا ويؤيد ما نذهب إليه أن أمير المؤمنين(ع)، وهو من هو في غيرته على القرآن وعلى جمعه حتى قالوا أنه لم يمتنع عن بيعة أبي بكر وإنما تشاغل بجمع القرآن، من غير المعقول أن لا يعرف ولا يُقدّر أن هناك خطورة على القرآن من السنة النبوية لو كان ثمّة خطورة؛ فنراه يشجع على الحديث عن النبي(ص) كما ذكرنا فيما سبق ويشجع على السؤال ويشجع الناس أن تكتب الحديث قائلاً: ‹‹**من يكتب عني علماً بدرهم**››[14].

---

[13] لمناقشة شبهات تحريف القرآن ربما كانت مناقشات السيد أبي القاسم الخوئي رحمة اللّه عليه من أقوى المناقشات حيث رد جميع الشبهات بأحسن بيان وأقوى حجة، فسدّ بذلك باب هذه الشبهات عن كتاب اللّه تعالى. راجع البيان في تفسير القرآن، صيانة القرآن من التحريف، ص 193. أيضاً، يمكن مراجعة مناقشة شبهة التحريف في الأمثل في تفسير كتاب اللّه المنـزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ج 8، ص 18-31.

[14] كنـز العمال، ج 10، حديث 29385، وطبقات ابن سعد، ج 6، ص 168 وغيرهما

جمع القرآن وتدوين السنّة

وملاحظة أخرى عن السُنّة وتدوينها، وهي أن القرآن الكريم نفسه، كما روى المحدثون، جُمع بعد النبي(ص)، بل حتى وقت عثمان بعد أن خشي الصحابة من أن يضيع. فقد أخرج البخاري[15] أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينيا وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة – أي أم المؤمنين – أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد اللّه بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

بل أكثر من ذلك، قالوا أن بعض آيات الكتاب لم يجدوها إلا عند صحابي واحد كما قد جاء في ذيل هذا الحديث أعلاه أن خارجة بن زيد بن ثابت سمع زيد بن ثابت قال: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول اللّه(ص) يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري، ﴿**من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه**﴾، فألحقناها في سورتها في المصحف. وأخرج البخاري[16] أن زيد بن ثابت قال: أرسل إلي أبو بكر قال: إنك كنت تكتب الوحي لرسول اللّه(ص) فاتبع القرآن، فتتبعت حتى وجدت آخر سورة التوبة آيتين مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره، ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم**﴾ إلى آخرها.

---

[15] صحيح البخاري، ج 6، باب كتاب فضائل القرآن، الحديث 9

[16] نفسه، الحديث 10

فعلى هذا، إذا كان القرآن الكريم، على أهميته وعلى الاهتمام به، وصلت درجة الخطورة في ضياعه أن بعضه لم يوجد إلا عند صحابي واحد، فكيف بالسنة النبوية الشريفة؟

على أننا لا نؤمن بما جاء أعلاه فيما تحدثوا، وذلك لأننا نؤمن أن النبي(ص) قد جمع الكتاب العزيز في حياته، وذلك هو جزء من الترتيب الإلهي في حفظه من التحريف الذي وقع في كتب الأمم السابقة. كما أننا لا يمكن لنا أن نتصور النبي(ص) وهو يقول تارك فيكم كتاب اللّه أو الثقل الأكبر وهو لم يتركه مكتوباً بكامله مرتباً كما ينبغي. ونحن نؤمن بأن الخليفة الراشدي الأول – بحسب اعتقادنا – وهو أمير المؤمنين وسيد الوصيين علي بن أبي طالب(ع) كان عنده القرآن مجموعاً ولم يتوف رسول اللّه وإلا وكان القرآن مجموعاً عند وصيّه، وربما كان، كما جاء في بعض الروايات، عند الصحابة الآخرين، بمعنى وجود نسخ أخرى منه.

أما السنة النبوية الشريفة فقد تأخر تدوينها في الدولة الإسلامية لما يقرب من قرن بعد وفاة النبي(ص). فإن "الصحابة والتابعين لم يكتبوا الحديث وإنما كانوا يؤدون الأحاديث لفظاً ويأخذونها حفظاً إلا كتاب الصدقات، ولما خاف عمر بن عبد العزيز اندراسها أمر قاضيه على المدينة أبا بكر محمد بن عمرو بن حزم أن يجمع الأحاديث، فتوفي ابن عبد العزيز وقد جمع ابن حزم كتاباً قبل أن يبعث به إليه[17]. وفي تخريج أبي نعيم الإصبهاني[18] أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الآفاق بجمع حديث رسول اللّه صيانة له عن التلف"[19].

الفارق بين الكتاب والسنّة

تبقى ملاحظة في هذا الشأن وهي الفارق بين الكتاب والسنة في درجة الاعتماد الممكن عليهما من جهة وفي استعمال الأول لتدقيق الثاني من جهة أخرى.

---

17 موطأ مالك ج 1، ص مقدمة 26

18 تاريخ أصبهان، ص 140 – نقلاً عن المصدر الآتي

19 الاجتهاد والتقليد، أبو القاسم الخوئي، ص مقدمة 6

فقد أجمع المفسرون أن قوله تعالى ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ الحجر:9: يدل على أن القرآن الكريم – وهو الذكر في الآية – قد تكفل اللّه تعالى بحفظه من أن تعبث به أيادي التحريف بتغيير أو تبديل أو زيادة أو نقيصة (ولعل في لام التوكيد في كلمة "لحافظون" زيادة في التشديد على الوعد الإلهي بالحفظ). وهذا يعني أن القرآن الكريم قطعي الصدور، بمعنى أننا نقطع أنه جاء من عند اللّه، فلا نشك في أية سورة أو آية أو كلمة أنها من التنزيل المبين، فلا دخل لأي بشر فيه.

أما السنة فإن إجماع المسلمين أنها المبينة للكتاب وذلك أولاً لأن الكتاب قال ذلك كما في قوله ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ النحل:44، أو أمره لنا باتباع ما جاء به الرسول(ص) حيث قرنه بما جاء من عند اللّه كما في قوله ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ الحشر:7. كما أن الإجماع على أن الروايات الحديثية اشتملت على الصحيح والحسن والضعيف والموضوع. وعليه فإن قيمة السنة أنها مبينة للكتاب، بشكل أو بآخر، فلا بد من الرجوع إليها[20].

ولكنهم اختلفوا في الكثير من الروايات، فرواية واحدة يصححها واحد ويضعفها ثان ويردها بأنها موضوعة ثالث.

هنا القضية الثانية وهي أن القرآن الكريم ضروري لتأسيس مرجعية الحديث أولاً (ما قلناه عن تأسيس مرجعية النبي(ص) أعلاه)، وللتأكد من الروايات عن طريق إرجاعها إلى آيات الكتاب للتأكد من عدم مخالفتها له، وهذا ما جاء من عرض الروايات على القرآن فإذا وافقته فبها، وإلا فكما أمر النبي(ص) نفسه «**إذا جاءكم حديث عنّي فاعرضوه على كتاب الله فإن وافق كتاب الله فاعملوا به وإن خالف كتاب الله فاضربوا به عرض الجدار**»[21]، لأن «**كل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف**»[22].

[20] حتى الذين غالوا في عدم الحاجة إلى السنّة من المعاصرين يعترفون بضرورتها من أجل تحديد بعض العبادات وفي مقدمتها الصلاة، في عددها وركعاتها وحركاتها وسائر تفاصيلها – فلهم أن يفكروا في أصل مقالتهم إذاً!

[21] تفسير أبو الفتوح، ج 3، ص 392

[22] بحار الأنوار، مجلد 1، ج 2، ص 495، باب 29، رواية 37

وبهذا فإن السنة النبوية التي يمكن لها أن تخطأ بسبب العلة في السند أو بسبب العلة في المتن بما وقع على ما سمعوه من رسول اللّه(ص) من كذب أو تغيير أو تحريف أو نسيان أو تخليط أو غير ذلك فإن هذه السنة لا يمكن أن يعتمد عليها كمصدر معصوم كما يعتمد على القرآن الكريم. إذاً تبقى المشكلة كما هي وهي كيفية الاعتماد على القرآن لوحده إذا كان هذا هو الذي تركه النبي(ص) ولم يترك غيره على هذه الشاكلة كما رووا؟

لا بد من المفسّر المعصوم

هنا لا بد من مصدر معصوم كي نضمن سلامة التفسير لآيات الكتاب وسلامة النقل عن النبي(ص) من أقواله وأفعاله وتقريراته بما مجموعه يمثل السنة النبوية الشريفة.

ولكننا نسأل: هل أن القرآن الكريم بهذه الدرجة من الوضوح والبساطة في آياته مفاهيمَ ومصداقيةً؟ هل كان القرآن لزمان واحد بحيث يمكن القول أنه فُرِغ من تفسيره والعمل به؟ ثم ماذا نصنع بالأحاديث التي تحدثت عن أن للقرآن ظهراً وبطناً والتي منها ما ذكرناه في وصف النبي(ص) ووصف علي(ع) في بداية هذا الباب. إن أحاديث ظهر القرآن وبطنه وردت على لسان الأئمة الآخرين، فقد جاء عن الباقر(ع) كما رواه المحدثون عن حمران بن أعين قال: سألت أبا جعفر(ع) عن ظهر القرآن وبطنه فقال: ‹‹**ظهره الذين نُزّل فيهم القرآن، وبطنه الذين عملوا بأعمالهم يجري فيهم ما نزل في أولئك**››[23].

فكيف يمكن أن نطبق هذه الآية أو تلك بشكل لا يتجاوز الحقيقة على الذين عملوا بأعمال من نزل فيهم القرآن في وقته بل كيف نستطيع تطبيق ذلك دون قواعد مبينة محددة. ومنه حديث آخر عن الباقر(ع) أن ما في القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن وما فيه حرف إلا وله حدّ ولكل حدّ مطلع، إلى أن يقول أن القرآن يجري كما تجري الشمس والقمر كلما جاء منه شيء وقع ثم قال: ﴿**وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم**﴾ آل عمران:7[24].

[23] نفسه، مجلد 32، ج 89، باب 8، رواية 14

[24] نفسه، رواية 47

لقد وصفت مرجعية القرآن الكريم بالإطلاق الزماني والمكاني، كما في الحديث: ‹‹**إن القرآن حي لم يمت، وإنه يجري كما يجري الليل والنهار وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أولنا**»[25]، أي لو أن الآيات التي نزلت في عصر التنزيل انتهى دورها فإننا سنفقد الكثير من هدى الآيات في عصرنا هذا بعد القرون المتطاولة وتغير الزمان إلى درجة كبيرة جداً، أي أن القرآن، أو بعض القرآن سيكون ميتاً، وهو ما نفاه الحديث الوارد، والذي يجعل من تلك الآيات نماذج لما يأتي بعدها من أقوام وأزمان.

إلا أن تطبيق الآيات القرآنية التي نزلت في عصر على عصر آخر يحتاج إلى المفسر العارف تماماً بإمكانية انطباقها وكيفية تطبيقها. فهل العقول القاصرة والنفوس غير المعصومة من الهوى والخلط والكذب وجميع جوانب ضعف النفس (التي أكد لنا التاريخ مساهمتها الكبيرة جداً في العبث في جميع المعارف الإسلامية) ستستطيع القيام بهذه المهمة بشكلها المطلوب؟

وبذلك نستطيع القول أنه لا بد من المعصوم من أجل تبيان مرامي آيات الكتاب العزيز، سواء التي بيّنها رسول اللّه(ص) مما وقع على عهده أو التي يبيّنها أوصياؤه(ع) من الحوادث التي وقعت بعده؛ هذا أولاً. وأما ثانياً، لا بد من أن يستمر وجود هذا المعصوم أو المعصومين لفترة طويلة يمكن من خلالها استيعاب الكثير من الحوادث التي تقع بعد رسول اللّه(ص) لكي يمكن تأسيس منظومة فقهية شرعية كاملة أو شبه كاملة يمكن للفقهاء العاملين في هذا الحقل من الاهتداء بها إلى أن يجتهدوا للوصول إلى الحكم الشرعي. وإلا هل يمكن أن نتصور أو يتصور الفقهاء أنفسهم أنه يمكن لهم الوصول إلى الأحكام الشرعية في الكثير من القضايا، وربما في أكثرها، على تفاصيلها وتعقيداتها والتغييرات التي تطرأ عليها بحكم الزمن وبحكم المكان وبحكم اختلاف المجتمعات، هل يمكن الوصول إلى الأحكام الشرعية بالنظر في آيات الكتاب العزيز لوحدها بحيث يحصل الاطمئنان إلى ما يتوصلون إليه؟

---

[25] بحار الأنوار، ج 35، ص 403، باب 20، حديث 21

التلازم بين القرآن والسنّة والعترة

نخلص إلى القول بأن العلاقة بين القرآن والسنة والعترة النبوية الشريفة هي علاقة متلازمة بحيث أن العترة بشخوص الأئمة(ع) هم خُزّان علم اللّه تعالى وحفظة الكتاب الذين يعرفون كل آيةٍ متى نزلت وأسباب نزولها وإطارها العام وظهرها ثم بطنها وما يخرج منها من أمور أخرى عبر الزمان، وهم الذين يحملون السنة النبوية الشريفة التي بيّنت الكتاب، كما قال اللّه تعالى في الآية التي أوردناها فيما مضى، وذلك لأنهم الحفظة المأمونون على سنة النبي(ص) كما هم كذلك على الكتاب الذي أنزل عليه.

إلا أن هذا لا يعني أن جميع ما ورد من السنة النبوية الشريفة عنهم(ع) في كتب أتباعهم كلها صحيحة، بل أن يد الوضع والخطأ والنسيان والتخليط لعبت في هذه الأحاديث الشيء الكثير مما لا مجال لذكره، ولكن ينبغي القول أن من آكد الأسباب على هذا الذي جرى في أحاديثهم(ع) هو أنهم لم يكونوا مطلقي اليد، بمعنى لم تكن بيدهم مقاليد السلطة في الدولة الإسلامية وبالتالي كانت أيديهم مكبلة عن أن تقف بالشكل المطلوب بوجه جميع أنواع الوضع والتحريف والخطأ الذي جرى على أحاديثهم مما لا يسع المجال له في هذا البحث.

وهكذا فإن تركة رسول اللّه(ص)، إن كانوا يقولون هي ثقلان فهما القرآن والعترة، وإن كانوا يقولون لم يترك إلا ما بين الدفتين أي القرآن الكريم فإذاً هذا القرآن بحاجة إلى المعصوم الذي يحفظه جمعاً وتبياناً وتفسيراً ومنعاً للانحراف عنه، وهذا هو في صلب بحثنا هنا الذي نريد أن نطبق فيه منازل القرآن الكريم على العترة النبوية الشريفة لنرى ما المراد بقول أمير المؤمنين(ع) «**وَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآن**».

منازل القرآن وما يقابلها في عترة النبي(ص)

لا خلاف في أن القرآن الكريم يعظمه المسلمون جميعاً أينما كانوا وفي أي عصر وجدوا ومهما اختلفت مذاهبهم الفقهية، حتى فيما إذا اختلفوا في بعض العقائد، فإنهم يضعونه بأعلى موقع في التصور لأي كتاب أو كلام يعرفونه. نعم، هناك بعض المسلمين ممن لا يلتزم الإسلام منهجاً في الحياة ولا يلتزم بالعبادات هؤلاء لا ينظرون إلى القرآن الكريم بنفس النظرة، ونسمع بين الحين والآخر من يخرج على الناس بنظريات جديدة يُشْكِل فيها على بعض آياته، ومن ثم يسمع الردود من العلماء والمفكرين المسلمين.

وحتى غير المسلمين فإنهم يعرفون مكانة القرآن الكريم عند المسلمين كونه المصدر الأول للتشريع، وكونه يمثل الوحي المُنـزّل على نبي الإسلام(ص). لذلك نجد أن أعداء الإسلام أو المناوئين عندما يريدون مهاجمة الإسلام أو إيجاد مواطئ أقدام لهم في ديار المسلمين فإنهم أول ما يصنعونه هو إثارة التشكيك في بعض آيات الكتاب العزيز، وهو ما حصل وما يزال من قِبل بعض المستشرقين ومن تأثّر بهم من المسلمين.

وقبل أن نعرج على تفصيل كل منـزلة من منازل القرآن الكريم عند المسلمين ونقابل ذلك بما يدعو إليه أمير المؤمنين(ع) في هذه الخطبة في كلمته «**فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآن**»، لا بد من كلمة في هذا المجال. فإنه، ومع بعض التردد، نجد لزاماً أن نذكر الفارق في التطبيق أو مقابلة أهل البيت(ع) لمنازل القرآن بحيث تكون لهم هذه المنازل بما يناسب دورهم وبما يناسب كونهم بشراً في قبالة كلام اللّه تعالى، لا بد أن نذكر مضطرين الفارق بين هذه المنازل عند الطائفتين سنة وشيعة. والسبب من وراء ذلك هو:

1. أن هناك فارقاً حقيقياً لا نستطيع أن نغمض العين عنه في نظرة كل من الطائفتين بمجموعها إلى منازل أهل البيت(ع).
2. أننا سنتناول بالنقد المظاهر السلبية في هذا التعامل من كلا الطائفتين، وليس من إحداهما، مع أهل البيت(ع). ولما كانت هذه المظاهر السلبية تختلف باختلاف الطائفة، فإننا سنكون مضطرين لتبيان ذلك على هذا الأساس.

3. لأننا نريد أن ندعوا المسلمين جميعاً إلى التمسك بالثقلين وذلك استجابة لدعوة رسول اللّه(ع) والتي أعلن فيها أن الضمان للأمن من الضلال هو بالتمسك بالثقلين – كما ذكرنا في المتن وكما تجدوه في الملحق فليراجع – لذلك فإن دعوة المسلمين جميعاً في كل من هذه المنازل تختلف باختلاف موقفهم الحالي منها.

والأمل، كل الأمل، أن قارئ الكتاب، بغض النظر عن انتمائه المذهبي، يحاول النظر فيما إذا كانت استجابته لدعوة اللّه ورسوله(ص) ولدعوة أمير المؤمنين(ع) في هذه الخطبة تفي بالغرض، بمعنى هل يشعر أنه يأمن من الضلال بموقفه الحالي، أو بما يجب أن يكون موقفه عليه. صحيح أن القيود الاجتماعية وقيود النشأة والتربية والعائلة والعمل والمصالح الدنيوية والمخاوف الأخرى كلها تشكل ليس فقط موانع أمام الإنسان لأن يستجيب للأمر الإلهي التوقيفي الذي لا مفر منه، وإنما تشكل مبررات وتشكل ملاجئ له كي يشعر بالرضى عن موقفه الحالي لأن التغيير يعني دفع بعض الفواتير من هنا والخسائر من هناك والتي لا يستطيع الجميع أن يقوموا بها، ولكن لم يكن اتباع الحق يسيراً في أي وقت من الأوقات.

ولنبدأ بذكر منازل القرآن الكريم، ثم بعد ذلك نتناولها واحدة واحدة، ونقابل ذلك مع العترة الشريفة كما ذكرنا.

نرى أن منازل القرآن عند المسلمين هي كالآتي، وذلك حسب أهميتها تصاعدياً، أي سنذكر الأقل أهمية ونرتفع بذلك إلى الأعلى أهمية وهكذا:

1. التبجيل والاحترام.
2. البركة والآثار.
3. القراءة.
4. التدبر.
5. العمل.
6. الدعوة.
7. وفي الحياة الأخرى.

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

الفصل السادس

أولاً: منزلة التبجيل والاحترام

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

أولاً: منـزلة التبجيل والاحترام

تبجيل القرآن واحترامه

النظر إلى المصحف من غير قراءة عبادة[1]

كما ذكرنا فإن المسلمين ينظرون إلى القرآن الكريم نظرة عالية جداً، حيث لا يساويه ولا يقترب منه عندهم كتاب، وهو عندهم وفي نفوسهم في أعلى الدرجات حيث أنه كلام اللّه تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي هو الوحي المنـزل على نبيهم(ص)، والذي يفترض أن يكون منهاج حياتهم. لذلك نراهم يتناولون القرآن بأيديهم لا كما يتناولون كتاباً آخر بل تراهم حريصين على أن يتعاملوا معه باهتمام وانتباه واحترام، فلا يمسونه أو يحملونه إلا مع نظافة أيديهم، وربما حتى مع الطهارة والوضوء، يضعونه في أماكن نظيفة، وربما يضعونه في أماكن عالية كما في رفوف المكتبات العالية أو في أماكن مشابهة. نراهم يهتمون بإظهاره بأحسن مظهر ممكن، فهم عندما يطبعون القرآن الكريم يطبعونه مع الزخارف والتزويقات لصفحاته ولجلده وحتى في علامات رؤوس الآي. ويهتمون أيما اهتمام بطباعته بحيث يتم تدقيق ذلك مرات ومرات قبل أن يحصل الناشر على الموافقة على نشر القرآن الكريم.

وحتى الذين لا يعرفون القراءة فإنهم لن يحرموا أجر مجرد النظر إلى صفحات القرآن الكريم كما جاء في الأثر «**النظر إلى المصحف من غير قراءة عبادة**»[2]، ولعل مرد

[1] الإمام محمد بن علي الباقر(ع)، وسائل الشيعة، ج 6، حديث 7737 و 7738 و 7739

[2] كما ورد الجمع بين اعتبار كل من النظر إلى القرآن الكريم والنظر إلى الإمام علي(ع) عبادة كما في الحديث «النظر في المصحف عبادة، ونظر الولد إلى الوالدين عبادة، والنظر إلى علي بن أبي طالب عبادة» اللئالئ، السيوطي، ج 1، ص 346.

ذلك هو أن الناظر إلى حروف المصحف وكلماته يدرك أنه ينظر إلى كلام الحق تبارك وتعالى الذي نزل لهدايته هو، مخاطباً له هو، عن طريق نبيه(ص)، وبالتالي فإن علاقته بهذه الكلمات والآيات المباركة لا تتوقف على تمكنه من قراءتها. كما يمكن أن يكشف لنا المستقبل آثاراً مادية بدنية إيجابية تحصل للناظر إلى كلمات الكتاب العزيز.

إن هذه المنـزلة والنظرة إلى القرآن الكريم لا تتوقف على هذا الجانب المادي من التعامل، بل هناك أيضاً تفاعل روحاني عند المسلمين إذ تراهم يتفاعلون معه بشكل لا كما يتفاعلون مع غيره عندما يستمعون إليه، سواء في مجالس الموتى أم في افتتاح المؤتمرات أم في المدارس وغير ذلك – قال تعالى: ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون**﴾ الأنفال:2.

إن نظرة المسلمين إلى القرآن هي أنه على ما وصفه الإمام زين العابدين(ع) بقوله[3]: «**كتابك الذي أنزلته نوراً وجعلته مهيمناً على كل كتاب أنزلته، وفضلته على كل حديث قصصته**». فهو عندهم أحسن الحديث، وهو عندهم الكتاب الذي نسخ اللّه سبحانه تعالى به الشرائع السابقة بحيث جاء مصدقاً لما فيها ومعدلاً للتحريف الذي وقع فيها ومغيراً لبعض ما فيها بما يتلاءم والشريعة الخاتمة التي شاء اللّه تعالى أن تكون صالحة لكل زمان حتى قيام يوم الدين.

[3] الإمام علي بن الحسين(ع)، الصحيفة السجادية، دعاء ختم القرآن (الدعاء 42)

تبجيل العترة الشريفة واحترامها

النظر إلى عليٍّ عبادة[4]

يتفق المسلمون جميعاً بشتى مذاهبهم الفقهية وشتى قومياتهم وحيثما كانوا على احترام أهل البيت(ع) وتبجيلهم وعلى وضعهم في أعلى المواقع في نفوسهم من المحبة والاحترام. وهذا الأمر نجده متوارثاً جيلاً بعد جيل ويتوارثه الأبناء عن الآباء بحيث أنه مسح الحالة التي كان عليها بعض المسلمين في القرون الأولى، ولاسيما في القرن الأول، حيث حارب بعض المسلمين أهل البيت(ع) من خلال انضمامهم إلى أعدائهم كما حصل في حروب القرن الأول، ثم على درجة أقل في القرن الثاني خلال قرون الدولة العباسية حيث بدأ ينحصر العداء لأهل البيت(ع) في الخلفاء وبعض قوادهم أو وزرائهم. بمعنى أننا لا نكاد نجد في المسلمين اليوم، أو لا نتصور فيهم، من ينصب العداء لأهل البيت(ع)، ممن يسمَّون النواصب الذين أجمعت الأمة بشتى مذاهبها على انحرافهم بل خسرانهم في الآخرة (وإن كان هناك إشارات من البعض إلى مثل هذا الموقف).

وربما تأتى ذلك من اتفاق العلماء والمفسرين على بعض آيات الكتاب العزيز، كما في آية مَوَدَّة القُربى، وبعض الأحاديث الشريفة، كالتي تتحدث عن فضل علي وفاطمة والحسن والحسين وأولادهم(ع) مما صار معروفاً ومتسالماً عليه كما هي الشمس تشرق من الشرق وتغرب في الغرب. وقد ساهم الأدب والشعر، فيما يبدو، في ذلك، فصار انعكاساً للقرآن والسنة في هذا الموضوع. من ذلك قول الفرزدق في ميميته الشهيرة وهو يذكر الإمام السجاد(ع):

مِنْ مَعشَرٍ حُبُّهُمْ دِينٌ وَبُغضُهُمُ كُفرٌ وَقُربُهُمُ مَنجى وَمُعتَصَمُ
مُقَدَّمٌ بَعدَ ذِكرِ اللّهِ ذِكرُهُمُ فِي كُلِّ بَدءٍ وَمَختُومٌ بِهِ الكَلِمُ

---

[4] رسول اللّه(ص)، المستدرك على الصحيحين، ج 3، ص 141

ولا بأس أن نشير هنا إلى بعض ما جاء في منـزلة القرآن وفي مقابلها منـزلة أهل البيت(ع) بحيث أن هناك أثراً إيجابياً حتى لأبسط التعامل معهما. فإن المسلمين يعرفون حديث رسول اللّه(ص) بأن النظر في القرآن عبادة[5]؛ أيضاً نجد أن النبي(ص) الذي علمهم أن النظر في القرآن عبادة علمهم أن النظر إلى علي(ع) عبادة. فقد أخرج الحاكم[6] عن عمران بن الحصين قال: قال رسول اللّه(ص): «**النظر إلى عليٍّ عبادة**».

وأخرج حديثاً آخر بسندين عن عبد اللّه بن مسعود باختلاف بسيط حيث يقول: «**النظر إلى وجه علي عبادة**»[7]. وهذا رواه الطبراني[8] والمتقي الهندي[9] وإبن عساكر[10] وغيرها.

وهناك حديث آخر يتكلم عن ذكر علي(ع)، حيث أخرج ابن حجر[11] أن الديلمي أخرج عن عائشة أن النبي(ص) قال: «**خير أخوتي عليّ، وخير أعمامي حمزة، وذكر عليّ عبادة**». وقد أخرجه السيوطي[12] والمتقي الهندي[13] وابن عساكر[14] وغيرهم.

فإن مجرد الذكر أو النظر يُعد عبادة، أي يُعد عملاً يستحق عليه من يقوم به الأجر والثواب من عند اللّه تعالى. مجرد أن تذكر القرآن وفضل القرآن فتثاب على ذلك، في مقابله تذكر علياً(ع) تثاب على ذلك؛ بمجرد أن تنظر إلى القرآن تثاب، ومثله أن تنظر إلى وجه علي(ع) تثاب وتؤجر. والسبب هو أن النظر إلى علي(ع) أو تذكره يعني الدخول في أجواء أكمل درجات الإيمان وأعلى مراتب الجهاد وأجمل مكارم الأخلاق

---

[5] وسائل الشيعة، ج 6، حديث 7737 و 7738 و 7739 والحديث الأخير يؤكد على مجرد النظر بقول الباقر محمد بن علي بن الحسين(ع) «النظر إلى المصحف من غير قراءة عبادة».

[6] المستدرك على الصحيحين، ج 3، ص 141

[7] نفسه، ص 142

[8] المعجم الكبير، ج 10، حديث 10006

[9] كنـز العمال، ج 11، حديث 32895

[10] تاريخ دمشق، ج 40، حديث 4624، وفي ج 42، ص 349

[11] الصواعق المحرقة، ص 74

[12] الجامع الصغير، ج 1، حديث 4332

[13] كنـز العمال، ج 11، حديث 33894

[14] تاريخ دمشق، ج 42، ص 356

التي سطرتها سيرة الإمام علي(ع) وما جاء في وصفه كتاب اللّه وحديث رسوله(ص)، فكان تذكرها نعم المعين على جهاد النفس ونيل أعلى الدرجات.

أخيراً، نجد أن البعض من غير أتباع أهل البيت(ع) يتناول بعض أفراد العترة المباركة لا بذلك الاحترام الذي نذكر، فإنهم لا يعاملون الأئمة المتأخرين كالجواد والهادي والعسكري(ع) كالأئمة المتقدمين، ولعل ذلك من آثار عدم الاهتمام بتراثهم الفقهي والتشريعي من قِبل كبار محدثي السلف من مدرسة الخلافة وفقهائهم ومؤرخيهم. ذلك أننا لا نجد حديثاً يروى لهؤلاء الأئمة في الصحاح كصحيح البخاري، ولا حتى لمن قبلهم – الرضا والكاظم(ع)، بل ولا للإمام الصادق(ع) الذي ملأ الدنيا علماً وحديثاً! ولا شك في أن هذا يؤثر على منـزلة ذلك الإمام(ع) عند الناس فلا تكون كما يتعامل مع الذين سبقوهم.

في هذا المجال أيضاً نجد أن هناك أمراً هاماً يشير إلى الفرق الواضح في التعامل في هذا الإطار بين أتباع الطائفتين، وهو ما يخص الإمام الثاني عشر المهدي محمد بن الحسن(ع). هنا نجد أن الشيعة يضعونه في أعظم الدرجات من التبجيل والاحترام، كيف لا وهم يعدونه إمام زمانهم الموجود حالياً والذي ينتظرونه، بينما نجد في المقابل أن السنة، كونهم لا يعترفون به كإمام موجود بل ولم يولد أصلاً، فإنه لا يشكل عندهم شيئاً. بل نجد أن البعض، في معرض نفيه لعقيدة أتباع أهل البيت في المهدي المنتظر أنه هو الثاني عشر من هذه السلسلة المباركة، نجده يسيء الأدب بشكل واضح ليس فقط إلى الشيعة وإنما إلى شخص الإمام(ع) مع الأسف الشديد.

نقول ذلك ونحن نعلم أن القليل جداً من أهل السنة يؤمنون بأن محمد بن الحسن(ع) هو الإمام المنتظر. وهذا ليس بمستغرب بعد أن وجدنا علماء كباراً يؤمنون به كما نص عليه ابن حجر في صواعقه عند ذكر فضائل أهل البيت(ع)[15] حيث ذكر بأن الإمام العسكري "لم يخلف غير ولده أبي القاسم محمد الحجة، وعمره عند وفاة أبيه خمس سنين لكن آتاه اللّه الحكمة، ويسمى القائم المنتظر، لأنه ستر وغاب فلم يعرف أين ذهب"، فليراجع.[16]

---

[15] الصواعق المحرقة، ص 207

[16] نجد في البعض من أهل السنة في العراق، ولاسيما أهالي مدينة سامراء التي تحتضن مرقدي الهادي والعسكري أب وجد الإمام المهدي، وتحتضن البيت الذي ولد فيه الإمام(ع) وقبر أمه وغيرهم من أهل بيته، نجدهم يؤمنون به ويتعاملون معه بذلك الاحترام والتبجيل الذي ذكرناه مع الأئمة المتقدمين.

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

الفصل السابع

ثانياً: منزلة البركة والآثار

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

ثانياً: منـزلة البركة والآثار

بركة القرآن الكريم وآثاره

في القرآن شفاء من كل داء[1]

يعتقد المسلمون جميعاً ببركة القرآن الكريم ككل وببركة سوره وآياته بشكل منفصل أيضاً. وقد ذكروا فضائل جمّة لآيات الكتاب العزيز مما جعلهم يستخدمونها في الحفظ وفي الاستشفاء وفي الاستكفاء وجلب الرزق وغير ذلك.

إن المسلمين تراهم يحملون القرآن الكريم بأحجامه المختلفة، ولاسيما الصغيرة منها، معهم في حلّهم وترحالهم وفي بيوتهم وفي السيارات من أجل الحفظ من طوارق الليل والنهار ومما يمكن أن يصادفهم في حياتهم. وكان لبعض السور أو الآيات اعتناء خاص بحيث ترى الناس يلبسون مصوغات من الذهب أو الفضة أو غيرها نقشت عليها تلك الآيات، لاسيما آية الكرسي أو فاتحة الكتاب، فيعلقونها في صدورهم أو في جيوبهم للأطفال والكبار. كما تراهم يعلقون السور القرآنية التي ذكر لها أثر في الحفظ في بيوتهم بعد أن يخطوها بخطوط جميلة من أنواع الخطوط العربية المعروفة مع زخارفها ومع أشكالها الجميلة، خصوصاً المعوذتين وسورة التوحيد وآية الكرسي.

وكما قلنا فقد ذكر المحدثون أحاديث كثيرة جداً في فضائل السور والآيات القرآنية، من ذلك ما أخرج البخاري في صحيحه[2] قول النبي(ص): «**إذا آويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي لن يزال معك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح**».

---

[1] الإمام موسى الكاظم(ع)، مكارم الأخلاق، الطبرسي، ص 343

[2] ج 6، كتاب فضائل القرآن، حديث 30

وأخرج[3] قوله(ص): «**لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس**» ثم قرأ ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً**﴾ الفتح:1.

أما سورة التوحيد فقد ذكر لها فضل عظيم وهي أنها تعدل ثلث القرآن، فقد أخرج البخاري[4] حديثاً عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً سمع رجلاً آخر يقرأ سورة **قل هو الله أحد** يرددها فلما أصبح جاء إلى رسول اللّه(ص) فذكر ذلك له – وكأن الرجل يتقالّها أي يراها قليلة قصيرة – فقال رسول اللّه(ص): «**والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن**». لذلك ترى أنه من المسنون قراءتها ثلاثاً في الوتر من صلاة الليل كي تعدل ختمة من القرآن (أي ثلاثة أثلاث فتساوي قرآناً كاملاً)[5]؛ وهكذا.

وأخرج البخاري[6] عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت أن رسول اللّه(ص) كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها.

بل إنهم أخرجوا أحاديث في أن السكينة والملائكة تنزل عند قراءة القرآن كما جاء في صحيح البخاري[7] وغير ذلك فليراجع.

والذي يطالع كتب الدعاء عند المسلمين يجد فصولاً خاصة بآثار سور القرآن الكريم وبركاتها. فقد ذكروا آثاراً متنوعة للسور المختلفة من القرآن الكريم. من ذلك الاستشفاء بالقرآن الكريم، فقد أخرجوا حديثاً عن الإمام الصادق(ع) أنه قال: «**من قرأ مائة آية من أي آي من القرآن شاء ثم قال سبع مرات: يا الله، فلو دعا على الصخور فلقها**»[8].

---

[3] نفسه، حديث 32

[4] نفسه، حديث 33؛ والتهذيب، الطوسي، ج 2، حديث 250

[5] وسائل الشيعة، ج 6، حديث 7534

[6] نفسه، حديث 35

[7] نفسه، حديث 37

[8] مكارم الأخلاق، الطبرسي، ص 343

وهذا حديث عام للدعاء في أي شأن ومنها الشفاء. بل إن الإمام الكاظم(ع) قال: ‹‹**في القرآن شفاء من كل داء**››[9].

أما في خصوص الشفاء فقد أوردوا أن النبي(ص) قال: ‹‹**من لم يستشفِ بالقرآن فلا شفاه الله**››[10]، وفيه، كما هو واضح، حث شديد على الاستشفاء بالقرآن الكريم.

وورد قراءة سورة الحمد سبعين مرة على الأوجاع[11]، وغيرها من السور. كما ورد قراءة آيات معينة من السور لأجل الشفاء كما في آية الكرسي[12] وغيرها.

وهناك آيات للشفاء ورد فيها لفظ الشفاء مثل ﴿**ويشفِ صدور قومٍ مؤمنين**﴾ التوبة:14 وقوله تعالى ﴿**وشفاء لما في الصدور**﴾ يونس:57 ﴿**وإذا مرضت فهو يشفين**﴾ الشعراء:80[13] وغير ذلك[14].

ومن الآثار الأخرى التي ذكروها للقرآن الكريم الحفظ، وهذا في خصوص آيات المعوذتين والكرسي، ولكن أيضاً ذكروا أول البقرة إلى ﴿**المفلحون**﴾ البقرة:5 وأول الصّافّات وآيات كثيرة في الرّحمن والحشر والْجنّ وغيرها كثير[15].

وأما لطلب الرزق فقد جاء فيه آيات عديدة لا سيما سورة الواقعة التي ذكروا طرقاً مختلفة لقراءتها، ومن أشهر ذلك قراءتها ليلة الجمعة[16].

---

[9] نفسه، ص 363

[10] نفسه

[11] نفسه

[12] نفسه، ص 373

[13] البرهان، الزركشي، ج 1، ص 435

[14] راجع الطب النبوي لابي نعيم، والطب النبوي لابن القيم، و مكارم الأخلاق للطبرسي، وطب الأئمة للزيات وابني بسطام؛ هذا غير ما حفلت به جميع كتب الحديث في هذا الموضوع.

[15] راجع مصباح الكفعمي، وتفسير الآلوسي وغيرهما.

[16] وسائل الشيعة، ج 6، حديث 7482؛ وقد وردت رواياتها في كتب الأدعية المختلفة فهي من السور التي اشتهرت في هذا الباب.

وأوردوا أيضاً أدعية مختلفة في حالات طلب الأولاد أو عند الخروج من المنـزل وغير ذلك، كلها باستخدام آيات الكتاب العزيز بأشكال مختلفة في أوقات مختلفة أو أعداد مختلفة أو في أيام من الأسبوع بحيث تؤدي الغرض منها[17].

ومثلما هو الحال مع المعوذتين أو آية الكرسي أو سورة الفاتحة أو سورة التوحيد، فقد ذكروا لبعض الآيات آثاراً مختلفة ولاسيما آية ﴿**أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السّوء**﴾ النمل:62 التي ذكروا لها آيات كثيرة للشفاء وقضاء الديون وسائر الحوائج[18].

كما يعتقد المسلمون أيضاً بفائدة كبيرة لقراءة القرآن الكريم عند الميت، وعند المحتضر، وبعد الموت وإهداء ثوابه إلى الميت، ولاسيما سورة ياسين التي ورد فيها أنها قلب القرآن[19].

[17] نفس المصادر السابقة

[18] نفس المصادر السابقة

[19] المعجم الكبير، الطبراني، ج 20، ص 220، وسنن الدارمي، ج 2، ص 456، ومستدرك سفينة البحار، ج 8، ص 474، وغيرها

بركة العترة النبوية وآثارها

أهل بيتي أمان لأمتي[20]

كما أن للقرآن الكريم آثاراً للحفظ والحراسة أخرج أحاديثها المحدثون نجد أيضاً أحاديث مشابهة في أهل البيت(ع)، فقد أخرج الحاكم[21] قول النبي(ص): ‹‹**النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس**››، وقد ذكره ابن حجر في الصواعق[22]. وهذا الحديث يقابل أثر الحفظ من طوارق الليل والنهار والأمراض وغير ذلك، ولكن باختلاف، وهو أنه إذا كان ذاك للفرد فهذا للمجموع. كما أن فيه الحث على اتباعهم كما لا يخفى.

ولكن الحاكم أخرج أيضاً[23] حديثاً يجعل الأمان عاماً، حيث روى أن النبي(ص) قال في حديث: ‹‹**وأهل بيتي أمان لأمتي، فإذا ذهب أهل بيتي أتى أمتي ما يوعدون**››.

وقد وردت أحاديث في الآثار المطلوبة لأهل البيت(ع) في سائر العصور، بمعنى عندما كانوا أحياء(ع) وبعد موتهم، حيث ورد من جملة ما ورد أثر استجابة الدعاء في مشاهدهم المشرفة. من ذلك ما جاء في خصوص الإمام الحسين(ع) في إحدى الزيارات، والحديث عن الإمام الحسين(ع) ‹‹**المعوض عن قتله أن الأئمة من ذرّيته والشّفاء في تربته واستجابة الدّعاء تحت قبّته**››[24]. على أن هذا يشمل – كما فهم المسلمون وجربوه ووجدوا آثاره الباهرة – باقي الأئمة(ع)، بل الأولياء من أهل البيت في كل مكان.

---

[20] رسول اللّه(ص)، المستدرك، ج 3، ص 149

[21] نفسه

[22] ص 140

[23] المستدرك، ج 3، ص 458

[24] وسائل الشيعة، ج 14، حديث 19773، وفي الحديث الذي يليه (19774) أن الإمام الصادق(ع) أرسل من يدعو له عند قبر الحسين(ع) حيث كان مريضاً.

فإنك ترى أن المسلمين يعتنون عناية كبرى بمشاهد أهل البيت(ع) سواء المراقد التي تضم أجسادهم أم المقامات التي بنيت ربما لأنهم مروا بها أو صلوا هناك أم ينسب لهم شيء من ذلك. والعناية لا تقف عند البناء والعناية بهذه المقامات والمراقد فحسب، بل أيضاً عناية الناس بها في زيارتها وطلب الحوائج عندها في كل وقت. وهذا مُشاهد معروف مشهور لعله في جميع البلدان الإسلامية التي تحوي قبورهم ومشاهدهم المشرفة.

إلا أن هناك اختلافاً في ذلك، ففي الوقت الذي يعتقد جميع أتباع أهل البيت(ع) وغالبية أتباع المذاهب الأخرى بمشروعية البناء على القبور وعمل المشاهد والمقامات والمراقد، وأيضاً بمشروعية زيارتها والصلاة والدعاء عندها، نجد أن قسماً قليلاً لا يرى ذلك ويمتنع عن القيام به. والبعض القليل من هؤلاء يذهب بعيداً في اتخاذ موقف معاد لهذا الأمر ويتخذ موقف تقريع وتبديع بل وحتى الاتهام بالشرك لمن يتعاهد هذه المراقد والمقامات المشرفة أو يصلي عندها أو يدعو عندها، بدعوى أن هذا شرك أي إشراك لهذا الميت مع اللّه تعالى، إضافة إلى عقيدة هؤلاء البعض أن هؤلاء الموتى لا أثر لهم.

وعلى أن هذا ليس محله ههنا، إلا أنه لا بد من القول بأن الذي يذهب إلى زيارة هذه الأماكن والصلاة والدعاء عندها إنما يطلب في دعائه وصلاته وزيارته القرب من اللّه تعالى وذلك لقرب هذا الولي منه سبحانه، هذا أولاً. ثانياً، لأنه يعتقد أن الدعاء ربما يكون أسرع في الإجابة في تلك الأماكن. أيضاً، فإن بعض هؤلاء الأولياء هم من الشهداء، بل من سادة الشهداء، والذين نعلم بنص القرآن إنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وبالتالي فإن الدعاء منهم أو عندهم هو بمعنى التوسل بقربهم من اللّه تعالى للاستجابة.

ولو تدبّروا ما جاء في الآية: ﴿**ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً**﴾ النساء:64 لفهموا منها أثر المكان والمكين على الاستجابة. فالآية لم تمنع طالب الحاجة من الدعاء في بيته أو أينما يشاء، كيف وهو يدعو القريب المجيب، ولكنها حثت على الذهاب إلى النبي(ص) والاستغفار عنده، فلم تقل "فاستغفروا اللّه وجاؤوك الخ"، بل جعلت مجيئهم إليه(ص) قبل الاستغفار لتنبه على الاستغفار عنده(ص)، وفي هذا دليل واضح على أهمية المكان. أما استغفار الرسول(ص) لهم فتدل على أهمية صاحب المكان. وليس هناك تخصيص في النبي(ص) لكي يمكن القول أن

هذا الأمر له خاصة، لأن المسألة هي مسألة جواز التوسل بأهل القرب من اللّه إليه تعالى أم لا. والتوسل، أي اتخاذ وسيلة إليه تعالى، ثابتة بنص القرآن: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة**﴾ المائدة:35، والتي يحاول البعض أن يحصرها بالعمل الصالح، وهو تخصيص بلا مخصّص ويحتاج إلى ما يثبته، وإلا فإن الآية على إطلاقها.

وربما أشكل هذا البعض أن المسألة انتهت بوفاة النبي(ص) فليس هناك من أثر للدعاء والاستغفار بوسيلته(ص)، ولكن الحديث الشريف يقول غير ذلك إذ يعلن أن حرمته(ص) حياً كحرمته ميتاً، وأنه «**ما من أحد يسلم عليّ إلا رد الله روحي حتى أرد عليه**»[25]، وبالتالي فالأمر لا ينحصر لا بالحياة ولا بشخصه(ص). هذا، علاوة على أن الآثار التي ثبتت للناس، عامتهم وخاصتهم، من التوسل بأهل البيت(ع) ما يغني عن النقاش، لأن النتيجة المتحققة والثابتة بالوجدان تمثل أكبر دليل على المدّعى. قال كمال الدين الشافعي بخصوص الإمام الكاظم(ع): "ويعرف في العراق بباب الحوائج إلى اللّه، لنُجح المتوسلين إلى اللّه تعالى به، كراماته تحار منها العقول، وتقضي بأن له عند اللّه تعالى قدم صدق لا تزل ولا تزول[26]".

وهنا نذكر بقول أمير المؤمنين(ع) في بحثنا هذا، والتي نقلها عن النبي(ص)، قوله: «**أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيينَ صَلَّى الله عَلَيْهِ، إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ، وَيَبْلَى مَنْ بَلِيَ مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ، فَلاَ تَقُولُوا بِمَا لا تَعْرِفُونَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقّ فِيمَا تُنْكِرُونَ**». وبالتالي فإن هؤلاء الأفراد المصطفين ليسوا كسائر الناس من هذه الناحية.

وبغض النظر عن السجال الفكري والعقلي في هذا فإن الآثار المحسوسة الملموسة من هؤلاء الأفراد من العترة المباركة توازي الآثار المحسوسة الملموسة للسور القرآنية أو بعض الآيات القرآنية في الاستشفاء أو الاستكفاء أو الحراسة أو الحفظ أو الرزق أو غير ذلك. وبذلك فإن هذه الآثار يعرفها المسلمون، فإن دعوتهم من قِبل أمير المؤمنين(ع) بأن ينـزلوهم بأحسن منازل القرآن في هذه النقطة إنما هي في بعضها من أجل الاستفادة من هذه البركة والآثار لهؤلاء الذين وصفهم النبي(ص) بأنهم أمان لأهل الأرض.

---

[25] سنن أبي داود، ج 2، حديث 2041، ومجمع الزوائد، الهيثمي، ج 10، ص 162

[26] مطالب السؤول، محمد بن طلحة الشافعي، ص 446

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

الفصل الثامن

ثالثاً: منزلة القراءة

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

ثالثاً: منـزلة القراءة

قراءة القرآن وتلاوته

وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص[1]

ذكرنا أول منـزلتين من منازل القرآن الكريم وهما منـزلة التبجيل والاحترام ومنـزلة البركة والآثار، إلا أن هاتين المنـزلتين لا ارتباط مباشراً لهما بالقرآن بما هو قرآن وآيات تُقرأ ويستفاد من معانيها وتُتّبع أحكامها. بمعنى أن احترام القرآن وتبجيله من جانب والتماس بركته وآثاره المفيدة في الشفاء واستجلاب الرزق وغير ذلك مما يمكن أن يتوجه إليها المسلم بغض النظر عن كلمات القرآن وآياته وسوره كقرآن يتلى، بحيث أن الأُمّيّ الذي لا يقرأ يحترم القرآن ويضعه في أعلى المنازل ويطلب بركته وآثاره، وربما حمله أو بعض سوره معه، وربما عُلِّم قراءة بعض الآيات بأن يحفظها عن ظهر قلب ويستخدمها لآثارها المختلفة. أي أن المنـزلة التي نحن بصددها الآن، وهي منـزلة القراءة، هي المنـزلة الأولى للقرآن بما هو قرآن يقرأ ويتلى ويتدبر ويعمل به ويدعى به ويدعى إليه.

أما قراءة القرآن فإنها مما يقوم به المسلمون في كل زمان ومكان، ويقومون به في أعقاب صلواتهم في المساجد وغيرها، وفي مجالس العزاء والتأبين عند الموت، ويقرأونه أيضاً في المناسبات السعيدة كمناسبات الزواج. كما أن قراءة القرآن تشكل جزءاً من التربية الدينية في المدارس المختلفة في العالم الإسلامي وذلك بدءاً من المرحلة الابتدائية.

أما في شهر رمضان فإن قراءة القرآن تصبح أمراً يقوم به الكثيرون ممن لم يخصص وقتاً لقراءته في غيره من الشهور، حتى أن تلاوة القرآن في شهر رمضان تعد المَعلَم الثاني من معالم الشهر المبارك بعد الصوم.

[1] الإمام علي(ع)، نهج البلاغة، الخطبة 110

على الرغم من أن الكثير من المسلمين يلتزمون بختم القرآن مرة تلو أخرى بشكل مستمر، إلا أنهم في شهر رمضان يلتزمون بختم القرآن أسرع من غيره من الشهور، بحيث ربما ختم أحدهم القرآن مرة في شهر رمضان بينما لم يختمه إلا مرة واحدة في باقي السنة، أو ربما ختمه عدة مرات في شهر رمضان وذلك التماساً لأجر التلاوة بعد أن وردت الأحاديث الصحيحة في فضل تلاوة القرآن في شهر رمضان والختمات فيه والأجر الذي يحصل قارئه عليه بقراءة سوره وآياته بل وكلماته وحروفه في هذا الشهر ما لا يحصل عليه في غيره من الشهور، حتى ورد أن شهر رمضان هو ربيع القرآن[2]، فكما أن فصل الربيع هو الفصل الذي تتفتح فيه الزهور وتبدأ دورات الحياة في الكثير من أصناف الحيوان والنبات ويتغير فيه الجو إلى الألطف والأفضل فإن رمضان هو الشهر الذي يكون فيه للقرآن دور ومنـزلة ليست في باقي الشهور.

وعلى الرغم من أن قراءة القرآن أو تلاوته ليست أمراً يحتاج إلى إثبات إلا أن القرآن الكريم ذكر تلاوته والحث على ذلك في آيات عديدة منها قوله تعالى: ﴿**إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور**﴾ فاطر:29. في هذه الآية ربط واضح بين القرآن والمولى سبحانه وتعالى أنه هو كتاب اللّه فهنا الحث على تلاوة كتاب نزل من عند اللّه تعالى وأن ذلك بمثابة التجارة الرابحة التي لا يمكن أن تخسر.

وورد في دعاء الإمام السجاد(ع) الذي ذكرناه آنفاً، وهو عند ختم القرآن قوله(ع)[3]: ‹‹**وفرقاناً فرقت بين حلالك وحرامك، وقرآناً أعربت به عن شرائع أحكامك، وكتاباً فصلته لعبادك تفصيلاً، ووحياً أنزلته على نبيك محمد صواتك عليه وآله تنـزيلاً، وجعلته نوراً نهتدي من ظلم الضلالة والجهالة باتباعه، وشفاء لمن أنصت بفهم التصديق إلى استماعه، وميزان قسط لا يحيف عن الحق لسانه، ونور هدى لا يطفأ عن الشاهدين برهانه، وعلم نجاة لا يضل من أمّ قصد سنته، ولا تنال أيدي الهلكات من تعلق بعروة عصمته. اللهم فإذا أفدتنا المعونة على**

[2] ثواب الأعمال، الصدوق، ص 103

[3] الصحيفة السجادية، دعاء 42

تلاوته، وسهلت جواسي ألسنتنا بحسن عبارته، فاجعلنا ممن يرعاه حق رعايته، ويدين لك باعتقاد التسليم لمحكم آياته، ويفزع إلى الإقرار بمتشابهه وموضحات بيناته».

ولعل الإمام‌ؑ في دعائه هذا بعد ختم القرآن يذكر بدور القرآن أنه الهادي إلى الحق والعاصم من الضلالة والنور وأن فيه الشرائع والأحكام الإلهية إلى غير ذلك (مما سنذكر في مقاطع هذا الدعاء في المنازل التي ستأتي في البحث)، لعله‌ؑ يريد أن لا يغيب عن بال التالي الذي يتلو القرآن أو الذي يقرؤه، لاسيما الذين يقرؤونه قراءة سريعة، أن لا تغيب عنهم هذه الأدوار القرآنية في حياتهم. ذلك لأن الناس في هذه المنـزلة القرآنية، وهي منـزلة القراءة بدون تدبر، إنما يقرؤون القرآن على شاكلتين:

الأولى – هي القراءة السريعة التي ربما لا يفكر القارئ حتى بمعاني الكلمات وهو يقرأ بسرعة من أجل ختم القرآن ختمات كثيرة لينال الأجر والثواب، وهو ما يحصل عادة في شهر رمضان كما ذكرنا. في هذه الشاكلة، تكاد تكون الكلمات القرآنية تقفز من عين القارئ إلى لسانه دون أن يفكر بها وبالتالي فإنه لا يستفيد منها فهماً.

الثانية – هي أن يقرأها بشكل أقل سرعة، بحيث يفهم معاني الكلمات بشكل عام، دون تدبر كبير أو صغير لها ولمراميها ولعمق معناها. ولعل هذه الشاكلة هي في تلاوة ختمات القرآن في شهر رمضان أو في غيره.

إذاً، فإن قراءة القرآن، أو تلاوته دون تدبر، ربما لا يخرج منها القارئ بفائدة من فهم في حكم أو أخلاق أو عبرة، فيكون دعاء ختم القرآن بمثابة تذكير للقارئ بأن هذا الكتاب الذي أتممت قراءته في أيام معدودة أو أسبوع أو أسبوعين أو شهر يحوي الكثير الكثير مما تحتاج إليه في حياتك لتنظيم حياتك ولكي تجعل حياتك مزرعة للآخرة.

بالإضافة إلى تلاوة القرآن، فإن القرآن الكريم ذكر الاستماع إلى القرآن وحال المؤمنين عند ذاك إذ يقول عز وجل: ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون**﴾ الأنفال:2.

فالمؤمن عندما يقرأ القرآن ويأتي إلى ذكر اللّه تعالى يتحرك القلب في مشاعر تتفاعل مع الفطرة في ارتباطها بالخالق الذي أودعها في هذا المخلوق، وربما أيضاً ما يسانده العقل من معرفة – وإن بسيطة متاحة للجميع – باللّه تعالى، وهكذا يتم الوجل

أو الخشية من مقام المولى عز وجل. ثم يتقدم هذا القارئ بالمزيد من الآيات فيصبح التفاعل تفاعل استفادة بزيادة الإيمان بمعارف القرآن وأوامره ونواهيه، وهي التي تحتاج لتنفيذها توكلاً من الإنسان على ربه ليعينه على الصعوبات التي تقف في طريق تنفيذها.

ولعل من دواعي الخشوع والوجل عند سماع القرآن ليس فقط هذا الفهم للّه تعالى ووجوده وهيمنته على الكون، وإنما أيضاً لهذه الموسيقى الجميلة التي في القرآن مما احتارت معها عقول أعتى أعدائه في زمن نزوله حيث هم أصحاب اللغة وأساطين البيان والشعر ومع ذلك لم يستطيعوا إلا أن يعترفوا بسبقه وتفوقه وعلوه. ولكي لا يتوهم بأن ذلك من الشعر فإن القرآن نفى ذلك عن النبي(ص) وعن القرآن فقال: ﴿**وما علمناه الشعر وما ينبغي له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين**﴾ يس:69.

أخيراً، فإنه تعالى رحمة بعباده وتوجيهاً لهم حتى فيما ينبغي أن يعرفوه بأنفسهم تراه يوجههم بالاستماع إلى القرآن والإنصات له عندما يُقرأ قال: ﴿**وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون**﴾ الأعراف:204. فهو يوجههم للانتباه وللإنصات إلى القرآن الذي يقرأ لتتحقق لهم الرحمة – ولكن كيف؟ أولاً من خلال المدد الروحي للآيات الكريمة بشكل لا يتيسير تفسيره أو معرفة كنهه على وجه التحقيق، وثانياً من خلال العمل بآياته مما له الأثر الحسن، وهو الرحمة، بالإنسان وسائر جوانب حياته.

ومن المناسب هنا أن نلفت إلى استخدام كلمة «**لعل**» في قوله ﴿**لعلكم ترحمون**﴾ لما له علاقة مباشرة بموضوعنا. فهذه الكلمة لا تقطع بحصول الرحمة، وهذا لا يخرج من أمرين: إما أن الذي يعد، وهو اللّه تعالى، غير متيقن من تنفيذه الوعد لنقص في قدرته أو لعدم تيقن من علمه، وهذا مستحيل عليه تعالى، وإما أن الموعود، وهو الإنسان، لم يكن بالمستوى المطلوب لتحقق الرحمة، وهذا لا بد أنه يتعلق بمدى انتباهه وإنصاته، بدءاً واستمراراً وشدّة. وهكذا، ينبغي الالتفات إلى هذه النقطة كي يتحقق الوعد بالرحمة.

كما أنه من الممكن أن الرحمة كي تتحقق، في حالة البعض على أقل تقدير، تحتاج إلى العمل بالآيات. بمعنى، أن الاستماع والإنصات للآيات ليسا مطلوبين لذاتهما ولكن من أجل العمل بها – وهذا ينقل الموضوع إلى منزلة العمل بالقرآن.

قراءة العترة الشريفة وسيرتها وأيامها

يتعلم علومنا ويعلمها الناس، فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا[4]

كما أن المسلمين يقرؤون القرآن كل يوم في المساجد والبيوت وفي شهر رمضان بالخصوص، فإننا نجد أنهم، ولا سيما أتباع أهل البيت(ع)، غير منفكين عن ذكر العترة المباركة، وهم أهل بيت النبي(ص)، في أيامهم ومناسباتهم بشكل يشابه تلك التلاوة القرآنية السريعة التي تديم الاتصال بهم كما تديم تلك القراءة الاتصال بالقرآن، والتي يرجى منها الثواب في مناسباتهم كما يرجى الثواب في ختمات القرآن لاسيما في شهر رمضان. ونجد ذلك بشكل خاص في شهر محرّم الحرام، وبعد ذلك في شهر صفر، حيث ذكرى واقعة كربلاء في العاشر من محرّم والمجالس الحسينية التي يقيمها شيعة أهل البيت(ع) بدءاً من الليلة الأولى من المحرم وانتهاء بأربعين الإمام الحسين(ع) في العشرين من شهر صفر.

بعد ذلك نجد أن هناك اهتماماً في مناسبات ولادات النبي(ص) والزهراء(ع) والأئمة الإثني عشر(ع) ووفياتهم، وهي موزعة على شهور السنة العربية. إضافة إلى المناسبات الأخرى التي لها أهمية في تاريخ العترة المباركة، كما في عيد غدير خم في الثامن عشر من ذي الحجة، وهو اليوم الذي نصب فيه رسول اللّه(ص) علياً(ع) أميراً للمؤمنين ووصياً وخليفة له من بعده، في السنة العاشرة للهجرة بعد عودته من حجة الوداع. هذا إضافة إلى المناسبات الأخرى كما في الخامس عشر من شعبان أو في ليالي العيد وأيامه وغيرها.

وكما هو الحال في ختمات القرآن التي لا يخرج منها القارئ بالكثير من الفهم أو العمق أو التغيير في حياته، فإن الملاحظ أن هذه المشاركات الواسعة لشيعة أهل البيت(ع) في مناسبات أهل البيت(ع) لا نرى لها – فيما نعتقد – ذلك التأثير الذي يتوقع منها. وسنتناول ذلك في بحث المنـزلة التالية الأعلى، وهي منـزلة التدبر، لنرى إن كان التدبر في سيرتهم وذكرهم له التأثير المطلوب، هذا إن كان هناك تدبر حقيقي أصلاً.

---

[4] الإمام علي الرضا(ع)، عيون أخبار الرضا، ج 1، ص 307

إلا أننا هنا نذكر هذه المنـزلة المقابلة لمنـزلة قراءة القرآن كشكلين متشابهين فيما يجري هنا وهناك.

على أننا نحتاج إلى أن نؤشر إلى الفارق الكبير جداً بين اهتمام شيعة أهل البيت؈ في قراءة العترة الشريفة، أي ذكرهم وسيرتهم وأيامهم وحوادثهم، وبين الغياب شبه الكامل لكل هذا عند المسلمين من أتباع المذاهب الأخرى. ففيما عدا ما يقام في بعض الأماكن كمولد الإمام الحسين؈ في القاهرة في مصر، وفيما عدا مشاركة بعض السنة في شعائر محرّم الحرام، وبالخصوص السنة في العراق حيث يشارك البعض منهم في شعائر الإمام الحسين؈، سواء تلك التي تقام في الأماكن العامة أم ما يقام في البيوت، لا نكاد نجد للعترة المباركة ذكراً خاصاً في حياة المسلم من غير أتباع أهل البيت؈.

إن هذا يتلاءم مع الفهم المنتشر بين أتباع تلك المذاهب من أن التاريخ الإسلامي كان في مجمله تاريخاً وردياً جميلاً، تاريخ مفاخر وعزة والتزام بالإسلام من قبل الحكام والقادة والقضاة والناس، وبالتالي فليس هناك ما يوجب الاهتمام بذكريات أليمة أو ذكريات ملؤها المشاكل كما يدعي من يقوم بها وهم الشيعة؛ هذا علاوة على الاحتجاج بأن الحسين؈ ومن قتل معه هم شهداء وعليه ينبغي أن نفرح لشهادتهم لا أن نحزن، وهو فهم سطحي للغاية لمسألة إحياء ذكرى نهضة الحسين؈، بل ولمسألة إحياء الشعائر عموماً.

ونحب فيما يخص النقطة الأولى أعلاه أن نوضح أنه من الضروري التوقف عن تلك النظرة غير الصحيحة لتاريخنا الإسلامي الذي، وإن احتوى الكثير جداً من المفاخر والأمجاد، كيف ولا وهو تاريخ حضارة تكونت بسرعة هائلة واستطاعت أن تسهم بشكل مباشر وكبير في الحركة الفكرية والعلمية في العالم، إلا أنه احتوى على الكثير جداً من الصفحات السوداء التي لطخت تلك الصفحات البيضاء مما جعل تلك الحضارة هدفاً للطعون والهجمات إلى يومنا هذا. ولا يحتاج الباحث إلى كثير جهد ليعلم يقيناً بأن المسؤولية الأكبر في ذلك تقع على عاتق الذين تولوا الأمور من الملوك – الذين تسموا باسم الخلفاء – والولاة والقضاة وحتى بعض الفقهاء والمحدثين والمؤرخين. وبما أن هؤلاء كانوا في صراع مع العترة النبوية الشريفة، فإن إحياء شعائر هذه العترة لا بد وأنه يصادم أولئك – وهو أمر كان في الماضي ولا يزال إلى وقتنا الحاضر.

أما فيما يخص النقطة الثانية، أي أن الحسين(ع) ومن معه شهداء أحياء عند ربهم يرزقون فلا داع للبكاء عليهم، فهذا ينطوي على عدم فهم لمرامي إحياء هذه الشعائر وإظهار الحزن (ولا نقصد الممارسات التي دخلت مؤخراً مما لم يؤْثَر عن الأئمة(ع)). إن الأب أو الأم يبكيان لموت طفلهما الصغير مع أنهما يعلمان أن موته صغيراً ضمن له الجنة، وربما سيكون سبباً في دخولهما الجنة. ولقد بكى النبي(ص) ولده إبراهيم(ع)، كما بكى عمه الحمزة(ع) وأمه آمنة(ع). أما بخصوص الحسين(ع) وصحبه، فإن ولده السجاد(ع) بكاه دهره حتى قيل له في ذلك، وبكته أم المؤمنين أم سلمة(رض) وبكاه الأصحاب والتابعون، وبكاه أولاده أئمة أهل البيت(ع)— فهل أخطأ كل أولئك ولم يلتفتوا إلى أنه شهيد حي لا يضره شيء؟! إذاً، فإن للبكاء دوراً في توطيد الصلة بين الحركة الشريفة للنهضة الحسينية والمسلمين في كل زمان ومكان، وإلا فما فائدة تلك النهضة إذا انتهت بصاحبها ومن معه؟ بعبارة أخرى، تلك السويعات القليلة يوم العاشر من المحرم سنة 61هـ إذا ذهبت في وقتها إذاً لم يكن الحسين(ع) إلا طالب سلطة لم يسعفه الحظ فيما أراد وانتهى الأمر!

كلا، ما يبكيه الشيعة، ومن يشاركهم هذه الشعائر من السنة، الإسلام وشرائعه، والقرآن وآياته، والمسلمين وحقوقهم، يبكون ما جرى على المسلمين من مآس وكوارث بدءاً من تلك المأساة وانتهاء بفلسطين والبوسنة وغيرهما. إن من تجرأ على سبط النبي(ص) وسيد شباب أهل الجنة والإمام الذي أشار إليه جده(ص) أثبت أن التجرؤ على حقوق المسلمين، بل شريعتهم وكتابهم، سيستمر ويتفاقم حتى يؤدي إلى ما نبكي عليه اليوم.

أما فيما يخص الشيعة الذين يقرؤون العترة المباركة من خلال إحياء هذه المناسبات، فإننا نجد التركيز بشكل كبير على المشاكل وعلى المصائب، بحيث أن هذه المجالس هي مجالس شكوى وتوجع، مجالس عَبرة ودمعة، وفيها إثارات بعضها ما ينتج عنه تساؤلات مهمة ومفيدة في حين أن البعض الآخر ربما يبعث على الضغائن دونما فائدة. وسنرى في منـزلة التدبر فيما يأتي إن كان أتباع أهل البيت(ع) نجحوا في الجمع بين العَبرة، وهي في منـزلة القراءة، والعِبرة، وهي في منـزلة التدبر؛ وهل نجحوا في جذب إخوانهم من أتباع المذاهب الأخرى إلى أئمتهم أم لا.

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

الفصل التاسع

منزلة التدبر

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

رابعاً: منـزلة التَّدبُّر

تدبّر القرآن الكريم

آيات القرآن خزائن، فكلما فتحت خزينة ينبغي لك أن تنظر ما فيها[1]

وهذه هي المنـزلة الثانية التي يتفاعل فيها القارئ مع القرآن في قراءته والاستفادة من الوحي المنـزل على خاتم النبيين(ص). والفرق بين التلاوة لوحدها والتلاوة بتدبر فرق شاسع، حيث أن التلاوة دون تدبر هي تلك القراءة التي ذكرناها في المنـزلة السابقة التي إما أن تكون قراءة سريعة بحيث لا يكاد القارئ يلتقط حتى المعاني الظاهرة البسيطة من الكلمات أو تكون التلاوة أقل سرعة بحيث أن القارئ يلتقط بعض هذه المعاني ولكن دون أن يتمكن من التقاط معان عميقة أو دقيقة، ودون أن يتمكن من أن يحصل على آفاق جديدة أو تنفتح له آفاق جديدة من القرآن الكريم مما هو معروف من طبيعة هذا الكتاب العزيز حيث تنفتح آفاق أمام المتدبرين على اختلاف مستوياتهم العلمية.

وقد جاء في الكتاب العزيز الحث على التدبر في آياته كما في قوله تعالى: ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب**﴾ ص:29. وفيها حث على التأمل في آيات الكتاب التي يقرؤها، أي أن لا يرضى ويقنع بمجرد القراءة الخفيفة، بل يتأنى في هذه الآيات ويتذكر إن كان من أولي الألباب الذين يحترمون عقولهم ويبحثون عن حقائق الكون من خلال الكتاب العزيز.

بل ورد الحث على التدبر مع شيء من التقريع في قوله تعالى: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾ سورة محمد:24. فالآية تشجع المسلمين على أن يقرؤوا

---

[1] الإمام علي بن الحسين(ع)، الكافي، ج 2، ص 609

بتمعن بهدف الفهم، كل حسب قدراته الذهنية، وحسب ظروفه أيضاً لأنها تؤثر على المزاج والنشاط والوقت المتاح، ولكن المهم هو التدبر من أجل الإشراف على المساحات القرآنية التي لا حدود لها، في العقيدة والشريعة والأخلاق، من خلال الأساليب المختلفة التي استخدمها القرآن الكريم، كي يحاولوا السير في طريق تصاعدي في خط العلم والعمل والتقوى. إن الآية تدل على أن القرآن الكريم ميسر لجميع القدرات الذهنية على اختلافها، فيفهم منه كل إنسان بحسب استطاعته، وإلا لماذا التقريع بكلمة ﴿**أم على قلوب أقفالها**﴾؟ فهل أقفال القلب تعني أقفال قلة الاهتمام أو الإقبال على الدنيا والإعراض عن كتاب اللّه وغيرها من أقفال عقلية، أم أنها تشمل القلب، أي مساحة الشعور، بحيث أن الأقفال هي أقفال العناد والكبر وما شاكل بحيث تمنع الإنسان من أن يسير في خط التدبر العقلي؟

حتى الذين لا يعرفون اللغة العربية فإن القرآن الكريم المنقول إلى لغتهم يحتوي على المعارف والأطر العامة كلها، وإن كان سيخسر جوانب هامة من جوانب الإعجاز، والتي بعضها – شئنا أم أبينا – له مدخلية في العقائد والأحكام ذاتها. ذلك أن قوله تعالى: ﴿**إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون**﴾ يوسف:2، ليس فقط لأن المخاطبين عرب وبالتالي عندما ينقل إلى لغة أخرى فإنه سيشتمل على جميع الجوانب الإعجازية عدا الجانب اللغوي لأنه سيكون قد تأثر بعملية الترجمة. وإلا، فإن الوحي كان ينزل على النبي(ص) بشكل غير عادي فكان النبي(ص) يتمثله بغض النظر عن اللغة التي نزل بها. ولو أراد المولى عز وجل لكتابه العزيز أن تتساوى فيه اللغات لما كان يعجزه ذلك، وعليه فهناك خصوصية للغة العربية وهناك خصوصية للعرب الذين نزل بلغتهم؛ فهو تشريف وذكر خالد، ولكن مع مسؤولية، لقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ**﴾ الزخرف:44.

نقطة هامة أثارها بعض المفسرين، وهي أن الآية تشجع على تفسير القرآن بالقرآن دون الحاجة إلى الروايات وغيرها مما هو خارج القرآن، فإنها تدل: "على بطلان قول من

قال: لا يجوز تفسير شيء من ظاهر القرآن إلا بخبر وسمع"[2]. فقد رويت الأحاديث التي تحذر تحذيراً مخيفاً من تفسير القرآن بالرأي من قبيل «**من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار**»، مما جعل الناس يعيشون الشلل الفكري حتى الذين يمكنهم الاستفادة مما حباهم اللّه تعالى به من قدرة على الفهم، وما ربما يمن عليهم من انفتاح على معان يمكن أن تخفى على علماء التفسير. لا شك في أن هذا لا يكون بمعزل عن وجود الأدوات الحقيقية عندهم؛ وإن كان من شأنه أن يضعهم في حيرة من التناقض الواضح بين ظاهر الآيات وبعض التفاسير المبنية على روايات لا تكاد تلامس الآيات – وهذا بحث آخر.

آية أخرى ورد فيها تدبر القرآن: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا**﴾ النساء:82، وهي – بحسب فهمي – تشير إلى أمرين:

الأول، هو الحث على تدبر القرآن لأن ليس من شأن تدبره الحقيقي أن يسقطهم في الانحراف وذلك لأن عدم وجود الاختلاف فيه ضمانة من أن تفسيره ببعضه، أي تفسير القرآن بالقرآن، لن يأتي إلا بالثمار الحسنة[3]؛

الثاني، الحث على النظر في إعجاز القرآن من حيث كونه خالياً من التناقض بين أي آيتين من آياته، الأمر الذي هو حاصل مع أي شيء يأتي من عند غير اللّه، ما وجدناه في الاختلافات الهائلة حتى في الروايات التي وردت عن النبي(ص) والأئمة(ع) نتيجة لعدم عصمة الناقلين والنّسّاخ.

ويصل التدبر إلى مستويات عالية ربما أعلاها ما ورد في قوله تعالى: ﴿**إن في ذلك لآيات للمتوسمين**﴾ الحجر:75، والتي فسرها الإمام الصادق(ع): «**هم المتفرسون**»؛ وهو أمر يصل إلى القمة بانكشاف الأشياء لمن وصلوا الغاية في التّفرّس بما حباهم اللّه تعالى من كرامة، حيث يقول الباقر(ع): «**ما من مخلوق إلا وبين عينيه مكتوب مؤمن أو كافر**،

---

[2] مجمع البيان، ج 9، ص 135

[3] وهو الذي لمسته، ولمسه غيري، من هذا الاتجاه التفسيري عند بعض المفسرين، ولا سيما المعاصرين.

وذلك محجوب عنكم وليس بمحجوب عن الأئمة من آل محمد، ثم ليس يدخل عليهم أحد إلا عرفوه مؤمناً أو كافراً» ثم تلا هذه الآية ﴿**إن في ذلك لآيات للمتوسمين**﴾[4].

إن من شأن التدبر أن يجعل القارئ ينتبه إلى الاستخدامات المختلفة لما يمكن أن يعبر عنه بنفس الكلمات، وما ذلك إلا لأن المولى عز وجل يعبر في كتابه بشكل دقيق جداً يبهر العقول. مثلاً، عندما نقرأ قوله تعالى: ﴿**ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، إن في ذلك لآية لقوم يتفكّرون . وسخر لكم الليل والنهار الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه، إن في ذلك لآية لقوم يذّكّرون**﴾ النحل:11-13 فإنه يمكن استخدام أي كلمة من الكلمات الثلاث: يتفكّرون، يعقلون، يذّكّرون، في جميع الآيات ولكن عند القراءة بتدبر ينتبه القارئ إلى هذه النقطة فيبدأ بالتفكير لماذا استخدمت كل من هذه الكلمات في الآية الخاصة بها، فيتساءل: هل الأمر كما ذهب إليه بعض المفسرين[5] بالقول بأن "الحجة الأولى مؤلفة من مقدمات ساذجة يكفي في إنتاجها مطلق التفكر، والثانية مؤلفة من مقدمات علمية لا يتيسر فهمها إلا لمن غار في أوضاع الأجرام العلوية والسفلية وعقل آثار حركاتها وانتقالاتها، والثالثة مؤلفة من مقدمات كلية فلسفية إنما ينالها الإنسان بتذكر ما للوجود من الأحكام العامة كاحتياج هذه النشأة المتغيرة إلى المادة وكون المادة العامة واحدة متشابهة الأمر ووجوب انتهاء هذه الاختلافات الحقيقية إلى أمر آخر وراء المادة الواحدة المتشابهة"[6].

---

[4] المحتضر، حسن بن سليمان الحلي، ص 213

[5] تفسير الميزان، ج 12، ص 215

[6] إلا أنه لم يوضح لماذا استخدمت كلمة ﴿آية﴾ في الآيتين 11 و 13 في حين استخدمت كلمة ﴿آيات﴾ في الآية 12. فهل السبب هو أن الآية 11 تتحدث عن قضية إنبات الزرع والزيتون الخ من المطر الوارد في الآية 10 قبلها، وأن الآية 13 تتحدث عن قضية أن اختلاف الألوان والأشكال مع أن المادة واحدة يحتاج إلى مقدمات فلسفية، في حين أن الآية 12 تتحدث عن أكثر من ظاهرة: الليل والنهار، وهما يتعلقان بدوران الأرض حول الشمس، أما الشمس والقمر فيتعلقان بتفاصيل الأجرام، هذا نجم وهذا تابع وغير ذلك، والنجوم تتعلق بالمجموعات الكونية المختلفة، وكل ذلك مسخر بضمن النظام الدقيق، فهي آيات وليست آية واحدة؟

والشيء بالشيء يذكر: إذا نظرنا إلى مسألة إعجاز القرآن، فإنه يستخدم هذه الكلمات المختلفة في مزج للإعجاز البلاغي مع الإعجاز العلمي مع أية مسألة أخرى، وهذا هو السر في تفرد الإعجاز القرآني. ذلك أن إعجاز القرآن، بمعنى استحالة الإتيان بمثله، جاء ليس فقط في الإعجاز في مسألة هنا أو مسألة هناك، ولا في تنوع الإعجاز، حيث الإعجاز اللغوي والبلاغي والعلمي والتشريعي وغيره، ولكن – فيما أفهم وفيما أوضح المختصون – بحلول أكثر من شكل من أشكال الإعجاز في آية واحدة، بل في كلمة واحدة، وهو كثير في سوره المباركة. لذلك، من الممكن أن يكون التنوع في هذه الكلمات هو من أجل التنوع البلاغي ومن أجل الدقة البيانية من حيث المعنى المطلوب، بل وحتى من حيث أمور أخرى لعل المستقبل يكشفها لنا.

إن الأساس في مسألة تدبر القرآن الكريم إنما ينطلق من قضية تعلّم القرآن، لأنك إذا أردت أن تتعلم القرآن لا بد أن تقرأه بتمعن وبمحاولة للفهم وهذا لا يتأتى إلا من التدبر، الذي قلنا أنها التلاوة البطيئة المتأنية التي تفكر في الكلمات بغض النظر عن الوقت الذي تحتاج إليه[7].

فقد جاء الحث على تعلّم القرآن في الأحاديث الشريفة، منها ما أخرجه البخاري[8] أن النبي(ص) قال: «**خيركم من تعلم القرآن وعلّمه**».

وأخرج أيضاً أن النبي(ص) قال: «**إن أفضلكم من تعلّم القرآن وعلّمه**»[9].

---

[7] أذكر حواراً إذاعياً سمعته ربما في الثمانينيات مع المقرئ المصري الشهير المرحوم عبد الباسط عبد الصمد، وكان ذلك في شهر رمضان، وكانت المذيعة تسأله عن عدد الختمات التي يختمها في شهر رمضان – على أساس أن العدد هو الذي يثير اهتمام الناس في شهر رمضان كما قلنا سابقاً. وقد أجابها بأنه يختم القرآن في شهر رمضان أما خمس أو ست ختمات (الشك مني) بمعنى أنه يختم القرآن الكريم مرة كل خمسة إلى ستة أيام. ولكنه أضاف بأنه – إضافة إلى ذلك – في ختمة لم يكملها بعد كان بدأها قبل ذلك بثلاثين عاماً! وهذا يدل على تدبر واع وحقيقي للقرآن الكريم من أجل الاستفادة منه حتى لو انتهى العمر قبل إتمام تلك الختمة، لأننا عندما نتناول التدبر ما قيمة أن أكمل ختمة بلا فائدة حقيقية منها.

[8] صحيح البخاري، ج 6، كتاب فضائل القرآن، ص 108، حديث 46

[9] نفسه، حديث 47

إن الذي يقرأ الأحاديث الشريفة يجد استخدام هذه التعابير خيركم أو خير الناس أو أفضلكم أو أفضل ما يتقرب به العبد وغيرها من التعابير في الأمور التي يريد النبي(ص) أن يحث الناس عليها حثاً شديداً ويشجعهم على تعاهدها والاهتمام بها. فهنا عندما يقول أن خير الناس من تعلم القرآن فإنه يرتفع به إلى أعلى درجات الإنسانية وأعلى الدرجات في المجتمع المسلم. وهذا التعلّم لا يمكن أن يتأتى بالقراءة السطحية أو بالحفظ عن ظهر قلب، وإنما يتأتى من التدبر والتفكر والتذكر والتوسم والاستفادة من القرآن بهذه الطريقة.

يقول الإمام السجاد(ع)[10] في دعاء ختم القرآن: «**اللهم إنك أنزلته** – أي القرآن – **على نبيك محمد**(ص) **مجملاً، وألهمته علم عجائبه مكملاً، وورثتنا علمه مفسراً، وفضلتنا على من جهل علمه، وقويتنا عليه، لترفعنا فوق من لم يطق حمله؛ اللهم فكما جعلت قلوبنا له حملة، وعرّفتنا برحمتك شرفه وفضله، فصلِّ على محمد الخطيب به وعلى آله الخزان له، واجعلنا ممن يعترف بأنه من عندك حتى لا يعارضنا الشك في تصديقه ولا يختلجنا الزيغ عن قصد طريقه**».

ويقول: «**اللهم وكما نصبت به محمداً علماً للدلالة عليك وأنهجت بآله سبل الرضا إليك، فصلِّ على محمد وآله واجعل القرآن وسيلة لنا إلى أشرف منازل الكرامة، وسلَّماً نعرج فيه إلى محل السلامة، وسبباً نُجزى به النجاة في عرصة القيامة، وذريعة نقدم بها على نعيم دار المُقامَة**».

وهذا يقودنا إلى دور آل محمد(ص) في تبيان القرآن الكريم، وهو ما سنتعرض له جزئياً في هذه المنـزلة، ولكن أيضاً في منـزلة العمل به وهي التي تأتي بعد هذه، حيث نرى كيف أنهم(ع) عندهم القرآن الكريم بتفسيره وتأويله وعمق معانيه مما لا غنى للمسلمين عنه ومما لا يمكن أن يجدوه عند غيرهم(ع).

[10] الصحيفة السجادية، دعاء 42

تدبر سيرة العترة المباركة

وجعلك وأخاك وجدّك وأباك وأمك وبنيك عبرة لأولي الألباب[11]

إذا أردنا أن نقابل بين منـزلة التدبر للقرآن الكريم وآياته وبين أهل البيت(ع) فإننا نريد أن نبحث أمرين:

الأول – هل في سيرتهم ما يشجع على التدبر للاستفادة منه، بحيث أن المتدبر لهذه السيرة يخرج بعِبَر ينتفع منها فيما يواجهه في حياته؟

الثاني – هل المسلمين يقومون بالفعل بتدبر سيرة العترة المباركة ويحققون هذه الفوائد؟

أننا هنا لا نعني علياً والحسنين(ع) مثلاً حيث أنهم هم الأئمة المعروفون بالنسبة إلى المسلمين من غير شيعة أهل البيت(ع)، ولكننا نعني جميع أفراد العترة المباركة والتي بينا أنها تشمل الأئمة الإثني عشر(ع)، والتي لا يكاد يعرف أكثر المسلمين أسماءهم، دع عنك سيرتهم والأحداث التي رافقت حياتهم المباركة.

أما لماذا تدبر هذه السيرة، أعني لماذا نهتم بسيرة الماضين من الشخصيات المهمة، بحيث أن السؤال هنا ينطلق بعيداً عن دعوة أمير المؤمنين(ع) بأن ننزلهم بأحسن منازل القرآن، هذا للذين لا يريدون النظر في هذه الدعوة على أساس هذه المنازل التي فصلناها؟ فعند السؤال عن ذلك ربما يقول البعض بأننا مستغرقون في التاريخ ولا نريد أن نعيش الواقع، وربما نريد الهروب من الواقع كي لا نواجه فشلنا في حل مشاكله، ولكن الحق هو أن التاريخ مليء بالدروس، هذا عموماً، فكيف بمن كانوا هم الذين يصنعون التاريخ؟ لا شك في أن تدبر سيرهم وأحوالهم ومواقفهم ستكون له فوائد كبيرة، لأنهم بشر ونحن بشر، ولأن الظروف المحيطة بالإنسان متشابهة وإن اختلفت في التفاصيل.

---

[11] من زيارات الإمام الحسين(ع)، بحار الأنوار، ج 98، ص 224

من هنا فإن الاهتمام بسيرة الماضين، أياً كانوا، هو أمر منطقي، وربما يعد ضرورة لمن يأتي بعدهم. وإننا إذا أردنا أن نأتي إلى الدليل النقلي، أي إذا كنا قد ذكرنا الإجابة أعلاه بأنها دليل العقل على ضرورة الاستفادة والاستعبار من تجارب الماضين الخالدين، فإن الدليل النقلي على ذلك هو الاطلاع على هذه السير لنرى إن كنا نستطيع أن نستفيد دروساً منها. فبغض النظر عن الإيمان أو عدمه بحديث الثقلين الذي يدعو إلى التمسك بعترة النبي(ص) مع القرآن الكريم، وبغض النظر عن الآيات والأحاديث الكثيرة التي تجعلهم في القمة من الجسم الإسلامي بحيث لا نحتاج إلى التدليل على دورهم المركزي في التاريخ، فإننا نحب أن نذكر بعض هذه الأحداث في حياتهم المباركة لكي نبيّن أن استحصال العبرة منها هو أمر لا غنى عنه للمسلمين جميعاً. أما اختيار هذا الحدث أو ذاك فإنه من الصعوبة بمكان لأن حياتهم(ع) مفعمة بهذه الأحداث المتنوعة، وهو ما يتوقع ممن كان في المقدمة علماً وفقهاً وسيرة، وفي المقدمة في مواجهة الأحداث سواء مع الحكام أو غيرهم. وهكذا لنختر بعض الأحداث من حياة العترة المباركة حيث أن فيها العِبرة كل العِبرة لمن أراد أن يتذكر، أو كما جاء في بعض زيارات الإمام الحسين(ع) «**وجعلك وأخاك وجدك وأباك وأمك وبنيك عبرة لأولي الألباب**».

النبي(ص) والثبات في الدرب

ولو أننا نتناول عترة النبي(ص) هنا لا النبي(ص) نفسه إلا أنه من المناسب أن نذكر حادثة من حياته الشريفة تعطي بعض اللمحات لنفس المواقف من حياة عترته المباركة التي ربما لم يكن هناك مجال لإدراجها. لذلك نذكر باختصار، كما جاء في طبقات ابن سعد[12]، أنه لما توفي أبو طالب تناولت قريش من النبي(ص) وتجرأوا عليه، فخرج إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة، فأقام فيها عشرة أيام فلم يجيبوه، بل أغروا به سفهاءهم فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى إن رجلي النبي(ص) تدميان وزيد بن حارثة يحاول أن يحميه منهم. ويكمل الحادثة ابن هشام[13] أن النبي بعد ذلك تخلص منهم وجلس إلى بستان لعتبة وشيبة ولدي

[12] الطبقات الكبرى، ج 1، ص 211
[13] سيرة ابن هشام، ج 1، ص 286

ربيعة، وهما من الوجوه الكبار في الطائف، وخاطب ربه تعالى بكلماته الشهيرة: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني: إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي. ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنـزل بي غضبك أو تحل عليّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك**». فالنبي(ص) هنا يجمع العناصر المختلفة لما يشعر به وما قد تغلغل في أعماق نفسه. فهو يشكو إلى اللّه تعالى عدم مقدرته على أن يحقق نجاحاً كبيراً يخرج به من دائرة قريش، تلك الدائرة المكية التي تحاصره وأتباعه من كل مكان، ولكنه بنفس الوقت يخاطب ربه بالقول بأن المهم أن لا يكون من اللّه عليه غضب لأن المهم أن لا ينزل به غضبه أو سخطه. وبنفس الوقت يخاطبه بأنه وإن كان هذا هو المهم له، بمعنى أنه سيحتمل ما يقابله به الظالمون، إلا أن العافية والراحة في دعم جهوده ستكون أوسع له في تحقيق ما يريده اللّه سبحانه وتعالى. ولا ينهي كلامه مع ربه حتى أعلن أن اللّه سبحانه وتعالى له الحق دائماً في معاتبة عبده حتى يرضى، فكأن النبي(ص) لا يخرج نفسه من حد التقصير في الأمر (حاشاه وهو المعصوم من الذنب)، ثم لينهي قوله بأنه إذا أراد تحقيق النجاح فإنه أخرج نفسه من الحول والقوة إلى حول اللّه وقوته.

والعبرة في هذا الموقف الرسالي هو أنه لا يتزلزل فيما يواجهه أولاً، وفي أنه لا يغفل عن أن المهم هو رضا اللّه تعالى ثانياً، وفي أن التوكل يجب أن يكون بكامله عليه من أجل النجاح ثالثاً.

الإمام علي(ع) والاحتياط على الإسلام

على الرغم من أن أمير المؤمنين(ع) يعتقد بأنه خليفة الحق المنصوص عليه من النبي(ص)، كما ورد في الكثير من أحاديثه، وكما نجده في أيام خلافته في الكوفة يطلب شهادة من حضر يوم غدير خم ممن سمع النبي(ص) ورآه بعينه ينصبه أميراً على الناس من

بعده[14]، على الرغم من ذلك إلا أنه في جميع المراحل التي سبقت بيعته الجماهيرية للخلافة بعد مقتل الخليفة الثالث كان ما يهمه هو الحفاظ على بيضة الإسلام وعلى حوزة المسلمين حتى لو كان ذلك على حسابه شخصياً. وقد روي عنه القول بعد بيعة أحد الخلفاء من قبله: ‹‹**خشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة بهما عليّ أعظم من فوت ولاية أموركم، التي إنما هي متاع أيام قلائل، ثم يزول ما كان منها كما يزول السراب وكما ينقشع السحاب**››[15].

بعد بيعته نجده يسأل ابن عباس عن قيمة النعل التي كان(ع) يصلحها، فلما أجابه بأنها لا قيمة لها قال الإمام(ع): ‹‹**والله لهي أحبُ إليّ من إمرتكم إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً**››[16]. وهذه تقول للناس بأنه عندما كان يطالب بالإمرة والخلافة إنما كان لأجل ما سيقوم به من خلالها لا من أجلها هي نفسها.

وقد اشتهر عنه قوله(ع): ‹‹**والله لأسالمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا عليّ خاصة إلتماساً لأجر ذلك وفضله وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه**››[17] وهي تقول بشكل واضح أن المهم هو سلامة الدين، وهي إشارة واضحة إلى دوره ومنـزلته بأنه هو حارس للعقيدة بحيث يتدخل عندما يرى انحرافاً أو يتدخل عندما يرى جهلاً وحاجة، وبالتالي يقوم بدوره الذي كان يقوم به لو كان الخليفة مبسوط اليد.

وهنا نقول لشيعة علي(ع) بأن يضعوا جميع الأمور في نصابها وبوزنها، فلا يكن عندهم عدم استخلاف الإمام علي بعد رسول الله(ص) مباشرة هي المشكلة، وإنما المشكلة في أنه لم يستطع أن يقوم بواجبه الشرعي بعد النبي(ص) مباشرة بسبب عدم بيعته. بمعنى أن المشكلة ليست في البيعة لأنه لا يبحث عن مناصب، وإنما المشكلة فيما كان يمكن له القيام

---

[14] شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد، ج 4، ص 74، ومسند أحمد، ج 1، ص 119، والمعجم الأوسط، الطبراني، ج 2، ص 275

[15] بحار الأنوار، ج 33، باب 30، رواية 722

[16] نفسه، ج 32، باب 1، رواية 50

[17] نهج البلاغة، ج 1، الخطبة 74

به في ذلك المنصب – نقول ذلك لأننا نرى أن هناك اهتماماً في الشكل لا في المضمون، وفي الإطار لا فيما هو مطلوب في ذلك الإطار.

الزهراء(ع) والدعاء للآخرين

ذكر الكثيرون عن علم الزهراء(ع) وعباداتها وذكروا حديث ولدها الحسن(ع): ‹‹**ما كان في الدنيا أعبد من فاطمة: كانت تقوم** – أي الليل – **حتى تتورم قدماها**››[18].

أما هنا فنريد أن نتدبر هذا الموقف الإيثاري للزهراء(ع) حتى في الدعاء. فإن المسلمين جميعاً يعلمون ويقرؤون، ونرجو أنهم يتدبرون، قوله تعالى: ﴿**ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءاً ولا شكوراً**﴾ الإنسان:8-9 وهذا هنا الإيثار بالطعام الذي قام به أفراد ذلك البيت الطاهر علي وفاطمة والحسنان(ع)، لثلاثة أيام حتى عندما رآهم النبي(ص) بعد هذه الأيام الثلاثة كانوا، حسب وصف الرواة، يرتعشون كالفراخ من شدة الضعف والجوع[19]. إلا أننا نريد أن نقول كلمة عن إيثارها حتى في الدعاء.

فقد حدث ولدها الأكبر الحسن(ع)[20]: ‹‹**رأيت أمي فاطمة قامت في محرابها ليلة جمعتها، فلم تزل راكعة ساجدة حتى اتضح عمود الصبح، وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات، وتسمّيهم، وتكثر الدعاء لهم، ولا تدعو لنفسها بشيء، فقلت لها: يا أمّاه لِمَ لا تدعونّ لنفسك كما تدعونّ لغيرك؟! فقالت: يا بني الجار ثم الدار!**›› وهنا، إذا تدبرنا هذا نجد أنها جعلت

---

[18] بحار الأنوار، ج 43، ص 75

[19] تفسير الآلوسي، ج 29، وتفسير الثعلبي، ج 10

[20] علل الشرائع، الصدوق، ج 1، باب 145، حديث 1 و 2

دعاءها للمؤمنين يستغرق ليلها كله، وما في ذلك إلا رحمة لهم وحباً بهم حيث هي مستجابة الدعاء.

إننا نستطيع أن نتبين من ذلك أن هذه العترة المباركة، التي يدعونا أميرها وسيدها أمير المؤمنين(ع) بأن ننزلها بأحسن منازل القرآن، إنما كان ذلك منه لأنهم تمثلوا القرآن في أعظم درجاته فصاروا يؤثرون الناس على أنفسهم ليس بالماديات فقط وإنما حتى بالدعاء والتضرع إلى اللّه تعالى. إن هذا يدعو المؤمنين إلى اتباع طريقة مولاتهم الزهراء(ع) في الدعاء لبعضهم البعض، وأكثر من ذلك في الشعور ببعضهم البعض في مشاكلهم وحاجاتهم وآلامهم بحيث يتمثلون روح الأخوة الإيمانية كما ينبغي لها.

الإمام الحسن(ع) ودفع الأذى بالحلم والكرم

كانت طريقة أئمة أهل البيت(ع) دفع الإساءة بالإحسان والتعامل مع الآخرين من الأعداء والمناوئين كما أمر القرآن الكريم الذي تمثلوه في حياتهم فصاروا قرآناً متجسداً أمام الناس – قال تعالى : ﴿**إدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**﴾ فصلت:34. روي أن رجلاً شامياً التقى الإمام الحسن(ع) في الطريق فجعل يلعنه ويشتمه ولكن الإمام الحسن(ع) لم يكن يرد عليه، فلما انتهى ذلك الرجل سلم الإمام(ع) عليه وهو مبتسم وقال: ‹‹**أيها الشيخ لو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا حملناك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عرياناً كسوناك، وإن كانت لك حاجة قضيناها لك، فلو حركت رحلك إلينا وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعوَدَ عليك، لأن لنا موضعاً رحباً وجاهاً عريضاً ومالاً كثيراً!**›› فلما سمع الرجل هذا ندم وبكى، وقال له: أشهد أنك خليفة اللّه في أرضه وأن اللّه أعلم حيث يجعل رسالته. ثم استجاب لضيافة الإمام وذهب عنده.

لو أردنا أن نحلل موقف الإمام(ع) فإننا نجد أنه أولاً لم ينفعل لموقف الرجل، ثانياً منع أصحابه من التهجم عليه، ثالثاً تعامل مع الرجل بشكل لا بد وأنه فاجأه بحيث وكأنه

سحب البساط من تحت قدميه كما يقال. هذا التعامل لم يتضمن موعظة في حسن الأدب وعدم التهجم على الآخرين، فإن الإمام(ع) ربما قدّر أن الرجل كان قد سمع أمثال هذه المواعظ (والتي نحسب أنها لم تكن تؤثر في الناس كثيراً يومذاك كما هي عقيمة غالباً هذه الأيام)، لذا عمد إلى الطريقة المجسدة للأخلاق التي يدعى إليها في مواعظ كهذه، وهي طريقة جمعت بين فسح المجال أمام الرجل لقول ما عنده ضد الإمام(ع)، ودعوته لإلقاء أي حمل عنده من الحاجة أو الخوف أو غير ذلك، بل وحتى الدعوة للنزول ضيفاً عند الإمام(ع). فلو كان هذا الرجل من أعتى أعداء الإمام(ع) لما وجد مجالاً للاستمرار في العداوة، الظاهرية على الأقل. وبهذا، ضمن الإمام(ع) تغيير عقيدة الرجل من العداء إلى الولاء، أو إلى الحياد على أقل تقدير.

في ميزان الكثير من الناس، إن الإمام(ع) لم يأخذ بحقه، بل خسر خسائر مالية فوق ما تعرض إليه من اعتداء الرجل، ولكن أئمة العترة المباركة لا يهتمون بالمال بل بالإنسان، ومن أجل بناء الشخصية الراقية فإنهم يعتبرون المال إحدى الوسائل التي يمكن استخدامها، معرفة منهم(ع) في تأثيره على الناس. ولعل هذا هو الأمر المركزي في تكاليف الأنبياء(ع) والأئمة(ع) وبالتالي فالمال عندهم إنما هو من أجل هذه التكاليف الإلهية.

وهنا نكرر القول أن هذا ديدن الأئمة(ع)، فهناك الكثير من المواقف مع الإمام الحسين ومع الإمام السجاد ومع الأئمة الآخرين وكانت مواقفهم ذات الموقف من الحلم والصبر والاستيعاب والانطلاق من موقف أبوي يضم هذا الحاسد أو ذاك المبغض أو ذاك الشاتم عسى أن يحولوه من العداوة إلى الصداقة أو من سوء الاعتقاد فيهم إلى حسن الاعتقاد، أو على الأقل إلى الحيادية بدلاً من أن يبقى عدواً مبغضاً يثير البغضاء هنا وهناك.

ونسأل هنا كم ترى نحن نعتبر بهذه المواقف إذا تدبرناها وعرفناها؟ لا شك في أن الكثيرين من المسلمين سمعوا بهذه المواقف في المنابر ومن الخطباء وقرؤوا عنها، وهذه الأيام يستمعون ويشاهدون القنوات التلفزيونية التي تنقل في بعض البرامج مثل هذا، ولكن هل استجابتهم استجابة تغييرية؟ هل اعتبروا بهذه المواقف ففعلوا مثل ما فعل أئمة العترة المباركة؟ سؤال مطروح لكل إنسان، لاسيما من يدعي موالاة أولئك الكرام.

الإمام الحسين(ع) وعزة المؤمن

إن اشتهار قضية الإمام الحسين وموقفه الجهادي الكبير لا يحتاج إلى ذكر فقد عرفه وأشاد به غير المسلمين إضافة إلى المسلمين، وكان موضع تسالم بين المسلمين في الموقف مما جرى في كربلاء في يوم العاشر من محرم سنة 61 هجرية. ولكن ما نريد أن نلتقطه هنا هو واحد من هذه الإشارات، ذلك الموقف العزيز للإمام الحسين(ع) لنتدبره ونرى توافقه مع كتاب اللّه تعالى الذي يقول: ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾ المنافقون:8، والذي نعى على القاعدين عن جهاد الظالمين الذين كانت لهم فسحة من الهجرة لأن في ذلك تخليصاً لأنفسهم من الذل أو العيش الذليل تحت الظالمين. ويبدو من بعض الأحاديث الشريفة أن قوله تعالى: ﴿**لله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾ هي أنه سبحانه وتعالى اختار العزة للمؤمن فلم يسمح له بأن يكون ذليلاً. بمعنى أن المؤمن ربما يكون قد أعطي الخيار في كثير من الأمور ولكن لا أن يكون ذليلاً، وهذا قول الإمام الصادق(ع): «**إن الله عزّ وجلّ فوّض إلى المؤمن أموره كلها ولم يفوّض إليه أن يذل نفسه**»[21].

ولهذا فإن الإمام الحسين(ع) بعدما تحرك في نهضته وخاطب الناس ببيانات واحدة تلو الأخرى، سواء في مكة أم بعد ذلك وصولاً إلى كربلاء، أعلن لهم بأن والي الكوفة عبيد اللّه بن زياد قد خيّر الإمام الحسين(ع) بين القتال أو بيعة يزيد. هذا الخيار ترجمه الإمام الحسين(ع) إلى خيار بين القتال وبين الذلة، لأن العيش تحت سلطة يزيد وولاته من أمثال ابن زياد إنما سيكون عيشاً ذليلاً لا يرضي اللّه تعالى. وهذا أعلنه للناس بقوله: «**ألا وأن الدعي ابن الدعي قد ركز (تركني) بين اثنتين: بين السّلّة والذّلّة، وهيهات منا الدنيئة (وهيهات له ذلك هيهات مني الذّلّة)، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، (وجدود طهرت) وحجور طابت وأنوف حمية ونفوس أبية أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام**»[22].

---

[21] الكافي، ج 5، ص 63

[22] تحف العقول، ص 241، وبحار الأنوار، ج 45، باب 37، حديث 10، وغيرهما

هنا يقول الإمام الحسين(ع) للناس أن هذا الخيار ليس إلا خياراً واحداً في الحقيقة وهو القتال لأن الذلة غير مقبولة لا من اللّه ولا من رسوله ولا من المؤمنين ولا من أجداده وأمهاته، في إشارة إلى الأرومة الكريمة وإلى التنشئة العريقة، بحيث أن كل ذلك لا يمكن أن يفضل العيش بذل طاعةً للئام على القتل كريماً. أما لماذا القتل فلأنه يعرف أنه بجيشه الصغير جداً في قبالة الجيش الكبير، والذي ربما سيكثر أكثر بمدد من الشام، هو نتيجة حتمية لخسارة المعركة في ذلك اليوم، ولكنه طبعاً سيكون فتحاً فيما بعد.

وهنا أيضا نقول أن تدبر هذا الموقف العزيز للإمام الحسين(ع) وغيره من مواقف الأئمة(ع)، والذي يعارض بعض الروايات التي ربما تصورهم بموقف ضعيف أمام بعض الخلفاء، في حين أن واقعهم يقول أنهم لا يتجاوزن القرآن ولا بشعرة وبالتالي طالما يأبى اللّه ورسوله والمؤمنون لهم الذل على ما قال الإمام الحسين(ع) فإن الأمر كذلك مع غيره من الأئمة(ع) والمجال لا يسع لذكر كيف تعامل السجاد(ع) مع يزيد وكيف تعامل الصادق(ع) أو الكاظم(ع) مع المنصور وغيره وكيف تعامل الأئمة المتأخرون(ع) مع خلفاء بني العباس. هذا الموقف العزيز إذا تدبرناه ملياً فإننا لا نجد مناصاً من أن نعيش مرفوعي الرأس إن كنا مؤمنين متدبرين بآيات الكتاب العزيز وبأعدال الكتاب وهم العترة الطاهرة، وذلك في أي موقع نكون – ليس بالضرورة موقع القتال وإنما في أي موقع من مواقع الحياة، فإن الحياة كلها جهاد ولاسيما أننا نعلم أن رسول اللّه(ص) قال بأن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس. إذاً، في مواقع جهاد النفس عندما نشعر أننا سنتصاغر أمام حاجة دنيوية أو أمام ضغط نفسي أو أمام خوف ما فعلينا أن نستفيد من تدبرنا لهذه المواقف العزيزة فلا نسقط أمامها.

الإمام السجاد(ع) ودور الأنساب

من المظاهر السلبية التي تعيشها المجتمعات هي التفاوت بين الناس على أساس الانتماء العائلي، بحيث أن رجلاً كريم النفس كثير الخير من نسب غير معروف لا يستطيع أن يقف في موقف المقارنة مع آخر لا يأمن الناس شروره وبوائقه بمجرد أنه من نسب شريف أو عائلة كبيرة. لكننا نجد أن الأئمة(ع) من هذه العترة المباركة يوضحون للناس أن

النسب لوحده لا ينفع. وهذا لو أتى من غيرهم لقلنا أن هناك من هم أعلى منهم نسباً فلربما كان هذا الموقف يختص بدرجة معينة من الناس، أما أن يأتي ذلك منهم وهم الذين في أعلى درجات الشرف العائلي فهذا يصبح مؤسساً للطريق الصحيحة في العلاقات الاجتماعية في نظرة الناس لبعضهم، بل في نظرتهم لأنفسهم فلا يركنون إلى أمور خارجية لا دخل لهم بها بل يعتمدون على ما كسبت أيديهم.

ونذكر هنا من مواقف الإمام السجاد(ع) في هذا الموضوع (بتصرف واختصار[23]) أن الإمام الصادق(ع) كان يقول بأن جده السجاد(ع) كان لا يسافر إلا مع جماعة لا يعرفونه وكان يشترط عليهم أن يكون هو أيضاً ممن يخدم أثناء الرحلة. وحدث أن عرفه رجل في إحدى السفرات فأخبرهم بذلك فوثبوا إلى الإمام(ع) وقبلوا يده ورجله وقالوا: يا ابن رسول اللّه، تريد أن تصلينا نار جهنم لو بدرت إليك منا يد أو لسان، أما كنا قد هلكنا إلى آخر الدهر؟ فما الذي يحملك على هذا؟ فقال: «**إني كنت سافرت مرة مع قوم يعرفونني، فأعطوني برسول الله(ص) ما لا أستحق، فإني أخاف أن تعطوني مثل ذلك، فصار كتمان أمري أحب إلي**».

حدثني صديقي، عندما كان معتقلاً في العراق نهاية السبعينيات، أنه كان في زنزانة واحدة مع ثلاثة شباب، واحد منهم ينتسب إلى النبي(ص)، وكان الإثنان الآخران يقومان بخدمته في كل شيء وهو "عَطّال بَطّال" – كما نقول في العراق –، وكان صديقي يعجب لذلك، حيث كان – مثلي – بدأ للتوّ في التعرف على مذهب أهل البيت(ع)، وكنا لا ندري كيف يمكن أن يكون هناك تفاوت في العمل لمجرد النسب. صحيح أن النبي(ص) أشار إلى الأجر الذي يحصل عليه المرء من خدمة ذريته، ولكن هذا لمن يستحق ولمن يرعى حقوق الآخرين هو الآخر. فلما عرفنا سيرتهم(ع)، وجدنا أن هذه الممارسات لا أساس لها من الدين، كيف والدين لا يمكن أن يخالف العقل. والمشاهد من الحال اليوم، وفي كل مكان، أن مثل هذه التصرفات – مع من يستحق ومن لا يستحق – لا تزال هي الغالبة... يبدو أن سيرتهم(ع) لم يؤخذ بها حتى الآن!

---

[23] بحار الأنوار، ج 46، ص 69

وجاء عن طاووس أنه رأى الإمام زين العابدين(ع) يطوف من العشاء إلى السّحَر ويتعبّد ويذكر دعاء الإمام(ع)... إلى أن يقول ثم بكى وقال: «**سبحانك تُعصى كأنك لا تُرى، وتَحلم كأنك لم تُعص، تتودد إلى خلقك بحسن الصنيع، كأن بك الحاجة إليهم، وأنت يا سيدي الغني عنهم**». ثم خرّ إلى الأرض ساجداً، فدنوت منه وشلت برأسه ووضعته على ركبتي وبكيت حتى جرت دموعي على خده، فاستوى جالساً وقال: «**من الذي أشغلني عن ذكر ربي؟**» فقلت: أنا طاووس يا ابن رسول اللّه، ما هذا الجزع والفزع؟ ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا ونحن عاصون جانون، أبوك الحسين بن علي وأمك فاطمة الزهراء وجدك رسول اللّه(ص)! فالتفت إلي وقال: «**هيهات هيهات يا طاووس، دع عني حديث أبي وأمي وجدي، خلق الله الجنة لمن أطاعه وأحسن ولو كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان سيداً قرشياً، أما سمعت قوله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾[24]، والله لا ينفعك غداً إلا تقدمة تقدمها من عمل صالح**»[25].

وهنا نتساءل كيف يمكن لنسب أن ينفع دون عمل؟ نعم، صحيح أن رسول اللّه(ص) قال بأن كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببه ونسبه(ص)، ولكنه ذكر السبب مع النسب. كما لا توجد قرابة بين اللّه وبين أحد من خلقه، فمن غير المعقول أن اللّه، الذي هو العدل المطلق، لاسيما ونحن نؤمن بأن العدل من أصول الدين وأن اللّه لا يظلم أحداً شيئاً، فمن غير المعقول أن يجعل لإنسان فضلاً على آخر بسبب لا يد له فيه أنه ولد من ذلك الأب أو من تلك الأم أو ذلك الجد أو من تلك العائلة. إن العمل هو الذي يضع الإنسان في موضع التصنيف عند اللّه سبحانه وتعالى، حتى يصل أن يكون ولياً لرسول اللّه(ص) أو عدواً له كما قال الإمام أمير المؤمنين(ع): «**إن ولي محمد من أطاع الله وإن بعدت لحمته** – أي لم يكن قريباً في النسب من رسول اللّه –، **وإن عدو محمد من عصى الله وأن قربت**

---

[24] سورة المؤمنون:101

[25] مناقب ابن شهرشوب، ج 3، ص 291

قرابته››[26]. فالواجب على المسلمين، لاسيما المنتسبين إلى أهل البيت(ع) من الذرية المباركة، بأن يعوا ذلك جيداً فلا يتكئوا على النسب لأن ذلك لن ينفع دون عمل.

الإمام الباقر(ع) وموعظة الحاكم

إبتلي أئمة العترة المباركة بحكام زمانهم من بني أمية والعباس حتى جرى عليهم منهم ما هو معروف مشهور سطرته كتب المؤرخين والمحدثين، فكانوا(ع) بين ذبيح وسجين ومسموم ومطارد، هذا غير ما فعل بشيعتهم في جميع أنحاء الوطن الإسلامي، لاسيما في الحواضر المهمة في ذلك الوقت. وعلى الرغم من ذلك كان الأئمة(ع) يحاولون القيام بما يستطيعون من واجبهم الشرعي على الرغم من عدم بسط يدهم وعلى الرغم من هذه المطاردة والملاحقة والتهديد، فكانوا يقدمون النصح كلما وسعهم ذلك. أما إذا كان الحاكم مؤهلاً، بمعنى أنه ممن يستمع إلى القول وممن يستمع إلى النصح، فلا شك في أن الأئمة(ع) لم يكونوا ليبخلوا عليه بذلك إن هو تقبله منهم.

ونذكر هنا (مختصراً[27]) ما نقله الشيخ الصدوق في كتابه الخصال عن الموعظة البليغة التي قدمها الإمام الباقر(ع) للخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، الذي كان يختلف اختلافاً جوهرياً عن أسلافه من خلفاء بني أمية وعمن جاء بعده. فقد روى بأنه عندما زار عمر ابن عبد العزيز المدينة أمر المنادي أن ينادي: من كانت له مظلمة أو ظُلامة ليحضر إلى باب ابن عبد العزيز. فأتى الإمام الباقر(ع) ودخل عليه فرأى عمر يمسح عينيه من الدموع، فسأله الإمام عن ذلك فأخبره عن السبب، الذي يبدو أنه كان في شأن من شؤون الدنيا التي تبعث الألم في النفوس. هنا طفق الإمام(ع) يتكلم بما أعطاه اللّه سبحانه وتعالى من العلم والحكمة فقال: ‹‹**إنما الدنيا سوق من الأسواق منها خرج قوم بما ينفعهم ومنها خرجوا بما يضرهم، وكم من قوم قد غرتهم حتى أتاهم الموت، فاستوعبوا فخرجوا من الدنيا ملومين لما لم يأخذوا ما ينفعهم في الآخرة عُدّة، ولا مما كرهوا جُنّة، فقسّم مما جمعوا لمن لم يحمدهم**

---

[26] نهج البلاغة، ج 4، الكلمة 96

[27] بحار الأنوار، ج 46، ص 326

وصاروا إلى من يعذرهم، فنحن والله حقيقون أن ننظر إلى تلك الأعمال التي نتخوف عليهم منها، فنكفّ عنها››. ويتابع الإمام موعظته: ‹‹**فاتق الله واجعل في نفسك اثنتين: أنظر إلى ما تحب أن يكون معك إذا قدمت على ربّك فقدمه بين يديك، وانظر الذي تكره أن يكون معك فارمه وراءك، ولا ترغبنَّ في سلعة قد بارت على من كان قبلك، فترجو أن تجوز عنك. واتق الله يا عمر، وافتح الأبواب وسهّل الحجّاب وانصر المظلوم وردَّ المظالم، ولا تغلق بابك عنهم وأن تردّ ظلامة كل مظلوم››.**

فكأنه(ع) يقول لعمر بأن هذا الذي تتألم منه هو من الأمور الطبيعية في الدنيا التي هي سوق من الأسواق فحاول أن تخرج منها بما ينفعك بأنك ستمضي إلى موقف يكون عملك فيه هو ما تحصد، وينصحه بأن ينظر في علاقاته وأموره أياً منها سيكون ما يجب أن يكون معه إذا قدم إلى اللّه سبحانه وتعالى فليبقيه، سواء من صداقات أم علاقات أم مكاسب، وما يكره أن يكون معه يوم ذاك أن يتخلص منه. ثم ينصحه بأن يسهل الأمور على الناس في لقائه وطلب كشف المظالم عنه.

ويسترسل(ع) في موعظته لعمر بن عبد العزيز بالقول: ‹‹**ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله: نعم يا عمر - من إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، ومن إذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له››.**

وهنا نجد كيف أن الإمام(ع) يجدد المواقف على ضوء كتاب اللّه تعالى، فقد تدبره وبالتالي جاءت مواعظه متمثلة لكتاب اللّه. فإن الأولى هي استجابة لقوله تعالى: ﴿**وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى**﴾ الأنعام:152. وأما الثانية فهي أن يراقب الإنسان نفسه فلا يخرجه الغضب عن أن يبقى في خط العدالة فلا يظلم الناس بقول أو فعل وهو قوله تعالى: ﴿**ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾ المائدة:8.

وذكر بأنه بعد هذه الموعظة لم يطلب الإمام الباقر(ع) أي شيء من عمر، إلا أن عمراً أمر بمحبرة وورق وكتب: "بسم اللّه الرحمن الرحيم هذا ما رد عمر بن عبد العزيز ظلامة محمد بن علي بن الحسين بن أبي طالب بفدك"[28].

إن هذا الموقف من الإمام الباقر(ع) إذا ما تدبرناه نجد أن الإنسان ينبغي عليه أولاً أن يُقدِم ويبادر بالموعظة ولاسيما إذا كان الشخص الآخر مؤهلاً لها. وثانياً أن يكون في موعظته رفيقاً رقيقاً. ثالثاً يذكر اللّه سبحانه وتعالى ويضع الدنيا في حجمها الحقيقي، خصوصاً إذا كان الشخص الآخر في حالة ألم وصراع فتهون عنده كل هذه الأمور إذا علم أنها من أمور الدنيا التي يجب أن يضعها في حجمها الحقيقي، ما عدا ما كان منها متعلقاً بالآخرة أي بالعمل الذي يحاسب عليه فعندها يجب أن يتأكد من ما يقدم به على اللّه سبحانه وتعالى. ورابعاً يستغل الظرف ليحاول أن يعم الخير أبعد من الشخص المقابل فترى الإمام(ع) هنا يستثمر الفرصة لكي يسهل الأمر على أصحاب المظالم إذ يعظ عمراً بأن يخفف عنهم الحُجّاب ويفتح لهم الأبواب. وخامساً يستغل الفرصة لمزيد من المواعظ العامة التي تنفع هذا الشخص في تلك الظروف الصعبة أو الأليمة التي يمر بها وفيما عداها من ظروف ومواقف فيما يتقدم.

إن تدبر هذا الموقف من الإمام(ع)، وهو الذي نراه لا ينفك عن آيات الكتاب العزيز، يجعلنا نأسف لحال المسلمين، فإن الكثيرين منهم يتحرجون من موعظة إخوانهم المؤمنين، بل أصدقائهم القريبين، وذلك إما لأن هؤلاء الأصدقاء يصعب عليهم تقبل الموعظة، وهذا بسبب العلو والاستكبار والعياذ باللّه، بحيث أن نفوسهم تتضخم ولا تقبل بسماع الوعظ، أو أن الروح الفردية – روح "هذا لا يعنيني ولا يخصني" – صارت مستشرية بحيث يتوقف الإنسان عن الموعظة. وهذا هو في صميم قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي هي من فروع الدين العظيمة والتي حذرنا رسول اللّه(ص) من أننا إذا فشلنا في القيام بواجبها أن ينتهي بنا الأمر إلى أسوأ ما يكون حيث قال في الحديث المروي عنه: «**لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعوا**

[28] وهذا يعني أن ملكية الزهراء(ع) لفدك كانت أمراً مفروغاً منه بحيث تسلم إلى ورثتها(ع) حتى دون المطالبة – ولكن ذلك احتاج إلى حاكم صالح كعمر بن عبد العزيز.

خياركم فلا يستجاب لهم»[29]، فكأن غياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سيجعل المجتمع يتشظّر إلى أفراد لا يعنيهم سوى أنفسهم فيفتح المجال للأشرار للعبث بمقدراتهم.

الإمام الصادق(ع) والحوار

كتب العلماء والمفكرون عن الحوار في القرآن، والذي جاء بصيغ مختلفة، منها ما هو من ضمن قصص الأنبياء(ع) حيث الحوار بين الأنبياء(ع) وأقوامهم ولاسيما المعاندين، ومنه ما جاء في الحوار بين الأديان كما في قضية المسيح(ع)، ومنه ما حدث داخل الجماعة المسلمة. كما أن بعض آيات الكتاب العزيز تحدثت عن الحوار بشكل عام، بأخلاقياته وبوسائله. ولعل مما يلفت النظر إلى هذه الآيات هي أن القرآن الكريم لم يضع نفسه في موضع الحق ويقول للمخالفين أنتم على الباطل وانتهى الأمر، كما أنه لم يعلّم النبي(ص) أن ينهج هذا المنهج، وإنما كان يهيء الأرضية للحوار، لقبول الجلوس للحوار مع الآخرين من المعاندين والشاكين وغير المسلمين، وما ذلك إلا من خلال ثلاثة أمور مهمة: الأول أن يضع نفسه مع الآخر الذي يحاوره في مستوى واحد من القضية بمعنى أنهما يبدءان من نقطة الصفر، فلا يكون هناك لأحد رجحان على الآخر منذ اللحظة الأولى وذلك قوله تعالى: ﴿**وإنّا أو إيّاكم لعلى هدى أو في ضلال مبين**﴾ سبأ:24، وبالتالي فإنه لا يقول لهم منذ اللحظة الأولى أنه على الحق وهم على باطل لأن ذلك من شأنه أن يبعدهم عن الحوار أو على الأقل أن يخلق حاجزاً من الصعب تجاوزه فيما بعد.

الثاني هو الأسلوب الحكيم الذي لا يتجاوز الأطر الخلقية التي وضعها القرآن الكريم والذي كان النبي(ص) يتعامل بها حتى قال له ربه الذي هو أعرف به ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ القلم:4، فكان الأمر الإلهي: ﴿**أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ النحل:125.

[29] كنـز العمال، ج 3، حديث 8453

وهذا يقود إلى الأمر الثالث وهو أن يكون ما في الدعوى هو الحق بلا تزويقات ولا زيادات ولا قصص كاذبة، بل فيه الحكمة وفيه الموعظة بالأسلوب الحسن. ويتم كل ذلك في إطار النقاش بالتي هي أحسن، أي بالأسلوب الهادئ الرحيم الذي يحترم الآخر بغض النظر عن موقفه وبغض النظر عن مستواه العقلي.

من هنا نرى أن الأئمة، وهم أعدال الكتاب العزيز، كانوا هكذا. ولعل الإمام الصادق(ع) تميز في ذلك الأمر لأن الحوار لم يكن فقط بين المسلمين أنفسهم، بل كان أيضاً مع الزنادقة أو الذين اصطلح عليهم بأنهم الزنادقة، وهم الذين كانوا يكفرون بآيات اللّه ويشككون إلى درجة عدم احترام مشاعر الناس. هذا الإمام، الذي كان يجلس في مسجد رسول اللّه(ص) في المدينة أو يلتقي الناس في مكة في موسم الحج أو في الفترة القصيرة في العراق، تصدى لهؤلاء ولكن بأسلوب الحوار الهادئ كما هو القرآن الكريم في توجيهاته التي ذكرناها.

فقد روي (بتصرف واختصار[30]) أنه اجتمع مجموعة من الزنادقة منهم عبد الكريم ابن أبي العوجاء في موسم الحج، واتفق أن الإمام الصادق(ع) كان موجوداً يفتي الناس ويفسر القرآن ويجيب عن المسائل، فطلب هؤلاء النفر من ابن أبي العوجاء أن يغلط الإمام الصادق بأسئلة تعجزه. فجاء واستأذن في السؤال من الصادق(ع) فقال له الإمام(ع): «**سل إن شئت**»، فقال له ابن أبي العوجاء: إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر (أي الحجر الأسود)، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر (أي الكعبة المشرفة)، وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر؟ من فكّر في ذلك وقدّر، علم أنه فعل غير حكيم ولا ذي نظر! فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه، وأبوك أسّه ونظامه.

فأجاب الإمام الصادق(ع) بما يلي: «**إن من أضلّه الله وأعمى قلبه استوخم الحق فلم يستعذ به، وصار الشيطان وليّه وربّه يورده مناهل الهلكة، وهذا بيت استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثهم على تعظيمه وزيارته، وجعله قبلة للمصلين له، فهو شعبة من**

---

[30] الكافي، ج 4، ص 197

رضوانه، وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال ومجمع العظمة والجلال، فأحقُّ من أطيع في ما أمر وانتهي عما زجر، الله عزّ وجلّ المنشئ للأرواح والصور».

فقال له ابن أبي العوجاء: "ذكرت فأحلت على غائب (يعني أن اللّه تعالى هو غائب)، فقال الإمام الصادق(ع): «**كيف يكون – يا ويلك – عنا غائباً من هو مع خلقه شاهد، وإليهم أقرب من حبل الوريد؟ يسمع كلامهم ويعلم أسرارهم، لا يخلو منه مكان، ولا يشتغل به مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب من مكان، تشهد له بذلك آثاره، وتدل عليه أفعاله، والذي بعثه بالآيات المحكمة والبراهين الواضحة، محمّد(ص) جاءنا بهذه العبادة، فإن شككت في شيء من أمره، فاسأل عنه أوضحه لك**».

يقول الراوي أن ابن أبي العوجاء سكت ولم يدر ما يقول وذهب إلى أصحابه فقالوا له: لقد فضحتنا بحيرتك وانقطاعك، وما رأينا أحقر منك اليوم في مجلسه! فقال: ألي تقولون هذا؟ إنه – أي الإمام الصادق – ابن من حلق رؤوس من ترون، وأومأ بيده إلى أهل الموسم"[31].

وهنا جمع الإمام الصادق في هذا الحوار المختصر جداً جميع عناصر الرد المطلوب في مثل هذه الحال، فهو بعد أن أوضح أن اللّه سبحانه وتعالى هو الذي أمر بهذه العبادات لم يكتف بأن يقول مع ذلك أن النبي(ص) هو من جاءنا بهذا، وإنما وصف اللّه تعالى بما يجب له حتى لا يتصور بشكل آخر من تجسيم أو من حلول في مكان أو من تركيب أو غير ذلك، ثم لأنه نفى أن يكون من الممكن أن يرى فإنه وجه الرجل إلى أن آثار اللّه وأفعاله هي التي تدل عليه. ثم ذكر النبي(ص) والذي لا بد أن يحتاج إلى دليل على نبوته فذكر أنه بعثه بالآيات المحكمة والبراهين الواضحة. ثم لتمكنه(ع) من الأمر، فإنه بعد أن انتهى عرض على الرجل أن يسأله المزيد إن أراد.

[31] الأمالي، الصدوق، ص 715

وقد روى المحدثون والمؤرخون الكثير من هذا الذي كان في زمان الإمام الصادق(ع) ما لا يسع المجال له، ولكننا نسأل ترى كم نحن استفدنا من تدبر هذه الروايات؟ وهل هناك تدبر حقيقي لمثل هذه الروايات؟

إن الذين يجب أن يوضعوا في مثل هذه المحكمة هم أولاً الخطباء على المنابر والكتاب وغيرهم الذين يذكرون للناس هذه الروايات، ولكننا نرى أن منهم من لا يتمثلها أو يرتب عليها الآثار العملية (التي تقتضيها الموعظة). فإنك ربما ترى الخطيب على المنبر يتحدث للناس عن الحوار وأدب الحوار وأن القرآن هو كتاب الحوار وأن النبي(ص) كان يحاور الناس وأن الأئمة(ع) يحاورون، ثم إذا ذهب رجل وسأله مسألة وأراد أن يحاوره بها أو يجادل فيها تراه يضيق ذرعاً ولا يستطيع حتى أن يضبط أعصابه فيثور ويخرج عن أدب الحوار، بل يخرج عن الأدب بشكل عام!

أما إذا نظرنا إلى الآخرين، أي من غير هؤلاء الخطباء وأشباههم، فإنك تراهم أعجز الناس عن الحوار، لأنهم لا يمتلكون أياً من النقاط الثلاث التي ذكرناها أعلاه وهي أرضية الحوار وامتلاك العلم وأدب الحوار بحيث يكون بالموعظة الحسنة وبالتي هي أحسن، فكل يريد فرض رأيه على الآخرين. ولعل من أسباب ذلك، كما يقول بعض الباحثين، هو أوضاع الإكراه القائمة في المجتمعات على كافة مستوياتها من الحاكم إلى الأقل منه إلى الشارع إلى علماء الدين إلى البيت إلى المدرسة إلى الدوائر الحكومية والأهلية، فكلها تقوم على الفرد وعلى ضيق الصدر بالرأي الآخر أو الاستماع إلى الآخرين. وهذا مجال آخر نعتقد أن الأمة فاشلة في تدبره، وإذا كان هناك من يعرفه ويتدبره فإنهم قد فشلوا في الاستفادة منه.

الإمام الكاظم(ع) والمعاناة فرصة للقرب

الإنسان المؤمن ينبغي له أن يحاول تقسيم وقته بشكل منطقي بمعنى أن يوزعه حسب الأمور المهمة بحيث يحاول أن لا يبقى شيء لتوافه الأمور. وقد وردت الأحاديث الكثيرة عن تقسيم الوقت إلى ثلاثة أقسام أو أربعة أقسام وذلك من أجل توجيه الناس إلى الانتباه حتى لا يغفلوا عن الأمور المهمة التي سيُسألون عنها. إلا أن ذلك ليس

بالأمر اليسير، لاسيما وأن الحياة فيها تقلب متواصل فهي لا تستقر على حال، وتحدث فيها أحداث تجعل الإنسان يعيش في ظروف ربما يتزلزل فيها أو يضيع البوصلة كما يقال. هذه الأحداث والظروف ليست بالضرورة أن تكون ظروف ابتلاء فيما يتعارف عليه الناس من فقر أو مرض أو غربة أو غير ذلك، لكن ربما كانت نعماً كبيرة يبتلى بها الإنسان كما جاء في قول سليمان‹ع›: ﴿**هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر**﴾ النمل:40.

ومن هذه الأوقات التي لا بد للمؤمن أن يخصصها في يومه هي أوقات العبادة. ذلك أن الإنسان الملتزم لا بد له أن يقوم بالفروض على أقل تقدير، وبالنوافل كلما أراد أن يتقرب إلى اللّه تعالى وصولاً إلى محبته سبحانه كما ورد في الحديث القدسي: «**لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**»[32]. وإن من أشد الأمور التي تمر على الإنسان هي الانشغال في تفاصيل الحياة بحيث أن عبادته للّه تصبح عادة وليست عبادة، أو بحيث تكون عبادته مقتصرة على وقت يسير بالكاد يستخلصه من مجمل يومه أو شهره أو سنته. إلا أن الإنسان كلما ازداد وعياً بحقائق الأمور وبأن اللّه تعالى هو الحق المبين وما عدا ذلك إنما هو عبارة عن تجليات له أو من روحه أو غير ذلك فإنه يصبح حريصاً على أن تكون عبادته أكثر كمّاً وأفضل نوعاً. حتى يصل الأمر إلى أولياء اللّه العظام الذين يكون قرة عينهم أن تكون حياتهم متفرغة للعبادة.

ما روي عن الإمام الكاظم‹ع› أنه تعرض إلى محنة السجن في حكم أكثر من خليفة عباسي، وبالتأكيد موسى الهادي بن المهدي ثم مع أخيه هارون الرشيد. كان قد أمضى سنين طويلة من حياته الشريفة في سجون هؤلاء، لينتهي به الأمر مسموماً في آخر سجن له لتنتهي حياته على ذلك. فهل حمله هذا الظلم على أن يركز على من ظلمه؟ كلا ، فإنه – وهو حجة اللّه على خلقه، فالعلاقة بينه وبين ربه وخالقه كما تعرف – كان مشغولاً بعلاقته بربه، فكان، على ما وصف صاحب سجنه عيسى بن جعفر عندما كتب إلى الرشيد، الذي أمره بسجنه: قد طال أمر موسى بن جعفر ومقامه في حبسي، وقد اختبرت حاله ووضعت من يسمع منه ما يقول في دعائه فما دعا عليك ولا عليّ وما ذكرنا بسوء،

[32] مسند أحمد، ج 6، ص 256، وصحيح البخاري، ج 7، ص 190

وما يدعو لنفسه إلا بالمغفرة والرحمة؛ وإن أنفذت إلى من يتسلمه مني، وإلا خليت سبيله فإنني متحرج من حبسه[33] .

بعبارة أخرى، كان الرشيد، وهو أعظم سلطان في الدنيا يومذاك، أهون من أن ينشغل أبو الحسن الكاظم(ع) به، وهذا يحصل عندما يمتلئ القلب باللّه تعالى وحبه، وتصغر الدنيا وأهلها في عينه، فكيف بالصغار من أهل الدنيا – وإن تسمّوا بإمرة المؤمنين أو غير ذلك من الألقاب.

أكثر من ذلك، فإن الإمام(ع) بدلاً من أن يتنزلزل ويكتئب ويتألم من السجن نراه يقول، كما نقل عنه الذين معه في السجن وكما نقل عنه في الروايات[34]: «**اللهم إنك تعلم أني كنت أسألك أن تفرّغني لعبادتك، اللهم وقد فعلت فلك الحمد!**»

نقول أن الإمام الكاظم(ع) استغل هذه الفرصة ليتفرغ للعبادة، ولم يدعُ حتى على من سجنه، وهذا يعني أنه كان يشعر حقاً بأن اللّه سبحانه وتعالى أنعم عليه نعمة هذا السجن كي يتفرغ لعبادته استجابة لطلبه الذي كان يدعو به بأن يتفرغ للعبادة، وبالتالي فإنه يشكر هذه النعمة بإدامة العبادة والمواصلة فيها. بكلمة أخرى، إنه لم يكن يرى ما يتعرض له من قبيل ما يتأذى منه الناس ولكن من قبيل ما ينبغي الشكر عليه.

نعم، هذا لا يعني أن هذا لم يكن بلاء، ولا يعني أن هذا لم يكن حاجزاً للإمام(ع) عن قواعده الشعبية وعن القيام بواجباته الشرعية تجاههم، ولكن يعني أنه لم يغفل عن أن الوظيفة الأساسية للإنسان هي عبادة اللّه تعالى ﴿**وما خلقت الجْنّ والإنس إلا ليعبدون**﴾ الذاريات:56، فإذا كان الإنسان يمارس حياته الاعتيادية فإن عبادته تتخذ أشكالاً مختلفة من عمارة الأرض ومن القيام بالفرائض والنوافل ومن أمور أخرى. أما أن يحصر في زاوية ضيقة بسبب من الأسباب كالفقر أو المرض أو الغربة أو السجن أو غير ذلك فإنه يتعامل معها بما لا يجعل للغفلة عليه سبيلاً، الغفلة عن وظيفته الأساسية وهي عبادة اللّه سبحانه وتعالى، بشتى أشكالها.

---

[33] روضة الواعظين، الفتال النيسابوري، ص 219

[34] مناقب ابن شهر آشوب، ج 2، ص 379، والإرشاد، المفيد، ج 2، ص 239

وهنا ننبه إلى أن الإمام الكاظم(ع) لم يكن موقفه هذا نابعاً من نوع من الميوعة مع الظالمين، كيف ذلك وقد روي عنه أنه كان لا يرضى لأحد شيعته المعروفين أن يكون في خدمة هؤلاء الظالمين. فقد روى الرواة مراجعته لصفوان الجمّال الذي كان يؤجر جماله إلى هارون الرشيد للحج وأن الإمام(ع) عاتبه بذلك لأنه أراد صفوان أن لا يكون في قلبه هامش من موالاة لهم أو محبة لبقائهم حيث سأله الإمام(ع)، عندما أوضح صفوان أن تأجيره الجمال لهارون إنما هو لطريق مكة: «**أتحب بقاءهم حتى يخرج كِراك؟**» عندما أجاب صفوان بنعم قال الإمام(ع): «**فمن أحب بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم ورد النار**»[35]. وبالتالي فإنه لم يكن يتعامل مع هذا الحاكم بأي ميوعة، وإنما كان ذلك الموقف منه في السجن موقف الواعي لوظيفته الأساسية في العبودية للّه والعبادة له سبحانه.

إننا إذا تدبرنا هذه الحادثة نستطيع أن نقول بأن فيها توجيهاً عظيماً لأن يستغل الإنسان أوقاته وحالاته بأفضل ما يمكن حتى في أوقات الشدة وأوقات البلاء، بحيث لا يكون توجهه فيها توجه اليائس أو المتضجر أو الجازع، ولا يكون توجهه فيها مقتصراً على الدعاء بالفرج والدعاء بالتخفيف، وإنما لا يغفل عن وظيفته في العبودية للّه وذلك بإقامة العبادة مسروراً فرحاً كفرصة للقيام بها بشكل ربما يكون أفضل من المعتاد حيث خلوه من مشاغل الدنيا وما فيها.

الإمام الرضا(ع) والتواضع

ربما يكون من نافلة القول أن نذكر بأن العترة المباركة تمثلت الأخلاق النبوية والتي هي أخلاق القرآن في كل شيء، ومن ذلك التواضع للّه في خلقه. فقد روى المسلمون الروايات الكثيرة في كيفية تعامل هؤلاء الطاهرين مع الناس صغيرهم وكبيرهم حرّهم وعبدهم، حتى مع الذين لم يكونوا يتمتعون بالمستوى العقلي مع أن هؤلاء الطاهرين وصلوا إلى القمة في ذلك كله.

[35] وسائل الشيعة، ج 17، حديث 22305

من ذلك ما روي عن الإمام علي بن موسى الرضا(ع) أنه كان إذا تفرغ جمع حشمه كلهم عنده، الصغير والكبير، فيحدثهم ويأنس بهم ويؤنسهم. وكان(ع) إذا جلس على المائدة لا يدع صغيراً ولا كبيراً حتى السائس والحجام إلا أقعده معه على مائدته[36].

روى بعض أصحابه: كنت مع الرضا(ع) في سفره إلى خراسان، فدعا يوماً بمائدة له، فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم، فقلت: جُعلت فداك، لو عزلت لهؤلاء مائدة؟ فقال: ‹‹مَهْ[37]! **إن الرّبّ تبارك وتعالى واحد، والأمّ واحدة، والأب واحد، والجزاء بالأعمال**››[38].

فلم ينظر إلى صفاته العليا مقارنة مع أصحاب سفره، بل وخدمه ومواليه، ولكنه نظر إلى الصفات المشتركة بينه وبينهم: الخالق، والأم، والأب، ومعيار التقييم عند اللّه تعالى. إن هذا التواضع هو الذي رفع الإمام(ع) في قلوب الناس، فإنه ‹‹**من تواضع لله رفعه الله**››[39].

وهذا مما يدعو إلى تدبر مثل هذه الأخلاق التي إن انتشرت في مجتمعنا فإنها تخفف الكثير من الكبر عند الناس والذي لعله أسوأ الخلق بعد الشرك لقوله تعالى في الحديث القدسي: ‹‹**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني في شيء منهما قصمته (من نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم)**››[40]. كما تخفف الكثير من الأحقاد التي ربما يشعر بها البعض تجاه من قد أنعم اللّه تعالى عليهم في الماديات أكثر، أو بسبب سوء المعاملة التي لا ينبغي أن تكون من مخدوم لخادم أو رئيس لمرؤوس، بل وحتى على مستوى القوات العسكرية والشرطة وغيرها والتي نجد أن التكبر وعدم التواضع مستشر فيها من المراتب العليا إلى من دونهم.

ولعل مسألة التواضع هذه ترتبط أيضاً بمسألة العلاقات الاجتماعية وقبول الناس بعضهم للبعض الآخر في قضايا المجاورة وقضايا الصداقة والمصاهرة وما إلى ذلك، والتي ينتج عن غيابها أو عن حصول العكس منها من هذه الأحقاد ومن هذه الحالات النفسية

---

[36] الكافي، ج 8، ص 230، حديث 296

[37] أي أسكت.

[38] بحار الأنوار، ج 49، ص 101

[39] الكافي، ج 2، ص 122

[40] نفسه، ج 70، ص 192، ومسند أحمد، ج 2، ص 248، وسنن ابن ماجة، ج 2، حديث 4174

السلبية التي لن تنتهي بالمجتمع إلا أن يكون مجتمعاً غير متماسك وضعيفاً يمكن اختراقه بأسهل الطرق، كما هو حاصل.

الإمام الجواد(ع) وحقيقة المالكية

في غمرة صراع الإنسان مع صعوبات الحياة نجده يغفل أو ينسى أو يتناسى حقيقة ما يقع تحت تصرفه بعنوان الملك، فيظن أن هذا هو من أملاكه التي لا يجوز ولا يحق أن تنتزع منه ولا حتى من اللّه سبحانه وتعالى! ذلك أنه إذا غفل أن هذه الأملاك إنما صارت في حوزته بمشيئة اللّه تعالى وإرادته تمكيناً منه تعالى له في عمارة الأرض والامتحان في العمل الصالح أو غيره، وذلك في إطار استخلافه في الأرض، فإن ردود أفعاله عندما تنتزع هذه الأملاك منه لسبب أو لآخر تكون انفعالية وأحياناً مدمرة، فهو يشعر بأنه خسر شيئاً يملكه على الحقيقة. أيضاً، عندما يخسر هذا الشيء أو ذاك فربما يغفل أنه من الممكن أن يعوض عنه بمثله أو بأفضل منه. إلا أنه إذا لم يغفل عن حقيقة أن الملك كله للّه سبحانه وتعالى وأنه بيده أن يزيده أو ينقصه متى ما شاء، وأنه مهما زاد من ملكه فإنها عبارة عن عارية ستؤخذ منه شاء أم أبى في لحظة موته، عند ذاك لا ينزعج إذا ما أخذ منه شيء بشكل أو بآخر.

ويعلمنا أئمة أهل البيت(ع) ذلك، منه ما روي عن الإمام التاسع محمد بن علي الجواد(ع) الذي كان أعجوبة لمعاصريه في صغر سنه وهو يتفجر علماً وحكمة مما أتاه اللّه سبحانه وتعالى كونه أحد هذه العترة المباركة أعدال الكتاب العزيز. فقد روي أنه بُعث إليه بقماش ذي قيمة كبيرة وفي الطريق سُلب ذلك القماش، فكتب إليه حامله بذلك، فرد عليه الإمام(ع) بالآتي: «**إن أنفسنا وأموالنا من مواهب الله الهنيئة وعواريه المستودعة، يمتع بما متع منها في سرور وغبطة، ويؤخذ ما أخذ منها في أجر وحسبة، فمن غلب جزعه على صبره حبط أجره، ونعوذ بالله من ذلك**»[41].

---

[41] تحف العقول، ص 497

إن الإمام‹ع› لم يترك هذه الفرصة في خسارة شيء هو بالنسبة إليه لا يساوي الكثير، بل يمكن أن يقال أنه لا تهتز له شعرة من خسارة هذا بل مما هو أكبر منه، ولكنه استغل الفرصة لكي يعظ ذلك الرجل بموعظة، يجمع معها تطميناً له حتى لا يبقى قلقاً ربما من ردود فعل الإمام‹ع›، أو قلقاً وحزيناً على هذا المال الذي سرق. أما الموعظة فإنه لا يجعلها مخصصة بهذا القماش الثمين فحسب وإنما يوضح له أن جميع الأموال وجميع الأنفس هي هبة من اللّه تعالى أولاً، وهي عارية، بمعنى أن اللّه تعالى عندما وهبها سوف يستعيدها في لحظة الموت، أو ربما يستعيدها قبل ذلك، ثانياً. أي أن الإمام‹ع› يهيء هذا الرجل لمستقبل حياته بحيث أنه لو خسر شيئاً أعظم من ذلك القماش كان مهيئاً للتعامل معه بشكل أكثر توازناً وفهماً ووعياً. وفي هذه الموعظة، إذا تدبرناها، نجد أيضاً أن الإمام‹ع› يفرق بين حال الملكية وحال ضياع هذه الملكية، مؤكداً أنه في حالة الملكية لا يقول أنها ملك وأنما يسميها متاعاً يمتعه اللّه سبحانه وتعالى لمن يريد كيف يريد في الوقت الذي يشاء، ويقول أنه عندما تؤخذ كلها أو جزء منها فإن ذلك يفترض أن يؤخذ بثواب اللّه تعالى، أي سيثيبه على ذلك الضياع، ولكن على العبد أيضاً أن يحتسب ذلك بمعنى أن لا يغفل عن أن اللّه سبحانه وتعالى سيؤجره على صبره على ذلك الضياع. وبالتالي فإنه – وكما يستمر الإمام‹ع› في موعظته – من يسقط أمام هذه الحادثة أو تلك فيصبح جزعه غالباً على صبره المأمول منه فإن ذلك الأجر الذي كان سيحصل عليه لا محالة سيخسره وبالتالي سيخسر المال والأجر الذي كان سيحصل عليه جراء صبره على ضياع ذلك المال... وهذا الموقف المتضمن خسارتين يمثل حماقة بجميع المقاييس!

إن هذا إذا تدبرناه ملياً سيؤثر أثراً كبيراً جداً في الفرد والمجتمع. أما الفرد فإنه سيستفيد من هذا الفهم الذي يعطيه إياه الإمام‹ع› بأن كل شيء هو ملك للّه وبأنه مؤقت على كل حال وبأنه فيما لو تعرض للخسران عليه أن يحتسب الأجر. وأما المجتمع فإن هذا الرجل الذي خسر شيئاً نتيجة السرقة أو التحايل أو الظلم أو الابتزاز أو التعدي من الآخرين سيتعامل معهم لا تعامل الذي يريد أن يقتص منهم، وإن كان ذلك له شرعاً وقانوناً، ولكنه حتى إن قام بذلك فإن قلبه يكون سليماً مرتاحاً محتسباً لما عند اللّه سبحانه وتعالى فلا يهتم فيما لو رجع هذا الأمر إليه أو عوض عنه أو لم يحصل ذلك، وفي ذلك أثر عظيم جداً على المجتمع في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والعائلية،

التي هي لعمري تشكو من غياب هذا الفهم في تعامل الناس مع المصائب أو المشاكل المشابهة – وهذه المحاكم تعج بقضايا النزاعات بين الأفراد والشركات ما يستهلك من الأعمار والأموال والجهود الكثير مما يمكن أن يتوجه للبناء والتقدم على مستوى الفرد والمجتمع والدولة.

الإمام الهادي(ع) في مكانته وهيبته

نتيجة لما يعرفه الناس عن مكانة العترة المباركة، ونتيجة لما يرونه من أئمة هذه العترة(ع) من خلق عظيم وعلم كبير وحكمة عالية، فإنهم يفرضون احترام الناس لهم والنظرة المختلفة لغيرهم حتى لو كانوا من الخلفاء والملوك ومن بيدهم القوة والأيد. فحتى عندما يكون الإمام(ع) في سجنه أو تحت الإقامة الجبرية أو تحت نظر ذلك الخليفة أو ذلك الوالي فإنه لا تنكسر هيبته ومكانته في نفوسهم مطلقاً، وهذا جرى لجميع الأئمة(ع)، بل وصل الأمر أن أعداءهم ومناوئيهم يتوسلون بهم وبمكانتهم في حوائجهم!

فقد روي[42] أن الخليفة المتوكل العباسي – وهو من هو في عدائه ونصبه لأهل البيت(ع) – تعرض للمرض حتى صار قريباً من الموت، فنذرت أمه إن شفي أن تحمل مالاً كثيراً إلى الإمام الهادي(ع). فلما شفي المتوكل، حملت أم المتوكل عشرة آلاف دينار إلى الإمام(ع)، إيماناً منها بأن ولدها شفي من أجل مكانة الهادي(ع) عند الله تعالى. وهذا أمر لا أظنه حصل مع غير هؤلاء الطاهرين، لأنه من غير المعقول أن الذين هم على أشد العداء معهم وقد وضعوهم تحت النظر الدقيق لمعرفة كل تحركاتهم، والذين يهمون بقتلهم، نجد أنهم يتهيبون منهم ويعرفون أن لهم مكانة سامية عند الله تعالى.

وقد ذكروا للإمام الهادي(ع) من ذلك أيضاً أن الذين كانوا يوكلون بمراقبته، أو عندما أتوا به من المدينة المنورة إلى سامراء، كانوا عندما يرون تعامله معهم ويرون عبادته وسمته وهديه كانوا ينقلبون إلى العكس مما طلب منهم في خدمته والتعامل معه بالحسنى. بل إن البعض ربما يسأل الحاكم أن يعفيه من أي أمر بالإضرار به أو الإساءة إليه.

[42] الإرشاد، الشيخ المفيد، ص 302

كم نحن بحاجة إلى تدبر مثل هذه المسألة، وهي أنه من الممكن أن تدخل الهيبة في قلوب الأعداء والمناوئين والحسّاد والمبغضين والشاكّين وذلك من خلال أمرين: الأول الإخلاص للّه تعالى وبالتالي فإنه هو الذي يلقي في قلوب هؤلاء الهيبة، كما نحن نعلم من أنه يلقي في قلوب الذين كفروا الرعب فإنه يلقي في قلوب الناس المحبة وذلك نتيجة للإخلاص – قال تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّاً**﴾ مريم:96. والثاني أنه بحسن التعامل وحسن العشرة والأدب الرفيع أيضاً يستطيع الإنسان أن يحقق ذلك. ومن هنا نسأل: ترى كم كان يستطيع البعض أن يحقق نجاحات اجتماعية في علاقاته بل وحتى في عمله من خلال حسن التعامل ومن خلال تأييد اللّه سبحانه وتعالى؟ أو أقول: هل نستطيع أن نتذكر هاهنا الحث على بعض العبادات وأن أثرها يكون في أمور خارجية عنها، كالذي ورد في التعقيب بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس، مثلاً، وأثره في استجلاب الرزق، حيث أن الأئمة(ع) يشجعون الناس على الحصول على زيادة الرزق والنجاحات في الدنيا من خلال الطريق غير المباشر وهو إصلاح العلاقة مع المولى عزّ وجلّ وتقويتها. طبعاً لا بد من الإخلاص للّه تعالى، أما من يعتقد أنه يقوم بحركات دبلوماسية في مخالطة الناس وإظهار حسن الخلق ولكن الغاية هي الدنيا، فإن هذا ربما يتوهم أنه يحصل عليه من فعل اللّه تعالى في إلقاء المحبة أو الهيبة أو المكانة له في قلوب الناس، ولكن الحقيقة ليست كذلك.

الإمام العسكري(ع) وحراسة الدين

كما قلنا في غير موضع أن وظيفة الأئمة(ع) هي تبيان حقائق الدين في العقائد والتشريع والأخلاق بما يحقق المعرفة الحقيقية باللّه سبحانه وتعالى والطريق المثلى إلى مرضاته، وحراسة الدين من الانحراف والتصدي لما يشوش الأفكار الصحيحة أو يؤسس للبدع والانحرافات، كونهم(ع) أوصياء خاتم الأنبياء(ص) وبالتالي فإنه لا بد من حفظ الشريعة الخاتمة حيث لا نبياً آخر سيأتي للتصحيح.

على أن الأئمة(ع) جميعهم تصدوا، كل في وقته، لمثل هذه الأفكار أو الاتجاهات المنحرفة، إلا أننا نذكر هنا ما كان من الإمام الحادي عشر الحسن العسكري(ع). روى ابن

شهراشوب في مناقبه[43] أنه نما إلى الإمام العسكري(ع) أن يعقوب بن إسحاق الكندي الفيلسوف الشهير يشتغل في تأليف تناقض القرآن وذلك في منـزله، وعندما دخل أحد تلامذته على الإمام(ع) يوماً قال له(ع): ‹‹**أما فيكم رجل رشيد يردع أستاذكم الكندي عمّا أخذ فيه من تشاغله بالقرآن؟**›› فقال التلميذ: نحن من تلامذته، كيف يجوز منا الاعتراض عليه في هذا أو في غيره؟ فقال له أبو محمد(ع): ‹‹**أتؤدي إليه ما ألقيه إليك؟**›› قال: نعم، قال: ‹‹**فصر إليه وتلطف في مؤانسته ومعونته على ما هو بسبيله، فإذا وقعت الأنسة في ذلك، فقل: قد حضرني مسألة أسألك عنها، فإنه يستدعي ذلك، فقل له: إن أتاك هذا المتكلم بالقرآن** (أي الذي يوحي لك بهذه الأفكار) **هل يجوز أن يكون مراده بما تكلم به غير المعاني التي قد ظننت أنك قد ذهبت إليها؟ فإنه سيقول: إنه من الجائز، لأنه رجل يفهم إذا سمع. فإذا أوجب ذلك، فقل له: فما يدريك لعله قد أراد غير الذي ذهبت أنت إليه فيكون واضعاً بغير معانيه**››. فذهب هذا التلميذ إلى الكندي وصنع ما وجهه به الإمام(ع)، وبعدما فكر الكندي بذلك سأله عن مصدر هذه الفكرة فعندما قال التلميذ أنه شيء عرض بقلبه قال الكندي: كلا ما مثلك من اهتدى إلى هذا، ولا من بلغ هذه المنـزلة، فعرّفني من أين لك هذا؟ فقال: أمرني به أبو محمد(ع)، فقال أي الكندي: الآن جئت به، وما كان ليخرج مثل هذا الأمر إلا من ذلك البيت "الذي زقّ أهله العلم زقّاً"، ثم إنه دعا بالنار وأحرق جميع ما كان ألفه.

هذا المنهج من العسكري(ع) يتوافق مع ما قلناه فيما سبق عن أدب الحوار في فعل الإمام الصادق(ع) مع المخالفين وحتى مع الزنادقة، فإن أول الأمر أن تهيئ الأرضية بحسن الأدب، وثانياً أن تتكلم بالحكمة التي يمكن أن ترد على الشبهات، وأن تكون الطريقة بطريقة الموعظة الحسنة. كما أن قوله(ع) أن الكندي رجل يفهم إذا سمع يشير إلى نقطة وهي عدم الضيق من ذكر محاسن الشخص المخالف، الأمر الذي لا نكاد نلمسه في

[43] المناقب، ج 3، ص 459

مجتمعاتنا حيث يضيق كل خصم بخصمه إلى درجة نسف أي فضيلة أو صفة إيجابية فيه، هذا مع أن اللّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿**ولا تبخسوا الناس أشياءهم**﴾ هود:85.

ويبدو أن تضخم النفس هو الذي يؤدي إلى العلو بحيث أن الإنسان يشعر بأن موقفه من ذلك الشخص، في حواره وفي جداله وفي الملاحظات عنه، سيضعف إن ذكر له فضلاً أو خيراً ما وهذا دليل على عدم الثقة بالنفس من جانب وعلى الجهل من جانب آخر. وهنا ملاحظة وهي أن البعض ممن يجادلون شيعة أهل البيت(ع) يشكلون عليهم بموقفهم، أي موقف الشيعة السلبي، من بعض كبار الصحابة الأولين بأن علياً(ع) والأئمة من ولده كانوا يذكرون بمدح ذلك الخليفة أو ذلك الصحابي وبالتالي فإن هذا يدل على أنه لم تكن لديهم أي ملاحظة عليهم. وهذا سببه ما نقوله من هذا الجهل الذي انتشر بحيث أنت أما أن تكون مع هذا الشخص مائة بالمائة وتمدحه مائة بالمائة أو تكون ضده مائة بالمائة ولا ترى فيه من خير أبداً. إن علياً وأولاده(ع) كان عندهم الثقة بالنفس والعلم وبالتالي لم يكونوا يشعرون بأن هناك ضعفاً إذا ما مدحوا فلاناً أو تذكروا الجانب الإيجابي حتى في أشد اللحظات إيلاماً لأنهم لا يبخسون الناس أشياءهم.

فقد روى المؤرخون أنه بعد انتهاء معركة الجمل، وهي المعركة الأولى بين المسلمين أنفسهم، أو قل أنها أول حرب أهلية بين المسلمين إن شئت، أو أول معركة داخلية بين المسلمين، ولعلها جرّت كسنة سيئة ما جرّت ما بعدها، وكان الإمام(ع) يحاربهم بعد نكثهم لبيعته فكانوا هم الناكثين كما سماهم رسول اللّه(ص) من قبل، مع ذلك نرى الإمام(ع) عندما أتوا إليه بسيف الزبير لم يركز على موقفه في قضية الجمل فقط ولكن ذكر فضلاً له أيضاً حيث قال: «**سيف طالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله ولكن الحين ومصارع السوء**»[44].

فهو يقول بأن الزبير كان شجاعاً بحيث كأنه لا يتوقع أن يقتل، ولكن الأجل من جانب والنهاية السيئة من جانب آخر تفعل ما لا يتوقع؛ أي لم تمنعه سوء خاتمته من أن يذكر بلاءه وجهاده في الإسلام. ولعل هذه هي الطريقة التي اتبعها أمير المؤمنين(ع) على طول الخط: فهو من جانب لا يضيق صدره عن ذكر فضائل الآخرين، حتى الذين وقفوا يقاتلونه بالسيوف، ومن جانب آخر يعلن عن ضلال موقفهم (وهو مشابه لموقفه من بيعة

---

[44] الاقتصاد، الطوسي، ص 227

الذين سبقوه، حيث جمع بين رفض البيعة والتأخر فيها زماناً والتأكيد على كونه هو المنصوص عليه، وبين القيام بواجبه من نصحهم وإرشادهم والسير بما فيه سلامة المجتمع والدولة الإسلامية الوليدة). ولعمري إن من اتبع أمير المؤمنين(ع) في نهجه اهتدى، فإن هذه الطريقة لا هي طريقة الموقف المائع الذي يخلط الحق بالباطل ولا يخرج بالدروس والمواقف الحاسمة ولا هي طريقة زرع الأحقاد على الأشخاص، لأن العدو هو الموقف وليس الشخص، وإلا لما جعل اللّه تعالى الحسنات يذهبن السيئات مع أنهن ارتكبن من نفس الشخص، فإن العمل هو الذي في الميزان لا الشخص... ولكن الناس صاروا يضيقون بالعدل مع الناس في الموقف والرأي والشهادة.

الإمام المهدي(ع) وأحوال شيعته

وأخيراً نأتي إلى الإمام الثاني عشر من أئمة العترة المباركة، محمد بن الحسن(ع)، والذي نسميه الإمام المنتظر، أي الذي ننتظره ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً. وبسبب غيبة الإمام(ع) وهو لما يزل في الخامسة من عمره الشريف، بل وبسبب الظروف الخانقة التي بدأت منذ عهد جده الإمام الهادي(ع) وازدادت في زمن أبيه الإمام العسكري(ع)، والذي يعتقد بعض الكُتّاب بأن بعضاً من ذلك كان بتخطيط هذين الإمامين لكي يبدؤوا بتربية الشيعة على غيبة الإمام وبالتالي الوصول إليه عن طريق الوكلاء أو النّوّاب والذي حصل في الغيبة الصغرى لما يزيد عن سبعين عاماً، لذلك نجد أن ما جاءنا عن الإمام(ع) شيء قليل، وهو مفهوم متوقع. مع ذلك فقد ورد عنه العديد من الأدعية والزيارات والرسائل التي كتبها توجيهاً أو جواباً على مسائل من قبل بعض العلماء أو الوكلاء. من هذه نلتقط ما هو من الصميم في قضية الانتظار، ونعني بها أوضاع شيعته أي أتباع أهل البيت(ع) في زمن الغيبة الذي نعيشه نحن أيضاً.

ففي رسالة إلى الشيخ المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، قال(ع)[45]: «**فإنا نحيط علماً بأنبائكم، ولا يعزب عنا شيء من أخباركم، ومعرفتنا بالذل الذي أصابكم مذ جنح**

[45] الاحتجاج، الطبرسي، ج 2، ص 322

كثير منكم إلى ما كان السلف الصالح عنه شاسعاً، ونبذوا العهد المأخوذ وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون››.

وفي رسالة أخرى إلى الشيخ المفيد أيضاً[46] يقول الإمام(ع): ‹‹**ولو أن أشياعنا، وفقهم الله لطاعته، على اجتماع من القلوب في الوفاء بالعهد عليهم لما تأخر عنهم اليُمن بلقائنا، ولتعجلت لهم السعادة بمشاهدتنا على حق المعرفة وصدقها منهم بنا، فما يحبسنا عنهم إلا ما يتصل بنا مما نكرهه ولا نؤثره منهم››.**

إن هذه العبارات من الإمام(ع) تبين أن شيعته ما ضربهم الذل وصاروا متعرضين دوماً لهذا الضغط الشديد والتنكيل على أنواعه إلا بسبب جنوحهم عن طريقة سلفهم الصالح، وبسبب نبذهم العهد المأخوذ عنهم، أي العهد هو الإسلام الذي عاهد اللّه تعالى عليه بالالتزام بكتابه وسنة نبيه(ص).

ويعلن الإمام(ع) أيضاً بأن السبب في تأخر الظهور هو أن شيعته متفرقو القلوب فيما يخص العهد الذي أخذ عنهم والذي يفسره بأنه ما يطلعه اللّه سبحانه وتعالى عليه مما يكره ولا يرضاه لهم، وهو ما يعني الذنوب كبيرها وصغيرها وعدم الالتزام كما ينتظر منهم.

إن على الشيعة الذين يوالون أهل البيت(ع) والذين يعتقدون بالثاني عشر منهم وأنه إمامهم وأنه حجة اللّه على خلقه وأنه الذي ينتظرون ظهوره، ينبغي عليهم أن يقوموا بواجبهم في حركته(ع)، وذلك يكون بالالتزام الحقيقي حتى يُعجّل لهم في الفرج بظهوره(ع)، وهو الفرج لهم ولغيرهم حيث يملؤها قسطاً وعدلاً؛ وكي ينعموا أيضاً بأوضاع أفضل تخرجهم من صفة الذل التي حددها الإمام(ع) في الفترة إلى أن تصبح الظروف مؤاتية بعلم اللّه تعالى للظهور.

وهذا في واقع الأمر ليس شيئاً خاصاً بمسألة الإمام المهدي(ع)، لأن الالتزام هو المطلوب بغض النظر عن الإيمان بالإمام المهدي(ع) من الشيعة أو عدم الإيمان به من قِبل

---

[46] نفسه، ص 324

السنة كونه محمد بن الحسن العسكري(ع)، حيث أن ذلك هو الوفاء بالعهد مع اللّه وتعالى ﴿**من المؤمنون رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً**﴾ الأحزاب:23، وهذا هو التبديل الذي أشار إليه الإمام(ع) في قوله أنهم أصابهم الذل مذ جنحوا عن طريقة السلف الصالح، بل جنحوا بعيداً شاسعاً كما قال(ع).

تبقى ملاحظة هامة، وهي أن هذا القول من الإمام إنما كان قبل ما يزيد عن الألف عام، فكيف هي أحوال الشيعة اليوم بالمقارنة مع ذلك الزمان؟

الجواب يحتاج إلى عملية تقييم دقيقة تتناول الجوانب المختلفة للطائفة، ولكن يمكن القول بأن المقارنة على المستوى الفردي ليست بالأمر اليسير لغياب المعلومات المطلوبة في ذلك الزمان إضافة إلى الاختلاف الهائل بين ظروف الزمانين؛ أما على المستوى العام فيمكن القول بأن هناك تطوراً واضحاً في بعض الجوانب. ولكن يبقى السؤال مطروحاً بخصوص هذين الأمرين بالذات: البعد عما كان عليه السلف الصالح، وتفرق القلوب وتشتتها، وهو ما يحتاج إلى عملية تقييم دقيقة تستحق دراسة مستقلة، بل دراسات، كيف لا وهي تتعلق ببدء النهضة المهدوية لإقامة دولة العدل المنتظرة.

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

الفصل العاشر

خامساً: منزلة العمل

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

خامساً: منـزلة العمل

العمل بالقرآن الكريم

من قال به صدق، ومن عمل به سبق[1]

أشرت، في منزلة التدبر، إلى أن استخدام كلمة «**لعل**» في قوله تعالى ﴿**لعلكم ترحمون**﴾ يعني عدم القطع بحصول الرحمة، وأنه يمكن أن يكون ذلك بسبب عدم توفر شرط العمل بالقرآن، أي أن الاستماع والإنصات الحقيقي يكون متبوعاً بالعمل كي تتحقق الرحمة الموعودة في الآية؛ بمعنى، أن الاستماع والإنصات للآيات ليسا مطلوبين لذاتهما ولكن من أجل العمل بها – وهو موضوع منزلة العمل بالقرآن.

لعلنا لا نحتاج هنا إلى إثبات أنه من الواجب على المسلمين العمل بالقرآن الكريم، بمعنى اتباع أحكام آياته التي منها ما يتصل بالعلاقة بين العبد وربه ومنها ما يتصل بالعلاقة بين العباد بعضهم بالبعض الآخر. فلا يجادل مسلم في وجوب العمل بالقرآن. نعم، اختلفوا في المساحة التي للقرآن الكريم في الحياة. فالإسلاميون يعتقدون أن الإسلام هو منهج كامل للحياة، وبالتالي فإن القرآن الذي يمثل الدستور الإسلامي والذي يمثل الحبل بين اللّه تعالى وعباده لا بد من أن يعمل به في جميع المجالات. أما غيرهم فهم لا يجادلون في العمل بالقرآن في حدود تشريعات ما يسمى بالأحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث، وفي وجوب الالتزام بمسائل الحلال والحرام كالسرقة والزنا وشرب الخمر، حتى وإن كان البعض يخالف ذلك لكنه يعترف بوجوب العمل بها. على أننا نسمع حتى من يجادل في مسألة الميراث ومسائل الزواج والطلاق ربما تأثراً بالأفكار التي

[1] الإمام علي(ع)، نهج البلاغة، الخطبة 156

يجدونها في الأطر والأنظمة خارج الإسلام ويرون أنها مناسبة، وربما أيضاً لعدم المعرفة بتفاصيل تفعيل الأحكام الشرعية وظروفها والمساحات الثابتة والمتغيرة منها. وبالتأكيد فإن هناك الذين يعملون لصالح أعداء هذه الأمة فيجادلون ويشككون وينفون ويثبتون في هذا المجال مما يدخل البلبلة في عقول المسلمين بشأن هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنـزيل من حكيم حميد[2].

ذكرنا فيما سبق الحث على القرآن الكريم كما جاء في صحيح البخاري[3] عن عثمان بن عفان عن النبي(ص) أنه قال: ‹‹**خيركم من تعلم القرآن وعلّمه**››. وأخرج في الحديث التالي[4] بنفس السند أن النبي(ص) قال: ‹‹**إن أفضلكم من تعلّم القرآن وعلّمه**››.

وربما جاء في الأحاديث اصطلاح "أهل القرآن"، حيث جاء عن جعفر بن محمد(ع) عن النبي(ع) قال: ‹‹**قال النبي(ص): أهل القرآن في أعلى درجة من الآدميين ما خلا النبيين والمرسلين، فلا تستضعفوا أهل القرآن وحقوقهم، فإن لهم من الله لمكاناً**››[5].

إن القرآن الكريم، بما فيه من أحكام، وصفها اللّه سبحانه وتعالى فيه بأوصاف مختلفة، ولكن ربما نستطيع أن نجمعها بالقول بأنه "هدى وبشرى" كما قال في كتابه العزيز: ﴿**قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين**﴾ النحل:102، فهو يثبّت الذين آمنوا بالإسلام على الخط فلا يتزلزلون من كلام هذا أو ذاك أو تشكيك هذا أو ذاك لكنه هدى لهم ثم بشارة لهم. وهذان، أي الهدى والبشارة، لا بد أن يتعلقا بالسعادة الدنيوية والأخروية – أما السعادة الدنيوية فهي تتحقق بالعمل به من خلال كونه هدى لهم، وأما السعادة الأخروية فتتحقق من خلال كونه بشرى بأن

---

[2] إن اعتقادنا بأن القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما وصف القرآن نفسه، أو كما وصفه اللّه تعالى في واقع الأمر، ليس من قبيل التغنّي بالمقدس والعواطف والمشاعر، لأن القرآن أثبت إعجازه بشتى المجالات – التشريعية والعلمية والتاريخية واللغوية، فهو بالفعل حق مطلق لا يأتيه الباطل مطلقاً؛ على أن هاهنا ليس مقام ذلك لأننا نتحدث مع من يؤمن بما نؤمن به من المسلمين.

[3] كتاب فضائل القرآن، ج 6، الحديث 46

[4] نفسه، الحديث 47

[5] ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، الصدوق، ص 125

نتيجة العمل به في الدنيا ستكون الفوز في الآخرة. ومن الممكن أيضاً أن يكون بشرى بالسعادة الدنيوية أيضاً.

وفي آية أخرى يقول: ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**﴾ النحل:89. وفيها الهدى والبشرى، وفيها أيضاً بيان بما يحتاجون إليه، ورحمة لهم من خلال البيان هذا ومن خلال الهدى ومن خلال التفاصيل ومن خلال الآيات الأخرى التي في هذا الكتاب المبارك. إن القرآن الكريم لم يترك الناس ليقرروا فيما لو يحبون أن يحكموا به أو لا يحكمون به، بمعنى تساوي الحالتين من ناحية النتيجة. نعم، القرآن لا يفرض نفسه على أحد لا فرداً ولا مجتمعاً، ولكن له أن يوضح حقيقة من يختار أن لا يحكم بما أنزل اللّه سبحانه وتعالى عليه لأن طريقه تعالى واضح، فمن اختار هذا الطريق فهو يؤدي إليه، ومن اختار أن لا يمشي في هذا الطريق فمن غير المنطقي أن يتوقع الوصول إلى نهايته بسلام. وقد ورد توصيف الذين لا يعملون بما أنزل اللّه تعالى حيث نجد القرآن يصفهم بالأوصاف التالية – قال تعالى: ﴿**ومن لم يحكم بمن أنزل الله فأولئك هم الظالمون**﴾ المائدة:45 وذلك بعد أن تحدث عن الحكم بالحدود في حالة القتل والجرح وغير ذلك.

وبعد أن بيّن أنه كان قد أنزل الإنجيل هدى ونوراً وموعظة داعياً أهل الإنجيل للعمل به قال: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**﴾ المائدة:47.

أما الصفة الأكثر حسماً في هذا الموضوع فهي في قوله تعالى: ﴿**فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ المائدة:44.

فإن الفشل في معاقبة الظالمين من مرتكبي جرائم القتل وغيرها يساهم في انتشار الظلم حيث لا رادع قانوني لمن لا رادع نفسياً عنده من الاعتداء، والمساعدة في انتشار الظلم لهو الظلم بعينه. أما الفاسقون، فإن عدم الحكم حسب الشريعة الإلهية إنما ينبع من الانحراف عنها، أي حالة الفساد والفسق التي يقع فيها الحاكم أو القاضي، لأن الذي يراقب اللّه تعالى في حكمه وقضائه يسمى ملتزماً بينما الآخر يسمى فاسقاً. أما الكافرون

فهم ما بين كافر أصلي بالعقيدة وهذا لا يمكن أن يحكم بها، أو مؤمن بالعقيدة ولكنه كافر بالأحكام بحيث لا يرى إلزاماً لإجرائها؛ أو قل ما بين كافر بالألوهية وكافر بالحاكمية مع اعترافه بالألوهية؛ وفي الحالتين يسمى من لا يحكم بها من الكافرين.

لم يخلُ دعاء الإمام السجاد(ع) عند ختمه القرآن، وهو يجلب انتباه من أنهى ختم للقرآن ربما بسرعة وبلا تدبر وبلا فهم، إلى ما يحويه القرآن من آثار وفوائد وأحكام حتى لا يخرج من ختمته بثواب الختمة فقط. لذا نراه يقول فيما يخص العوائد من اتباعه: ‹‹**اللهم صل على محمد وآله واجعل القرآن لنا في ظلمات الليالي مؤنساً، ومن نزغات الشيطان وخطرات الوساوس حارساً، ولأقدامنا عن نقلها إلى المعاصي حابساً، ولألسنتنا عن الخوض في الباطل من غير ما آفة مخرساً، ولجوارحنا عن اقتراف الآثام زاجراً، ولما طوت الغفلة عنا من تصفح الاعتبار ناشراً، حتى توصل إلى قلوبنا فهم عجائبه وزواجر أمثاله التي ضعفت الجبال الرواسي على صلابتها عن احتماله**››[6].

ويقول(ع) في نفس الدعاء: ‹‹**اللهم صل على محمد وآله واجبر بالقرآن خلتنا من عدم الإملاق، وسق إلينا به رغد العيش وخصب سعة الأرزاق، وجنبنا به الضرائب المذمومة، ومداني الأخلاق، واعصمنا به من هوة الكفر ودواعي النفاق، حتى يكون لنا في القيامة إلى رضوانك وجنانك قائداً، ولنا في الدنيا عن سخطك وتعدي حدودك ذائداً ولما عندك بتحليل حلاله وتحريم حرامه شاهداً**››.

فالإمام(ع) هنا يجمع ما بين الدعاء بأن يوفق الله سبحانه وتعالى قارئ القرآن للعمل بشرائعه في تحليل حلاله وتحريم حرامه وعدم تعدي حدوده، وبين الاستفادة من آثاره الأخلاقية في عصمة الإنسان من المعاصي ومن الكذب والغيبة ومن اقتراف الآثام. ويجمع معه الاستفادة والاعتبار بما فيه من أخبار الأمم الماضية، مع الهداية إلى فهم ما فيه من العجائب والأمثال. ويجمع معه أيضاً فائدة القرآن في نفي الفقر وفي جلب العيش الرغيد والأرزاق الواسعة. وأخيراً، التخلص من الكذب والنفاق. ثم يجعله الموصل إلى

---

[6] الصحيفة السجادية، دعاء 42

رضوان اللّه وجنته. ولعل هذا هو التفصيل لكلمات التبيان لكل شيء والهدى والرحمة والبشرى التي جاءت في الآيات التي ذكرناها في أول هذا القسم.

إلا أن مسألة اتباع القرآن تستتبع مسألة أخرى وهي تفسير هذه الآيات لمعرفة الحكم المطلوب وإلا انقلبت الهداية إلى تخبط واختلاف، وهو الذي حصل في هذه الأمة مما هو معروف من اختلاف المذاهب الفقهية التي بنيت بالأساس على الاختلاف في تفسير القرآن الكريم وفي السنة النبوية التي هي التبيان لآيات القرآن الكريم. هنا لا بد أن نقف عند نقطة تتعلق بقضية التأويل التي هي قضية محورية في هذا الموضوع.

أذكر ههنا معنى التأويل بشكل مختصر ليعلم القارئ بأن الأمر ليس من السهل بحيث يتصدى له أي كان، وليعلم القارئ بأن اللّه سبحانه وتعالى عندما نصب الأئمة(ع) مراجع للناس إنما كان بسبب أن تفسير القرآن لا يتأتى لمن لم يهيأ لذلك.

أول معاني التأويل هو التفسير، أي ببساطة هو المعنى الظاهر من الكلام.

المعنى الثاني هو معاني الآيات المخالفة للظاهر، ومنه كلمة باطن القرآن.

والبعض جمع بين المعنيين، أي أن الآية لها معنى ظاهر واضح من اللفظ ومعنى باطن لا يعلمه إلا اللّه (أو هو سبحانه والراسخون في العلم)[7].

وبعضهم قال أن التفسير يختص بمعاني الألفاظ، أي الكلمات، في حين أن التأويل يتعلق بالمعنى المراد من الجمل، أي الآيات أو أجزاء الآيات.[8]

ويذهب بعض العلماء[9] إلى أن قوله تعالى ﴿**والكتاب المبين . إنا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون . وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم**﴾ الزخرف:2-4 يدل على أن في أم الكتاب ما لا سبيل إلى معرفته ولكنه لما ألبسه لباس اللغة العربية وأنزله بهذا الشكل

---

[7] أي أن كلمة "الراسخون في العلم" في الآية ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيْلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاّ اللّـهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنا﴾ آل عمران:7 هي مضافة إلى كلمة "اللّه" سبحانه وتعالى، أي أن التأويل يعلمه الراسخون في العلم أيضاً، وليس كما ذهب البعض – بسبب وضع علامة الوقف بعد كلمة اللّه – بأن كلمة الراسخون في العلم هي جملة جديدة فتكون أن التأويل لا يعلمه إلا اللّه، وإلا ما فائدة إنزاله إلى البشر إذا كان فهمهم له منغلقاً عنهم؟

[8] لتفصيل هذه الآراء وغيرها راجع الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، مجلد 3، ص 44.

[9] نفسه

صار ممكناً لأن يناله الآخرون، و "أن وراء ما نقرؤه ونعقله من القرآن أمراً هو من القرآن بمنـزلة الروح من الجسد والمتمثل من المثال – وهو الذي يسميه تعالى بالكتاب الحكيم – وهو الذي تعتمد وتتكي عليه معارف القرآن المنـزل ومضامينه... وهذا بعينه هو التأويل المذكور في الآيات المشتملة عليه. وبذلك يظهر حقيقة معنى التأويل، ويظهر سبب امتناع التأويل عن أن تمسه الأفهام العادية والنفوس غير المطهرة"[10].

ثم يوضح ذلك[11] بتناول الآية ﴿**إنه لقرآن كريم . في كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون**﴾ الواقعة:77-79، حيث يقول عن المطهرين: "وهؤلاء قوم نزلت الطهارة في قلوبهم، وليس ينـزلها إلا اللّه سبحانه، فإنه تعالى لم يذكرها إلا كذلك أي منسوبة إلى نفسه، كقوله تعالى: ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾ الأحزاب:33، وقوله: ﴿**ولكن يريد ليطهركم**﴾ المائدة:6. وما في القرآن شيء من الطهارة المعنوية إلا منسوبة إلى اللّه أو بإذنه، وليست الطهارة إلا زوال الرجس من القلب... ويرجع إلى ثبات القلب فيما اعتقده من المعارف الحقة من غير ميلان إلى الشك ونوسان بين الحق والباطل، وثباته على لوازم ما علمه من الحق... وهذا هو الرسوخ في العلم فإن اللّه سبحانه ما وصف الراسخين في العلم إلا بأنهم مهديون ثابتون على ما علموا غير زائغة قلوبهم إلى افتراء الفتنة، فقد ظهر أن هؤلاء المطهرين الراسخون في العلم".

ونخلص من هذا كله إلى أن العمل بالقرآن هو واجب لأن الذي لا يعمل بالقرآن وصفه القرآن الكريم بأنه يدخل في دائرة الكافرين والفاسقين والظالمين، وبأنه سيخسر الهدى والبشرى والرحمة. ونفهم أيضاً بأن القرآن الكريم لكي نتبعه الاتباع الصحيح لا بد من تفسيره وتأويله إلى ما أراد اللّه سبحانه وتعالى من المعاني حتى لا يتحول الهدى إلى ضلال والرحمة إلى عذاب والبشرى إلى خسارة، وعليه يجب الرجوع إلى الراسخين في العلم الذين يستطيعون الإتيان بالتفسير أو الوصول إلى التفسير الصحيح – ومصداقهم الأعظم هم عترة النبي(ص).

---

[10] نفسه، ص 54

[11] نفسه، ص 55

إتّباع أهل الذكر من العترة المباركة

مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح: من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق[12]

إذا أردنا أن نقابل بين العمل بالقرآن الكريم، والذي قلنا أنه واجب باتفاق المسلمين، وبين عترة النبي(ص) بأن ننـزلها منـزلة العمل بالقرآن، فإن ما نفهمه من ذلك هو اتباع هذه العترة في ما جاء لنا عنها ومنها. وقد دل القرآن الكريم على هذه العترة المباركة في وصف الذين لهم القدرة على تفسير القرآن أو تأويله حسب ما ذكرنا من أقوال المفسرين بحيث جاءت آيات القرآن الكريم أما بتشخيص عنوان أفراد هذه العترة المباركة بالتحديد كما في آية التطهير، أو بأنهم المصداق الأفضل والأعلى في آيات أخرى تدعو أو تأمر بسؤال العارفين بآيات الكتاب وأحكام الشرع التي تجمعها آيات الكتاب والسنة النبوية المطهرة.

قال تعالى: ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾ النحل:43. ذكر المفسرون معاني مختلفة في تشخيص "أهل الذكر"، خلاصتها هي[13]: أن الخطاب في الآية موجه للمشركين فإنهم هم المنكرون فليرجعوا وليسألوا؛ وقال آخرون أن المراد بأهل الذكر هم أهل العلم بأخبار من مضى من الأمم سواء أكانوا مؤمنين أم كفاراً؛ وقال البعض الآخر بأن المراد هم أهل القرآن لأن اللّه سماه ذكراً، وأهله النبي(ص) وأصحابه وخاصة المؤمنين؛ المهم هو أن الآية تأمر الجاهل بالتوجه إلى العالم طلباً للمعرفة، وهو ما يعرفه العقلاء كإحدى البديهيات.

وقد وردت روايات متعددة عن أئمة أهل البيت(ع) تثبت أن "أهل الذكر" في الآية هم(ع) أنفسهم. من ذلك:

- قول الإمام الصادق(ع): ‹‹**الذكر محمد ونحن أهله المسؤولون**››[14].

---

[12] رسول اللّه(ص)، المستدرك، الحاكم النيسابوري، ج 2، ص 343

[13] راجع التناول المفصل للآية الكريمة في الميزان في تفسير القرآن، المجلد 12، ص 256.

[14] الكافي، ج 1، ص 210، حديث 2

- قول الإمام الصادق(ع): ‹‹**الكتاب الذكر، وأهله آل محمد(ع)، أمر الله عز وجل بسؤالهم ولم يؤمر بسؤال الجهال، وسمى الله عز وجل القرآن ذكراً فقال تبارك وتعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾**››[15] (وفي بعض الروايات زيادة قوله تعالى: ﴿**وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون**﴾ الزخرف:44).

- قول الإمام الباقر(ع) جواباً على من قال له: إن من عندنا يزعمون أن قول اللّه تعالى ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾ أنهم اليهود والنصارى، قال: ‹‹**إذن يدعونكم إلى دينهم!**›› ثم قال الراوي أن الإمام(ع) أشار إلى صدره وقال: ‹‹**نحن أهل الذكر ونحن المسؤولون**››[16].

- قول الإمام الرضا(ع) جواباً على السؤال عن الآية من المعنون بذلك؟ فقال: ‹‹**نحن**›› قلت: فأنتم المسؤولون؟ قال: ‹‹**نعم**›› قلت: ونحن السائلون؟ قال: ‹‹**نعم**›› قلت: فعلينا أن نسألكم؟ قال: ‹‹**نعم**›› قلت: فعليكم أن تجيبونا؟ قال: ‹‹**لا، ذاك إلينا إن شئنا فعلنا وإن شئنا تركنا**›› ثم قال: ‹‹**هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب**››[17].

وأخيراً: "إن المراد بالذكر إن كان هو النبي(ص) كما في آية الطلاق[18] فهم أهل الذكر، وإن كان هو القرآن كما في آية الزخرف فهو ذكر للنبي(ص) ولقومه – وهم قومه أو المتيقن من قومه – فهم أهله وخاصته، وهم المسؤولون وقد قرنهم(ص) بالقرآن وأمر الناس بالتمسك بهما في حديث الثقلين المتواتر قائلاً: ‹‹**إنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض**[19]››"[20].

---

[15] بصائر الدرجات، رواية 19، والكافي ج 1 ص 295، رواية 3، وشواهد التنزيل للحسكاني، ص 334

[16] الكافي، ج 1، ص 211، حديث 8

[17] نفسه، ص 77

[18] يعني قوله تعالى: ﴿قد أنزل اللّه إليكم ذكراً . رسولاً يتلو عليكم آيات اللّه مبينات﴾ الطلاق:10-11.

[19] أنظر ما أجملناه في الملحق بخصوص حديث الثقلين، ذلك الحديث الذي ينبغي أن يعد من أهم الأحاديث الشريفة على الإطلاق، حيث أنه يحدد الضمانة للأمن من الضلال، وهي الغاية الكبرى للنبوات جميعاً.

[20] الميزان في تفسير القرآن، المجلد 12، ص 285

من المناسب هنا أن نذكر ما روي عن النبي(ص) في الارتباط التام بين الأئمة(ع) والقرآن الكريم وذلك في الروايات التي وإن كانت تخص علياً(ع) إلا أننا قلنا أن الأئمة من ولده يجري عليهم ما يجري عليه في خصوص وظيفتهم الشرعية في تبيان الأحكام الشرعية والشريعة الإسلامية بشكل عام، وفي حراسة الدين، أي بغض النظر عن الفرق بالمنـزلة بين علي(ع) وبين أولاده(ع) والتي نعتقد أنه يفضلهم جميعاً.

فقد أخرج الحاكم[21] حديثاً لأبي ثابت مولى أبي ذر يقول فيه فيما يذكر لقاءه بأم المؤمنين أم سلمة إلى أن قالت: سمعت رسول اللّه(ص) يقول: «**علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض**». وأخرجه الطبراني[22] وصاحب كنـز العمال[23].

وأورد الهيثمي في مجمعه[24] نفس الحديث مع فرق بسيط في الألفاظ.

كما روى الحاكم[25] الحديث عن أبي ذر أنه قال: قال النبي(ص): «**يا علي من فارقني فقد فارق الله، ومن فارقك يا علي فقد فارقني**». ورواه في طرق أخرى، وذكره آخرون كابن عساكر[26] وغيره.

إننا عندما نتدبر أحاديث أهل البيت(ع) في تفسير آيات الكتاب العزيز نجد أن هناك آفاقاً أوسع وفهماً أعمق مما روي عن طرق غيرهم، وهذا بمثابة دليل نقلي واقعي عن أنهم هم أهل الذكر وهم الراسخون في العلم الذين تحدث القرآن عنهم بشكل عام والذين يكونون المصداق الأمثل والأفضل لهؤلاء. بمعنى أننا عندما يأتينا تفسير آية عن طريقهم ويأتينا تفسير آية عن غيرهم فإن الموقف المنطقي هو أن نأخذ التفسير الذي عنهم وندع التفسير الآخر إن اختلف معه أو تناقض معه حتى وإن قلنا أن ذلك المفسر الآخر من أهل الذكر أو من الراسخين في العلم.

---

[21] المستدرك، ج 3، ص 24

[22] المعجم الصغير، ج 1، ص 255

[23] كنـز العمال، ج 11، حديث 32912

[24] مجمع الزوائد، ج 9، ص 134

[25] المستدرك، ج 3، ص 123

[26] تاريخ دمشق، ج 42، ص 307

أمثلة على تفسيرهم وتأويلهم(ع)

وأحب في هذا المجال أن أورد بعض أحاديث أئمة العترة المباركة لكي أطلع القارئ على تلك العلاقة بينهم وبين القرآن بحيث كانوا هم المفزع للتفسير الصحيح أو لتصحيح التفسير الخطأ أو لدفع الشبهات أو غير ذلك. ولكن قبل هذا لنستمع إلى بعض حديثهم الذي يفصل كيف أن ما عندهم يجعلهم الراسخين في العلم وأهل الذكر كما ناقشنا أعلاه.

فقد جاء عن علي(ع) القول[27]: ‹‹**ما نزلت آية على رسول الله(ص) إلا أقرأنيها وأملاها عليّ فأكتبها بخطي، وعلمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها، ودعا الله لي أن يعلمني فهمها وحفظها. فما نسيت آية من كتاب الله ولا علماً أملاه عليّ فكتبته منذ دعا لي، وما ترك شيئاً علّمه الله من حلال ولا حرام، ولا أمر ولا نهي، كان أو يكون، من طاعة أو معصية إلا علمنيه وحفظته، فلم أنس حرفاً واحداً. ثم وضع يده على صدري ودعا الله أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكمة ونوراً، لم أنسَ ولم يفتني شيء لم أكتبه**››. وهنا ليس فقط التأكيد على أن الإمام(ع) كان عنده علم القرآن بتمامه، ولكن أيضاً أن هذا العلم كان محفوظاً لا يمكن أن يتعرض للنقصان لأن النبي(ص) قد دعا له – ودعوة النبي مستجابة – بأن يعلمه ويفهمه ويمكنه من حفظه، ويؤكد الإمام(ع) بأنه ما نسي شيئاً من ذلك مما تعلمه. كما أنه يقول بأن ذلك التعليم كان لأي أمر كان أو سيكون وبالتالي لديه كل العلم الذي تحتاجه الأمة فيما سيأتي.

على أن هذا العلم الذي يتصل بما سيكون لا بد من توفره عن طريق أولاده الطاهرين وذلك لأنه(ع) كان ذا عمر محدود وسيعيش بين المسلمين بعد النبي ثلاثين عاماً فحسب. ولذلك جاء عن الإمام جعفر الصادق(ع): ‹‹**كان علي(ع) صاحب حلال وحرام وعلم القرآن، ونحن على منهاجه**››[28].

---

[27] بحار الأنوار، ج 92، ص 84

[28] تفسير العياشي، ج 1، ص 15

لذا فإن علم رسول اللّه(ص) الذي انتقل إلى علي(ع) انتقل إلى أولاده من بعده واحداً بعد واحد، ولذلك نراهم لم يتلجلجوا ولم يتلكؤوا في جواب عن شيء، فما كانوا يسألون عن شيء ويقولون لا ندري، بل ما كانوا يسألون عن شيء ويتوقفون لحظة إلا ويكون الجواب حاضراً.

ولنأخذ شيئاً من أحاديثهم(ع) لنبين كيف أن الأمة بحاجة إليهم من أجل الوصول إلى تفسير صحيح للقرآن، أو إلى تصحيح بعض ما فسره بعض المفسرين، أو لدفع الشبهات، وكل النماذج ستكون مما له علاقة بالقرآن الكريم، أولاً لأن اختيار نماذج بسيطة من كلامهم لهو من أصعب الأمور لأن ما وصلنا عنهم كثير كماً وجليل نوعاً؛ أما ثانياً فلأنه من الأفضل في بحثنا هذا أن نأتي بما له علاقة بالقرآن الكريم.

1- النبي(ص) وآية الصلاة

إن الحاجة إلى التفسير من مظانه ومن مصدره الأساسي أمر لا غنى عنه، وإلا كان من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، الوصول إلى المعنى، أو المعاني، من الآية الكريمة بدون الرجوع إلى العالمين بها. وقد بدأ ذلك منذ عصر النبي(ص)، فإنه عندما نزلت آية الصلاة، أي قوله تعالى ﴿**إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً**﴾ الأحزاب:56، قيل: يا رسول اللّه أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ فقال(ص): «**قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد**»[29]. فهنا لو لم يخبرنا النبي(ص) أن الصلاة على آله الطاهرين هي جزء من الصلاة عليه لما كان ممكناً مطلقاً معرفة ذلك من الآية الكريمة حيث أنها تقول "عليه" لا "عليهم". ولا شك في أن هناك آفاقاً أخرى في هذه المسألة بحيث يمكن أن يفهم الإنسان منها هذا الارتباط العضوي بينه(ص) وبينهم(ع) في الأمة.

[29] صحيح البخاري، ج 6، ص 27، وسنن النسائي، ج 6، حديث 11423

2- علي(ع) والمروءة

خرج أمير المؤمنين علي(ع) على أصحابه وهم يتذاكرون المروءة فقال: ‹‹**أين أنتم من كتاب الله؟**›› قالوا: يا أمير المؤمنين في أي موضع؟ فقال: ‹‹**في قوله عز وجل ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾**[30]، **فالعدل الإنصاف والإحسان التفضل**››[31]. فهنا يفسر الإمام(ع) المروءة بأنها عبارة عن الإنصاف من النفس مع الناس ثم التفضل عليهم، بحيث أن الإنسان لا يظلم أحداً في فعل أو في قول وثم يتفضل عليهم بما يستطيع من زيادة في الخير.

3- الزهراء(ع) وتطبيق القرآن على الموقف

أما الزهراء(ع) فإننا نجد أنها عندما حاججت الخليفة الأول في النـزاع الذي دار بينهما حول ملكية أرض فدك وحول سهم ذوي القربى وميراثها من رسول اللّه فإنها جاءت في حججها بالقرآن الكريم في هذه الجوانب المختلفة. إستخدمت(ع) آيات القرآن أولاً بشكل مباشر وهي آية ﴿**وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله**﴾ التوبة:75، وآية ﴿**وورث سليمان داود** ﴾ النمل:16، كذلك ما جاء في قصة زكريا(ع) ودعائه بالولد ﴿**يرثني ويرث من آل يعقوب**﴾ مريم:6.

أما الثاني فإنها جاءت بتطبيق الموقف على أحكام القرآن الكريم عندما قالت: ‹‹**أم تقولون أهل ملتين لا يتوارثان؟! ألست أنا وأبي من ملة واحدة؟!**›› في إشارة إلى الحكم الشرعي الذي مفاده أن الكافر لا يرث المسلم.

وثالثاً استخدمت هذا الذي قلناه آنفاً عن دور الأئمة(ع) في أحكام القرآن الكريم حيث قالت: ‹‹**أم أنتم أعلم بعموم القرآن من أبي وابن عمي**›› مؤكدة على ذلك الارتباط العلمي بين أمير المؤمنين(ع) والنبي(ص) بحيث أن علياً(ع) يعلم الحكم الشرعي من النبي(ص)، وبالتالي هي تعلم ذلك الحكم منهما، فلا يمكن لها أن تطلب ما ليس لها.[32]

---

[30] النحل:90

[31] تفسير البرهان، عن الميزان في تفسير القرآن، مجلد 12، ص 350

[32] راجع النص والاجتهاد، شرف الدين، المورد 8، وفدك في التاريخ، محمد باقر الصدر، ص 163 (بل الكتاب كله).

4- الحسن السبط(ع) والاستجابة لنداء اللّه تعالى

إن الذي يتلو القرآن ويحاول تدبره في قراءته فإنه يغفل عن بعض الكلمات القرآنية، لاسيما التي تتكرر، إلا أن أهل الذكر هؤلاء لا يغفلون عن شيء من ذلك. فقد ورد عن الإمام زين العابدين(ع) في وصف عمه الحسن السبط(ع) أنه قال: ‹‹**وكان لا يقرأ بكتاب الله عز وجل ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إلا قال: لبيك اللهم لبيك** ...››[33] وهذه على قصرها تعطي صورة جميلة ومهمة لهذه العلاقة بين الإمام(ع) وبين ربه من خلال كتاب اللّه تعالى حيث نراه يعيش في حالة انتباه كامل بحيث أنه عندما يقرأ النداء يشعر أن اللّه سبحانه وتعالى يتكلم معه ويناديه وبالتالي هو يعلن عن استعداده بقوله ‹‹**لبيك اللهم لبيك**››. إن هذا المنهج لو استطاع قارئ القرآن أن يتبعه ولو في بعض الأحيان لربما وجد نفسه في حالة حديث مع اللّه سبحانه وفي حالة تلقٍّ منه تعالى بحيث يشعر بأنه ملزم باتباع ما نزل من عند اللّه عز وجل.

5- الحسين(ع) وتفسير عملي لآية التحية وآية كظم الغيظ

وأما الإمام الحسين(ع) فإنه قام بتفسير عملي لآية من آيات الكتاب، في رواية رواها صاحب الفصول المهمة[34] عن أنس بن مالك قال: كنت عند الحسين(ع) فدخلت عليه جارية له وفي يدها باقة ريحان حيّته بها فقال: ‹‹**أنت حُرّة لوجه الله تعالى!**›› فقلت له: جارية تجيئك بباقة ريحان فتحييك بها فتعتقها؟! فقال: ‹‹**هكذا أدبنا الله حيث قال ﴿وإذا حُيّيتم بتحية فحيّوا بأحسن منها أو ردوها﴾**[35]**، وأحسن منها عتقها**››. هنا قام الإمام(ع) بأمرين: الأول هو تفسير الآية بأبعاد أخرى غير التحية المتعارفة بين الناس، فعلمنا أنه يمكن للتحية أن تكون بطريقة أخرى كأن تكون بباقة ريحان أو ورد، والثاني أنه قام بهذا التفسير بشكل عملي إذ لم يلقها كموعظة بل قام بعتق الجارية كرد أحسن من تحيتها.

---

[33] بحار الأنوار، ج 43، ص 331

[34] نقلاً عن سيرة الأئمة الاثني عشر هاشم معروف الحسني، القسم الثاني، ص 31؛ وروي ذلك عن أخيه الحسن(ع) أيضاً كما في المناقب ج 4، ص 18.

[35] النساء:86

وبشكل مشابه روي أن أحد موالي الإمام الحسين(ع) ارتكب ما يدعو إلى التأديب، فأمر الإمام بتأديبه، فقال الرجل: يا مولاي إن اللّه يقول ﴿**والكاظمين الغيظ**﴾ فقال الإمام(ع): ‹‹**خلّوا عنه فقد كظمت غيظي**››.. فقال الرجل: ﴿**والعافين عن الناس**﴾ فقال(ع): ‹‹**لقد عفوت عنك**››.. فقال الرجل: ﴿**والله يحب المحسنين**﴾[36] فقال الإمام(ع): ‹‹**أنت حر لوجه الله!**›› ثم أعطاه ما يكفيه في حياته[37]. هنا فسّر الإمام الحسين(ع) كلمة "المحسنين" بالفضل أي الإحسان الذي يقوم به الإنسان للآخر، فبعد أن كظم غيظه وسكت عن تأديبه ثم عفا عنه بقي الإحسان فكان له أن يعطيه شيئاً من المال أو غير ذلك، ولكنه أحسن إليه بأقصى ما يمكن وهو أن حرره من عبوديته وأعطاه ما يكفيه.

6- السّجّاد(ع) وأداء الأمانة

على أننا نتوقع من المتقين بشكل عام أن يكونوا وقّافين على أوامر اللّه ونواهيه، وبالتالي فإننا نتوقع من سادة المتقين وهم أهل البيت(ع) أن لا يخالفوا كتاب اللّه تعالى قيد شعرة، إلا أنه في بعض الأحوال ربما لم نفهم إطلاق الآية من جانب، أو لا نستطيع أن نتصور أنه من الممكن أن يلتزم الإنسان – أي إنسان –، مهما كان، بذلك عندما تكون الظروف غير طبيعية بالمرة. فإننا عندما نقرأ قوله تعالى: ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها**﴾ النساء:58 فإننا نتوقع أن أمانات كالأموال أو الوثائق أو غير ذلك يحفظها الإنسان الذي يراقب اللّه سبحانه وتعالى فيما أمر حتى يسلمها إلى الآخرين. وربما هذه كانت من الأمور التي لا يزال المسلمون بحمد اللّه يراقبون اللّه تعالى فيها فيما يخص الأمانات التي يأتمن عليها بعضهم البعض فيها. ولكن عندما يكون الأمر متعلقاً بجريمة ارتكبت ضد إنسان ما فإنه من الصعب أن لا يضعف أو يتزلزل بحيث ربما لا يقوم بالواجب الشرعي، أو على الأقل تحدثه نفسه بذلك. فكيف إذا كانت هذه الجريمة هي مقتل الإمام الحسين(ع) وأهل بيته وصحبه البررة تلك الجريمة الشنعاء التي هبط فيها مستوى

---

[36] آل عمران:134

[37] نقلاً عن الأئمة الاثني عشر هاشم معروف الحسني، القسم الثاني، ص 31

الأعداء إلى أخس ما يمكن. مع ذلك نجد أن الإمام السجاد(ع)، وهو الذي عايش تلك الجريمة البشعة لحظة بلحظة، مع معاناة شديدة حيث لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً، فإنه يوصي أصحابه بأداء الأمانة ويقول: ‹‹**فو الذي بعث محمداً بالحق لو أن قاتل أبي الحسين(ع) ائتمنني على السيف الذي قتله به لأديته إليه!**››[38]

إن الإمام(ع) بلغ بهذا الغاية في ضبط أعصابه وإخراج الحالة الشخصية من مراقبة اللّه سبحانه وتعالى فيما أمر حتى وإن كان ذلك على حساب مشاعره وما سيشعر به من آلام مستمرة وهو يحتفظ بتلك الأمانة القاسية، ولا شك في أن مثله خليق بمثل هذا.

7- الباقر(ع) وتنـزيه اللّه تعالى

عندما صار المسلمون يفكرون في الحقائق الدينية بشكل أكثر توسعاً، نتيجة الفتوحات ودخول أقوام لها باع طويل في الفلسفة والنظر والفكر أولاً، واستقرار الدولة بحيث صار هناك سعة في الجلوس للتفكر والمناقشات ثانياً، وإدخال الأفكار المنحرفة من قبل أعداء الإسلام وانتشارها ثالثاً، والانحراف الذي واجهه المسلمون من الداخل حيث ابتعدت الأمة بشكل كبير عن خط أهل البيت(ع) وهو الخط الذي يضمن، كما قلنا في هذا البحث مراراً، البقاء على الصراط المستقيم والأمن من الضلال، رابعاً، هذه الأجواء ربما بدأت مع إمامة الإمام الباقر(ع)، واشتد الأمر في زمن الإمام الصادق(ع)، ثم بعد ذلك إلى زمان الأئمة الآخرين(ع)، وتوسع الأمر لأن مثل هذا لا يتوقف عند حد. هنا نهض الأئمة(ع) لتوضيح الحقائق بتبيان آيات الكتاب العزيز بمعانيها والوقوف بوجه أي فكرة منحرفة تحاول أن تشوش على القرآن الكريم بنصوصه وتفسيره أو بحقائق الإسلام بشكل عام.

فقد أخرج الصدوق[39] في توحيده عن محمد بن مسلم أن الإمام الباقر سئل عن قوله تعالى ﴿**يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي**﴾ ص:75، فقال(ع): ‹‹**اليد في كلام العرب القوة والعظمة، قال سبحانه: ﴿والسماء بنيناها بأييد﴾[40] أي بقوة، وقال تعالى:**

---

[38] نقلاً عن الأئمة الاثني عشر هاشم معروف الحسني، القسم الثاني، ص 173

[39] نفسه، ص 203

[40] الذاريات:47

﴿وأيدهم بروح منه﴾[41] **أي بقوة، ويقال لفلان: عندي أياد كثيرة أي فواضل وإحسان وله عندي يد بيضاء أي نعمة››**. فهنا يزيل الإمام(ع) أي إشكال ممكن للمجسمّة الذين ربما استندوا إلى هذه الآية لإثبات وجود يد للّه تعالى مما هو معروف من شأنهم.

وأخرج أيضاً[42] أن عمرو بن عبيد سأله عن قوله: **﴿ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾**[43]، ما هو ذلك الغضب؟ فقال(ع): ‹‹**الغضب هو العقاب ياعمرو؛ إنه من زعم أن الله عز وجل زال من شيء إلى شيء فقد وصفه بصفة المخلوقين، إن الله لا يستفزه شيء ولا يغيره شيء**››.

هنا ينفي الإمام(ع) حصول الحوادث على اللّه سبحانه، فإضافة إلى أنهم(ع) نفوا عنه التحرك، أي الحوادث المكانية لأنه لا يحده مكان، فنفوا الصعود والنزول إلى السماء الدنيا وغير ذلك، فإنهم نفوا عنه الأحداث النفسية التي تحدث عند البشر بحيث يغضب أو يضحك أو يفرح كما يحدث عند الناس ففسر الغضب بأنه العقاب أي هو الشيء الذي يوقعه بالمخالفين، لا أنه يحدث عليه شيء، تعالى اللّه عما يقولون علواً كبيراً.

8- الصادق(ع) وربط العمل بالعلم والفهم

أما عن معرفة الأحكام من القرآن أو السنة المبينة للقرآن، فإن الأئمة(ع) أوضحوا التلازم بين العلم والفهم والفقه والعمل والتدبر، من أجل تركيز الفهم الواضح لطبيعة وظيفتهم الشرعية وبيان كيفية الاستفادة مما بين أيديهم من كتاب اللّه وسنة رسوله(ص).

فعند الحديث عن قوله تعالى **﴿ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾** الحشر:7 كان الإمام الصادق(ع) يذكر بقول جده أمير المؤمنين(ع)[44]: ‹‹**ألا لا خير في علم ليس فيه تفهم، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقّه**››.[45]

---

[41] المجادلة:22

[42] نقلاً عن الأئمة الاثني عشر هاشم معروف الحسني، القسم الثاني، ص 203

[43] طه:81

[44] وهذا الأسلوب – كان رسول اللّه(ص) يقول أو كان أمير المؤمنين(ع) يقول أو ما شابه – استخدمه الأئمة(ع) من أجل أن يلفتوا نظر الحاضرين إلى أن ما يتحدثون به مروي عن الأصل، فهم(ع) وإن لم يكونوا بحاجة إلى ذكر

فهو(ع) يربط بين العلم والفهم وبين قراءة القرآن والتدبر في تلك القراءة، وهو أمر تحدثنا عنه فيما مضى. كما ربط بين العبادة والتفقه، لأن العبادة بدون تفقه لا بد أن توقع المتعبد في أخطاء بل ربما أوقعته في ما يلغي تلك العبادة أداءً أو على الأقل يلغي ثمرتها بعدم القبول من اللّه سبحانه وتعالى. كما أنه ربط العمل بالمعرفة، حيث قال بأن من لم يعمل لا يعتبر أن له معرفة وإلا ما فائدة المعرفة بدون عمل، بمعنى أن المسألة إذا بقيت في الإطار النظري فكأنها لم تكن، معلناً أن الإيمان بعضه من بعض بحيث أنك لا تستطيع أن تقول أني مؤمن لأني أعرف طالما أنك لم تعمل، إذا كنت مؤمناً عارفاً متفقهاً فاهماً فلا بد أن تكون مؤمناً عاملاً بما فهمت وتفقهت وعرفت.

9- الكاظم(ع) والتعامل مع الجار

ثم نأتي إلى جانب آخر من حياة الناس، ولعل الفهم الذي تحدث عنه الإمام الصادق(ع) في أعلاه يدخل هنا. مثلاً، إذا قرأ الإنسان قول اللّه تعالى: ﴿**والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل**﴾ النساء:36 حيث يوصي اللّه سبحانه وتعالى بكل هؤلاء، فإنه إذا كان فهمه محدوداً أو لم يكن ينهل من المصادر الصحيحة من محمد(ص) وأهل بيته(ع)، فربما لن يبحر في الآفاق الواسعة للآية أو الأعماق الأبعد، ليس عناداً مع الآي وإنما بسبب عدم وجود من يأخذ بيده إلى ما تحمله معانيها من التفسير والتأويل.

السند لأنهم لا يأخذون إلى من ذلك المصدر المعصوم إلا أنهم(ع) كانوا – فيما يبدو – ينتهزون الفرصة لتذكير الناس بهذه الحقيقة.

[45] الكافي، كتاب العلم؛ وتمام الرواية هي: «ألا أخبركم بالفقيه؟ الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة اللّه، ومن لم يؤمنهم من عقاب اللّه، ولم يرخص لهم في معصية اللّه، ولم يترك القرآن رغبة عنه إلى غيره، ألا لا خير في علم ليس فيه تفهم، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر، ألا لا خير في عبادة لا فقه فيها، ألا لا خير في نسك لا ورع فيه» .وفيها أن أحد أوصاف الفقيه الحقيقي هو عدم تركه القرآن إلى المصادر الأخرى المشكوك فيها، سواء كانت الروايات غير المؤكد صحتها أم المقاييس وغيرها من طرق فقهية ردها أهل البيت(ع) – وهكذا نجد تأكيداً آخر منهم(ع) على أن القرآن هو المصدر وأن على الفقيه أن يستنطقه بالوسائل الصحيحة.

ففي هذه الآية يقول(ع)[46]: «**ليس حسن الجوار كفّ الأذى، ولكن حسن الجوار الصبر على الأذى**». فلربما اعتقد الإنسان بأنه طالما لا يؤذي جاره فإنه قد قام بواجبه من حسن الجوار، أو أنه راقب مسألة حسن الجوار التي أمر اللّه تعالى بها في كتابه. ولكنه إن تعرض إلى الأذى من جاره فلربما اعتقد أن من حقه أن يرد بشتى أنواع الردود ولا يصبر على ذلك لأنه، مع ذلك، لا يزال يوصف بحسن الجوار. نعم، إن من حق الإنسان إذا أوذي من جاره أن يحاول التخلص من ذلك الأذى، ولكننا نتحدث هنا عن حسن الجوار بغض النظر عما تقوم به بعد ذلك من إجراءات قانونية مما قد تنهي الأذى عنك أو ربما يجر الأمر إلى أن تترك المكان بالكلية.

هنا يقول الإمام(ع) أنك إذا أردت أن تكون حسن الجوار فلا بد أن تصبر على الأذى من جارك. وهنا يجب أن نلتفت إلى أمر في غاية الأهمية وهو أن أفعال المسلم الإيجابية لها ثمرات مختلفة لأن المعطي على ذلك هو اللّه تعالى الذي لا يتحدد عطاؤه في جانب دون آخر. فإن الإنسان إذا صبر على الأذى سيؤجر على هذا الصبر، وربما أدى صبره إلى ثمرات أخرى، منها أن تتحسن أخلاق الجار المؤذي بعد أن يكون قد ضرب له جاره درساً في الأخلاق؛ ومن ثمراته ما يمكن أن يقود إلى حسن اعتقاد ذلك الجار كما روي عن النبي(ص) مع جاره اليهودي الذي كان يرمي الأوساخ كل يوم على بيته(ص) فلما توقف ذلك وعلم النبي(ص) أنه مريض زاره وكانت النتيجة أن أسلم هذا الرجل على يديه.

ما أريد قوله هو أن الإنسان الذي ينظر بشكل أوسع من ضيق هذه الصغائر الدنيوية ستنفتح له آفاق كبيرة توصله إلى رضا النفس ورضا الناس ورضا اللّه تعالى. وفي مسألة الجوار هذه نحتاج إلى الكثير من التفقه والفهم والتلبس بأخلاق الإسلام.

10- الرضا(ع) وتنـزيه الأنبياء(ع)

عوداً على مسألة تصحيح الاعتقاد في تصحيح تفسير بعض آيات الكتاب التي اشتبه بها من اشتبه، نورد ما جاء في أجوبة الإمام الرضا(ع)[47] حيث صار الحديث في هذه

---

[46] سيرة الأئمة الإثني عشر، قسم 2، ص 320

[47] نفسه

الأمور أوسع في وقته، كما صار له المجال مفتوحاً للجواب والرد وتصحيح الاعتقاد والتفسير لاسيما عندما كان مع المأمون العباسي الذي كان من أمره ما هو معروف في قضية ولاية العهد وإعطائه المجال بحيث ناظره هو وغيره من العلماء والفقهاء والقضاة.

ففي عيون أخبار الرضا أخرج عن علي بن الجهم حضوره مجلس المأمون وعنده الإمام ومسائل المأمون في الآيات القرآنية التي تخص الأنبياء. وهذه مسألة مهمة لا تزال إلى الآن يخطئ فيها البعض في نسبة المعاصي بل وحتى الجرائم إلى ساحة الأنبياء، وكل ذلك كما قلنا بسبب البعد عن المصدر الصحيح، مصدر الراسخين في العلم وأهل الذكر. فمن بعضها مختصراً[48] أنه سأله عن معنى قوله تعالى: ﴿**فعصى آدم ربه فغوى**﴾ طه:121 أن الرضا أجاب بأن آدم وزوجه لم يقربا الشجرة التي نُهيا عنها ولكن وسوس لهما إبليس وموّه عليهما وطلب منهما أن يأكلا من غيرها مما كان من جنسها، حالفاً لهما بأن اللّه لم ينههما عن كل ما وافق تلك الشجرة وما كان من جنسها، فوثقا به لأنهما لم يكونا قبل ذلك يعرفان من يحلف باللّه كاذباً، وكان ذلك من آدم قبل النبوة، فلما اجتباه اللّه وجعله نبياً كان معصوماً لا يذنب صغيرة ولا كبيرة حيث قال تعالى بعد ذلك: ﴿**ثم اجتباه ربه فتاب عليه فهدى**﴾ طه:122.

وعن معنى قوله تعالى: ﴿**حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرنا**﴾ يوسف:110، أي أن المأمون ظن أن اليأس منسوب إلى الرسل وهو ما لا يمكن أن يحصل لأنه لا ييأس من روح اللّه إلا القوم الكافرون، أجاب الإمام بأن اليأس في الآية لا يتعلق بالنصر الذي وعد اللّه به رسله وإنما بإيمان قومهم بهم وتصديق رسالتهم.

وسأله عن قوله تعالى: ﴿**ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه**﴾ يوسف:24، فقال الرضا: «**لقد همّت ولولا أن رأى برهان ربه لَـهَمَّ كما همّت به، لكنه كان معصوماً والمعصوم يَهِمّه الذنب ولا يأتيه**»، أي أن فكرة الذنب تطرق بابه ولكن يستحيل أن تدخل لأن عصمته مانعة منعاً تاماً.

48 نفسه، ص 402

11- الجوادع ورد الأحاديث الموضوعة

إن الحديث النبوي الشريف ابتلي بما لم يبتل به الكتاب العزيز، ذلك أن الانحراف مسّ تفسير القرآن الكريم، أو محاولة حذف بعض المدلولات، إلا أن الحديث الشريف عانى الكثير ليس فقط من محاولة صرف دلالاته، بل أيضاً إنكار بعض الأحاديث جملة وتفصيلاً، ووضع وتأليف واختراع أحاديث لا تعد ولا تحصى مما لا يمكن أن تقبل لا عقلاً ولا عند عرضها على الكتاب العزيز. وكان من أسباب هذا الوضع هو المشاكل السياسية التي مرت بالمسلمين حتى دفعت البعض ممن لا دين له إلى وضع الحديث عن رسول اللّهص، والذي بدأ على عهدهص حيث وقف خطيباً كما اشتهر وقال: ‹‹**لقد كثرت عليّ الكذابة فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**››[49].

هنا قام الأئمةع بدورهم، أو بما استطاعوا أن يقوموا به حسب الظروف الضاغطة عليهم، بنفي مثل هذه الأكاذيب وذلك استناداً إلى كتاب اللّه تعالى. أي أنهم في الوقت الذي اعتمدوا على آيات الكتاب العزيز في نفي هذه الأباطيل والأكاذيب فإنهم قاموا بإعطاء التفسير الصحيح لهذه الآية أو تلك. فقد أخرج صاحب الاحتجاج[50] المحاورة بين يحيى بن أكثم والإمام محمد الجوادع وذلك في مجلس المأمون العباسي حيث قال يحيى: وقد روي أن النبيص قال: لو لم أبعث لبعث عمر بن الخطاب، فقالع: ‹‹**كتاب الله أصدق من هذا الحديث، فقد قال الله في كتابه: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح﴾[51]، فقد أخذ الله ميثاق النبيين، فكيف يمكن أن يبدل ميثاقه وكل الأنبياء لم يشركوا بالله طرفة عينّ! فكيف يبعث الله من أشرك وكانت أكثر أيامه على الشرك بالله؟!**››

هنا يفسر الإمامع أن أخذ الميثاق من النبيينع يعني أنهم لا يمكن أن يشركوا باللّه مطلقاً، وبالتالي فإن اللّه تعالى بعد أن أخذ عليهم الميثاق لا يبدل ميثاقه ويغير موقفه منهم. في نفس الوقت، الآية تعني فيما تعني أن هؤلاء الذين أخذ منهم الميثاق لا يمكن

49 نهج البلاغة، ج 2، الخطبة 210، والكافي، ج 1، ص62، ومسند أحمد، ج 1، ص 78، وسنن الدارمي، ج 1، ص 76

50 نقلاً عن سيرة الأئمة الإثني عشر، القسم 2، ص 443

51 الأحزاب:7

أن يكونوا مشركين في يوم ما لأن الميثاق أخذ منهم منذ ما قبل الخلق، فإذاً كيف يمكن أن يبعث نبياً من كان قد أشرك في عمره بل كانت أكثر أيامه على الشرك باللّه.

12- الهادي(ع) وآفاق الشكر

هنا نأتي إلى قضية مختلفة وهي ضمن علاقة الإنسان بربه، والتي في هذه القضية وهي مسألة الشكر يعيش الناس عادة في أفق ضيق ولا يرتفعون إلى الآفاق العليا، والسبب هو ضعف الفهم لطبيعة الأمور في العلاقة بين اللّه وخلقه وفيما يقومون به من أعمال خيِّرة وحقيقتها ووزنها. فإذا أردنا أن نتدبر قوله تعالى: ﴿**ولئن شكرتم لأزيدنكم**﴾ إبراهيم:7 سنفكر بأنه إذا شكر الإنسان على نعم اللّه تعالى فإن اللّه يعده بالزيادة[52]. في هذه لوحدها نجد هناك فشلاً كبيراً عند المسلمين إذ لا نراهم يكادون يشعرون بعظم نعم اللّه تعالى التي لا تحصى، والتي هي أمامهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم وفي بيوتهم وفي أماكن عملهم وفي أولادهم وفي كل مكان، لا يكادون يشعرون بها فلا تكاد تسمع كلمة الشكر من أحدهم، فإن سمعتها فإنما تكون من خارج مشاعره أو خارج قلبه وكأنها عادة من العادات – ولعله يقول لك الحمد للّه ثم يبدأ بعد ذلك مباشرة بالشكوى.

هنا أيضا يفتح الأئمة(ع) لنا آفاقاً واسعة، فقد روي عن الإمام علي الهادي(ع)[53] قوله: «**الشاكر أسعد بالشكر منه بالنعمة التي أوجبت الشكر، لأن النعم متاع، والشكر نعمٌ وعقبى**». فما أجملها من كلمة حيث يقول للناس بأن الإنسان الذي يشكر النعمة يجب أن يكون بعد شكره أكثر سعادة بذلك الشكر منه بالنعمة التي أوجبت الشكر... لماذا؟

---

[52] وينبغي لقارئ القرآن أن يلتفت إلى التوكيد اللغوي في ذلك حيث أنه تعالى استخدم لام التوكيد مع أداة الشرط "إن"، ثم استخدم توكيدين، اللام ونون التوكيد الثقيلة، في جواب الشرط فقال "لأزيدنّكم" بدلاً من "أزيدكم" فقط، وربما يأتي هذا من علمه سبحانه أن الناس سيكونون شحيحين في شكره على نعمه فأراد أن ينبههم إلى حقيقة أنه بالشكر تزداد النعم؛ وإلا فإنه سبحانه لا يحتاج إلى التوكيد لنعرف أن وعده لا يخلف مطلقاً. مع ذلك، يبدو أن التوكيد لم ينفع إلا قليلاً ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ سبأ:13!

[53] سيرة الأئمة الإثني عشر، القسم 2، ص 474

لأن النعم التي أوجبت الشكر متاع زائل لا بد وأن يتركه الإنسان يوماً ما ومهما طال بقاؤه معه فلن يستمر لحظة واحدة بعد مماته، أما الشكر فهو إضافة إلى كونه نعمة يستشعر الإنسان السرور بها في حياته، ولكنها ستكون مذخورة له في دار القرار حيث النعيم المقيم. وهنا نستطيع أن نقول بأن الإنسان، في وعد اللّه تعالى بالزيادة عند الشكر، إذا شكر وزاده اللّه من نعمه ثم شكر على الشكر فإنه إنما يتقلب في نعم المولى الكريم وفي سعادته بذلك الوعي وعدم الغفلة عن واجبه تجاه ربه المفيض المحسن.

وروي أيضاً عن الإمام(ع) بشكل مشابه[54]: «**أبقوا النعم بحسن مجاورتها، والتمسوا الزيادة فيها بالشكر عليها**». فكأن النعم إذا أردتم دوامها أن تحسنوا التصرف فيها بحيث لا تستخدم في معاصي اللّه ولا يجنح فيها إلى تبذير أو بخل أو سوء تصرف من أي نوع. كما يقول(ع) أيضاً بأنكم إذا أردتم الزيادة فيها فعليكم بأن تشكروا اللّه سبحانه وتعالى لأنه وعد بالزيادة ووعده لا يخلفه قطعاً.

13- العسكري(ع) وفلسفة الفريضة وبضمنها الولاية

وطالما نتكلم عن كتاب اللّه تعالى في سوره وآياته وكلماته، وعن الدور المركزي للأئمة(ع) في تفسيره وفي توضيحه وفي دفع الشبهات عنه أو دفع الشبهات به، لا بأس أن نأتي بالحديث عن الإمام أبي محمد الحسن العسكري(ع) الذي يبين أن هذه الآيات الكريمة تشهد لهؤلاء الأئمة(ع) بحراسة الدين وحفظه وتشهد بأنهم آيات اللّه سبحانه وتعالى التي أقام بها الحجة على العالمين. في هذا الأمر ينبه الإمام العسكري(ع) الناس إذا ما قرؤوا القرآن الكريم إلى مثل هذه الحقائق. ففي رسالة إلى إسحاق النيسابوري[55] يقول فيما يقول فيها: «**فاعلم يقيناً يا إسحاق أنه من خرج من هذه الدنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً... وذلك قول الله في محكم كتابه حكاية عن الظالم إذ يقول: ﴿قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾**[56]،

---

[54] نفسه، ص 475

[55] تحف العقول، ص 484

[56] طه:125-126

وأي آية أعظم من حجة الله على خلقه وأمينه في بلاده وشهيده على عباده، من بعد من سلف من آبائه الأولين النبيين، وآبائه الآخرين الوصيين، عليهم أجمعين السلام ورحمة الله وبركاته.

فأين يتاه بكم، وأين تذهبون كالأنعام على وجوهكم، عن الحق تصدفون وبالباطل تؤمنون وبنعمة الله تكفرون، أو تكونون ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم ومن غيركم إلا خزي في الحياة الدنيا وطول عذاب في الآخرة الباقية.

إن الله بمنه ورحمته لما فرض عليكم الفرائض لم يفرض ذلك عليكم لحاجة منه إليكم، بل برحمة منه – لا إله إلا هو – عليكم، ليَمِيز الخبيث من الطيب، وليبتلي ما في صدوركم، وليمحص ما في قلوبكم، لتتسابقوا إلى رحمة الله، ولتتفاضل منازلكم في جنته، ففرض عليكم الحج والعمرة وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والولاية، وجعل لكم باباً تستفتحون به أبواب الفرائض ومفتاحاً إلى سبيله؛ لولا محمد وآله صلى الله عليه وآله والأوصياء من ولده لكنتم حيارى» ثم يتساءل مستنكراً: **«وهل تدخل مدينة إلا من بابها؟»**.

هنا يقول الإمام بأن أعظم آية من آيات اللّه هي حججه على خلقه: الأنبياء(ع) ثم أوصياؤهم(ع)، فمن يقرأ هذه الآية يجب أن يتذكر أن نسيان حجج اللّه على خلقه إنما هو نسيان لآيات اللّه.

وينبه إلى نقطة دقيقة، وهي أن اللّه سبحانه وتعالى عندما فرض الفرائض فإن ذلك كان أولاً تمييزاً للخبيث من الطيب، وثانياً ليبتلي ما في نفوسهم وقلوبهم، وثالثاً لكي تتفاضل منازلهم في الجنة حسب اعتقادهم وأعمالهم بدرجاتها وبقوتها وبكثرتها وبخلوص النية فيها. ورابعاً فإن الذي فرض من الحج والعمرة والصلاة والزكاة والصوم والولاية هي الأمور التي فرضها اللّه تعالى في إطار هذا التمييز والتمحيص والابتلاء. وأخيراً يقول(ع) بأن اللّه تعالى جعل محمداً(ص) وآله(ع) الباب إلى معرفة الفرائض والسبيل إليه سبحانه، ولولاهم لكان الناس حيارى، فإن المدن لا تؤتى إلا من أبوابها أو يتعرض الداخل من غير أبوابها إلى المتاهات والضلال.

14- المهدي(ع) والتفسير الصحيح

روى الطبرسي في الاحتجاج[57] وغيره من المحدثين أن سعد بن عبد اللّه الأشعري دخل في نقاش مع بعض الخصوم حيث يبدو أنهم طرحوا بعض الإشكالات على عقائد الإمامية، ويبدو أنه لم يكن يستطيع جواباً لها، فكتب مسائل تزيد عن أربعين مسألة، وذهب إلى أحمد بن إسحاق وهو أحد أصحاب الإمام العسكري(ع)، وكان ابن إسحاق في طريقه إلى سامراء للقاء العسكري(ع) فأخبره بالأمر فدعاه أن يذهب معه. وعندما وصلا واستأذنا، دخلا على الإمام(ع)، فيصفه سعد، ثم يقول بأنه كان على فخذه الأيمن غلام يناسب المشتري في الخلقة والمنظر وعلى رأسه ذؤابتان، ويقصد الإمام الثاني عشر(عج).

ثم أخرج أحمد بن إسحاق ما كان يحمله من أموال، وكذلك مسائل سعد، فنظر الإمام العسكري(ع) إلى ولده(عج) وطلب منه أن يفتح الصرّة ويبدأ بتفصيل ما فيها[58].

فكان من جملة مسائل سعد عن قول اللّه تبارك وتعالى لموسى: ﴿**فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى**﴾ طه:12، قائلاً بأن فقهاء الفريقين يزعمون أنها – أي النعلين – كانت من إهاب الميتة.

فقال الإمام(عج): ‹‹**من قال ذلك فقد افترى على موسى واستجهله في نبوته، لأنه ما خلا الأمر فيها من خصلتين: أما أن تكون صلاة موسى فيهما جائزة أو غير جائزة؛ فإن كانت صلاته جائزة جاز له لبسهما في تلك البقعة، وإن كانت مقدسة، وإن كانت صلاته غير جائزة فيهما فقد أوجب على موسى أنه لم يعرف الحلال من الحرام، ولم يعلم ما جازت الصلاة فيه مما لم يجز، وهذا كفر**››.

ثم سأله سعد عن تأويلها فقال(عج): ‹‹**إن موسى ناجى ربه بالوادي المقدس فقال: "يا ربي إني قد أخلعت لك المحبة مني وغسلت قلبي عمن سواك" وكان شديد الحب لأهله،**

[57] الاحتجاج، ج 2، ص 267

[58] هذه طريقة استخدمها الإمام العسكري(ع) لإثبات إمامة ولده الصغير(عج) وذلك بأن يدعوه لإخبار الزائرين عما معهم من الأموال ومن أين جاءت وكميتها، حتى إذا كانت مختلطة حلالاً بحرام، أن يخبرهم بذلك كله.

فقال الله تعالى: ﴿إخلع نعليك﴾، أي إنزع حب أهلك عن قلبك إن كانت محبتك لي خالصة وقلبك من الميل من سواي مغسولاً››.

في هذه الرواية نلاحظ أن الإمام(ع) قام بأمرين: الأول هو تبرئة ساحة النبي موسى(ع) من الجهل والخطأ، والثاني تبيان العمق الحقيقي أو التأويل الحقيقي أو التفسير الحقيقي للآية الكريمة. فهو أراد أن يقول بمعنى آخر أنه في لقاء اللّه تعالى في ذلك الموقع المبارك لم تكن مسألة النعال الذي يلبسه الإنسان في قدميه هي المسألة المهمة، وإنما مثل هذا اللقاء حيث كلم اللّه عز وجل موسى تكليماً من خلال الشجرة يحتاج إلى إخلاص كامل وإلى إفراغ القلب تماماً مما سواه سبحانه ولذلك قال له إخلع ما سواي من قلبك، واللّه أعلم.[59]

إدّعاءات الاتّباع

بعد أن انتهينا من عرض بعض الأحاديث الشريفة التي توضح أن الأئمة الإثني عشر(ع) هم حقاً وصدقاً أعدال الكتاب العزيز حيث عندهم تفسيره الصحيح فهم خزنته وأوعيته وحراسه، صار منطقياً أن ينظر الإنسان في مدى استجابة الأمة لنداء سيد العترة الشريفة أمير المؤمنين(ع) بأن يُنزل الأئمة من أهل البيت، أعني هو وأبناءه(ع)، بمنزلة القرآن، وهنا في منزلة العمل بالقرآن أي إتباعهم(ع) كما قلنا. أما بالنسبة إلى شيعة أهل البيت فلا شك في أنهم يدّعون اتباع الأئمة(ع) في مذهبهم الفقهي وفي أصول العقيدة وفي الأخلاقيات وغير ذلك. ولا شك أيضاً في أن هذا الاتباع درجات، كما هي درجات اتباع أي قوم لأصول دينهم وفروعه وأخلاقياته. وهذا الاختلاف نراه جلياً في الأفراد حيث يختلفون باختلاف قابلياتهم ونياتهم وأهوائهم وظروفهم. كما نجده أيضاً في نطاق المجتمعات، حيث تختلف المجتمعات عن بعضها في ذلك أيضاً بسبب الظروف بالخصوص، حيث نجد أن شيعة أهل البيت ربما كانوا أقدر على الالتزام كمجموعة عندما يكون

---

[59] وهنا ملاحظة وهي أن هذه الرواية وردت في كتاب الاحتجاج وفي مدينة المعاجز (البحراني، ج 8، ص56) وفي كمال الدين وتمام النعمة (الصدوق، ص 460) وغيرهما بسند كامل، وبالتالي كما قلنا موصولة السند إلى الإمام(ع).

الضغط السياسي والاقتصادي أخف، إلا أن البعض ربما يستطيع القول بأن هذه الظروف تساعد أحياناً على مزيد من الالتزام حيث أن الشعور بالتهديد والخوف على الهوية يدفع إلى الالتزام أكثر. وهذا أمر ليس ها هنا مجاله لمعرفته على التحقيق، ولكن يكفي القول بأن الطائفة التي تسمي نفسها الشيعة الإمامية الإثني عشرية، وهم الغالبية الساحقة من الشيعة في العالم، هم أتباع العترة المباركة عترة النبي(ص) على الجملة، وأن علماءهم ينهلون من منهل أهل البيت(ع) في تفسير القرآن وفي الحديث الشريف وفي التاريخ.

أما إخوانهم من أتباع المذاهب الأخرى، أو من يسمون بأهل السنة أو السنة والجماعة، فلا شك في أنهم لا يتخذون من أئمة العترة المباركة أئمة لهم في الفقه ولا في الأصول ولا في السيرة، اللهم إلا مما جاء هنا وهناك كجزء من استفادة أئمة مذاهبهم من أحكام وردت عن أهل البيت(ع)، ولاسيما الإمام علي(ع)، وربما بشكل قليل من الإمام جعفر الصادق(ع). ذلك أن أهل السنة إنما يتبعون المذاهب الأربعة، الحنفي بشكل أساسي، ثم المالكي ثم الشافعي وقليل جداً منهم المذهب الحنبلي، لا يعرف عوامهم، بل غالبية علمائهم، شيئاً كثيراً عما ورد عن أئمة أهل البيت(ع)، حيث نجد شحة في الأحاديث الواردة عنهم(ع) في كتب الحديث خصوصاً ما تسمى بالصحاح الستة وبالأخص صحيحي البخاري ومسلم.

في هذين الكتابين، نجد أن الأحاديث المروية عن صحابة آخرين غير علي(ع) أكثر بكثير مما روي عنه. كما نجد أن المرويات عن أولاده(ع) من أئمة العترة المباركة قليلة بشكل مؤلم وبشكل يثير العجب حقاً، حيث لا يقابل ذلك ما ملأه هؤلاء الصفوة من العلم والحكمة في أزمانهم. وإذا تركنا جميع الأئمة(ع) جانباً عدا الإمام الصادق(ع) فإننا نجد أن هذا الإمام الذي روى عنه المئات[60] – وربما الألوف – لا بد أن أحاديثهم عنه(ع) انتشرت بعشرات الألوف في شتى أنحاء العالم الإسلامي، فهل من المعقول أن لا يروى عنه شيء في كتاب مثل كتاب البخاري المسمى بصحيح البخاري؟! إن محمد بن إسماعيل البخاري رحمه اللّه قال بأن كتابه يحوي الأحاديث الصحيحة فحسب على شرطه وهو أشد الشروط وأن هذه الأحاديث الصحيحة استخلصها من بين مائة ألف حديث صحيح عنده غير

---

[60] أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، ج 1، ص 35

مائتي ألف حديث غير صحيح عنده[61]. فهل يعقل أن البخاري الذي عاش بعد مائة سنة أو أقل من وفاة الإمام الصادق(ع) لم يصله من حديثه ما صح عنده ولا حديث واحد من هؤلاء التلامذة والشيوخ الذين أخذوا عنه في مسجد النبي(ص)؟! لو كان الإمام الصادق(ع) يلقي دروساً في أواسط آسيا أو قرب الصين أو في أقاصي شمال أفريقيا لقلنا ربما، لكنه كان يلقيها في القلب من العالم الإسلامي في مدينة صاحب العلم وهو رسول اللّه(ص)، فهذا أمر مستغرب جداً[62].

إن نظرة أهل السنة إلى أئمة أهل البيت(ع) هي، كما قلنا، نظرة احترام وتبجيل، ولأنهم يعتبرونهم عباداً صالحين أتقياء بلغوا القمة في التقوى وفي المكانة. ولو سألتهم عن درجتهم العلمية لقالوا بأن أئمة أهل البيت(ع) وصلوا إلى الغاية في العلم؛ ولكن لماذا لا نجد شيئاً من هذا العلم عندهم؟

وإذا ما سألت أحداً: إن لم تكونوا تتبعون هؤلاء الأئمة، فهل تعتقدون أن الشيعة يتبعون هؤلاء الأئمة؟ سيأتي الجواب الواضح بـ لا، أي أن الشيعة لا يتبعون هؤلاء الأئمة(ع) وإنما تأسس مذهب الشيعة بطرق مختلفة، أسطورية حقاً، كما رووا والتي أجاب عنها الشيعة وفندوها بكل سهولة[63]، بل وأجاب بعض السنة عنها[64].

إذاً يطرح سؤال: إذا كان السنة يتبعون أئمة المذاهب من غير أهل البيت(ع)، وكان الشيعة لا يتبعون أهل البيت(ع) أيضاً، إذاً أين علوم هؤلاء الأئمة من أهل البيت(ع) – والذين ذكرنا فيما ذكرنا شذرة فحسب من الأحاديث النبوية في مكانتهم وفي وجوب الرجوع إليهم والتمسك بهم كما نتمسك بالقرآن، كما ذكرنا نماذج بسيطة سريعة لمواقف

---

61 سبل السلام، محمد بن اسماعيل الكحلاني، ج 1، ص 11. مع تحفظنا على كثير من هذه الأرقام سواء فيما يخص صحيح البخاري أو غيره لأننا نلاحظ أن الدقة في الأرقام بشكل عام في تاريخنا الإسلامي غير موجودة، لا في الأعداد ولا في المسافات ولا في غير ذلك.

62 راجع بعد ما كتب في نقد صحيح البخاري ككتاب "دراسات في الحديث والمحدثين" لهاشم معروف الحسني، و"أضواء على السنة المحمدية" لمحمود أبي رية، وكتيب "البخاري وصحيحه" للشيخ حسين غيب غلامي، و"أضواء على الصحيحين" للشيخ محمد صادق النجمي.

63 راجع كتاب "عبد اللّه بن سبأ" للعلامة السيد مرتضى العسكري، وكتباً أخرى كثيرة تناولت هذا الموضوع.

64 "عبد اللّه بن سبأ" للدكتور عبد الحميد صالح الهلابي، الأستاذ في قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

لهم ولأحاديث لهم كلها تعلن دون أي مجال للشك بأنهم هم المفزع في العلم وهم المرجع في ذلك والآخرون بعدهم بمسافة – إذاً، أين ذهب هذا العلم وهذا الفقه؟

إن قبول حقيقة كون أن جميع المسلمين سنة وشيعة لا يتبعون أهل البيت(ع) يعني أن الأمة تخلت بكاملها عن هؤلاء الأئمة(ع)، وهذا أمر يجعل الأمة تقف موقفاً لا تحسد عليه أمام اللّه تعالى، بل وأمام الأمم الأخرى إذا أرادوا أن يحاجوها في مدى التزامها أو مراقبتها لما تركه نبيها(ص)، ولاسيما أنه قال «**فانظروا كيف تخلفوني فيهما** – أي الكتاب والعترة –» أو قال «**أذكركم الله في أهل بيتي**» أو ما سوى ذلك[65]. فهل هذا مما يقبله المسلمون على أنفسهم؟

إذاً، إلى أن يأتي الناس بإجابة معقولة منطقية لما حلّ بفقه أهل البيت(ع) وأصولهم وأخلاقهم وسيرتهم، إلى ذلك الحين يبقى للشيعة الحق في أن يدّعوا أنهم الأتباع الحقيقيون لأئمة العترة المباركة من أهل بيت النبي(ص). وإلى ذلك الحين يبقى الأخوة من أتباع المذاهب الأخرى مدعوين لأن ينظروا في هذا الأمر كي ينهلوا من علوم هذه العترة المباركة التي بزّوا فيها الأولين والآخرين.

هل هناك اتّباع حقاً؟

بغض النظر عمن يدعي الاتباع ومن لا يدعي، وبغض النظر عن الاتهامات المتبادلة، فإن الملاحظ بشكل عام أن الحدود الشرعية معطلة، والعبادات صارت عادات، والأخلاقيات الإسلامية بعيدة كل البعد عن تعاليم النبي(ص) وأهل بيته(ع)، والفهم للّه ونعمه وآلائه بعيد كل البعد بل لا يكاد يكون موجوداً بحيث أن الغفلة قد أطبقت بشكل كبير على الأمة ما خلا ما يستطيع فرد من هنا أو فرد من هناك أن ينتبه في يومه أو ليلته إلى نِعم اللّه سبحانه وتعالى وواجبات الشكر له وواجبات الالتفات إليه سبحانه. أيضاً، وربما لهذه الأسباب كلها، نجد أن العلاقات الاجتماعية أو العلاقات بين الناس بشكل عام علاقات خطأ في شكلها وفي مضمونها، فلا العلاقات بين الفرد وأسرته ولا بين الفرد وأصدقائه ولا على مستوى الجيرة ولا على مستوى المعارف، ولا على مستوى أتباع الدين

---

[65] راجع ما ذكرناه بخصوص الثقلين في الملحق.

الواحد، ولا بين العامل ورب العمل، ولا بين الرئيس والمرؤوس، ولا بين الحاكم والمحكوم، ولا في أي مفصل من مفاصل الحياة، تشبه ما يجب أن يكون عليه حال الفرد المسلم والمجتمع المسلم. إن العمل بالقرآن الكريم واتباع العترة المباركة، إذا أنزلت منـزلة القرآن في العمل به، من غير المعقول أن تنتج مجتمعات كهذه التي نعيشها في ضعفها وتفككها وتخلفها حتى أننا لا نزال نشهد انتشار الخرافات والغلو بل نشهد زيادة لها في هذا الزمان. كذلك، نجد أن الأمة في مؤخرة الأمم من ناحية الإنتاج، أي إنتاج، بحيث لا يمكن أن نقول بأن بركة القرآن وبركة العترة المباركة قد حلت بحيث أثمرت النتائج المرجوة نتيجة للتدبر واقتفاء الأثر في السيرة المباركة لهؤلاء الأئمة(ع) الذين هم أهل الذكر أي أهل القرآن، والراسخون في العلم الذين عندهم علم القرآن وعلم التفسير والسنة النبوية المطهرة.

أخيراً، يحضرني قول لا أتذكر قائله وهو ما محصله: أن المسلمين قد أُمروا بالتمسك بالكتاب والعترة، فتمسك أهل السنة بالكتاب وتركوا العترة فأضاعوهما معاً، وتمسك الشيعة بالعترة وتركوا الكتاب فأضاعوهما معاً! أما أنا فأقول بأنه في واقع الأمر لم يحصل، أو الآن على الأقل، ليس هناك تمسك حقيقي، أو على الأقل تمسك لا يهمل جوانب هامة مفصلية ضرورية في حياة الأمم، بالقرآن لا بالنسبة إلى السنة ولا للشيعة، كما لا يوجد هناك تمسك بالمرة لعترة أهل البيت(ع) من قِبل أهل السنة ولا التمسك الحقيقي المطلوب بهم(ع) من قِبل الشيعة. وبالتالي فإن هناك فشلاً للأمة فيما يخص التمسك بالثقلين تركة الرسول(ص): الكتاب والعترة.

ومن يرى أن في هذه النتيجة بعض القساوة أو بعض التطرف أسأله: كيف لا يكون ذلك والأمة هذا حالها؟! لو كان هناك تمسك بدرجة خمسين بالمائة أو أقل لكنا الآن في قيادة الأمم لا في المؤخرة أمة تابعة غير متبوعة تكاد تكون مقلدة في كل شيء... ولله أمر هو بالغه.

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

الفصل الحادي عشر

سادساً: منزلة الدعوة

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

سادساً: منـزلة الدعوة

حمل القرآن والدعوة إلى الله

ألا أن كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله غير حرثة القرآن[1]

ذكرنا في أكثر من موضع فيما تقدم الحديث النبوي الشريف «**خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه**» أو «**أفضلكم من تعلّم القرآن وعلّمه**»، والذي يعطي صفة الخيرية بل الأكثر الخيرية والأفضل بين الناس لمن يتعلم القرآن ولمن يعلّمه. فمن يتعلم القرآن لنفسه كي يحقق فيه الهدى والرحمة والبشرى التي ذكرناها من أهداف القرآن الكريم كما تحدث القرآن عن نفسه، فله الفضل والخير في ذلك. ولكن من يتعلم القرآن ويستخدم هذا الذي تعلمه في تعليم الناس القرآن الكريم فإنه ينال درجة الأفضل من بين الناس.

وقد وردت أحاديث عن أهل البيت(ع) في خصوص حفظة القرآن وحملته ما يعطي صفة هؤلاء الناس وما عندهم من الخير بالمقارنة مع غيرهم[2].

فعن الإمام جعفر الصادق(ع) قال: «**الحافظ للقرآن العامل به مع السفرة الكرام البررة**»[3] أي مع الملائكة الكرام.

---

[1] الإمام علي(ع)، نهج البلاغة، الخطبة 176

[2] نلفت نظر القارئ إلى أن كلمة حفظ القرآن أو الحافظ للقرآن تعني الذي يعمل به، بمعنى أنه حفظ هذا القرآن من التضييع بأن اتبعه وعمل بما فيه، لأن تضييع القرآن هو أن يترك فقط للتلاوة أو للحفظ والآثار والبركات وغير ذلك دونما عمل به. ولذلك فإن حفظ القرآن وحفظة القرآن التي تأتي في بعض الأحاديث لا تعني الذين يحفظونه عن ظهر قلب وإنما هو العمل به. وقد استخدمنا كلمة العمل به بدلاً من ذلك كي يكون التعبير أوضح في منـزلة العمل به التي وردت في الفصل السابق.

[3] الكافي، ج 1، ص 603

هذه المنزلة لا ينالها إذا كان حمله للقرآن كوظيفة فحسب أو من أجل الدنيا، بمعنى العامل به خارجياً لا حقيقة، لأنه إذا كان يحمل القرآن حقاً فقد وصل مرتبة من العلم به تجعله يتأثر بالقرآن كما ينبغي – وهذا قول الإمام الصادق(ع): ‹‹**إن أحق الناس بالتخشّع في السر والعلانية لحامل القرآن، وإن أحق الناس في السر والعلانية بالصلاة والصوم لحامل القرآن**››[4]. إن حامل القرآن هو الذي ينتظر منه أن يكون أكثر الناس خشوعاً فيما يكون به أمام الملأ وفيما يكون به بينه وبين اللّه تعالى. وأن هؤلاء هم أحق الناس بالصلاة والصوم، أيضاً في السر والعلانية. ذلك أن من يعيش القرآن دعوة إلى اللّه تعالى لا بد أنه من الذين أخذ على عاتقه القيام بدوره في هداية الناس، بحيث أنه لم يكتفِ بالقيام بمسؤوليته الشرعية تجاه نفسه، وإنما آلى على نفسه أن يقوم بما يمكن له القيام به وبما تسعه ظروفه بالدعوة إلى اللّه تعالى، حباً باللّه تعالى وبالتالي رغبة في هداية الناس إليه، أو حباً بالناس بمعنى تأجج هذه المشاعر الإنسانية لديه بحيث يريد لهم الخير كلما وجد ذلك الخير، أو حباً ورغبة في مرضاة اللّه تعالى فهو يريد أن يحصل منه على الثواب، أو كل ذلك مجتمعاً – النتيجة هي أنه عاش الإسلام دعوة فكان إنساناً رسالياً يشعر بواجبات الرسالة الإسلامية في نفسه وفي حياته.

فهو عليه سيماء الخشوع أمام الناس وفي نفس الوقت هو خاشع للّه بعيداً عنهم وهذا لا يحدث إلا بحصول خشوع القلب في الداخل. وإلا فإن النتيجة تكون عكسية، كما قال النبي(ص): ‹‹**يا حامل القرآن: تواضع به يرفعك الله، ولا تعزز به فيذلك الله ... يا حامل القرآن تزيّن به لله يزيّنك الله به، ولا تتزيّن به للناس فيشينك الله به**››[5]. وهذا تنبيه لحملة القرآن أن لا يدخل إليهم الشيطان بحيث ينتفخون عندما يرون منـزلتهم أعلى عند الناس أو يشعرون بأنهم يقومون بشيء كبير فينبههم أن يتواضعوا بالقرآن الكريم ويبشرهم بأن جواب ذلك هو أن اللّه تعالى سيرفعهم، وأن يتزينوا به للّه تعالى بمعنى أنهم يلونون حياتهم وتصرفاتهم ومسيرتهم وحركتهم بأخلاق القرآن وبما دعا إليه

---

[4] الكافي، ج 2، ص 569
[5] الكافي، ج 2، فضل حامل القرآن، ص 604، حديث 5

القرآن، فيكون الجواب على ذلك أن اللّه تعالى سيزينه به بحيث يصبحوا أكثر قبولاً عند الناس، ربما يصبح أكثر جمالاً عند الناس وربما يجعله محبوباً أكثر عند الناس، قال تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّاً**﴾ مريم:96. ويحذره من أن يستخدم هذا القرآن الذي حمله وتعلم منه لأن يتزين به عند الناس ويستفيد منه في دنياه لأن جواب ذلك سيكون أن اللّه تعالى سيشينه به أي سيتعرض ربما إلى الازدراء أو السخرية إلى أن يسقط في أعين الناس يوماً ما.

هؤلاء الحفظة الحملة عليهم أن يدركوا النعمة الكبرى التي منّ اللّه بها عليهم: «**ومن أوتي القرآن فظنّ أن أحداً من الناس أوتي أفضل مما أوتي فقد عظّم ما حقّر الله وحقّر ما عظّم الله**» (وهو تتمة الحديث السابق). ذلك أن القرآن الكريم الحبل الممدود بين السماء والأرض، كما وصفه النبي(ص)،وهو الثقل الأكبر أي أكبر ما ترك النبي(ص)، وهو العهد بين اللّه تعالى والعباد، فلا بد من أن يكون عند المسلم بهذا الوزن وهذه القيمة، فإذا اختلت نظرته واعتقد أن غير ذلك أعظم منه فإنما جهل حقيقة القرآن ومنـزلته ومكانته.

هؤلاء الحملة، الذين قدروا القرآن حق قدره، فتخشعوا وتزينوا به وعملوا به للّه وحده، على عكسهم من صارت هذه النعمة أمامهم فلم يقوموا بواجبها، بل كانت على ما وصف القرآن الذين حملوا التوراة ثم تركوها ولم يعطوها حقها ﴿**مثل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً**﴾ الجمعة:5، فهم كأولئك الذين لم يقدروا نعمة النبي(ص) فيما حكته السورة بعد هذه الآية، بعد أن أخبرت بنعمة بعثة النبي(ص) في أول السورة[6]، وكيف أنهم تركوه يخطب في يوم الجمعة وخرجوا إلى قافلة التجارة التي سمعوا بوصولها[7]، ما يشير إلى الفشل الكبير في حمل الأمانة[8].

---

[6] قوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ الجمعة:2

[7] قوله تعالى: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً، قل ما عند اللّه خير من اللهو ومن التجارة، واللّه خير الرازقين﴾ الجمعة:11

[8] إن المرء ليعجب، بل يذهل، كيف أنهم تركوا رسول اللّه(ص) يخطب وخرجوا من المسجد لاستقبال قافلة التجارة، زاهدين في مواعظه وإرشاداته وتوجيهاته لهم، وهو الذي ﴿ما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي

وهناك حديث يلفت الانتباه إلى الحالات التي لا يجتمع فيها القرآن مع الإيمان، بمعنى أن الشخص يكون إنساناً مؤمناً ولكنه يفتقد إلى المعارف القرآنية أو إلى الأخلاق القرآنية أو إلى الآفاق القرآنية التي تفتحها له. بل ويلفت إلى أن هناك من أوتي القرآن ولكنه لم يؤت الإيمان وهو أمر غريب يدل على قساوة القلب أو على سوء السريرة بحيث أنه أوتي من علوم القرآن بحيث يكون قد تعلمها في المعاهد أو المدارس أو الجامعات العلمية ولكنه لم يدخل في عمقه ليحقق الإيمان الحقيقي في ذلك الإنسان.

فيقول الصادق(ع)[9] واصفاً هؤلاء: ‹‹**أما الذي أوتي الإيمان ولم يؤت القرآن فمثله كمثل الثمرة طعمها حلو ولا ريح لها**›› أي هو طيب من داخله ولكنه يفتقد إلى ذلك الأريج الذي سينطلق منه لو أوتي القرآن الكريم بمعارفه وخلقه.

ويقول عن النوع الثاني: ‹‹**وأما الذي أوتي القرآن ولم يؤت الإيمان فمثله كمثل الآس ريحها طيب وطعمها مُرّ**›› أي مثل شجيرة الآس التي لها رائحة طيبة ولكن داخلها مُرّ،

يوحى﴾ النجم:3-4. لو سألنا أي شخص في زماننا عن رأيه فيمن يترك الإمام يخطب يوم الجمعة ليخرج إلى التجارة، فماذا يكون رأيه فيه؟ هذا، والإمام – كائناً من كان – هو تراب أقدام رسول اللّه(ص)، وبالتالي فإن خطبته ربما لا تحوي أي شيء مما ينفع ذلك الذي خرج من المسجد وترك الخطبة؛ ماذا سيقول عن أولئك الذين فعلوا ذلك، بحيث لم يبق مع النبي(ص) إلا إثنا عشر شخصاً! (راجع صحيح البخاري، ج 1، ص 225، وصحيح مسلم، ج 3، ص 10، وسنن البيهقي، ج 3، ص 181، وغيرهم) واللّه إن المرء ليتوجع أولاً لرسول اللّه(ص) وهو يرى أولئك الخارجين من المسجد كيف لم يقدروه ويقدروا ما ينطق به وهو الذي جاءهم بالخير كله، وهو الذي كانت مشاعره وعواطفه معهم على ما وصفه القرآن بأنه ﴿عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ التوبة:128؛ وإن المرء ليتوجع ثانياً لحال الأمة التي لم تشأ أن تضع هذه الحادثة ومثيلاتها في الحسبان عندما فقدت توازنها فيما يخص نظرتها إلى صحابة النبي(ص) بحيث صورتهم وكأنهم جيل من الملائكة في الأرض، لا أنهم ناس كباقي الناس، فيهم من وصل القمة في الإيمان والإنسانية – كأولئك الإثني عشر الذين بقوا منشدين إلى نبيهم(ص) وهو يخطب –، كما كان فيهم من جرته الحياة الدنيا، على عهد رسول اللّه(ص) ومن بعده، فكان ما كان مما سطرته كتب التاريخ. صحيح إن هذه ليست كتلك، ولكن إن كانت هناك رزية يوم الخميس، يوم منعوا النبي(ص) من كتابة الكتاب الذي يؤمّن الأمة من الضلال وجبهوه بتلك الكلمات الفظيعة (راجع صحيح البخاري، ج 4، ص 31، و ج 5، ص 137، وصحيح مسلم، ج 5، ص 75، مسند أحمد، ج 1، ص 222، وغيرهم)، فواللّه إن هذه لرزية يوم الجمعة!

[9] الكافي، ج 2، ص 569

فهذا هو الإنسان الذي عنده من علوم القرآن ومعارفه، ربما يبثها بين الناس فينتفعوا منها، ولكنه ينطوي على داخل لا يتناسب مع ذلك الإطار القرآني.

وأما النوع الثالث فيقول(ع): ‹‹**وأما من أوتي القرآن والإيمان فمثله كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب**›› أي هو مثل الثمرة التي لها طعم طيب في إشارة إلى داخله الطيب النقي، ولها نشر فوّاح في إشارة إلى الإطار القرآني الذي عليه.

وأما النوع الرابع فيقول(ع): ‹‹**وأما الذي لم يؤت الإيمان ولا القرآن فمثله كمثل الحنظلة طعمها مُرّ ولا ريح لها**›› وهذا هو الذي تساوى داخله مع إطاره فهو خال من الإيمان ومن أخلاقيات القرآن ومعارفه.

وقد ذكرنا عند الحديث عن منـزلة تلاوة القرآن أن القرآن حثّ على تلاوته في أكثر من آية ولكنه أيضاً تحدث عن التلاوة من أجل الدعوة إلى اللّه سبحانه وتعالى. قال تعالى: ﴿**وأن اتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فقل إنما أنا من المنذرين**﴾ النمل:92، والتي وإن كانت على لسان النبي(ص) بأن أمره ربه سبحانه وتعالى بتلاوة القرآن وأن يقول ما يقول إلا أنها بلا شك تجري على جميع الدعاة أو الذين يريدون أن يكونوا في طريق الدعوة إلى طريق القرآن والإسلام.

والآية واضحة في أن النبي(ص) يقول بأنه سيتلو القرآن من أجل هدايتهم، ولكن القبول يأتي من المتلقي، فإن قبل واتبع النبي الهادي(ص) اهتدى، ومن رد فإنه يضل، ولكنه ينبغي أن يعلم أن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد، وإنما هو نذارة لما بعده.

إن هذا يفتح أمام تلاوة القرآن الباب الثالث؛ فإذا قلنا بأن التلاوة من أجل التلاوة هي الباب الأول الذي تفتحه التلاوة، وأن العمل به هو الباب الثاني، فإن الدعوة بالقرآن هي الباب الثالث.

الدعوة إليه والدعوة به

إننا نفهم الدعوة في القرآن، وهي الأمر الذي يقوم به حملة القرآن، والتي هي المنـزلة الأعلى من بين منازل القرآن الكريم، على شاكلتين:

الأولى الدعوة إلى القرآن.

الثانية الدعوة بالقرآن.

أما الدعوة إلى القرآن فهي دعوة إلى الإسلام بشكل عام، فإن حامل القرآن إذا دعا إلى القرآن فإنما يدعو إلى جميع ما في القرآن من الإيمان باللّه الواحد الأحد المهيمن الخالق المقتدر مالك الملك الرحمن الرحيم ديّان الدين، والإيمان بملائكته وكتبه وجميع أنبيائه ورسله، لاسيما خاتمهم الذي أنزل القرآن عليه(ص)، والإيمان بمعارف القرآن وبشرائعه وأحكامه وبجميع ما فيه من أخلاقيات وسلوكيات وفكر وكلمة تنير الطريق لمن أخذ بذلك القرآن وقبله واهتدى إليه. وهذه الدعوة التي إلى القرآن ستتضمن فيما تتضمن الدعوة إلى عترة النبي(ع) لأنهم يشكلون أحد الأعمدة الأساسية، بل العماد الأساس، التي يقف عليها هذا التبليغ وهذا القرآن حيث قرنوا به كونهم هم المبينين الحقيقيين لهذه المعارف والأخلاقيات وتفاصيل الإيمان والشرائع وغير ذلك، وهو أمر سنأتي عليه بعد قليل.

وأما الدعوة بالقرآن فهي استعمال القرآن في الدعوة إلى اللّه تعالى، وذلك باستعمال ما فيه من معارف أولاً واستعمال أساليبه في الدعوة ثانياً. وإن مجال البحث في هذه المواضيع ليس ها هنا لأننا نبحث كيفية إنزال أئمة أهل البيت(ع) منـزلة القرآن على الجملة، وأما تفاصيل ما في القرآن مما يدعى به ووسائله فهذا ليس مجاله. ولكن يكفي أن نقول ملخصاً بأن ما في القرآن الكريم من المعارف التي يستخدمها حامل القرآن في الدعوة إلى اللّه تعالى تتضمن المعارف اللغوية والبلاغة التي تبهر العقول وتجلب من له ذلك المزاج اللغوي؛ والمعارف العلمية التي يكتشف كل يوم توافق القرآن الكريم معها أو توافقها مع القرآن الكريم مما يستخدمه الداعي[10]؛ وأيضاً من معارفه القضايا التاريخية

[10] مثال ذلك قوله تعالى: ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ الأنبياء:30 والتي يعتقد بعض المشتغلين في القرآن والعلم الحديث أنها تصوير واضح لعملية لما يسمى الانفجار الأول (Big

التي أخبر بها عن الأقوام الماضين وثبتت بالحفريات الأثرية أو التي أخبر بها تصديقاً لما كان في التوراة والإنجيل؛ وأيضاً في ما أخبر بها في زمان الدعوة ثم صدقت بعد ذلك بسنين أثناء نزول القرآن[11]؛ وهكذا في تشريعاته وفي الأمور الأخرى من صحية واجتماعية واقتصادية وغير ذلك.

وأما الأمر الثاني، وهو أساليب الدعوة، فإن حامل القرآن لا بد وأن يستفيد من أساليب الدعوة في القرآن، بل أن يعتبرها هي الإطار الأساس في دعوته. فمن ذلك أن حامل القرآن عندما يحاور ويدعو إلى القرآن يجب أن يفعل ذلك باستخدام جميع الوسائل التي تهيئ الجو للقبول، من ذلك قوله تعالى: ﴿**وإنّا أو إيّاكم لعلى هدى أو في ضلال مبين**﴾ سبأ:24، حيث يتنازل الداعية عن اعتقاده الجازم بحقانية القرآن والإسلام أمام من يدعوه فيجلس معه على أرضية متساوية لكي يطرح ما عنده وربما يطرح الآخر ما عنده ليصل معه إلى النتيجة المرجوة.

من ذلك أيضاً أن يكون الأسلوب أسلوباً رقيقاً أخلاقياً يستخدم الوسائل الحقيقية والهادئة، قال تعالى: ﴿**أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ النحل:125.

(Bang) الذي منه خلقت المجرات والمجاميع والتي هي في حالة ابتعاد عن موقع الانفجار بسبب ذاك الانفجار والذي يؤدي إلى توسع الكون، مما يلفت النظر إلى قوله تعالى في آية أخرى ﴿والسماء بنيناها بأييدٍ وإنّا لموسعون﴾ الذاريات:47. راجع مقالات د. زغلول النجار في موقعه على الانترنت وغيره. على أن هناك رواية عن الباقر(ع) يفسر فيها الرتق والفتق بمعنى آخر هو «كانت السماء رتقاً لا تنزل المطر وكانت الأرض رتقاً لا تنبت الحب فلما خلق الله تبارك وتعالى الخلق وبث فيها من كل دابة فتق السماء بالمطر والأرض بنبات الحب» (الكافي، ج 8، ص95، رواية 67).

[11] من ذلك ما أخبر به أن الوليد بن المغيرة، أحد عتاة كفار قريش، الذي قال عن القرآن ﴿أساطير الأولين﴾ القلم:15، فتوعده الله تعالى بأنه سيضرب على أنفه حيث قال تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ على الخُرطوم﴾ القلم:16، ثم لم تمض سنوات قليلة إلا وانتهى قتيلاً بضربة سيف أمير المؤمنين(ع) على أنفه – أي خرطومه – يوم بدر (أو قيل أن هذه الضربة ستسمه بسمة إذلال يعرف بها يوم القيامة). راجع التبيان، الطوسي، ج 10، ص 78، والتفسير الصافي، الفيض الكاشاني، ج 2، ص 1337، والتفسير الأمثل، ناصر مكارم، ج 18، ص 536 (والذي أوضح أن هذا كان مصداقاً للآية التي لها شمولية يمكن تحققها في كل وقت، فافهم).

ومن ذلك أيضاً أن يدعو الآخرين بأفضل طريقة ممكنة لأن هذا من شأنه المساعدة على إعطائه فرصة أكبر للنجاح، وذلك حتى مع أتباع الديانات الأخرى كما قال تعالى: ﴿**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن**﴾ العنكبوت:46.

إن الدعوة إلى اللّه تعالى وإلى القرآن هي من أجل الأهداف العليا للإسلام، ولاسيما التوحيد. ولذلك كانت هذه هي الدعوة التي يجب أن يتوجه إليها حملة القرآن حيث قال تعالى: ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله**﴾ آل عمران:64، لأن في ذلك تأسيس الأرضية للانطلاق نحو الإيمان بباقي معارف القرآن وتشريعاته، فإنه بدون التوحيد يصبح من الصعب قبول باقي الأمور في هذا الكتاب الذي يهدف بما يقوم عليه إلى قضية توحيد اللّه سبحانه وتعالى.

إن حمل القرآن دعوة به إلى اللّه تعالى يصفها القرآن بأنها أحسن القول حيث يقول: ﴿**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين**﴾ فصلت:33. فينبغي على المسلم أن لا يتكاسل عن الدعوة إلى اللّه تعالى وإلى القرآن الكريم لأن في ذلك الخير له وللآخرين؛ بل إن هذه الآية تسميه أنه أحسن القول.

على أننا نحاول أن نقابل في هذا البحث بين منازل القرآن الكريم ومنازل العترة المباركة وسنخلص إلى القول حول موقف الأمة من ذلك، إلا أنه يكفي الآن وقبل أن نتناول ما يثبت أن أئمة العترة المباركة هم حقيقون بأن ينـزلهم المسلمون في منـزلة القرآن، فيما يخص منـزلة حمل القرآن، نذكر هنا كلمات لأمير المؤمنين(ع) يصف فيها ما يأتي بعده من زمان وكيف حال القرآن في ذلك الزمان.

يقول(ع)[12]: ‹‹**وأنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله. وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تُلي حق تلاوته، ولا أنفق منه إذا حُرّف عن مواضعه. ولا في البلاد شيء**

---

[12] نهج البلاغة، خطبة 147

أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر! فقد نبذ الكتاب حملته، وتناساه حفظته، فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيان، وصاحبان مصطحبان في طريق واحد لا يؤويهما مؤوٍ. فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليس فيهم، ومعهم وليس معهم! لأن الضلالة لا توافق الهدى، وإن اجتمعا. فاجتمع القوم على الفرقة، وافترقوا على الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم، فلم يبق عندهم منه إلا اسمه، ولا يعرفون إلا خطّه وزبره...».

والمعنى واضح في أن ذلك الزمان الذي يشير إليه هو أن كتاب اللّه إذا تلي حق تلاوته – أي اتبع كما ينبغي، وإلا فلا يجد المنحرفون أو الظالمون أي مشكلة مع التلاوة بحد ذاتها – سيكون سلعة غير مرغوبة، في حين إذا حرّف عن مواضعه وحرف عن معانيه والمطلوب من آياته – وهذا يؤكد أن ما يقصد بقوله «**إذا تلي حق تلاوته**» هو العمل به – عندها لن يكون هناك شيء أكثر رغبة منه عند ناس ذلك الزمان.

أما الأمر الخطير فهو أن الحملة والحفظة أنفسهم قد نبذوا الكتاب وتناسوه بحيث أن هؤلاء الذين يفترض أن يكونوا المختصين بالكتاب قد زهدوا به فصار الكتاب وأهله طريدين. وهنا ربما يظن المرء بأن أهل الكتاب هم الحملة والحفظة، ولكن واضح أن أهل القرآن هنا هم الذين يحبون القرآن ويريدون العمل بالقرآن ويريدون أن يفعّلوا القرآن في الحياة، ولكن الحملة الذين ينبغي أن يقودوا هؤلاء وغيرهم، لأنهم هم العلماء به، قد نبذوه ولم يعملوا من أجل تفعيله، فصار الكتاب ومن يحب الكتاب ومن يؤمن بالكتاب كأنهم غرباء، يصفهم﴿ع﴾ أنهم في الناس ويشعرون بالغربة منهم.

ثم يصف هؤلاء بأنهم صاروا كأنما هم الذين يحددون الذي يجب أن يكون عليه كتاب اللّه تعالى أو الذي يجب أن يريده الكتاب، بمعنى أنهم هم الذين يحددون معاني آيات اللّه وذلك وفق الضلال الذي هم عليه فصاروا كأنهم هم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم! وبالتالي تكون النتيجة أنه لم يبق من الكتاب عندهم إلا الاسم والخط والشكل، في إطار فارغ لا ثمرة من ورائه... نعوذ باللّه من أن نكون من أهل ذلك الزمان.

الدعوة إلى أهل البيت(ع)

أحيوا أمرنا، رحم الله من أحيا أمرنا[13]

بعد أن تحدثنا شيئاً عن حمل القرآن ومنـزلة حمل القرآن، تقابل هنا بين حمل القرآن والدعوة إلى العترة المباركة حسبما دعا أمير المؤمنين(ع) في كلمته بأن ننـزلها بأحسن منازل القرآن. ها قد وصلنا إلى الأعلى من بين منازل القرآن وهي حمل القرآن، فلننظر في مسألة إنزال العترة المباركة في أحسن منازل القرآن هذه. وكما قلنا أعلاه حمل القرآن يعني الدعوة إلى القرآن والدعوة بالقرآن، بأن يدعا الناس إلى إتباع القرآن سواء كانوا مسلمين بأن يهتدوا بهديه ويأتمروا بأوامره وينتهوا بنواهيه وبشرائعه وأخلاقه أم غير مسلمين تتم دعوتهم إلى اتباع الإسلام باتباع كتاب الإسلام وهو القرآن الكريم. والدعوة بالقرآن باستخدام ما فيه من شرائع ومعارف ولغة وغير ذلك، أيضاً باستخدام أساليبه في الدعوة إلى الإسلام بحيث ينتهج حامل القرآن هذه المناهج العالية فلا يخطئ في عمله هذا بل يأمل منه الخير الكثير والنجاح العظيم.

وهنا نستطيع أن نذكر كلمة لأمير المؤمنين(ع) وهو يصف القرآن الكريم[14]، فيقول(ع): ‹‹**وبرهاناً لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفلجاً لمن حاج به، وحاملاً لمن حمله**››. أي أن القرآن الكريم هو الذي يدعم من يدعو إلى الإسلام بتوفير البرهان له والشهادة له والنصر عندما يحتج به، وهو الذي يحمله إذا حمله. بمعنى أن أمير المؤمنين(ع) ربما يريد منا أن نفهم أن من يحمل القرآن سيجد القرآن حاملاً له، وهذا يعني أنه سيجده يوفر له مستلزمات حمل القرآن، أي مستلزمات الدعوة من مادة تشمل المعارف والشرائع والأخلاقيات والإعجازات وأساليب الدعوة أيضاً.

ولقد ذكرنا أن أهل البيت(ع) أعلنوا بأنهم هم أصحاب القرآن بمعنى هم خزنته وهم حاملو علومه وشرائعه الذين ترجع الأمة إليهم. ولا بأس بإعادة ما جاء في دعاء

---

[13] الإمام جعفر الصادق(ع)، جامع أحاديث الشيعة، البروجردي، ج 12، حديث 4893

[14] نهج البلاغة، الخطبة 198، والتي ذكرنا ما جاء فيها عن القرآن في أول البحث

الإمام زين العابدين عند ختمه القرآن[15] حيث قال: «**اللهم إنك أنزلته على نبيّك محمّد**(ص) **مجملاً، وألهمته علم عجائبه مكمّلاً، وورّثتنا علمه مفسّراً، وفضّلتنا على من جهل علمه، وقوّيتنا عليه لترفعنا فوق من لم يطق حمله. اللهم فكما جعلت قلوبنا له حملة، وعرّفتنا برحمتك شرفه وفضله، فصلِّ على محمّد الخطيب به وعلى آله الخُزّان له...**» ثم يقول: «**اللهم وكما نصبت به محمّداً علماً للدلالة عليك، وأنهجت بآله سبل الرضا إليك، فصلِّ على محمّد وآله واجعل القرآن وسيلة لنا إلى أشرف منازل الكرامة...**» إلى آخر فقرات الدعاء. وهكذا فإن أهل البيت(ع) هم خزان القرآن حفظاً ومعرفةً وتفسيراً وتأويلاً وحملاً وفي جميع المراتب التي يمكن أن يوصف بها أهل القرآن أو حفظة القرآن أو حملة القرآن.

وقد ورد في أحاديثهم(ع) ما يشير إلى هذه المعاني. مثال ذلك ما وصف به الإمام الرضا(ع) برواية الحاكم عن الفضل بن عباس عن أبي الصلت الهروي[16]: "ما رأيت أعلم من علي بن موسى الرضا(ع) ولا رآه عالم إلا شهد له بمثل شهادتي، ولقد جمع المأمون في مجالس له جمعت علماء الأديان وفقهاء الشريعة والمتكلمين، فغلبهم عن آخرهم حتى ما بقي أحد منهم إلا أقر له بالفضل وأقر على نفسه بالقصور".. ثم يقول أنه سمع علي ابن موسى الرضا(ع) يقول: «**كنت أجلس في الروضة**[17] **والعلماء بالمدينة متوافرون، فإذا أعيى الواحد منهم عن مسألة أشاروا إلي بأجمعهم وبعثوا إلي بالمسائل فأجيب عنها**».

ونقل أيضاً عنه قوله(ع): «**ما مررت بآية قط إلاّ فكّرت فيها، وفي أيِّ شيء نزلت وفي أيِّ وقت**»[18]. وإذا جمعنا مع هذه قول إبراهيم بن العباس أحد الذين عاصروه: "ما سئل الرضا(ع) عن شيء إلاّ علمه، ولا رأيت أعلم منه بما كان في الزمان إلى وقت عصره، وكان

---

[15] الصحيفة السجادية، دعاء 42

[16] بحار الأنوار، ج 49، ص 100

[17] أي عند قبر النبي(ص).

[18] عيون أخبار الرضا، ج 2، 180

المأمون يمتحنه بالسؤال عن كل شيء فيجيبه الجواب الشافي، وكان كلامه كله وجوابه وتمثّله انتزاعات من القرآن"[19].

إن اللّه تعالى يصف كتابه العزيز بأن فيه ﴿**تفصيل كل شيء**﴾ يوسف:111، و ﴿**تبياناً لكل شيء**﴾ النحل:89، فيعجب المرء كيف يمكن أن يحوي هذا الكتاب على تفصيل كل شيء وتبيان كل شيء. ولكننا نجد أئمة الهدى(ع) يكون منهم ما يصدق كلام اللّه الصادق عندما يكون جواب المسائل على تنوعها انتزاعات من القرآن. ونستطيع القول بأن هذا لا يمكن أن يتسنى لغير أئمة العترة النبوية لأنهم خزنة الكتاب وعلومه[20].

فهذه الروايات تقول بأن الأئمة(ع) خزنة الكتاب العزيز ومع ذلك فإنهم عندما يقرأون القرآن يقرأونه بتدبر وتفكر، وهذا هو الوصول إلى الغاية في تفعيل جميع منازل القرآن حتى عند الذين نزل في بيوتهم حتى صاروا قرآناً ناطقاً كما وصفوا بذلك.

وقد ذكر الكثير عن قضية حِجِّية القياس في استنباط الأحكام الشرعية أو عدمه، وعرف أن مدرسة أهل البيت(ع) لا تقبل به مطلقاً، وذلك لأنهم يعرفون الأحكام الشرعية من كتاب اللّه تعالى ومن السنة التي بينها النبي(ص) مما رويت عنه مباشرة أو ما رويت عن أئمة عترته الشريفة. إن هذا يمثل أحد الأدلة المهمة على أن أئمة أهل البيت(ع) هم أعدال الكتاب بمعنى أنهم هم المرجع لتبيان الكتاب وتفسيره، بحيث لم يحتاجوا كما احتاج غيرهم إلى العمل بقياس مسائل على مسائل أخرى لأجل الاستنباط وإنما كان لكل مسألة طريق للحكم فيها من خلال الكتاب والسنة ليس إلا.

روي أن الإمام الكاظم(ع) سئل إن كان يأذن للأصحاب من شيعته بالقياس على مسائل كانوا قد سمعوا أحكامها من أبيه(ع) وجده(ع) فقال: «**لا، إنما هلك من كان قبلكم بالقياس!**» ثم أوضح ذلك بالقول: «**لأنه ليس من شيء إلا جاء في الكتاب والسنة**»[21].

---

[19] الفصول المهمة، ص 251، وعيون أخبار الرضا، ج 2، 179

[20] ليس المقصود أن الكتاب العزيز فيه أجوبة الجغرافية والكيمياء والطب وغيرها، ولكن فيه الأطر الفكرية العامة للتشريع الديني والمنهج العقلي والمنهج التربوي التي لها أن تأخذ بيد البشرية المعذبة دوماً إلى ما فيه خير دنياها وأخراها. ولكن مهما يبلغ العلماء من العلم والتحصيل، لا يمكن أن ينقدح في ذهنهم ما كان يأتي به أئمة الدين(ع) الذين أودع اللّه تعالى فيهم تلك الملكات التي تفردوا بها.

[21] نفسه، صفحة 253

وقد أوضح ما لا بد أن يخطر في الذهن من أنه من غير المعقول أن يكون المجال قد اتسع لرسول اللّه(ص) في الفترة القصيرة التي عاشها لتبيان جميع الأحكام الشرعية في جميع الأمور وذلك بالقول بأن هذه العلوم هي عندهم(ع)، وبالتالي فهذا هو الهدف من وجود هذه الإمامة وهذه وظيفتها بأن يبينوا الأحكام الشرعية عندما تستجد أمور ما بعد زمن الرسالة. فقد روى الكليني[22] سؤال أحد أصحاب الإمام الكاظم(ع): "أتى رسول اللّه بما يكتفون به في عهده؟ قال(ع): ‹‹**نعم، وما يحتاجون إليه إلى يوم القيامة**››، فقلت – أي الراوي –: ضاع من ذلك شيء؟ قال(ع): ‹‹**لا، هو عند أهله**››". ولكن المشكلة كل المشكلة في إعراض الناس عن "أهله" وهم عترة النبي(ص) الذين عندهم ما يحتاج إليه الناس من كتاب ربهم – أُطُراً ومنهجاً وتفسيراً وتأويلاً واستنباطاً وتطبيقاً.

ثم أنهم(ع) أوضحوا بأمثلة من الأحكام الشرعية القرآنية بطلان القياس، كما ورد في الروايات المعروفة عن الحوارات ما بين الإمام الصادق(ع) وأبي حنيفة أو بين الأئمة وتلامذتهم أو غير ذلك. من ذلك قول الصادق(ع): ‹‹**إن السُّنّة لا تقاس، ألا ترى أنَّ امرأة تقضي صومها ولا تقضي صلاتها؟ يا أبان[23] إن السّنّة إذا قيست مُحِقَ الدين**››[24]. ويشير في ذلك إلى أن المرأة تقضي صومها الذي فاتها في أيام الحيض ولكنها لا تقضي صلاتها التي لم تصلّها في أيام الحيض، مع أن الصلاة أهم من الصيام. فإذا قيست المسألة على ذلك لا بد أن يكون الحكم بأن عليها أن تقضي الصلاة دون الصيام، في حين أن الحكم الشرعي هو عكس ذلك، وبالتالي فإن القياس لا يمكن أن يستخدم لأنه سيؤدي إلى الانحراف عن الأحكام الشرعية.

وهذا ما حذر منه الأئمة(ع) بالقول: ‹‹**إن أصحاب القياس طلبوا العلم بالقياس فلم يزدادوا من الحق إلا بعداً، إن دين الله لا يصاب بالقياس**››[25].

---

[22] الكافي، ج 1، ص 57

[23] أي أبان بن تغلب الذي كان يتحدث معه.

[24] الكافي، ج 1، ص 111

[25] نفسه

ومثله تحذير الكاظم(ع) لمن سأله: "بم أوحِّد اللّه؟" قال الإمام(ع): «**لا تكن مبتدعاً: مَنْ نظر برأيه هلك، ومن ترك أهل بيت نبيه ضلّ، ومن ترك كتاب الله وقول نبيه كفر**». أي أن من نظر في الأمور حسب أهوائه وقطع بما يراه صحيحاً من غير دليل من الكتاب والسنة يخسر الخسران المبين؛ وأما من يذهب بعيداً عن العترة الهادية فإنه يسير في سكك الضلال (مرة أخرى، حديث الثقلين نبه إلى ضلال من لم يتمسك بالقرآن والعترة)؛ وأما من ترك الكتاب والسنة أساساً فقد خرج من الإيمان (لأن الأول هلك لأنه نظر برأيه في الدين الذي يؤمن به، والثاني هو الآخر يؤمن بالدين ولكنه اختار ترك عترة النبي(ص)، في حين أن الثالث خرج منها تماماً).

إذن فإن الأئمة(ع) أرادوا من تنبيهاتهم هذه أن يقوموا بأمرين: الأول تحذير الناس من الطرق غير الصحيحة للوصول إلى الأحكام الشرعية، والثاني هو توجيه الناس إلى المصدر الحقيقي الصحيح لهذه الأحكام وهي عترة النبي(ص).

خريجو مدرسة محمد(ص)

إن الفرق الذي جعل أئمة العترة النبوية يختلفون عن غيرهم من العلماء هو أنهم خريجو مدرسة خاصة، هذه المدرسة التي لم تعش القلق العلمي لو صح التعبير، حيث أن العلماء وطلبة العلم لا بد أن يعيشوا قلق العلم والحصول عليه في مسيرتهم العلمية حرصاً على العلم وحرصاً على الأخذ من الأفضل والمقارنة بين هنا وهناك وتطور المعرفة عندهم والذي يتزامن مع تطور الوعي واختلاف الظروف. ومن أوضح الأمثلة على ذلك أن الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه اللّه، إمام المذهب المعروف، كانت له فتاوى كثيرة عندما كان في العراق ثم عندما ذهب إلى مصر واستقر فيها غيّر الكثير من هذه[26]،

---

[26] هو أمر معروف مشهور، ولكن أنظر إن شئت مقدمة عبد الرحمن بن مهدي وأحمد شاكر محقق وشارح كتاب "الرسالة" للشافعي، طبعة الحلبي، وانتبه إلى أن ما هو موجود اليوم من مؤلفات الإمام الشافعي هي النسخ الأخيرة التي ألفها في مصر، في حين اندثرت النسخ القديمة التي ألفها في الحجاز والعراق والتي فيها آراؤه الفقهية التي غيرها. إن هذا ليس عيباً في الشافعي، بل إن تغيير الرأي عند انكشاف خطئه وعدم العناد يعد فضيلة لاسيما عند تعلقه بالشريعة، وهو المتوقع لكل من لم يحصل على عناية خاصة من اللّه تعالى لإمامة الأمة

والتي استدل منه البعض خطئاً على أن ذلك هو دليل على مرونة الإسلام. أما الواضح فهو دليل على عدم التأكد من الفتوى والانتقال من واحدة إلى أخرى، وإلا فلا نستطيع أن نجد فروقاً كبيرة بين مصر والعراق بحيث تتغير على ضوئها أحكام الدين.

إن أئمة أهل البيت(ع) تعلموا من علوم منها إلهامي، ولكن منها، وربما هو الأساس، هو التعليم الذي كان من إمام إلى آخر وصولاً إلى رسول اللّه(ص)، وذلك حتى لو كان بهذا التعليم عنصر إلهي يجعله يمضي بسرعة غير معهودة والتي من الممكن أن نتلمسها في حديث «**علّمني رسول الله ألف باب من العلم**» الشهير الذي قال فيه أمير المؤمنين(ع) بأن رسول اللّه(ص) علّمه من العلم ألف باب «**يفتح من كل باب ألف باب**»[27]، وذلك في جلسة تعليم واحدة، وبالتالي من غير الممكن أن تكون هذه الجلسة جلسة اعتيادية، بل كانت جلسة إعجازية لتهيئة علي(ع) للحصول على جميع ما يحتاج إليه في وظيفته كإمام على الناس أجمعين يسير بهم على هدي كتاب اللّه وسنّة نبيه(ص).

ولكن على الجملة هذا كان حالهم، لم يكن أحد أو يدعي أنه كان أستاذاً لأحد منهم، ولم يقل أحد أنه شاهد أياً منهم وهو في مجلس أو حلقة درس أحد آخر سوى أبيه أو الإمام الذي سبقه. في هذا رووا حديث الإمام الرضا(ع) الشهير الذي يقول فيه أنه: «**حدثني أبي موسى بن جعفر قال حدثني أبي جعفر بن محمد قال حدثني أبي محمد بن علي قال حدثني أبي علي بن الحسين قال حدثني أبي الحسين قال حدثني أبي علي بن أبي طالب قال حدثني رسول الله عن جبرائيل عن الله أنه قال: كلمة لا إله إلا الله حصني، فمن دخل حصني أمن عذابي**»[28] والذي سمي بحديث سلسلة الذهب لأن سنده هو الأعلى كما أن الذهب هو الأعلى بين المعادن.

– وهو أمر يحصل مع جميع الفقهاء، وبضمنهم فقهاء مدرسة أهل البيت(ع) –. إن هذا يوضح الفرق بين أئمة أهل البيت(ع) وغيرهم من رؤساء المذاهب وكبار فقهائها، دع عنك من هم أقل من أولئك الرؤساء والفقهاء.

[27] بحار الأنوار، ج 22، ص 461، و كنـز العمال، ج 133، حديث 36372، وتفسير الرازي، ج 8، ص 23، وغيرها

[28] عيون أخبار الرضا، ج 2، ص 134

وهنا هذه الكلمة، لا إله إلا اللّه، والتي روي أن رسول اللّه(ص) قال: ‹‹**ما قلت ولا قال القائلون قبلي مثل لا إله إلا الله**››[29] لا تكون كلمة في الهواء، ولا تكون كلمة تطلق ثم يجلس الإنسان ليجد أن الإلهام يأتيه فيما يحتاجه من أحكام شرعية أو من عقائد أو من أخلاقيات، وإنما هي المدخل إلى بيت الإسلام وبالتالي يحتاج إلى من يدله على الطريق، والذي هو هنا القرآن الكريم ومن عندهم علمه من العترة المباركة. ولذلك قال الإمام الرضا(ع) بذيل ذلك الحديث: ‹‹**بشرطها وشروطها، وأنا من شروطها**››، موجهاً الناس إلى أن قول كلمة لا إله إلا اللّه تعطي من يقولها صك الأمان من العذاب إذا كان ذلك بشروطها التي وضعها اللّه سبحانه وتعالى، وذلك بتفعيلها في حياته بجوانبها كافة؛ وإن ذلك لا يكون بالطريقة التي يختارها هذا الإنسان بشكل عشوائي كيفما اتفق، وإنما يجب أن يطرق الباب الصحيح وهو باب العترة النبوية المباركة والتي يعلن مركزيتها الإمام(ع) في هذا الحديث بقوله: ‹‹**وأنا من شروطها**››.

أحيوا أمرنا

أن الأئمة من أهل البيت(ع) عندما يقومون بحمل القرآن، ثم يقومون بما دعا به سيدهم أمير المؤمنين(ع) بأن ينـزلوا منازل القرآن أو أحسن منازل القرآن، ومنها منـزلة حمل القرآن، والتي قلنا أنها الدعوة إلى القرآن والدعوة به، إنما لا بد أن يدعوا إلى أنفسهم كونهم أعدال الكتاب وكونهم ينـزلون بأحسن منازل القرآن. وهذا الذي كان من الأحاديث التي مرت والتي تدل على مركزيتهم في هذا الأمر، حتى وصف الذي يبتعد عنهم وعن الأخذ منهم بالضلال وحتى يقول أنهم هم شروط تحقق كلمة لا إله إلا اللّه والهدف النهائي منها وهم الأمان من عذاب اللّه والطريق إلى مرضاته، أي أنهم يقومون بعملية الدعوة هذه.

ولكن هل اكتفوا بذلك؟ هل منـزلة حمل القرآن وما يوازيها من الدعوة إليهم تتوقف عندهم؟

---

[29] التوحيد، الصدوق، ص 18

لا شك في أن الجواب المنطقي على هذا هو أن أتباع مدرستهم إذا أرادوا أن يدعوا الناس إليهم فلا بد أن يقوموا بذلك بتوجيه الناس إلى طريقتهم وإلى دورهم في الإسلام وإلى الأحكام التي أخرجوها للناس طيلة المدة التي عاشوها من بعد وفاة رسول اللّه(ص) وحتى غيبة الإمام الثاني عشر من العترة المباركة، وهي المدة التي لم تتسن لأي مدرسة أخرى تلقت، من خلال هذه السلسلة الذهبية، عن رسول اللّه(ص)؛ هذا عقلاً. وأما نقلاً، فإنهم(ع) دعوا شيعتهم إلى أن يدعوا الناس إليهم وذلك بدعوتهم إلى إحياء أمرهم(ع).

فقد روي عن الإمام الرضا(ع) أنه قال: ‹‹**رحم الله عبداً أحيا أمرنا**›› فسأله الراوي: وكيف يحيي أمركم؟ قال(ع): ‹‹**يتعلم علومنا ويعلمها الناس، فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا**››[30].

إن هذه الكلمة واضحة في دعوة الناس إلى أن يدعوا الآخرين إلى أهل البيت(ع). فإنه عندما يقول يتعلم علومنا ويعلمها الناس، أي يقوم بما قلناه بمنـزلة التدبر ثم منـزلة حمل هذا العلم إلى الناس، كأن الإمام(ع) يقول كلمة توازي كلمة جده النبي(ص) ‹‹**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**›› كأنه يقول "خيركم من تعلم علومنا وعلمها". هذه هي الدعوة إلى أئمة العترة المباركة.

وأما الدعوة بهم فإنها تكون بمحاسن كلامهم التي يتعلمها من يتبعهم ثم يعلمها الناس. بعبارة أخرى، إن ما قلناه من أن حمل القرآن هو الدعوة إلى القرآن والدعوة به ينطبق هنا على أهل البيت(ع) بأن تكون الدعوة إليهم وبهم، أي إليهم كشخوص يمثلون المرجع المعصوم عن رسول اللّه(ص)، ثم الدعوة بهم بمحاسن كلامهم والتي إذا سمعها الناس وتعلموها فإنهم سيتبعونهم لا محالة، إلا من كان في قلبه مرض أو كان على قلبه أقفال، وهذا حاله كحال الذي لا يتدبر ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾ محمد:24.

إن الدعوة إلى إحياء أمرهم(ع) فيها أمور، ولكن أهم ما فيها أمران:

---

[30] عيون أخبار الرضا، ج 1، ص 307.

الأول – هو كيفية هذه الدعوة، وما يندرج تحتها من اتجاهي الإفراط والتفريط، أو اتجاهي الغلو والتضييع.

الثاني – هو العلاقة بين إحياء أمرهم، أي الدعوة إليهم، وتهمة الطائفية.

وقبل أن نتناول الأول وهو الأهم هنا، نتناول الثاني لأنه يمس الجانب الاجتماعي وحتى النفسي عند البعض من أتباع أهل البيت(ع) ومن غيرهم.

أقول: كيف يمكن إحياء أمرهم بدون الدخول بادئ ذي بدء في إثبات حق الأئمة(ع) في الولاية العامة على المسلمين، ثم تحليل ما جرى بعد وفاة الرسول(ص) من أمور تناقض ما تدعيه الشيعة من تخطيطه(ص) للأمة بناء على أوامر اللّه تعالى؟

كيف يمكن تجنب التعرض للصحابة الذين منعوا أهل البيت(ع) من تبوّء مناصبهم والصحابة الذين ساهموا في ذلك والصحابة الذين قعدوا عن نصرتهم(ع)؟

وإذا كان بالإمكان عمل ذلك بشرح حقيقة أهل البيت(ع) ووصية الرسول(ص) بهم وعليهم وإلقاء الضوء على شخصياتهم المقدسة من خلال حياتهم الشريفة دون التعرض إلى قضية الحكم، فبماذا يمكن للداعية أن يجيب من يسأل متعجباً من هذا التناقض العجيب بين أوامر الرسول(ص) وواقع الحال؟

وإذا تمسك الداعية بعدم الجواب ملتجئاً إلى الآية الكريمة: ﴿**تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون**﴾ البقرة:141، فبماذا سيجيب السائل الذي يدعوه إلى مذهب أهل البيت(ع) عن الافتراءات في الكتب التي تطبع كل ساعة لتكرّه الناس في هذا المذهب وتبعدهم عنه؟

لا بد وأن يأتي الظرف الذي يوجب التعرض إلى مثل هذه الإشكالات، وهنا ستبدأ موجة جديدة من الاتهامات، أولاً الهجوم على الشيعة بسبب عقائدهم المنحرفة، كما يفترون، وعندما يدافعون عن أنفسهم ضد هذا الهجوم يبدأ الهجوم عليهم مرة أخرى بسبب طائفيتهم لأنهم دافعوا عن أنفسهم!

إن دعوة الناس إلى أهل البيت(ع) – أي «**أحيوا أمرنا، رحم الله من أحيا أمرنا**» – ليست دعوة طائفية وذلك: أولاً لأن الدعوة إلى فكر وعقيدة هي محاولة إقناع لنيل مكسب دنيوي أو أخروي أو الاثنين معاً، وفي حالة التشيع فإن المكسب الدنيوي يكاد

يكون معدوماً، لأن الدنيا لم تزل مدبرة عن الشيعة منذ رحيل رسول اللّه(ص) وإلى هذا اليوم، أما الأخروي فمضمون بدعاء الإمام ‹‹**رحم الله من أحيا أمرنا**››؛ فهل يزهد عاقل في نيل الرحمة الإلهية لأجل شبهات يثيرها الطائفيون أو الجاهلون؟

ثانياً الدعوة تكون طائفية إذا كانت لأجل الانضمام إلى الطائفة بما هي طائفة وليست عقيدة وفكر، كأن تكون إذا دعوت غير الشيعي لأن يؤمن ويلتزم بولاية علي وأولاده(ع) بغض النظر عن التزامه بالصلاة مثلاً، لأن ولاية علي(ع) دون الصلاة وغيرها تفرغ الولاية من محتواها الحقيقي.

ثالثاً ليست هذه الدعوة طائفية لأن الذين يُحيا أمرهم هم أصحاب منهج أبعد ما يكون عن الطائفية... خذ مثلاً نهج علي(ع) مع من منعوه من تسلم مقاليد الحكم بعد وفاة النبي(ص) وما زالوا يمنعونه وهو يقيم عليهم الحجة كي لا يضيع الحق من جانب، ويقف منهم موقف الناصح والأخ المخلص الذي لا يتأخر عن نصيحة أو يتلكأ عن مبادرة لإحقاق حق أو إزهاق باطل من جانب آخر.

إن المواقف الكثيرة للأئمة(ع) تدل على هذا المنهج. منها ما يخص يوم السقيفة حيث بويع أبو بكر خليفة، وكيف أن علياً(ع) بايع بعد وفاة الزهراء(ع) وآزر أبا بكر في عمليات بسط وتثبيت سلطان الإسلام في الجزيرة العربية. ومنها يوم ردّ أبا سفيان الذي جاء إليه والعباس يعرض عليه النصر لقتال أبي بكر ومن معه فلو أنه(ع) كان صاحب دعوة طائفية لربما كان سيرضى بدعوة أبي سفيان كي يعيد الأمر إلى نصابه بغض النظر عما يحل بالمسلمين. ومنها كيف أنه صبر وسار مع الخليفة الثاني عمر في خلافته ولم يبخل عليه بنصح، بل وبإنقاذ الموقف في أحيان كثيرة كان علي(ع) فيها هو المرجع، حتى أنه نصحه بعدم الذهاب على رأس الجيش لفتح العراق وفارس حفاظاً عليه، وهو موقف لو كان غيره لربما نصحه على العكس من ذلك ليخلو له الجو في حالة مقتله المحتمل.

أيضاً يوم الشورى حيث رفض(ع)، حفاظاً على المصلحة الإسلامية، أن يبايع إلا على الكتاب والسنة فحسب وليس على سيرة من سبقه لعدم حجيتها عنده، في حين لو كان ذا منهج فئوي ضيق لكان وافق على الشرط وجميع الشروط إلى أن يبايع بالخلافة ثم له أن يفعل ما يشاء بعد ذلك. ثم كان موقفه من الخليفة الثالث عثمان وكيف كان ينصحه وكان السفير بينه وبين الناس محاولة منه لحل المشكلة التي سمّوها الفتنة.

ووقف الأئمة الآخرون مواقف تتبع ذات النهج التوحيدي، كموقف الإمام الحسن(ع) وصلحه مع معاوية لحقن الدماء، والتي كان من نتيجتها أن تعرض إلى الظلم حتى من بعض الشيعة ناهيك عن المؤرخين والمستشرقين، كما وصف السيد شرف الدين بالقول: "فلما حان الوقت كانت شهادة كربلاء حسنية قبل أن تكون حسينية، وكان يوم ساباط – وهو مركز قيادة الإمام الحسن في المدائن – أعرق بمعاني التضحية من يوم الطف لدى أولي الألباب ممن تعمق، لأن الحسن(ع) أعطي من البطولة دور الصابر على احتمال المكاره في صورة مستكين قاعد... وكانت شهادة الطف شهادة حسنية أولاً، وحسينية ثانياً، لأن الحسن أنضج نتائجها ومهد أسبابها... إلى آخر كلامه"[31]. وموقف الإمام السجاد(ع) وهو يدعو بدعاء أهل الثغور لنفس الجيش الذي ذبح أباه وأخوته وأبناء عمومته وفعل بأهله الأفاعيل، وذلك شيء كبير لأنه كان سيكون عصياً على غيره لاسيما وهو يعلم أن دعاءه مستجاب لأنه من تلك البيوت التي أذن اللّه أن ترفع ويذكر فيها اسمه. وتدخل الإمام الباقر(ع) وحل الإشكال الاقتصادي الذي وقعت فيه دولة بني أمية حين تعرضت للابتزاز من دولة الروم التي كانت هي التي تقوم بصك النقود المعدنية للمسلمين.

رابعاً هذه الدعوة ليست طائفية إذا ما كانت في إطار منهاج متكامل لضرب الفجوة الطائفية، لأن معالجتها بتناسي أساسيات الخلافات محاولة فاشلة عقلاً ومشاهدة.

خامساً هذه الدعوة ليست طائفية وذلك لأنها من قِبل أناس – أي أتباع أهل البيت – أثبتوا على مرور الأزمان أنهم أبعد عن الطائفية من غيرهم... من ذلك ما يمس الجانب الفكري خصوصاً: إحتواء الدراسات الشيعية على طروحات ومقارنات وإشارات إلى الفقه السني والفكر السني والآراء السنية في حين تخلو الدراسات السنية خلواً تاماً من أي إشارة إلى الفكر أو الفقه الشيعي. واحتواء المكتبات الشيعية على كتب السنة في حين لا تحتوي مكتبات السنة على كتب الشيعة. حتى محلات بيع الكتب الشيعية تبيع كتباً دينية وتسجيلات لوعاظ من السنة في حين ذلك لا يحصل بالمقابل.

أما الطريقة المعاكسة، أي الإحجام عن طرح المعتقد، فإن الموقف الانسحابي للشيعة والخوف من مواجهة الآخرين بمشكلتهم القائمة على أساس طائفي بسبب الاضطهاد الطائفي تمثل مفارقة هي الأخرى: حيث أن الشيعة يخافون من طرح قضية المعتقد في حين

---

[31] تقديمه لكتاب صلح الحسن للشيخ راضي آل ياسين

أن غيرهم لا يخاف ذلك مع أن الشيعة مأمورون بما عندهم من نصوص (والتي تجد مثيلاتها أو ما يصدقها عند غيرهم) مأمورون باتباع أشخاص معينين لا يمكن الحياد عنهم مطلقاً، أما غيرهم فلا يوجد نص على أحد بل إن كل من تربع على سدة الحكم وبأي وسيلة يجب عدم الخروج عنه، اللهم إلا إذا جاء بكفر بواح أي صريح. ما أعنيه هنا هو أن السني ما كان ليجد غضاضة لو أن المسلمين كانوا قد استخلفوا علي بن أبي طالب(ع) بعد النبي(ص) مباشرة ثم استخلفوا أولاده بدءاً بالحسن(ع)، في حين أن الشيعي يرفض بيعة من تقدم على علي(ع) وبيعة بني أمية والعباس وغيرهم لأنهم غير منصوص عليهم، وهذا يعني أن القضية تسمح بالتغاضي عنها عند السني ولكنها قضية حساسة جداً عند الشيعي، مع هذا فدائماً ما يتقدم الشيعي بخطوات نحو الآخر لا العكس.

وبالجملة فإن على الشيعي أن يعي بأن الدعوة إلى أهل البيت(ع) هي من أفضل الطرق، إن لم تكن أفضلها، لحل الإشكالات الطائفية، وعلى المدى البعيد، لأن تعريف التشيع كفيل بإزالة غيوم الضغينة والحقد والشك المؤسسة على التجهيل.

طريقان للدعوة أو لإحياء أمرهم

هناك طريقان للدعوة إلى أي شيء أو منهج أو فكرة أو خُلق، هما:

الأول – المنهج الناطق أو الطريق الناطق.

الثاني – الطريق الصامت.

أما الطريق الناطق فهو أن يتحدث الداعية بما عنده من معرفة أو فكر أو معلومات، مما جاء بتفسير آية أو حديث أو رواية تاريخية أو غير ذلك، وكذا الأمر فيما سوى ذلك من أمور. إن هذه الطريقة طريقة تعطي المعلومة بشكل محدد لا شك في ذلك، وتعطي هذه المعلومة بشكلها الكامل، بمعنى أن حديثاً للنبي(ص) من سطرين أو ثلاثة يعطى كما هو، أو خطبة لأمير المؤمنين(ع) على طولها تعطى كما هي، أو غير ذلك. إلا أنها تبقى في إطارها النظري بمعنى أن المتلقي لا يرى أمامه هذه الفكرة أو هذا الخلق قد عاش في الحياة أمامه، لاسيما إذا كانت هذه الأمور فيما مضى من التاريخ، ومنها ما نحن بصدده من إحياء أمر الأئمة من أهل البيت(ع) وقد مضوا قبل قرون كثيرة.

أما الطريقة الثانية، وهي الطريقة الصامتة، فهي الطريقة التي لا يحتاج الداعية فيها أن يوصل الآية القرآنية أو تفسيرها أو حديثاً عنها أو عن غيرها أو خلقاً أو حادثة، وإنما يجسد المعاني التي فيها في شخصه وفي تصرفاته وفي تعاملاته مع الآخرين. إن هذه الطريقة، وإن خلت من إعطاء المعلومة كاملة بنصها كما في الطريقة الأولى، إلا أن المتلقي يراها متجسدة في شخص الداعية، وهذا يجعله يعتقد ويقتنع بشكل تلقائي بأنه من الممكن أن يجسدها هو أيضاً.

مهما قلت لشخص أن يتبع النبي(ص) في خلقه وسيرته وهديه، بل إن المسلمين يقرأون القرآن وهو يقول: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً**﴾ الأحزاب:21، إلا أنها تبقى في الإطار النظري على الرغم من أن اللّه تعالى يقول في هذه الآية أن لا تضعوا لأنفسكم سقفاً وإنما السقف لطموحاتكم هو سيد البشر(ص)، والذي نحن نعلم جميعاً بأنه من غير الممكن أن يتسنى لأحد أن يفعل ما كان يفعله النبي(ص)، حتى أن أمير المؤمنين(ع) عندما روجع في خشونة ملبسه وجشوبة مأكله كان يقول أن النبي(ص) كان يأكل أيبس من ذلك ويلبس أخشن من ذلك[32]، وهذا علي(ع) في اتباعه رسول اللّه(ص) «**إتباع الفصيل أثر أمه**»[33] كما قال. مع هذا فإن القرآن أراد لهذا السقف الأعلى أن يكون نصب أعين الناس. وعلى الرغم من ذلك فإن الناس فشلوا فيه كثيراً، ربما لأن هذا التجسيد لا يرونه كثيراً في الحياة.

وبغض النظر عن هذا وذاك، فإننا إذا أردنا أن نقول ما نعتقده بإيجاز من منهج هذين الطريقين فإننا نقول بأنه فيما يخص الطريق الأول فإن الأئمة(ع) قد كفونا مؤونة البحث حيث ورد عن الإمام الرضا(ع): «**رحم الله عبداً أحيا أمرنا**» قيل وكيف يحيي أمركم؟ قال: «**يتعلم علومنا ويعلمها الناس، فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا**»[34]. وهذا يعني بأن من أنجع الوسائل لإحياء أمرهم(ع) هو تعريف الناس بما قالوه هم لأن هذا

---

[32] مكارم الأخلاق، ص 159

[33] نهج البلاغة، الخطبة 192 (القاصعة)

[34] بحار الأنوار، ج 2، ص 29، حديث 13

هو الذي يعلن عن الشخصية فإن ‹‹**المرء مخبوء تحت لسانه**›› كما ورد[35] وبالتالي فإن كلامهم يدل عليهم.

أما فيما يخص الطريق الآخر، وهو طريق التجسيد، أي الطريق الصامت، فقد ورد عنهم(ع) الحديث: ‹‹**كونوا دعاة إلى أنفسكم بغير ألسنتكم**››[36] (أي لما تعتقدونه من عقائد فينا أهل البيت)، أو ‹‹**كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم**››[37] (أي تدعون الناس لما تعتقدونه فينا)، فإن ذلك، كما قلنا أعلاه، مدعاة لأن يقنع المتلقي بأن مثل هذا الخلق ومثل هذه السيرة أو الهدي يمكن أن يتّبع لأنه تجسد فعلاً في شخص الداعية الذي يدعو إليه.

ولا شك في أن الداعية من الممكن، بل ربما ينبغي له، أن يسلك الطريقين معاً حتى يحقق ما يمكن تحقيقه من خلالهما معاً. فإنه إن رأى المتلقي أن هذا الذي يلقي إليه فكرة أو رواية أو شيئاً من ذلك قد عاشها تطبيقاً في حياته، فإن ذلك سيكون أدعى للقبول وأدعى للاتباع لأنه سيكون أكثر صدقاً في طرحه.

إن من دواعي انفراط الناس عن الدعاة، لاسيما من طلبة العلوم أو العلماء أو المشتغلين بالعلوم، هو هذا الفصل الذي يرونه ما بين ما يدعون إليه بألسنتهم وما يعيشونه في حياتهم. أكيد أن هذا يخص البعض لا الكل، وحالهم كحال غيرهم من الذين لا يجسدون ما يقولون في حياتهم، إلا أن الأثر السلبي ها هنا أكثر بكثير لأن ما يشتغلون به يمس بالصميم علاقة الناس بربهم وعلاقتهم ببعضهم وبالمجتمع بشكل عام.

الصورة الحقيقية للشيعة

إن هذا يقودنا إلى ما ينبغي أن تكون عليه صورة الذي يريد أن ينـزل أهل البيت(ع) بمنـزلة حمل القرآن، وهي منـزلة أحيوا أمرنا. صحيح أنه ليس جميع أتباع أهل البيت(ع) سيكونون دعاة، ولا أكثرهم، بل ربما لا يتأتى ذلك إلا للقليل منهم، وهو المنطقي والمشاهد من حال البشر عموماً لأن ذلك يحتاج إلى بعض الملكات وإلى مزاج معين

---

[35] نهج البلاغة، ج 4، الكلمة 148
[36] الكافي، ج 2، ص 77
[37] نفسه، ص 78

وإلى ظروف مؤاتية، إضافة إلى الوعي بخطورة الأمر وبضرورته. إلا أن الشخص العادي إذا استطاع أن يجسد الفكرة أو الخلق أو الهدي من الممكن أن يكون تأثيره على الآخر تأثيراً دعوياً أبلغ من تأثير الداعية الذي يمتهن ذلك أو الذي يعتقد أنه يقوم بذلك. وعلى أية حال فقد روي عن الأئمة(ع) صفات ما يجب أن يكون عليه شيعتهم، وبالتالي أعطوا الصورة التي يجب أن يكون عليها الداعية من شيعتهم.

فقد ورد عن الإمام السجاد(ع) القول: ‹‹**أحبونا حب الإسلام**››[38]. وإذا أردنا أن نلخص ماذا يعني بحب الإسلام، فيمكن القول بأنه الحب الذي لا يخرجهم عن إطار العبودية للّه أولاً وعن إطار الإمامة ثانياً والتي هي إمامة علم وحكمة وأخلاق، بمعنى أن لا يكون ذلك الحب مركزاً على جانب واحد كما في جانب الخلافة أو ما جرى فيها، أو في جانب عاطفي، أو غير ذلك.

روي عن الإمام الباقر(ع)[39] وهو يخاطب جابر الجعفي: ‹‹**يا جابر، أيكتفي من ينتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت؟ فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يعرفون يا جابر إلا بالتواضع والتخشّع والأمانة وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبر بالوالدين والتعهّد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة وللغارمين وللأيتام، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن، وكفِّ الألسن عن الناس إلا من خير، وكانوا أمناء عشائرهم في الأشياء**››.

وهذه هي الأخلاق الإسلامية للشيعة، والتي جسدها الشيعة في وقت ما وذلك لقول الإمام(ع) ‹‹**وما كانوا يعرفون إلا...**››، أي أنه يصف جماعات جسدت التشيع بتواضعهم وتخشعهم وأداء الأمانة والمحافظة على العبادات وحسن العلاقة مع الناس.

ويضيف الإمام(ع)[40]: ‹‹**حسب الرجل أن يقول أحب علياً وأتولاه ثم لا يكون مع ذلك فعّالاً! فلو قال إني أحب رسول الله، فرسول الله خير من عليّ، ثم لا يتبع سيرته ولا يعمل**

---

[38] بحار الأنوار، ج 46، باب 5، رواية 58
[39] نفسه، ج 67، باب 47، رواية 4
[40] الكافي، ج 2، ص 74

بسنته ما نفعه حبّه شيئاً. فاتقوا الله واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحبُّ العباد إلى الله عز وجل وأكرمهم عليه أتقاهم وأعملهم بطاعته. يا جابر والله ما يتقرب إلى الله تبارك وتعالى إلا بالطاعة...›› هنا يضع الإمام(ع) من يدعي حب علي وولايته في محاكمة أنه إذا لم يتبعه فهو غير صادق في دعواه الحب والولاية لأنه هو أو غيره من المسلمين إن ادعى حب رسول اللّه(ص) ثم لم يتبع سيرته، أي هديه وخلقه ولا يعمل بسننته أي بشرائعه، فإن ذلك لا ينفعه شيئاً، لأنه لا توجد بين اللّه وبين أحد قرابة.

ويكمل الإمام(ع): ‹‹**من كان لله مطيعاً فهو لنا ولي، ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدوّ، وما تنال ولايتنا إلا بالعمل والورع عن محارم الله**››. وهنا يحذر الإمام(ع) من يدعي ولايته وولاية آبائه وأبنائه الطاهرين أن ذلك له ميزان الطاعة بحيث لو كان الغالب عليه العصيان فكان للّه عاصياً فهو عدو لهم، ليعلن أن الولاية لا تنال إلا بالعمل الصالح والورع عن محارم اللّه.

وفي حديث آخر عن الإمام الباقر(ع) يصف أولياء أهل البيت أولياء العترة المباركة التي يدعونا أمير المؤمنين(ع) بأن ننـزلها بأحسن منازل القرآن فيقول(ع)[41] : ‹‹**إنما شيعة عليّ المتباذلون في ولايتنا، المتحابون في مودتنا، المتزاورون لإحياء دين الله، الذين إذا غضبوا لم يظلموا، وإذا رضوا لم يسرفوا، بركة على من جاوروا، سلم لمن خالطوا**››.

قائمة بأوصاف الشيعة حسب الباقر(ع)

تقوى اللّه: وفيها يتحقق أحد شروط صدق ادعاء الولاية ‹‹**ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدوّ... وما تنال ولايتنا إلا بالورع عن محارم الله**››، لأن تقوى اللّه هي التي تصد عن المعاصي.

طاعته: فيها يتحقق شرط آخر من شروط صدق ادعاء الولاية ‹‹**من كان لله مطيعاً فهو لنا ولي**››.

---

[41] بحار الأنوار، ج 78، ص 187

التواضع: وهي الحالة النفسية والشكل الخارجي أيضاً لطريقة التعامل مع الأمور ومن ضمنها ما ذكر من هذه الصفات.

التخشع: وهي الحالة النفسية في العبادة وذكر اللّه مما هو مذكور في هذه الصفات.

ثم شرط آخر من شروط صدق ادعاء الولاية «**وما تنال ولايتنا إلى بالعمل**»، أي العمل، وهذا يصدقه الصفات التالية:

الأمانة

كثرة ذكر اللّه

الصوم

الصلاة

البر بالوالدين

التعهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة وللغارمين وللأيتام

صدق الحديث

تلاوة القرآن

كفِّ الألسن عن الناس إلا من خير

أمناء عشائرهم في الأشياء: وهذه تكون من الثقة العالية للناس بهم بحيث يضعونهم في هذه المنـزلة، وهي تكون من طريقة تعاملهم مع الناس وعملهم الدؤوب في خدمتهم.

المتباذلون في ولايتنا: بحيث يقوم الموالي بالأعمال الواردة أعلاه لأولياء العترة، وذلك احتساباً للأجر من اللّه تعالى حيث يراه يعمل من أجل الآخرين تقديراً لولايتهم للثقل الأصغر.

المتحابون في مودتنا: أي الحب الحقيقي، لا الادعاءات الفارغة والمجاملات الاجتماعية ثم إذا جد الجد ذهب كل في طريق أنانيته ومصالحه.

المتزاورون لإحياء دين اللّه: بحيث تكون أهداف الزيارة هي لإحياء التوحيد والقرآن والنبوة والتذكير بالآخرة، وهذا يكون بإحياء أمرهم عليهم السلام، فإنهم الذين نصبهم النبي(ص) علماً ودليلاً على هذه العقائد جميعاً.

الذين إذا غضبوا لم يظلموا: فلا يفترون أو يكذبون أو يعتدون أو يبالغون فينـزلون بمن غضبوا عليهم إلى مراتب الشياطين!

إذا رضوا لم يسرفوا: فلا يبالغون بحيث يصعدون بمن رضوا عنهم إلى مراتب العصمة!

بركة على من جاوروا: فيما يشيعونه من نور وحب وكرم ورعاية وصبر.

سلم لمن خالطوا: فلا يصدر منهم عدوان بيد ولا لسان، بل هم الذين يصلحون بين الناس.

فلينظر من يدعي ولاية العترة النبوية المباركة إلى هذه الصفات من أجل معرفة مدى نجاحه في كل منها، ثم ليسعَ للزيادة والتطور في هذه الصفات المختلفة، بعدها سيشعر بالصدق عندما يدعى ولاية علي وآل علي(ع)، وهو ما سيقوده إلى خير الدنيا والآخرة.

وعن الإمام الصادق(ع) في وصيته لشيعة أهل البيت(ع) يقول[42]: ‹‹**أوصيكم بتقوى الله، والورع في دينكم، والاجتهاد لله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة إلى من ائتمنكم من بر أو فاجر، وطول السجود، وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد(ص). صلّوا في عشائرهم، واشهدوا جنائزهم، وعودوا مرضاهم، وأدّوا حقوقهم، فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق في حديثه وأدى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل هذا شيعيّ فيسرّني ذلك... اتّقوا الله وكونوا زيناً ولا تكونوا شيناً، جُرّوا إلينا كل مودّة وادفعوا عنا كل قبيح، فإنه ما قيل فينا من حسن فنحن أهله، وما قيل فينا من سوء فما نحن كذلك... لنا حقّ في كتاب الله، وقرابة من رسول الله، وتطهير من الله لا يدّعيه أحد غيرنا إلا كذّاب**››.

وهنا وصية الإمام(ع) واضحة في أن يجسد الشيعي ولاية أهل البيت(ع) في نفسه وذلك في أشياء كطول السجود وتقوى اللّه، ويجسدها في علاقته مع الناس بأشياء مثل أداء الأمانة، ويجسدها مع من يختلفون معه في المذهب من المسلمين في أشياء مثل عيادة المرضى وأداء الحقوق. وإن مثل هذه السيرة وهذا الخلق مع الآخرين من شأنه أن يأتي بالمديح

[42] تحف العقول، ص 362

والثناء لمن يأتم بهم هذا الإنسان، أي الأئمة(ع)، فيقول الإمام هنا بأن هذا إذا قيل عنه أنه شيعي فإنه يسره ذلك. ثم ينبه بكلمة ‹‹**اتقوا الله**›› إلى الطلب بأن يكونوا زيناً عليهم ولا يكونوا شيناً بأفعالهم، وبأن يجرّوا للأئمة(ع) كل محبة ويبعدوا عنهم كل قبيح لأنهم أهل لكل مقال حسن وهم معصومون ومطهرون عن كل قبيح.

قائمة بأوصاف الشيعة حسب الصادق(ع)

تقوى اللّه

الورع في دينكم

الاجتهاد للّه

صدق الحديث: حتى في أبسط الأمور، فلا ينبغي أن يكذب من يشايع الصادق(ع) حتى في دعوى المشاعر والمحبة والاشتياق وما إلى ذلك.

أداء الأمانة إلى من ائتمنكم من بر أو فاجر: فلا يقول بأن هذا كافر وبالتالي أمواله مباحة!

طول السجود: ففيه أقرب ما يكون العبد من ربه، فلعله يزداد تقوى وخشوعاً.

حسن الجوار

ويعقب الإمام(ع): ‹‹**فبهذا جاء محمد**(ص)››.

صلّوا في عشائرهم: أي المخالفين لكم في المذهب، فلا تجعلوا الاختلافات المذهبية عقدة نفسية بحيث لا تصلون في مساجدهم ومرابعهم.

إشهدوا جنائزهم: لا شك في أن الذي يشهد الجنازة يدعو لصاحبها، لا كما هو الحاصل من هذا التكفير للمسلمين أحدهم للآخر، هذا يخرج من الجنة كما يشاء وهذا يدخل النار كما يشاء، متدخلين – في جرأة، بل وقاحة على اللّه تعالى – بشؤونه عزّ وجلّ.

عودوا مرضاهم: وهذه أيضاً، يدعو العائد للمريض بالصحة والأجر والخير.

أدّوا حقوقهم: وأداء الأمانات والحقوق مما أمر به القرآن بلا لبس.

إن الالتزام بهذه الصفات، أي العمل بها ومراقبتها، ستدخل السرور على الإمام(ع) ‹‹**فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق في حديثه وأدى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل هذا شيعيّ فيسرني ذلك**››.

إتقوا اللّه وكونوا زيناً ولا تكونوا شيناً: وهذه أهم ما تكون في الصورة التي يعطيها الموالي للآخرين من المسلمين وغيرهم.

جرّوا إلينا كل مودّة وادفعوا عنا كل قبيح: ولا شك في أنه يعني من يقومون بأعمال لا يلتفتون إلى أنها لا تجر المودة بل تأتي بالقبيح، بل من يقومون بأعمال يحسبون أنها حسنة ولكن ﴿**ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون**﴾ البقرة:12، لأنه لا يوجد شيعي واحد لا يريد – في نيته – أن يجرّ المودة لأهل البيت(ع) ويدفع عنهم كل قبيح، فإن لم تكن كما قلنا لكانت نصيحة الإمام(ع) لغواً.

وهكذا نجد أن هذه الأوصاف أرادها الأئمة(ع) أن تعم أولياءهم فتجسد ما بثوه في الأمة من الخلق والسيرة والهدي التي كان عليها جدهم رسول اللّه(ص). ولعلنا نستطيع أن نلحظ في هذه الوصايا أن الأئمة(ع) ركزوا ووضعوا المساحة الأوسع بشكل واضح للدعوة الصامتة، التي سميناها الصامتة وذلك بالتخلق بهذه الأخلاق مع النفس ومع اللّه تعالى ومع الآخرين، في حين لم يذكروا كثيراً عن الكلام بالمعارف والعلوم والأفكار، ربما لأن ذلك، كما قلنا، يحتاج إلى ملكة وتحصيل ومزاج وظروف مناسبة، ولكن بكل تأكيد لأنه كما نعتقد أقل تأثيراً من الدعوة الصامتة. أو كما يقال "لسان الحال أبلغ من لسان المقال".

الإفراط والتفريط

لا شك في أن الطريقة الوسطى هي الأكثر نجاحاً في تحقيق الأهداف من غيرها. فإن الناس تختلف أمزجتهم في كيفية تفاعلهم مع الأمور سواء الدينية أو غيرها. ولذلك فإن الجماعة التي تستمع إلى موعظة لا تخرج وتتصرف بنفس رد الفعل، فإن بعضها يأخذ هذه الموعظة ويفكر فيها ثم يتبعها ويجسدها بشكل كامل، في حين تجد غيره ربما لم يهتم بها مطلقاً، وثالثاً يصنع شيئاً بين هذا وذاك. وقيل الكثير عن أن الإسلام يمثل المنهج الوسطي حيث صار وسطاً بين الإيغال بالمادية في اليهودية أو غيرها من المناهج والأديان وبين الإيغال في الروحانية كما قيل عن المسيحية، بالطبع ليس كما تمارس لأن الناس في كل العالم صارت المادية المظهر الأكثر وضوحاً في حياته. ونفس الشيء يقال عن ولاية أهل البيت(ع)، فقد حذروا من الإفراط كما حذروا من التفريط. فإنهم كما حذروا من

التفريط في أمرهم ومنـزلتهم ومكانتهم وبأن الذي يضيع حقهم إنما يؤذي نفسه، بل لقد حذر من ذلك رسول اللّه(ص) كما في حديث السفينة[43] وغير ذلك، فإنهم أيضاً حذروا من الإفراط في النظرة إليهم بما ليس فيهم. فقد اشتهر عن أمير المؤمنين(ع) القول[44]: ‹‹**هلك فيّ رجلان: محب غالٍ، ومبغض قالٍ**››. أي أن الذي يحبه حباً يغالي فيه بأن يرفعه فوق المنـزلة الصحيحة التي له(ع) هو هالك في ميزان اللّه تعالى كما سيهلك الذي يبغضه ويتركه ويشذ عنه بعيداً.

إن مسألة الإفراط والتفريط هي مركزية في قضية إحياء أمرهم(ع)، ذلك لأن التفريط في منازلهم سوف لن يعطي الصورة الحقيقية لما هم فيه. ولعل من أبلغ مصاديق التفريط هذا هو ما نراه من نظرة أهل السنة من المسلمين إلى أئمة أهل البيت(ع) حيث ينفون عنهم الإمامة الواجبة التي يجب على المسلمين أن يأخذوا بها، وينفون عنهم العصمة، وهذه تعد عندهم من الأمور التي يقومون لها ولا يقعدون لأنها حسب ما قيل لهم أنها لا تجوز إلا للأنبياء(ع) وبالتالي فإن من يثبت أو يدعي العصمة لأئمة العترة المباركة إنما يصعد بهم إلى منازل الأنبياء(ع) وهذا ما يجعلهم ينكمشون كثيراً عن أي دعوة في هذا المجال. أقول كما أن التفريط مرفوض في هذا فإن الإفراط مرفوض هو الآخر لأنه سيؤدي إلى ذلك الانكماش وإلى ردود فعل سلبية مما يضيع الجهد ولا يحقق الهدف والذي هو فتح الباب أمام هذا الشخص المدعو إلى ولاية أهل البيت(ع) لما فيه سعادته وسعادة الداعية لتحقيق مرضاة اللّه حيث ينال دعوة الإمام(ع) ‹‹**رحم الله من أحيا أمرنا**››.

إننا عندما نتحدث عن هذا الإفراط، أو الذي سماه أمير المؤمنين(ع) بالغلو، لا نتحدث عن شيء ذكر في التاريخ ولا نجد له مصداقاً اليوم، بل إننا نعيش ونشاهد مثل مظاهر الغلو هذه، بأشكال مختلفة. بل لعلّ بعض مظاهر هذا الغلو، أو بعض المظاهر التي يلمس الآخرون منها أنها من الغلو، من اختراعات الأزمنة المتأخرة لا أزمنة الغلو

---

[43] قال رسول اللّه(ص): ‹‹مثل أهل بيتي كسفينة نوح – من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق››؛ رواه الحاكم في المستدرك، ج 2، ص 343، و الهيثمي في مجمع الزوائد، ج 9، ص 168، والطبراني في المعجم الأوسط، ج 4، ص 10، وغيرهم.

[44] نهج البلاغة، ج 4، الكلمة 117

الأولى. فإن من أخطر ما كان من الغلو في غابر الدهر إنزال الأئمة(ع) منـزلة تضاهي منـزلة الربوبية نعوذ باللّه من ذلك، وقد عانى من ذلك العديد من الأئمة(ع) حتى روي من عهد أمير المؤمنين(ع)، ثم بعد ذلك في عهد الصادق(ع) ووصولاً إلى زمان الغيبة غيبة الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن سلام اللّه تعالى عليه.

ففي جواب الإمام المهدي(ع) إلى رسالة مسائل بعث بها محمد بن علي بن هلال الكرخي رواها نائبه الثالث أبو القاسم الحسين بن روح(رض) قال(ع)[45]: ‹‹**يا محمّد بن عليّ** – أي الكرخي – **تعالى الله وجل عما يصفون، سبحانه وبحمده، ليس نحن شركاءه في علمه ولا في قدرته، بل لا يعلم الغيب غيره كما قال في محكم كتابه تباركت أسماؤه: ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾[46]؛ وأنا وجميع آبائي من الأولين: آدم ونوح وإبراهيم وموسى، وغيرهم من النبيّين، ومن الآخرين محمّد رسول الله وعليّ بن أبي طالب وغيرهم من مضى من الأئمة(ص) أجمعين، إلى مبلغ أيامي ومنتهى عصري، عبيد الله عزّ وجلّ...**››

ثم يقول(ع): ‹‹**يا محمّد بن علّي، قد آذانا جهلاء الشيعة وحمقاهم، ومن دينه جناح البعوضة أرجح منه! فأشهد الله الذي لا إله إلا هو وكفى به شهيداً، ورسوله محمّد(ص)، وملائكته وأنبياءه وأولياءه(ع)، وأشهدك وأشهد كل من سمع كتابي هذا، أني بريء إلى الله وإلى رسوله ممن يقول إنا نعلم الغيب ونشاركه في ملكه أو يحلّنا محلاً سوى المحلّ الذي رضيه الله لنا وخلقنا له، أو يتعدّى بنا عما قد فسرته لك وبينته في صدر كتابي.**

وأشهدكم أن كل من نبرأ منه فإن الله يبرأ منه وملائكته ورسله وأولياؤه.

وجعلت هذا التوقيع الذي في هذا الكتاب أمانة في عنقك وعنق من سمعه، أن لا يكتمه من أحد من مواليّ وشيعتي، حتى يظهر على هذا التوقيع الكل من الموالي، لعل الله عزّ

[45] الاحتجاج، ج 2، ص 208
[46] النمل:65

وجلّ يتلافاهم فيرجعون إلى دين الله الحق، وينتهون عما لا يعلمون منتهى أمره، ولا يبلغ منتهاه، فكل من فهم كتابي ولا يرجع إلى ما قد أمرته ونهيته فقد حلّت عليه اللعنة من الله وممن ذكرت من عباده الصالحين››.

وهذا كان من أخطر ما حصل من الغلاة والذي هو في الواقع نسف للدين من أصله، هذا الدين الذي أساسه التوحيد للّه عز وجل وأنه رب الكائنات جميعاً وأن الجميع ليسوا إلا خلقه وعبيده الذين لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً وإنما كلهم إليه وأن إليه الخلق والأمر. ولا نشك في أن من أسباب ظهور مثل هذه الأفكار هو سوء الدعوة إلى أئمة أهل البيت(ع)، أي انتهاج الطرق الخطأ في إحياء أمرهم بحيث يتكلم البعض بكلام يفهم منه الآخرون معاني لم يردها الأئمة(ع) في أحاديثهم. هذا غير الأحاديث والروايات الموضوعة الكاذبة التي جعلت للأئمة(ع) منازل غالت فيهم حتى أوردت من يقول بها وآمن بها موارد الهلاك.

إن هذا يشير إلى قضية الامتناع عن الكلام إلا بمعرفة، وأن هذه المعرفة تحتاج إلى تدقيق في تفاصيلها من أحاديث وروايات، كما سنورد ذلك بعد قليل.

وابتلي الإمام علي الهادي(ع) في زمنه بأمثال هؤلاء الغلاة، حيث كان بعضهم يزعم أنه هو اللّه، تعالى اللّه عن ذلك، فكتب لمن يسأله عن هذا[47]: ‹‹**فوالله ما بعث الله محمّداً والأنبياء قبله إلا بالحنيفيّة والصلاة والزكاة والحج والصيام والولاية، وما دعا محمّد(ص) إلا إلى الله وحده لا شريك له. وكذلك نحن الأوصياء من ولده عبيد الله لا نشرك به شيئاً، إن أطعناه رحمنا، وإن عصيناه عذبنا. ما لنا على الله من حُجّة، بل الحُجّة لله علينا وعلى جميع خلقه. أبرأ إلى الله ممن يقول ذلك، وأنتفي إلى الله من هذا القول، فاهجروهم لعنهم الله وألجؤوهم إلى ضيق الطريق››.**

وأما من المظاهر التي لا تجرّ للأئمة كل مودّة، بل تجرّ لهم القبيح كما نشاهده، هو ما يجري من أفعال في المناسبات الحزينة لأهل البيت أي في وفياتهم(ع)، لاسيما في إحياء ذكرى استشهاد الإمام الحسين(ع) في العاشر من المحرم من كل عام.

---

[47] رجال الكشي، ص 435

فقد روى الصدوق[48] عن الإمام أبي الحسن وأبي جعفر الجواد(ع) في قوله تعالى: ﴿**ولا يعصينك في معروف**﴾ الممتحنة:12 أنه قال: «**إن رسول الله(ص) قال لفاطمة(ع): إذا أنا مت فلا تخمشي عليّ وجهاً، ولا ترخي عليّ شعراً، ولا تنادي بالويل، ولا تقيمي عليّ نائحة، ثم قال: هذا المعروف الذي قال الله عز وجل في كتابه** وقرأ الآية».

بل إنه من العجيب أن الناس من خطباء وغيرهم يقرأون ويذكرون وصية الإمام الحسين(ع) لأخته زينب(ع) ليلة العاشر من محرم بنفس هذه المفردات أي أن لا تخمش وجهاً أو لا تشد شعراً ولا تدعو بدعوى الويل والثبور، ثم نراهم يشجعون الناس على فعل كل ذلك!

إن هذا يؤشر إلى وجود خلل في أساس التعاطي مع ما وصلنا من النصوص المقدسة عنهم(ع). فإننا يجب أن نكون وقّافين على وصاياهم وأوامرهم ونواهيهم(ع)، فكيف إذا أوصونا بأمر في شأنهم بالخصوص ثم نأتي ونخالفه في نفس المناسبة؟ إن هذا عبارة عن مخالفة بل وعناد في المخالفة وإصرار عليها.

إن هذه المظاهر وغيرها لا نستطيع أن نقول أنها من قبيل الإفراط في الاعتقاد، ولكنها من قبيل الإفراط في إظهار الحزن. ولو كان الأمر يتوقف عند هذا الحد بين الإنسان وربه لهان، ولكن الأمر هو أنه يجر إلى الأئمة(ع) كل قبيح ويبعد عنهم كل مودة، أي على العكس مما أمرونا ودعونا أن نصنع فهذا من الشين عليهم وليس من الزين عليهم، لأن الأمر لا يخلو من أحد احتمالين: الأول أن هؤلاء الشيعة إنما يقومون بهذه الأعمال عملاً بوصاية أئمتهم(ع)، وهذا بالتالي سيجلب الانتقاد لأئمتهم(ع)؛ الثاني أن هؤلاء إنما يقومون به من عند أنفسهم ومن اختراعهم مما لم يأمرهم به أئمتهم(ع) وبالتالي فإنهم سيظهرون غير صادقين مما يزعمون من ولاية أئمتهم(ع)، بحيث أن هذه الولاية ستنتهي بهم إلى اسم ادعاء بلا محتوى.

ولو بقي هذا الأمر في نطاق محدود لكان الخطب أهون، ولكننا نعيش الآن في عصر يبث فيه كل شيء بالصوت والصورة وإلى جميع أنحاء العالم. فماذا يستطيع أن يصنع كتاب هو الغاية في المحاججة كما في كتاب المراجعات للسيد شرف الدين، أو

---

[48] معاني الأخبار، ص 39

كتاب نقد الوشيعة للسيد محسن الأمين العاملي، أو الكتب الكثيرة لمؤلفي الشيعة قديماً وحديثاً، ماذا تستطيع أن تصنع أمام الصوت والصورة خصوصاً وأنها تترافق مع الإعلام المعادي لهذه الطائفة أبداً.

أيضاً فإن الكتاب مهما بلغ فإنه لكي يؤتي ثماره يحتاج إلى ساعات أو عدة جلسات في القراءة في هدوء وتفكر وتدبر ونقاش، وهذا لا يتأتى للكثيرين ولاسيما من كانت ظروفهم العملية لا تسمح بذلك. أما صورة واحدة في نشرة أخبار، هذه الصورة لنصف دقيقة أو أقل من ذلك، فإن لها أثراً هائلاً وخطيراً جداً. وإذا ما عرفنا أنه من المقطوع به أن الإنسان المخالف يبحث فطرياً عما يثبت لديه ما يعتقده في هؤلاء الآخرين – لأن تغيير الاعتقادات المترسخة هو من أصعب الأمور – فإن مثل هذه الأفعال والأعمال إنما تسهم في إبعاد الناس عن أهل البيت(ع) بشكل سريع جداً.

إن الذي يقول بإحياء أمرهم(ع) وينتظر الرحمة الإلهية بدعاء الإمام «**رحم الله من أحيا أمرنا**» عليه أن يتقي اللّه في هؤلاء الأئمة الهداة(ع) فيما يقوله وفيما يفعله وفيما يرويه من روايات وأحاديث كثر فيها الكذب والوضع والمبالغة.

نعم، إن التمكن من إعطاء كل ذي حق حقه دون إفراط أو تفريط ليس هيناً، لاسيما عندما تتدخل العاطفة مع العقل في الحكم والقول... قال الجاحظ: "سمعت النظام يقول: علي بن أبي طالب عليه السلام محنة للمتكلم: إن وفى حقه غلى، وإن بخسه حقه أساء، والمنـزلة الوسطى دقيقة الوزن، حادة اللسان، صعبة الترقي، إلا على الحاذق الذكي"[49]. ولكن طالما أن ذلك ليس منه بد ولاسيما لمن اشتغل بالخطابة أو التأليف أو المناظرات، فعلى مثل هؤلاء الناس أن يتقوا اللّه في أئمتهم فيستفرغون الوسع في جذب كل مودة لهم ودفع كل قبيح عنهم، فهم منـزهون عن القبيح وبالتالي فإن أتى فربما أتى من المتلقي المعاند، ولكن ربما أتى من المعطي الجاهل أو المغالي.

وأقول بأننا إن ركزنا على جانب العاطفة وجانب التبجيل والاحترام لأئمة الهدى(ع) فإننا لن نختلف – في واقع الأمر – كثيراً عن الذين لا يتخذون هؤلاء الطاهرين أئمة لهم. بعبارة أخرى، لم يبق على وجه الأرض من المسلمين ممن لا يحب أهل البيت(ع)

[49] سفينة البحار، ج 1، ص 146

ويحترمهم، إلا الشاذ النادر من النواصب الذين أعمى اللّه بصائرهم بما عرف من سواد قلوبهم، أو الذين قادهم العداء الأسود لشيعة أهل البيت(ع) إلى مجانبة أهل البيت(ع) وتكذيب الكثير، بل الأكثر، من فضائلهم، دع عنك منازلهم. وبالتالي، فإن من يدعي ولاية العترة الشريفة ثم لا يكون متدبراً لأحوالهم، مقتفياً عاملاً بسيرتهم وأوامرهم، بل يرضى بمجرد الحزن على مصائبهم – وإن عظمت – والحب لهم – وإن كان شأنه أن يغمر قلوب المؤمنين – والتحدث بفضائلهم – وإن جلت وكثرت –، فإنه لن يكون أفضل حالاً ممن لا يتخذهم أئمة، بل لن يستطيع الرد على الذين يتهمونه – فيما يتهمون شيعة آل محمد(ص) – بأنهم ليسوا الشيعة الذين امتدحوا في الروايات النبوية!

إننا باهتمامنا بالأمور الأقل أهمية نعرف أننا فشلنا في الاهتمام بالأمور الأكثر أهمية، كل ذلك من أجل أن نشعر بالرضا في قضية الاتباع والولاء. لذا، يجب أن لا نضيع جهودهم وجهادهم وتضحياتهم(ع) بالكسل عن اتباعهم وإتعاب النفس وإنفاق المال من أجل أن نجعل تلكم الجهود والتضحيات وذلكم الجهاد تثمر وتثمر كل حين بإذن ربها حتى تشرق في نفوس الناس جميعاً.

حول الزهراء(ع)

تحظى فاطمة الزهراء(ع) بمكانة خاصة عند جميع المسلمين، وبشكل أخص عند أتباع أهل البيت(ع). ذلك أنها كانت بنت النبي(ص)[50]، ثم كانت بعد ذلك الوعاء الذي خرج منه أئمة أهل البيت(ع) منها ومن الإمام الأول علي بن أبي طالب(ع).

ولا شك في أن الزهراء(ع) حظيت بما لم يحظَ به غيرها من أنها بنت سيد البشر وبنت سيدة النساء وزوجة سيد الوصيين وأم سيدي شباب أهل الجنة، هذا من ناحية

---

[50] والتي كانت حسب بعض الدراسات البنت الوحيدة له حيث تذهب هذه الدراسات إلى أن الأخريات كن إما بنات خديجة(ع) من زواجها السابق – على فرض صحة ذلك – أو بنات أختها أي ربائبها. راجع الخصائص الفاطمية، محمد باقر الكجوري، ج 1، ص 439، و فاطمة والمفضلات من النساء، عبد اللطيف البغدادي، ص 69. وإن كنت أحسب أن تفرد الزهراء(ع) بمزاياها الباهرة وتسميتها بسيدة نساء العالمين سيكون أكثر دلالة لو أنها واحدة من عدة بنات لرسول اللّه(ص) وخديجة(ع)، بمعنى أن تفردها(ع) لم يأت من كونها بنت سيد البشر(ص) فحسب، ولكن أيضاً من خصوصيات فيها(ع) يعلمها الذي خلقها سبحانه، وإلا لكان لأخواتها نفس المزايا؛ واللّه العالم.

النسب والبيت والنشأة. وحظيت بمكانة خاصة من النبي(ص) حيث تواترت الروايات على أنه كان إذا خرج من المدينة يكون آخر عهده الزهراء(ع) أي يسلم عليها ويودعها، فإذا ما رجع كان أول عهده في المدينة وأيضاً الزهراء(ع) أي يسلم عليها بعد عودته[51].

وبغض النظر عن ذلك كله فإن القرآن الكريم قد أنزلها المنـزلة العظمى بأن جعلها من أولئك الذين أذهب اللّه عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً كما جاء في آية التطهير، وكما جاء في حديث الكساء المفسر لهذه الآية[52].

ثم ما جاء عن سيرتها وأقوالها وعباداتها(ع) ما يجعلها تقف في الصف الأول من العباد والزاهدين والصالحين الذين يأتم الخلق بسيرتهم وهديهم.

إن ذلك لهو مدعاة لأن يضع المسلمون هذه المرأة الصالحة المطهرة في أعلى المنازل في عاطفتهم وعقلهم، بمعنى في أعلى المنازل من الحب الشديد ومن الاهتداء بهديها وطريقتها. إلا أن ذلك لا يعني أن يدخل الإنسان إلى مداخل الغلو بحيث يقوم بأفعال تؤذي الزهراء(ع)، لأنها لا يمكن أن ترضى للمؤمنين إلا وأن يكونوا كراماً أعزة محترمين في نظر الآخرين. بعبارة أخرى، لا شك في أن الزهراء(ع) تثنّي على دعوة أولادها الطاهرين بأن يكون شيعتهم زيناً لا شيناً.

هذا من جانب، وأما من جانب آخر فإن إظهار الولاء بطرق مستهجنة، وإن كان مرفوضاً لأنه مما لم يرد عنهم(ع)، إلا أنه يبقى طريقة خطأ من أجل نيل مرضاة اللّه تعالى. أما إذا كان من أجل حسابات دنيوية، أو تصفية حسابات، أو تكالب على الدنيا بشكل عام، فإنه يضيف إلى البدعة عدم خلوص النية للّه تعالى، بل إن ذلك سيكون بمثابة استعمال المقدسات والمقدسين في هذه الحروب الشخصية الدنيوية، ولا شك في أنه من أسوأ ما يمكن أن يقترفه المسلم.

إن أحاديث الغلو من جانب وأحاديث الحط من قدر الأئمة(ع) من جانب آخر هي من ضمن ما ابتليت به أحاديث أهل البيت(ع) والتي جاهدوا من أجل ردِّها وتخليص تراثهم الشريف منها. فإنهم(ع) لما مُنِعوا من أن تبسط أيديهم في خلافة النبي(ص)، لم يكونوا

---

[51] المستدرك، ج 1، ص 489، و صحيح ابن حبان، ج 2، ص 470

[52] تفسير الآلوسي، ج 22، ص 14، و ينابيع المودة، ج 1، ص 322، وغيرهما كثير

يستطيعون منع الموضوعات والمكذوبات والكيد الذي كيدوا به عن طريق الأحاديث الكاذبة فانتشر منها الشيء الكثير ووصلنا منها الشيء الكثير[53].

وقد حدد بعض الأئمة(ع) أنواعاً لهذه الأحاديث التي كان لها الأثر السلبي في جر القبيح إليهم(ع). فيحدث إبراهيم بن أبي محمود[54] أنه سأل الإمام الرضا(ع): إن عندنا أخباراً في فضائل أمير المؤمنين(ع) وفضلكم أهل البيت وهي من مخالفيكم – أي أن مصادرها ليست شيعية – ولا نعرف مثلها عندكم، أَفَندين بها؟ فقال الإمام(ع): «**يا بن أبي محمود، لقد أخبرني أبي عن أبيه عن جدّه أن رسول الله(ص) قال: من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله عز وجل فقد عبد الله، وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس... يا بن أبي محمود، إن مخالفينا وضعوا أخباراً في فضائلنا وجعلوها على ثلاثة أقسام: أحدها الغلوّ، وثانيها التقصير في أمرنا، وثالثها التصريح بمثالب أعدائنا. فإذا سمع الناس الغلوّ فينا كفّروا شيعتنا، ونسبوهم إلى القول بربوبيّتنا. وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا. وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم ثلبونا بأسمائنا، وقد قال الله عز وجل: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدْواً بغير علم﴾[55]. يا بن أبي محمود، إذا أخذ الناس يميناً وشمالاً فالزم طريقتنا، فإنه من لزمنا لزمناه، ومن فارقنا فارقناه. إن أدنى ما يخرج به الرجل من الإيمان أن يقول للحصاة نواة ثم يدين بذلك ويبرأ ممن خالفه! يا بن أبي محمود، إحفظ ما حدّثتك به فقد جمعت لك خير الدنيا والآخرة**».

وهذا يدعو إلى الحذر الشديد من الكثير من أحاديث الفضائل التي استندت أما إلى رفع منـزلتهم(ع) إلى أعلى من ذلك، بحيث رفعوا إلى منازل الربوبية والخلق والرزق

---

[53] لهذا، ينبغي على الذين يشنعون على الشيعة في بعض الأحاديث الموضوعة في كتبهم أن يعلموا أن اللوم يقع أولاً على أئمتهم من الخلفاء والحكام والملوك الذين منعوا خلافة أهل البيت(ع) فمنعوا سلطتهم التي كانت ستضع حداً لمثل تلك الأحاديث.

[54] عيون أخبار الرضا(ع)، ج 2، ص 272

[55] الأنعام:108

وتفويض الأمور إليهم وغير ذلك، أو بعكسها أحاديث تنـزلهم عن منازلهم وعن أدوارهم وعن إمكاناتهم، وأحاديث تركز على السلبيات وقبائح أعدائهم ومناوئيهم. ويقول الإمام(ع) أن ذلك كله سيكون مدعاة لانفضاض الناس عنهم وعن شيعتهم، لأن الغلو لا شك في أنه مرفوض من جميع المسلمين، والتصريح بمثالب الأعداء سيهز المخالف بحيث يلجأ مباشرة إلى البحث عن مثالبهم(ع) – فلن يجد، لذا ربما سيلجأ إلى اختراع مثل ذلك – أو على الأقل إلى الطعن في شيعتهم ورفضهم ونبذهم بأبشع الألقاب كما هو حاصل. وأما التقصير في أمرهم فهو أنهم ينـزلون عن حقيقتهم فيحصل المراد ممن تآمر عليهم وأجلب عليهم وحاربهم حتى أقصاهم عن مراتبهم.

ثم يقول الإمام(ع) شيئاً في غاية الأهمية والخطورة، وهي أن الشيء البسيط من مخالفة الحقيقة والكذب على الحقيقة بحيث يتخذه صاحبه ركيزة لديه أو يدين به وينافح عنه وثم يبرئ من كل أحد يخالفه في ذلك الأمر يخرجه من الإيمان، لأن مثل هذا الشخص قد وضع نفسه في موضع ليس له من تحديد حقائق الأمور إلى درجة جعلها من موارد الولاء والبراء الشرعي.[56]

التعامل مع حديثهم(ع)

وبهذا فإنه من أهم الأمور للذي يريد أن يسير في خط إحياء أمرهم(ع)، وهم الدعاة إلى العترة النبوية والدعاة بها، أن يهتم بقضية ما ينقل من أحاديث وما يستند إليه منها لأنه ينقل ذلك عن الهداة الذين سيتبعهم الناس البسطاء وغير المطلعين في حين تكون النتيجة من الانحراف والسلوك الخطأ فينقلب الهدف إلى عكسه.

لذلك، فمن أجل تجنب الوقوع في المخالفات المردية المضلة من الضروري الانتباه إلى الأحاديث في عللها المعروفة وهي التي تشمل:

---

[56] والشيء بالشيء يذكر، طالما ذكرنا قضية هذه الأمور التي فيها صار الغلو فيهم(ع) من الربوبية والرزق وتفويض الأمور إليهم، أحب أن ألفت القارئ الذي يريد أن يقرأ بعض هذه الأقوال المغالية ومناقشتها والرد عليها بشكل منطقي وبإدراج أقوال علمائنا فيها إلى كتاب مسائل عقائدية في الغلو والتفويض، الخلق والرزق، العلم بالغيب، الحقيقة المحمدية للدكتور السيد علاء الدين السيد أمير محمد القزويني نشر دار الولاية بيروت ومؤسسة الولاية قم الطبعة الثانية 1998.

أولاً، السند (سلسلة رواة الحديث)، وذلك بتجنب الرواة المعروفين بالكذب، والرواة الذين عرف عنهم التدليس[57]، أو الذين شاع أن ذاكرتهم ضعفت في آخر أعمارهم

ثانياً، المتن (منطوق الحديث) وذلك، أن لا يكون مخالفاً للواضح من القرآن الكريم؛ ولا مخالفاً للمتفق عليه من الحديث الصحيح؛ ولا مخالفاً لصحيح التاريخ؛ ولا يكون مخالفاً للبديهيات أو الضرورات العقلية؛ ولا مخالفاً لما ثبت بالعلم الحديث المقطوع به.

إحياء أمرهم(ع) وعلماء أهل السنة

المتوقع أن كل طائفة هم مجموعة بشرية يجمعها فكر معين أو منظومة فكرية أخلاقية تشريعية معينة تتمسك بها، ويمثل جانباً من هذا التمسك الدفاع عن هذه المنظومة الفكرية والأخلاقية والتشريعية بإزاء من يشكك فيها أو في بعض تفاصيلها من جهة، وبإزاء من يدعو إلى منظومة أخرى أو إلى تفاصيل أخرى تختلف معها. وهذا هو الحاصل في جميع الأمم وعبر التاريخ، حيث نرى أن الجدل الذي يحتدم ولا يزال بين أتباع الكنائس المختلفة في أمور عديدة مثل الطلاق والقتل الرحيم وقبول النساء كأساقفة، ومؤخراً قبول مِثلِيّي الجنس كأساقفة، وهو الذي يحدث الآن شرخاً يهدد بانقسام شبه مؤكد في داخل الكنيسة البروتستانتية، أي في داخل مذهب واحد من المذاهب المسيحية اليوم.

نفس الشيء يخص المسلمين، ولذلك نجد أن أتباع الطائفتين السنية والشيعية يتعرضون على الدوام إلى هذين الأمرين، أي إلى التشكيك فيما يعتقدون به أو بعض ما يعتقدون به أو يلتزمون به، والدعوة إلى ما يخالف ذلك من أمور مما يلتزم بها الطرف الآخر. وإن هذا التعرض يكون على مستويات، منها ما يجابه العلماء أي المختصين بهذه الأمور، ومنها ما يجابه أولي الأمر أو الحكام والساسة حيث لهم مدخلية في ذلك لأن هذه الأمور لها دخل في السلم الأهلي ولها دخل في الإعلام تصل حتى إلى الحروب المسلحة الشاملة. أما الذين يتلقون ذلك من الطرف المخالف ومن العلماء والساسة من

[57] التدليس أن يقول راو أنه سمع الحديث من شخص بينما سمعه من شخص آخر سمعه من الأول، وهذا ينطبق على الصحابي الذي يزعم أنه سمع الحديث من النبي(ص) وقد سمعه من صحابي آخر سمعه منه(ص).

أبناء مجموعتهم فهم العامة بشكل واسع، والذين يكونون في بعض الجوانب ضحية لهؤلاء أو أولئك.

وفيما يخص هذا البحث، وهذه النقطة بالذات، وهي نقطة إنزال أئمة العترة النبوية الشريفة منـزلة حمل القرآن، أي الدعوة إليهم أو إحياء أمرهم كما عبروا هم﵈ بذلك، فإن أتباعهم يجدون أنفسهم في وضع يختلف عن أتباع المذاهب الأخرى، وذلك لأنهم أكثر معرفة وبشكل كبير بما عند المذاهب الأخرى من معرفة أصحاب المذاهب الأخرى بما عندهم. والسبب واضح ومنطقي وهو أن أتباع المذاهب الأخرى غير معرضين ثقافياً للمنظومة الفكرية الأخلاقية التشريعية لأتباع أهل البيت﵈ في حين أن أتباع أهل البيت﵈ معرضون لذلك، اللهم إلا في مناطق محدودة حيث يغلب الطابع الشيعي على الدولة والمجتمع. إن التعليم في المدارس فيما يخص التربية الدينية والإسلامية والتاريخ يدرس حسب الفكر السني وحسب التفسير السني لأحداث التاريخ، كما أن وسائل الإعلام التي تسيطر عليها الدول تكون أيضاً برامجها الدينية وحتى الدرامية من تمثيليات أو مسلسلات أو أفلام وفقاً لذلك التفسير. وهذا أيضاً ينسحب على وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة. أما أتباع العترة النبوية فإنهم مجبورون على هذا التعلم وعلى هذا التلقي، وبالتالي يتعلمون ويطلعون على ما عند الطرف الآخر بذات الوقت الذي يتعلمون ويلتزمون بما عندهم عن طريق التعليم البيتي أو التعليم في المساجد أو التعليم الفردي بقراءة الكتب أو سماع التسجيلات الصوتية وغير ذلك. هذا يؤدي بلا شك إلى أنهم يكونون أكثر معرفة بما عند الآخرين، وربما لا نستطيع أن نقول أنهم أكثر معرفة فحسب وإنما هم ذوو معرفة بما عند الآخرين في الوقت الذي لا يعرف الآخرون عنهم شيئاً، بل وربما ما يعرفون عنهم هو ما يشوههم ويشوه سمعتهم من الأكاذيب والافتراءات أو التفسير الخطأ لما عندهم.

وهنا تبرز أهمية علماء الفريقين. فإن نتيجة لهذه الحالة غير المتوازنة في التعليم والاطلاع وما ذكرنا فإن الذي يحصل هو أن علماء مدرسة أهل البيت﵈ يجدون أنفسهم مضطرين إلى بذل الجهد من أجل توضيح حقيقة منظومتهم الفكرية الأخلاقية التشريعية لأتباع هذه المدرسة من الشيعة كي يحافظوا على هذا الالتزام من جهة، ومن جهة أخرى

لكي يردوا على التشكيكات أو الافتراءات أو التفسيرات الخطأ التي يتلقاها أتباع طائفتهم من الناحية الأخرى.

هذا الحال أدى إلى أن يكون عند علماء أهل السنة خوف كبير وخشية من تأثر أتباع مذاهبهم بما يمكن أن يتعرضوا إليه من الجهد الفكري لأتباع مدرسة أهل البيت(ع). فكان مما يقومون به في هذا المجال هو أولاً الاستمرار في طريقة التهجم والافتراء والتفسير الخطأ، وثانياً تحذير أتباع مذهبهم مما يقوله أتباع مدرسة أهل البيت(ع) بحيث يصل الأمر إلى دعوتهم إلى عدم الاستماع أصلاً إلى ما يقولونه، أي سد الآذان وعدم الدخول في حوار معهم، وهذا لعله مؤشر واضح على معرفتهم بقوة حجة أهل البيت(ع)، ولاسيما العلماء منهم.

وطبعاً كان من أهم الوسائل للوقوف بوجه الدعوة إلى إمامة أهل البيت(ع) وما يتفرع منها من فكر وأخلاق وتشريع هو عملية كتمان، وهذا الكتمان أخذ أشكالاً كثيرة تبدأ من كتمان الأحاديث بشكل كامل بحيث لا يخرجها أصحاب كتب الحديث رغم معرفتهم بوجودها وصحتها، وانتهاء بكتمان دلالات الأحاديث التي أخرجوها سواء التي تخص منها تفسير بعض آيات الكتاب العزيز الخاصة بالعترة النبوية أو التي تخص الأحاديث الشريفة أو التي تخص بعض أحداث التاريخ. وقد ورد الكثير في هذا الجانب من الجهد الذي قاموا به والذي نعايش البعض منه في صورة التكذيب ورفض أحاديث فضائل أهل البيت(ع) أو مواقفهم أو في تغيير تفسير بعض ما جاء فيهم، أو في افتراء كامل لأحداث التاريخ وغير ذلك.

ونذكر هنا ما روي عن الباقر(ع) في هذا الأمر وهو يتشكّى مما تصنعه الأمة، وبالتأكيد فإن الأكثر مصداقاً لهذه الشكوى هم العلماء الذين يقومون بكتمان ما جاء في فضل أهل البيت(ع)، هؤلاء العلماء هم الذين أسسوا لمنظومة فيها الكثير من الاختلاف عما جاءنا عن أئمة العترة النبوية، ثم بعد ذلك صاروا ينافحون عما أسسوه هم بأنفسهم مما لم ينـزل اللّه به سلطاناً، بل وصاروا يتذرعون بعدم قبول العامة لبعض الأمور وبالتالي عليهم أن يكتموا ذلك. مثال ذلك ما أوضحه العلامة السيد مرتضى العسكري في كتابه الهام "معالم المدرستين"[58] بخصوص ما روي من رسالة لمحمد بن أبي بكر(رض) إلى معاوية بن أبي

[58] ج 1، ص 218

سفيان ورد معاوية عليه، تلك الرسالة التي يوبخ فيها محمد(رض) معاوية ويذكره بالفارق بينه وبين علي ويحذره من اللّه سبحانه، ثم يجيبه معاوية بجواب يعترف فيه بأن فضل الإمام علي(ع) كان لا نقاش فيه في زمن النبي(ص) ولكن ما قام به البعض بعد وفاة النبي(ص) هو الذي جرأه، أي معاوية، على أن يقتدي بما فعلوه وصار ينازع علياً(ع) على ذلك.

موضع الشاهد هنا ليست الرسائل بقدر ما فعله المؤرخون فيها، فإنه في الوقت الذي أورد الرسالة وجوابها البلاذري في أنساب الأشراف[59] ونصر بن مزاحم في كتابه صفين[60] والمسعودي في مروج الذهب[61] نرى بعد ذلك أنه عندما وصل الدور إلى ابن هشام في سيرته فإنه لم يذكرها مطلقاً ولا بالإشارة إليها. ولكن ما بين الذين ذكروها وابن هشام فإن المؤرخ ابن الأثير لم يذكر نص الرسالتين ولكنه ذكر بأن محمداً قد أرسل رسالة إلى معاوية وأن معاوية أجاب عنها ولكن ابن الأثير قال: "كرهت ذكرها – أي المكاتبات بين محمد ومعاوية – لما فيه مما لا يحتمل سماعه العامة"[62]. وفعل مثله الطبري في تاريخه[63]. فإذاً هو يقول بأنه يكتم هاتين الرسالتين لأن العامة أي الناس من غير العلماء لا يرضون بما في هاتين الرسالتين، في حين أن هؤلاء العامة إنما صاروا لا يرضون بما في هاتين الرسالتين أو في غيرهما، أو يستوحشون منها كما عبّر، إنما وصلوا إلى ذلك نتيجة لتعليم هؤلاء العلماء أنفسهم من مؤرخين ومحدثين وفقهاء بحيث أسسوا عند هؤلاء العامة أطراً لا يمكن تجاوزها فصاروا لا يحتملونها. أي بكلمة واحدة: قام هؤلاء العلماء بإحداث الضرر في الأصل ثم بعد ذلك أخذوا يتهربون من القيام بواجبهم وبعدم كتمان الحق بإلقاء اللوم على من أحدثوا هم فيهم ذلك الضرر!

وهنا نذكر حديث الباقر(ع) الذي قال[64]: «**ما أكثر ظلم كثير من هذه الأمة لعلي بن أبي طالب وأقلّ أنصاره! هم يمنعون علياً ما يعطونه لسائر الصحابة، وهو أفضلهم، فكيف يمنع**

[59] أنساب الأشراف، ص 393

[60] صفين، ص 118

[61] مروج الذهب، ج 3، ص 11

[62] تاريخ ابن الأثير، ج 3، ص 108

[63] تاريخ الطبري، ج 1، ص 3248

[64] الاحتجاج، الطبرسي، ج 2، ص 67

منـزلة يعطونها لغيره؟!›› فقيل له: وكيف ذاك يا بن رسول اللّه؟ قال: ‹‹**لأنكم تتولّون محبّي أبي بكر بن أبي قحافة وتتبرّأون من أعدائه كائناً من كان، كذلك تتولّون عمر بن الخطاب وتتبرّأون من أعدائه كائناً من كان، وتتولّون عثمان بن وتتبرّأون من أعدائه كائناً من كان، حتى إذا صار إلى علي(ع) قالوا: نتولّى محبيه ولا نتبرّأ من أعدائه بل نحبّهم! فكيف يجوز هذا لهم ورسول الله(ص) يقول في عليّ: "اللهم وال من والاه وعاد من عاده وانصر من نصره واخذل من خذله"، أفترونه يقول ذلك ولا يعادي من عاداه ولا يخذل من خذله؟ ليس هذا بإنصاف!**››

ويتابع الإمام(ع): ‹‹**ثم أخرى: إنهم إذا ذكروا ما اختصّ الله به عليّاً بدعاء رسول الله(ص) وكرامته على ربه تعالى جحدوه، ويقبلون ما يذكر لغيره من الصحابة؛ فما الذي منع عليّاً(ع) ما جعله لسائر أصحاب رسول الله(ص)؟ هذا عمر بن الخطاب إذا قيل لهم: أنه كان على المنبر في المدينة يخطب في الناس وإذا نادى أثناء خطبته: يا سارية، الجبل، وعجب القوم وقالوا ما هذا الكلام الذي في هذه الخطبة، فلما قضى الخطبة والصلاة قالوا: ما قولك في خطبتك يا سارية الجبل؟ فقال: إعلموا أني وأنا أخطب إذ رميت ببصري نحو الناحية التي خرج فيها أخوانكم إلى غزوة الكافرين بنهاوند وعليهم سعد بن أبي وقاص ففتح الله لي الأستار والحجب وقوي بصري حتى رأيتهم وقد اصطفوا بين يدي جبل هناك، وقد جاء بعض الكفار ليدور خلف سارية وسائر من معه من المسلمين فيحيطوا بهم ويقتلوهم، فقلت: يا سارية، الجبل، ليلتجئ إليه ويكون الجبل في ظهره ويمنعهم ذلك من أن يحيطوا به، ثم يقاتلوا؛ وقد منح الله أخوانكم المؤمنين أكتاف الكافرين وفتح الله عليهم بلادهم، فاحفظوا هذا الوقت فسيرد عليكم الخبر بذلك... وكان بين المدينة ونهاوند مسيرة أكثر من خمسين يوماً... فإذا كان مثل هذا لعمر فكيف لا يكون مثله لعلي بن أبي طالب(ع)؟ ولكنهم قوم لا ينصفون بل يكابرون!**››

هذه الرواية التي يتوجع فيها الباقر(ع) ويتشكى تشير إلى بعض ما قلناه من هذا النهج الذي تراه يتلقف أي فضيلة لأحد من الأصحاب فيقبلها ويذيعها وينشرها حتى لو كانت تخالف العقل والمنطق، وحتى لو كانت ترفع من أمر الصحابي على النبي(ص) نفسه من قبيل «**ما أبطأ عني جبريل إلا ظننت أنه بعث إلى عمر!**»[65]، أو «**لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب!**»[66]، أو التي تجعل التشريعات تنـزل بسبب حادثة يتعرض لها أحد من الناس كما في قضية حجاب نساء النبي(ص)[67]، أو الأذان[68]، أو في قضية نزول آية التيمم التي جرت – حسبما زعموا – عندما حبس النبي(ص) ذلك الجيش من أجل البحث عن عِقْد – أي قِلادة – أم المؤمنين، ثم نام النبي(ص)[69] ولم يكن هناك ماء وحضرت الصلاة فنـزلت آية التيمم، فقال البعض: "ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر"[70]. وغير ذلك من أمور لا

[65] شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد، ج 12، ص 178، وفيه شك واضح منه(ص) في أصل رسالته وميثاقه، ناهيك عن أن من كان مشركاً ردحاً طويلاً من حياته كيف يبعث نبياً!

[66] فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، ج 5، حديث 7470، وهذه اخترعت لمعارضة حديث المنـزلة قول النبي(ص) لعلي(ع): « أنت مني بمنـزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» بحيث أنه(ص) لو لم يكن خاتم النبيين لكان يمكن لعلي(ع) أن يكون نبياً – وهو حديث أخرجه البخاري (ج 4، ص 208، و ج 5، ص 129) ومسلم (ج 5، ص 120) وغيرهما، فلا يمكن التهرب من قبوله، وإلا لتعرض إلى التشكيك في أصله، لا في دلالته كما حصل.

[67] حيث رووا أن عمر بن الخطاب هو الذي كان يريد فرض الحجاب على نساء النبي(ص)، أي أن لا يتكلمن مع الرجال إلا من وراء حجاب، فنـزلت الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي...﴾ إلى قوله: ﴿وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب، ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن...﴾ الأحزاب:53 تفرض ذلك – رواه أحمد في مسنده، ج 6، ص 223، والبخاري في صحيحه، ج 1، ص 46، ومسلم في صحيحه، ج 7، ص 7 وغيرهم.

[68] حيث رووا أن عمر بن الخطاب رأى شكل الأذان في المنام فعندما جاء به إلى النبي(ص) كان الوحي قد نزل يوافق رؤيا عمر بالضبط – وهو أمر مشهور مقطوع به بين أتباع المذاهب السنية، ولكن راجع عمدة القاري، محمود بن أحمد العيني، ج 5، ص 109.

[69] ولم تنس أم المؤمنين الدقة في وصف الأحداث حيث ذكرت أن النبي(ص) "كان واضعاً رأسه على فخذي".

[70] صحيح البخاري، ج 1، ص 85، (وأخرجه في ج 4 وج 5 أيضاً)، وصحيح مسلم، ج 1، ص 192، وسنن النسائي، ج 1، ص 165، وغيرها. إن المرء لا يدري على أي شيء يعلق على هذه الرواية (الصحيحة!): هل على حبس النبي(ص) جيش المسلمين وهو في طريق الجهاد (وإن كانت الرواية تقول أنه كان في بعض أسفاره – ربما لأن الأمر كان سيكون غير مقبول حتى لمحبي أم المؤمنين أن يحبس النبي(ص) جيشاً مجاهداً من أجل قلادتها، ولكن الشراح قالوا أنها كانت في غزوة بني المصطلق أو غزوة المريسيع – راجع عمدة القاري، العيني، ج 4، ص

يمكن أن تجوز على النبي(ص). في ذات الوقت تراهم يتناولون أي حديث في فضل علي(ع) وأهل بيته بالتشكيك والتضعيف، وفي أحسن الحالات صرفه عن دلالته إلى دلالات أخرى ليست هي المراد منها ولا مما يكون له أثر في المسلمين. هذا، إضافة الذين ينهجون نهج رفض الأحاديث واتهامها بأنها موضوعة دون دليل كما هو شأن ابن تيمية وأضرابه.

مسؤولية الشيعة، عود على بدء

نقول كلمة في نهاية ذلك، أنه بإزاء هذا الحال فإن المسؤولية تتضاعف على أتباع العترة النبوية المباركة، لاسيما العلماء والمفكرين والخطباء وطلبة العلوم والكتاب، بأن يتقوا اللّه تعالى في أئمتهم أولاً، وفي أتباعهم ثانياً، وفي المسلمين ممن يريدون دعوتهم إلى أهل البيت(ع) ثالثاً، بأن لا يستخدموا الوسائل التي تضر أكثر مما تنفع، ولا يهتموا ببعض المرويات التي يشك في صدورها من المعصوم، أو حتى التي صدرت من المعصوم على وجه القطع ولكنها لا تناسب هذا الحال أو ذاك، لأن الناس يجب أن يكلموا على قدر عقولهم وعلى قدر تقبلهم وحسب ظروفهم وبمراحل دعوتهم المختلفة.

إن دعوة الإمام(ع) لإحياء أمرهم إنما هي دعوة لمن يستطيع أن يقوم بها، وإلا فإن من لا يمتلك السلاح لا يمكن أن يحارب، أعني من لا يمتلك القدرة على الحوار وإيصال الحق، وبالحكمة والموعظة الحسنة كما أمر اللّه، فلن يستطيع تحقيق النجاح، بل لا يحق له أن يقوم بذلك كما ورد في بعض المرويات عن الصادق(ع) كيف أنه كان يسمح لبعض أصحابه كمحمد بن علي بن نعمان الكوفي، المعروف بصاحب الطاق، بالمجادلة والمحاججة والدخول

3) من أجل البحث عن قلادة زوجته؛ أم على نومه(ص)، وهو النبي الـ ﴿عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ التوبة:128 بنص القرآن، في الوقت الذي كان المسلمون في نصب وعنت يبحثون عن تلكم القلادة المهمة، فلا أبدى – بحسب هذا الحديث – أي اهتمام بعنتهم من أجل شيء دنيوي لا يساوي كثيراً، ولا أي حرص عليهم وعلى جهودهم، ولا أي رأفة ورحمة بهم وهم في هذا الحر الشديد؛ أم على اعتراض أبي بكر على ابنته – "جعل أبو بكر يطعنني بيده في خاصرتي" – حسبما قالت، في الوقت الذي لم يهتم النبي(ص) مطلقاً لحبس جيش المسلمين المجاهدين؛ أم على نزول آية التيمم بمناسبة توقف الجيش للبحث عن قلادة لا بمناسبة توقف هذا الجيش أو غيره من الجيوش والسرايا والكتائب التي كان يبعثها النبي(ص) في الجزيرة العربية ذات الحر الشديد وقلة الماء في كل مكان؛ أم على قول القائل (وهو أسيد بن حضير كما زعموا) أن هذه ليست أول بركة آل أبي بكر، حيث أني شخصياً لم أطلع على بركات سابقة لهذه البركة، وربما يعود هذا إلى جهلي بالتاريخ.

في حوارات مع الآخرين في حين كان لا يسمح لغيره معللاً ذلك بأن المحاورين لا يستطيعون أن يقصّوا محمداً هذا حسب تعبيره(ع) في حين أن الآخرين ممكن أن يقصّوهم[71].

وبغض النظر عن ذلك، فإن الأئمة(ع) هم أعلم منا بما يصلح لكل موقف، وبالتالي فهم يعلمون أن الوسائل التي كانوا يستخدمونها في الحكمة والموعظة الحسنة والخلق الرفيع، وما أمرونا به من أن نكون دعاة صامتين أو دعاة بغير الألسنة أو أن نتأدب بآدابهم وأن نجر إليهم كل مودة وندفع عنهم كل قبيح، لا شك في أنهم أعلم منّا بأن ذلك هو الذي يأتي بالنتائج المرجوّة، وإلا لكانوا أخبرونا عن غيرها.

حديث جامع للصادق(ع)

روي عن الإمام الصادق(ع) القول: «**رحم الله عبداً حبّبنا إلى الناس ولم يبغّضنا إليهم، أما والله لو يروون محاسن كلامنا لكانوا به أعزّ وما استطاع أحد أن يتعلّق عليهم بشيء، ولكن أحدهم يسمع الكلمة فيحطّ إليها عشراً!**»[72]

إن هذا الحديث الهام جداً يجمع النقاط التالية:

1- هدف تحبيب الأئمة(ع) إلى الناس، وذلك من أجل الوصول إلى اتباع أهل البيت(ع) وتحقيق ما أمر به اللّه ورسوله(ص).

2- هدف عدم تبغيض الأئمة(ع) إلى الناس، وذلك من أجل تسهيل طريق الاهتداء إلى أهل البيت(ع) واجتناب أن يكون الرجل سبباً في ابتعاد الناس عنهم(ع).

---

[71] روي عن أبي خالد الكابلي أنه قال: رأيت أبا جعفر صاحب الطاق وهو قاعد في الروضة قد قطع أهل المدينة إزاره وهو دائب يجيبهم ويسألونه، فدنوت منه وقلت: إن أبا عبد اللّه عليه السلام نهانا عن الكلام. فقال: وأمرك أن تقول لي؟ فقلت: لا واللّه، ولكنه أمرني أن لا أكلم أحداً. قال: فاذهب وأطعه فيما أمرك. فدخلت على أبى عبد اللّه عليه السلام فأخبرته بقصة صاحب الطاق وما قلت له وقوله: إذهب وأطعه فيما أمرك، فتبسم أبو عبد اللّه عليه السلام وقال: «يا أبا خالد إن صاحب الطاق يكلم الناس فيطير وينقص وأنت إن قصوك لن تطير!» راجع تحف العقول، هامش ص 357 (طبعة مؤسسة النشر الإسلامي، 1404هـ). ولعل قوة حجة الكوفي صاحب الطاق هذا هي التي جعلت أعداء مدرسة أهل البيت(ع) يصفونه بشيطان الطاق.

[72] الكافي، ج 8، ص 229، حديث 293

3- رواية محاسن الكلام: وفي هذا تنبيه إلى اختيار الكلام المناسب للمقام، وبشرط آخر أن يكون صحيحاً وصادراً حقاً عنهم، وإلا فإن جميع كلامهم محاسن.

4- هدف جلب احترام الناس والعزّة للشيعي، وذلك باختيار الطريق المرسوم أعلاه.

5- سد الطريق أمام الأعداء الذين يسجلون النقاط على كل كلمة.

6- إعلان الإمام بأن من الشيعة من يبالغ ويضع الكلام وينسبه للأئمة مما لم يقولون، ولا شك في أن هذا، علاوة على كونه أضعف لغة وبلاغة، وكونه حراماً بحد ذاته، فإنه يعرض الأئمة وشيعتهم إلى التنقيص والتهجم، وهو حاصل.

7- شكاية الإمام مما يقوم به بعض شيعته: وهذا ينبغي أن يكون دافعاً للتأكد من الروايات التي تحوم حولها شبهة الوضع والمبالغة، وهو أمر يخص العلماء والباحثين والخطباء والوعاظ بشكل خاص.

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

الفصل الثاني عشر

سابعاً: منزلة الشفاعة في الآخرة

أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن أنزلوهم بأحسن منازل القرآن

سابعاً: منـزلة الشفاعة في الآخرة

إن ثمرة تعاهد الثقلين، القرآن الكريم وعترة النبي(ص)، في الدنيا هي ما يرجوه المؤمن المتعاهد لهما الحافظ لهما من ثواب الآخرة. فإنه وإن كان هناك من الأعمال التي يرجو بها العامل البركات والآثار في الدنيا، كما ذكرنا في منازل القرآن والعترة المباركة، إلا أن الثمرة الحقيقية هي في الآخرة حيث دار القرار. إن السعادة في الدنيا التي يحصل عليها الفرد مع نفسه عندما يتلو القرآن وعندما يتدبر القرآن وعندما يعمل بالقرآن وعندما يحمل القرآن في ترتيب أوضاعه في الدنيا وفي ترتيب أوضاع مجتمعه الذي يعيش فيه وفي علاقته بربه إنما هي سعادة محدودة بمدة حياته في الدنيا. نفس الشيء يقال لقيامه بواجبه تجاه أعدال الكتاب الأئمة من أهل البيت(ع) إذا أنزلهم بأحسن منازل القرآن حيث بركاتهم وآثارهم وقراءة سيرتهم وإحياء شعائرهم والتدبر في حياتهم وسيرتهم واتباعهم واتباع ما جاءوا به من تبيان للكتاب والسنة، أيضاً الدعوة إليهم وإحياء أمرهم، فإن كل ذلك مما يدخل السعادة في قلب المؤمن حتى في أشد الظروف وأصعبها. ولكن ثمرة هذا أعلى بكثير في الآخرة وهي الثمرة الدائمة.

شفاعة القرآن الكريم

من شفع له القرآن يوم القيامة شفّع فيه[1]

من النصوص التي بين أيدينا نجد أن آثار بركة القرآن الكريم وآثاره الإيجابية على من لم يفرط فيه تبدأ من لحظات الموت، ومن ثم فيما بعد ذلك في عرصات القيامة، ومن ثم في الحساب. فنقرأ في دعاء الإمام علي بن الحسين[2] قوله: ‹‹**فصلِّ على محمد وآله**

---

[1] الإمام علي(ع)، نهج البلاغة، الخطبة 176

[2] الصحيفة السجادية، دعاء 42

واجعل القرآن وسيلة لنا إلى أشرف منازل الكرامة، وسلّماً نعرج فيه إلى محل السلامة، وسبباً نُجزى به النجاة في عرصة القيامة، وذريعة نقدم بها على نعيم دار المقامة. اللهم صلِّ على محمد وآل محمد واحطط بالقرآن عنا ثقل الأوزار».

فهنا يدعو الإمامع أن يكون تعاهده للقرآن هو السبب الذي ينال به أشرف منازل الكرامة عند اللّه، وهو السّلّم الذي يصعد فيه إلى السلامة من عقاب اللّه وعذابه، والسبب الذي يؤدي إلى النجاة يوم القيامة والدخول في جنة النعيم.

ويقولع في هذا الدعاء: «**وأروِ به في موقف العرض عليك ظمأ هواجرنا، واكْسُنا به حُلل الأمان يوم الفزع الأكبر في نشورنا**». فهنا يدعو اللّه سبحانه وتعالى أن يكون القرآن هو رواء العطش في ذلك اليوم الشديد، وهو الأمان في يوم الفزع الأكبر عند النشور حيث يذكرنا ذلك بقوله تعالى: ﴿**لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون**﴾ الأنبياء:103.

ويستمر الإمامع في دعائه: «**واعصمنا به من هُوّة الكفر ودواعي النفاق حتى يكون لنا في القيامة إلى رضوانك وجنانك قائداً**». حيث يدعو أن يكون القرآن عصمة له من الانزلاق في الكفر أو في ما يؤدي إلى النفاق من أجل أن يقوده إلى الجنة في يوم القيامة.

ويستمر في دعائه فيقولع: «**اللهم صلِّ على محمد وآله وهوّن بالقرآن عند الموت على أنفسنا كرْب السياق وجهد الأنين وترادُف الحشارج إذا بلغت النفوس التراقي وقيل من راق، وتجلّى ملك الموت لقبضها من حجب الغيوب، ورماها عن قوس المنايا بأسهم وحشة الفراق، وداف لها من ذعاف الموت كأساً مسمومة المذاق، ودنا منّا إلى الآخرة رحيل وانطلاق، وصارت الأعمال قلائد في الأعناق، وكانت القبور هي المأوى إلى ميقات يوم التلاق**». فهنا يدعو لأن يكون القرآن الكريم هو المعين عند لحظة الموت بأن يهون كربات الموت والأنين وما يحس به المحتضر عند خروج الروح في ترادف حشارجه، وعندما يبلغ ذلك إلى صدره

وأعلاه، فيأتيه ملك الموت ليبدأ بذلك وحشة الفراق عن الأحبة والأهل ويبدأ الرحلة إلى الآخرة حيث ثبتت الأعمال كالقلائد في الأعناق بحيث لن يكون هناك مهرب منها بحسنات جديدة أو باستغفار أو غير ذلك، وصارت القبور هي إلى البيت الجديد حتى قيام يوم الدين.

وبعدها يقول الإمام: ‹‹**وارحم بالقرآن في موقف العرض عليك ذل مقامنا، وثبّت به عند اضطراب جسر جهنم يوم المجاز عليها زلل أقدامنا، ونجّنا به من كل كرب يوم القيامة وشدائد أهوال يوم الطامة، وبيّض وجوهنا يوم تسودّ وجوه الظلمة في يوم الحسرة والندامة**››.

فهنا يدعو لأن يستمر القرآن في عطائه بعد النشور عند العرض والحساب، وعلى جسر جهنم حيث الجواز إلى الجنة – إن شاء اللّه – والنجاة من كرب وشدائد يوم القيامة، لينتهي إلى الفوز وبالتالي تبيض الوجوه يوم الحسرة والندامة على الظلمة الذين تسود وجوههم.

وقد جاء في أحاديث الأئمة التعبير بشفاعة القرآن بشكل صريح كما في قول أمير المؤمنين[3]: ‹‹**واعلموا أنه** – أي القرآن – **شافع مشفّع، وقائل مصدّق، وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة شُفِّع فيه، ومن محل به القرآن يوم القيامة صدِّق عليه، فإنه ينادي مناد يوم القيامة: ألا إنَّ كلَّ حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله غير حرثة القرآن؛ فكونوا من حرثته وأتباعه، واستدلّوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتّهموا عليه آراءكم، واستغشّوا فيه أهواءكم**››.

هنا الإمام يقول بشكل واضح أن القرآن له منـزلة الشفاعة يوم القيامة، وأنه مشفّع بحيث إذا شفع لأحد شفِّع فيه. ومن شهد عليه القرآن بسيئاته يصدق عليه، فكأنما تثبت عليه. ثم يعطي أمير المؤمنين القرآن منـزلة فريدة في نتائج العمل في الدنيا حيث يقول بأن جميع العمل فيه بلاء وابتلاء لعامله وحارثه ما خلا من يحرث في طريق القرآن وبالقرآن، فبالتالي يدعو إلى أن يكون المسلم من حرثته ومن أتباعه. ويدعو إلى أن

[3] نهج البلاغة، خطبة 176

يكون القرآن الكريم هو الطريق لمعرفة اللّه تعالى. ويدعو إلى أن يكون القرآن هو الحكم على النفس وعلى الآراء وعلى الأهواء، مما يعني أن فيه النجاة والعصمة من مزالق الآراء والأهواء والنفس الأمارة.

وقد ذكرت الأحاديث الكثيرة الثواب الذي يحصل عليه الإنسان في تعاهد القرآن بقراءة أو تدبر أو عمل أو غير ذلك وذلك بتفاصيل ثوابه في الجنة. من ذلك ما روي عن الإمام الصادق(ع)[4]: ‹‹**من قرأ القرآن وهو شاب مؤمن اختلط القرآن بلحمه ودمه، وجعله الله مع السفرة الكرام البرر، وكان القرآن حجيزاً عنه يوم القيامة، ويقول: يا رب إن كل عامل قد أصاب أجر عمله غير عاملي فبلّغ به كريم عطاياك، فيكسوه الله عز وجل حلّتين من حلل الجنة، ويوضع على رأسه تاج الكرامة، ثم يقال: هل أرضيناك فيه؟ فيقول القرآن: يا رب قد كنت أرغب له فيما هو أفضل من هذا. فقال: فيعطى الأمن بيمينه والخلد بيساره، ثم يدخل الجنة فيقال له: اقرأ آية واصعد درجة، ثم يقال له: بلغنا به وأرضيناك فيه؟ فيقول: اللهم نعم، قال: ومن قرأه كثيراً وتعاهده بمشقّة من شدّة حفظه أعطاه الله أجر هذا مرتين**››. وهذا الحديث هو عبارة عن محادثة بين القرآن الكريم والموكلين بثواب الجنة بحيث لا يرضى القرآن لهذا القارئ إلا بالأمن من العذاب في يمينه والجنة في يساره. ثم هناك إشارة إلى درجات الجنة بالتوازي مع كمية القراءة أو عدد الآيات حيث يقال له اقرأ آية واصعد درجة. أخيراً، فإن على من يجد مشقة في حفظ القرآن وقراءته وحفظه أن لا يتألم لذلك لأن الأجر على قدر المشقة كما يقال، وهذا ما يؤكده هذا الحديث الشريف من أن من يجد المشقة في ذلك فإنه يحصل على مضاعفة الأجر.

---

[4] ثواب الأعمال عقاب الأعمال، ص 126

شفاعة العترة المباركة

من لقي الله عز وجل وهو يودنا دخل الجنة بشفاعتنا[5]

لا تتوقف المقابلة بين منازل القرآن الكريم ومنازل عترة النبي(ص) في الدنيا، وإنما تستمر في الآخرة حيث نجد الأحاديث الشريفة الصحيحة قد أكدت شفاعة أهل البيت(ع) في الآخرة. ذلك ما أخرجه الهيثمي[6] عن الإمام الحسن السبط(ع) أن رسول اللّه(ص) قال: ‹‹**إلزموا مودّتنا أهل البيت، فإنه من لقي الله عز وجل وهو يودّنا دخل الجنة بشفاعتنا؛ والذي نفسي بيده لا ينفع عبد عمله إلا بمعرفة حقّنا**››. وهذا الحديث يؤكد على شفاعة أهل البيت(ع)، ثم يربط بين هذه الشفاعة في دخول الجنة وبين مودتهم. ثم ينبه إلى أن العمل لا ينفع إلا بمعرفة حقهم، ربما في إشارة إلى مودتهم التي أمر اللّه تعالى في كتابه بها ولم يأمر بمودة غيرهم حيث قال: ﴿**قل ما أسألكم عليه أجراً إلا المودّة في القربى**﴾ الشورى:23.

وأخرج المناوي[7] حديث النبي(ص): ‹‹**أثبتكم على الصراط أشدّكم حبّاً لأهل بيتي**››. وهذا يربط بين الآثار الإيجابية للقرآن الكريم على الصراط، والتي دعا الإمام زين العابدين(ع) اللّه تعالى لها في دعائه المذكور آنفاً، وبين أثر محبة أهل البيت على الصراط.

وأما النبي(ص) وشفاعته المأمولة فقد أخرج الخطيب البغدادي[8] الحديث عن علي(ع) أن النبي(ص) قال: ‹‹**شفاعتي لأمتي من أحب أهل بيتي، وهم شيعتي**››.

وأخرج صاحب كنـز العمال[9] الحديث عنه(ص) قال: ‹‹**أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذريتي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي لهم في أمورهم عندما اضطروا إليه،**

---

[5] رسول اللّه(ص)، المجمع، الهيثمي، ج 9، ص 172

[6] نفسه

[7] كنوز الحقائق، ص 5

[8] تاريخ بغداد، ج 2، ص 146

[9] كنـز العمال، ج 6، ص 126، و ج8، ص 151

والمحب لهم بقلبه ولسانه››. في هذه الأحاديث البشرى بشفاعة النبي(ص)، والتي ليس ها هنا محل بحثها، والتي أجمع المسلمون على أن شفاعة الشافعين هي فرع من شفاعته(ص).

الشفاعة والصلاة

لا خلاف في أن الصلاة هي من أهم العبادات في الإسلام، بل هي تتميز عن غيرها بأمور. منها أنها عبادة يومية، بل وعدة مرات في اليوم الواحد. ومنها أن فيها ما يحتاج الذي يؤديها إلى تعلم، أي قراءة القرآن والذكر وغير ذلك. ومنها أنها لا يمكن أن تترك لأي سبب من الأسباب، إذ أن المريض الذي لا يقوى على النهوض من فراشه يتوجب عليه القيام بالصلاة مستلقياً، حتى ولو بقراءة ما فيها، حتى ولو في ذهنه فحسب. وما ذلك إلا لأن الصلاة تربط المسلم بربه بشكل منتظم يومي، فهي موعد معه سبحانه، يدخل إليه العبد دون حُجّاب أو موانع، ويتكلم معه ويسمع منه بما يقرأ من القرآن الذي أنزله والذكر الذي علمه نبيه(ص)، فهي رحمة من اللّه سبحانه لأنها ﴿**تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾ العنكبوت:45، ولأنها تساعد الإنسان على تجنب الغفلة عن ربه وحقيقة الدنيا وما يحصل فيها، بحيث أنه سبحانه استثنى المصلين من الهلع والجزع والبخل فقال: ﴿**إن الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسّه الخير منوعاً . وإذا مسّه الشر جزوعاً . إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون**﴾ المعارج:19-22، لأن الصلاة تصغّر الدنيا وما فيها في أعينهم وتجعلهم يتوجهون بمشاعرهم وتفكيرهم إلى خالق الدنيا والآخرة.

ولا شك في أن القرآن الكريم، الذي جاء بأمر الصلاة في الكثير الكثير من آياته الكريمة، لن يكون شافعاً لمن لم يهتم بأمر الصلاة التي هي ‹‹**عمود الدين، فمن تركها فقد هدم الدين**››[10]، و ‹‹**الصلاة عمود الدين، مثلها مثل عمود الفسطاط، إذا ثبت العمود ثبت الأوطاد والأطناب، وإذا مال العمود وانكسر لم يثبت وتد ولا طنب**››[11] فكيف يشفع لمن هدم

---

[10] عن رسول اللّه(ص)، عوالي اللئالي، الإحسائي، ج 1، ص 322

[11] عن الإمام محمد الباقر(ع)، وسائل الشيعة، ج 4، ص 27

الدين الذي جاءت أصوله وفروعه في سوره وآياته. بل قد روي أن تارك الصلاة كافر وأوضحوا أن من تركها من غير سبب[12]، وهذا هو الانفصال الكامل عن القرآن، فلا يمكن أن ترجى شفاعته حينئذ.

ولقد وصفت الصلاة بأنها العهد بين جماعة المؤمنين وأي فرد، وبالتالي فإن من ترك الصلاة فقد قطع العهد معهم، وهذا يقود إلى اعتباره خارجاً عن تلك الجماعة، أي لم يعد مؤمناً، قال النبي(ص): ‹‹**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر**››[13].

كذلك شفاعة عترة النبي(ص)، فإنها مرتبطة بالصلاة، أداء وضبطاً. فقد روي أن الإمام جعفر الصادق(ع)، في أيام احتضاره – أرواحنا فداه – أمر بجمع جميع أقربائه، فلما حضروا أجال النظر فيهم ثم قال: ‹‹**إن شفاعتنا لا تنال مستخفّاً بالصلاة**››[14].

وروي مثله عن الكاظم(ع): ‹‹**يا بني، إنه لا ينال شفاعتنا من كان مستخفّاً بالصلاة**››[15].

فالحديث الأول يتحدث عن عدم امتداد الشفاعة لتشمل المستخفين بالصلاة، أما الحديث الثاني فيتحدث عن أن المستخفّين يطلبون الشفاعة ولكنهم يفشلون في الحصول عليها. والحديثان يؤديان إلى نفس النتيجة، وهي حرمان المستخف بالصلاة من شفاعة عترة النبي(ص).

وينبغي الالتفات إلى أن المعنيِّين بذلك ليسوا الذين تجاهلوا الصلاة بالكلّيّة، فإن هؤلاء قد قطعوا العهد بينهم وبين اللّه تعالى (كما ذكرنا أعلاه)، ولكن المعنيّين هم الذين يصلّون ولكنهم يستخفّون بالصلاة، فلا يقيمونها لوقتها، أو لا يؤدّونها كما يجب، ولو بالحد الأدنى، ولا يعتبرون بها، ولا ينتفعون منها، وغير ذلك مما قد فصّل العلماء فيه القول بخصوص الصلاة وتفاصيلها وآدابها وآفاقها.

---

12 عن الإمام جعفر الصادق(ع)، نفسه، ص 42

13 سنن ابن ماجة، ج 1، ص 342

14 الأمالي، الصدوق، ص 572، حديث 10/779

15 الكافي، ج 6، ص 401

شكوى الثقلين

نتهي هذا الفصل بما روي عن موقف للقرآن الكريم والعترة النبوية الشريفة في الآخرة، كوننا نتكلم عن دورهما في الآخرة. الحديث عن النبي(ص) أنه قال: «**يجيء يوم القيامة ثلاثة يشكون: المصحف، والمسجد، والعترة – يقول المصحف: يا رب حرّفوني ومزقوني، ويقول المسجد: يا رب عطّلوني وضيّعوني، وتقول العترة: يا رب قتلونا وطردونا وشرّدونا؛ فأجثو للركبتين في الخصومة، فيقول الله عزّ وجلّ لي: أنا أولى بذلك منك**»[16].

إننا نفهم من هذا الحديث أن النبي(ص) ينبئ بأن التغيير سينال تعامل المسلمين مع هذه الأعلام: القرآن والمسجد والعترة، أي الثقلان والمسجد، لأن المسجد لا يشكل ضرورة حيوية لإقامة أحكام القرآن واتباع العترة المباركة – بمعنى أن الإنسان يمكن أن يعيش حبيس داره أو عمله ولا يدخل مسجداً ويكون متمسكاً بالثقلين في حين أن غيره ممن يلازم المساجد يمكن أن يكون أبعد الناس عنهما، وهو معروف بالمشاهدة. أما هذا التغيير فهو أن المسجد يعطل عن دوره ويضيع كمركز للعبادة الحقة والعلم الصحيح وحل مشاكل المجتمع، بل إن بعض المساجد لا تكاد تقوم فيها صلاة جماعة، وإن قامت فببضعة أنفار من المصلين. وأما التغيير بخصوص القرآن الكريم فهو التحريف عن مراميه وتفسيره الصحيح وتمزيقه، ربما بتناول ما فيه كل على حدة على طريقة الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض، أو بتمزيقه حقيقة كما حصل ولا يزال يحصل من قبل أعداء اللّه من المنحرفين وهم يهاجمون المسلمين هنا وهناك[17]. وأما التغيير بخصوص العترة فهو بقتلهم – وقد جرى –، وتشريدهم – وقد جرى –، وطردهم – وقد جرى –، حيث طردوا من مواقعهم التي جعلها اللّه لهم في قيادة الأمة، وهو أشد أنواع الطرد.[18]

---

[16] وسائل الشيعة، ج 5، حديث 6330

[17] بل جرى من بعض المسلمين في بعض البلدان، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العظيم.

[18] ولمن لا يتفاعل مع حديث الشكوى هذا كونه من مرويات الشيعة، ينبغي عليه أن يتفاعل مع أحاديث الثقلين التي يقول النبي(ص) في ذيل بعض رواياتها «فانظروا كيف تخلفوني فيهما»، أي اعتنوا كيف ستتعاملون معهما من بعدي. راجع ملحق حديث الثقلين آخر الكتاب.

ويمكن القول بأن من النتائج الطبيعية لما جرى على العترة المباركة هو ما جرى على القرآن والمسجد، لأن القرآن صار بيد من يفسر على هواه، ويطبق على هواه، والمسجد عانى مما عانت منه الأمة بشكل عام نتيجة لما جرى على الثقلين – الكتاب والعترة.

ومن المفهوم أنه طالما كان هناك شفاعة وموقف إيجابي أو موقف لا يبخس عمل الإنسان في تعاهد القرآن وتعاهد أعدال القرآن من أئمة العترة النبوية، فإنه يوجد هناك موقف إزاء الانحراف والتعامل الظالم لهذين الثقلين، أي لما تركه رسول الله(ص) الذي هو في المركز من هذا الأمر حيث هو السفير بين اللّه وخلقه في رسالته الخاتمة التي نسخت ما قبلها.

وقد ذكرنا من الأحاديث كيف أن القرآن مثلما يشفّع فيمن يشفع له فإنه أيضاً يصدّق فيمن يشهد عليه بسوء العمل. أيضاً فإن العترة المباركة إذا شكت إلى اللّه سبحانه وتعالى فهي إنما تشكو ليس لذواتها وإنما لأنها منعت من أن تؤدي دورها كما أراد اللّه سبحانه وتعالى، والذي يصب في هدف التوحيد الخالص حيث لا معبود سوى اللّه ولا حاكم سوى اللّه. وبالتالي فإن على المسلم أن لا يغفل عن هذين الأمرين: الشفاعة المأمولة من القرآن ومن أهل البيت(ع) إذا ما تعاهد القرآن بتلاوة وتدبر وعمل وحمل وتعاهد العترة بإنزالها بأحسن منازل القرآن، وبنفس الوقت لا يغفل عن الموقف الصعب الذي سيقفه بين يدي اللّه تعالى إذا كان الخصماء هم القرآن وأهل البيت(ع).

يبقى سؤال: كيف؟

لا شك في أن كمية الوعظ والتوجيه والإرشاد والتبليغ أكبر بكثير من الفائدة التي تنتجها. إذ أننا لو قارنا، ولو للحظات، بين كميات الكتب التي تؤلف وتطبع وتنشر وتوزع، والمحاضرات التي تلقى، والخطب التي تسمع، والمقالات التي تكتب وتنشر على مختلف وسائل الإعلام، والبرامج الإذاعية والتلفزيونية، وساعات الحوار التي لا تعد ولا تحصى على شبكات الانترنت، وحتى المجالس الحسينية في المناسبات المختلفة للنبي(ص) وأهل بيته(ع)، وبين التغيير التي أحدثته كل هذه لأصبنا بخيبة أمل كبيرة، وربما تطرق اليأس إلى بعض القلوب. فالأخلاق هي هي، إن لم تكن أسوأ؛ والعقليات المحدودة هي هي، بل أسوأ إذا لاحظنا مساحة الآراء المعروضة وحجم الانفتاح على الآخرين ومجالات الحرية التي حصل عليها المسلمون لاسيما خارج بلدانهم؛ والنفسيات هي هي دون تغيير يذكر.

السؤال هو: لماذا؟ لماذا هذا الفشل الذريع؟

هل هو فقدان المعلومة؟ ربما، بل هو أكيد في الكثير من الحالات...

هل هو الخطأ في طريقة طرح المعلومة؟ ربما، بل هو أكيد أيضاً...

هل هو في عدم ملائمة الظروف على مستوى الفرد والمجتمع؟ أكيد...

ولكن لا هذه الأسباب تقبل كعذر نهائي بحيث لا يمكن عمل شيء تجاهها، ولا ينبغي للمسلم أن ييأس من الحال مهما بلغت من السوء، لاسيما إذا كانت هناك أنوار عديدة من هنا وهناك تقول بأن الحق يصل إلى البعض، وإن كان أقل بكثير مما يجب، وأن هناك من يعبر على غياب المعلومة والطرح الخطأ والظروف الصعبة إلى شاطئ الهداية.

للجواب على هذا السؤال: كيف ننـزلهم(ع) بأحسن منازل القرآن؟ نقول بأن الجواب يأتي، مرة أخرى، من الثقلين: الكتاب والعترة نفسها. فقد قلنا، عندما تحدثنا عن حمل القرآن وما يقابلها من منـزلة للعترة المباركة، أن هذا هو الدعوة إلى القرآن وإلى العترة، وأن هذا أفضل ما يكون باستخدام القرآن نفسه والعترة نفسها. ذلك لأننا لن نجد كلاماً أفضل من القرآن كي يكون الدليل إلى القرآن والعترة، ولن نجد أفضل من مواعظ العترة وتوجيهاتها كي تكون الدليل إلى القرآن والعترة.

وهكذا نصل إلى ما قلناه سابقاً من أن كلمتهم(ع) ‹‹**أحيوا أمرنا**›› هي المفتاح في ذلك كله، فإن إحياء أمرهم الذي هو، حسب توجيهات الإمام(ع)، نشر محاسن كلامهم ‹‹**فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا**››[1]، هو الذي سيدل الناس على القرآن بجوانبه المختلفة، وهو الذي سيدل الناس على العترة النبوية التي يحتاجون إليها في تبيان التفسير الصحيح للقرآن والسنة النبوية الصحيحة – قول النبي(ص) وفعله وتقريراته.

وهنا لا نريد أن ننتقص من الجهد الهائل الذي قدمه ويقدمه المسلمون – علماء وباحثون وغيرهم – من أتباع المذاهب الأخرى في الدعوة إلى القرآن وتبيان خصائصه ونواحي إعجازه، ولكننا نعتقد أن الأمن من الضلال هو بلزوم أئمة العترة النبوية الذين إنما نلزم طريقتهم وننقطع إليهم بخوعاً لأوامر اللّه تعالى الذي هو أعرف بهم وبمنازلهم التي أنزلهم بها. قال الإمام الرضا(ع) لابن أبي محمود: ‹‹**إذا أخذ الناس يميناً وشمالاً فالزم طريقتنا**››، وهذا ينتج ‹‹**فإنه من لزمنا لزمناه**››، وأما من أدبر ‹‹**ومن فارقنا فارقناه**››[2].

وهكذا، فإننا عندما نلزم طريقتهم ولا نتعداها فذلك لأن:

أولاً: فيها ما يحتاج إليها الناس – كما قال الصادق(ع) عندما سئل عن الجفر: ‹‹**هو جلد ثور مملوء علماً**››، فسئل: فالجامعة؟ قال(ع): ‹‹**تلك صحيفة طولها سبعون ذراعاً في عرض الأديم مثل فخذ الفالج، فيها كل ما يحتاج الناس إليه، وليس من قضية إلا وهي فيها، حتى أرش الخدش**[3]››[4].

وقال(ع): ‹‹**إن عندنا ما لا نحتاج معه إلى الناس، وإن الناس ليحتاجون إلينا، وإن عندنا كتاباً إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط علي عليه السلام، صحيفة فيها كل حلال وحرام**››[5]؛

ثانياً: وفيها ما هو أعمق وأدق وأصدق من غيره – كما أشرنا إلى ذلك سابقاً –؛

[1] عيون أخبار الرضا(ع)، الصدوق، ج 2، ص 275

[2] نفسه، ص 272

[3] أي عقوبة الخدش، أي حتى الشيء البسيط

[4] الكافي، ج 1، ص 241

[5] نفسه

ثالثاً: وما في غيرها ما لا يؤمن عند اتباعه من الانحراف بعيداً عما أراده اللّه ورسوله(ص).

هذا عن المعلومة.

وأما طريقة إيصال المعلومة، فقد قلنا أن القرآن والعترة أوضحا أن ذلك يكون بأوضح بيان، وبعلم حقيقي، وحسب عقول الناس، قال النبي(ص): «**إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم**»[1]، وقال علي(ع): «**كلموا الناس على قدر عقولهم؛ أتحبون أن يكذبوا الله ورسوله؟!**»[2]، وبالحكمة والموعظة الحسنة وبالجدال بالتي هي أحسن. أما الصراخ والتشاتم والاتهامات والسخرية وغير ذلك فلا يجدي نفعاً، بل يزيد الطرف الآخر ابتعاداً، وهو أمر ربما سيجعل الذي يطرح المعلومة مسؤولاً أمام اللّه تعالى عن ابتعاد الطرف الآخر، لأن الإنسان مسؤول عن كل كلمة ﴿**ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد**﴾ ق:18.

إن ثورة المعلومات فسحت المجال بشكل غير مسبوق لإيصال الحق، كما فسحت المجال لإيصال الباطل. وإن بعض الباطل هو طريقة السباب والصراخ وتسجيل النقاط وعدم خلوص النية والعناد، ما يشكل القسم الأكبر من حوارات شبكة الانترنت والفضائيات. إن أحد الأسباب الرئيسية لهذا هو البعد عن طريقة عترة النبي(ص)، التي هي فسح المجال للآخر بكل حرية ليقول ما يشاء، بل تشجيعه على التفكير وطرح المسائل، كما أشرنا إليه في سيرة علي(ع) مع العراقيين في الفترة القصيرة من خلافته في الكوفة. وذلك في مقابل طريقة المنع من السؤال والحديث وإغلاق العقول التي كانت سمة بارزة من سمات الحكام عبر العصور، كيف لا والسؤال يتحدى طريقة حكمهم ونتائجه، بل أساسه ومصدره.

لذا، فإن على أولياء العترة النبوية أن يستنوا بسنة أوليائهم الطاهرين في قبول آراء الآخرين وأن لا تضيق صدورهم بالسؤال أو النقد أو الإشكالات والشبهات، بل إن هذه هي التي تفسح المجال للبحث في الأمور والوصول إلى فهم أدق وإيمان أعمق. كما أن عليهم أن يبتعدوا تماماً عن سوء الخلق في الحوار والكلام والنقاش والطرح لأن ذلك من شأن من كانت بضاعته فاسدة، فلم اتخاذ مثل هذه الأساليب وأنتم بضاعتكم هي الأرقى.

---

[1] الكافي، ج1، ص 23

[2] صحيح البخاري، ج 4، ص 44، نقلاً عن تذكرة الفقهاء، العلامة الحلي، ج 4، ص 84

أخيراً، بخصوص الظروف التي يجد البعض نفسه فيها مما لا يساعد على العمل من أجل إنزال العترة المباركة بأحسن منازل القرآن – إن هذه الظروف منها ذاتية ومنها موضوعية. فأما بخصوص الذات، فإن الناس يختلفون في قابلياتهم وملكاتهم ومزاجهم، ولكن اللّه تعالى أعدل من أن يأمرهم بما لا يستطيعون، إذ ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**﴾ البقرة:286، وبالتالي سوف يجازيهم على قدر عقولهم، قال النبي(ص): «**وإنما يرتفع العباد غداً في الدرجات وينالون الزلفى من ربهم على قدر عقولهم**»[1].

وأما الظروف الموضوعية، الاجتماعية والعائلية والمعاشية والسياسية، فإن اللّه تعالى يعلم ذلك كله ولا يمكن – وهو العدل المطلق – أن يحاسب الإنسان على ما لا يمكنه القيام به. ولكن من قال بأن كلمة مجلجلة من عالم خطيب مفوّه في جمع مشهود من الحاضرين لها أثر أكبر من كلمة بسيطة من عبد بسيط يلقيها لزوجته أو ابنه في كسر بيت لا يلقي الناس له بالاً؟ كم من كلمة بسيطة ألقيت على صبي أو شاب كان لها أبعد الأثر في حياته من كلمات كبيرة وكثيرة سمعها في حياته. لهذا، ينبغي على المرء أن لا يقلل من قيمة ما يمكنه القيام به، من قول أو فعل، قال النبي(ص): «**إتق الله ولا تحقرن شيئاً من المعروف، ولو أن تلقى أخاك ووجهك مبسوط إليه**»[2]، فإننا نعبد رباً كرمه لا ككرم الناس وعلمه لا كعلم الناس، فهو يعلم أنك لا تستطيع غير هذه الابتسامة التي تلقيها بنية صافية وبمحبة بوجه أخيك، فيثيبك عليها. ولعل الأهم في هذا المجال هو إعطاء النموذج الطيب، أي كما قال الأئمة(ع): «**كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم**»[3]، وهذا لعمري يتأتى للجميع، وربما أهم ولاسيما لمن لم يكن بإمكانه أن يدعو بالقول، خطابةً أو تأليفاً أو ما إلى ذلك.

ويبقى اللّه تعالى هو الموفق إلى الخيرات بإذنه.

---

[1] تحف العقول، ص 54

[2] بحار الأنوار، ج 73، ص 355

[3] الكافي، ج 2، ص 78

خاتمة

بعد أن بيّنّا منازل القرآن ودوره عند المسلمين، وما يقابلها من المنازل التي ينبغي أن ينـزل فيها أهل البيت من العترة النبوية الشريفة حسب دعوة أمير المؤمنين(ع): ‹‹**أنزلوهم بأحسن منازل القرآن**››، أحب هنا أن أجمع ذلك كله بما يؤكد هذه الحقيقة، حقيقة تفرّد القرآن والعترة. حقيقة أن القرآن الكريم فريد من بين الكتب، ومن بين ما يقرأ، ومن بين ما يوضع كتشريع، ومن بين ما يوضع كمنهاج للأخلاق، ومن بين ما يوضع كأطر للنظام الاجتماعي أو العلاقات بين الناس على مختلف درجاتها، حتى أن كلمات اللغة العربية التي تحمل هذا القرآن تعجب لتفرده عن غيره مما عبرت عنه كما في التعبير الجميل الذي تخيله الشاعر المرحوم السيد مصطفى جمال الدين:

تَتساءلُ الكلِماتُ وهْيَ تُقِلُّهُ   مِنْ أينَ هذا الفارِسُ المَتَفَرِّدُ؟

فكأن القرآن فارس راكب فوق الكلمات العربية وهذه الكلمات تتساءل من أين هذا الفارس الفريد من نوعه!

بذات الوقت أو بنفس الميزان نجد هذا التفرد لأئمة العترة النبوية الشريفة حيث تفردوا عن الناس جميعاً بحيث أعلن الكثيرون عن تفردهم(ع) أنهم(ع) لا يقاس بهم غيرهم. فقد أخرج المتقي الهندي[1] قول النبي(ص): ‹‹**نحن أهل بيت لا يقاس بنا أحد**››. وأخرجه المحب الطبري[2] من قول أنس.

وروى أبو نعيم[3] أن أمير المؤمنين(ع) قال: ‹‹**نحن أهل بيت لا يوازينا أحد**››.

---

[1] كنـز العمال، ج 6، ص 218

[2] ذخائر العقبى، ص 17

[3] حلية الأولياء، ج 7، ص 201

بل أن النبي(ص) قال كما في رواية الهيثمي[4] أن سلمان قال: أنزلوا آل محمد(ص) بمنـزلة الرأس من الجسد، وبمنـزلة العينين من الرأس، فإن الجسد لا يهتدي إلا بالرأس، وإن الرأس لا يهتدي إلا بالعينين.

وقد روي ذلك أيضاً عن إمام الحنابلة الإمام أحمد بن حنبل رحمه اللّه على ما رواه ابن الجوزي[5] حيث سأله ابنه عبد اللّه عن طبقات الصحابة، فعندما ذكر البعض ولم يذكر علياً(ع) سأله عبد اللّه عن ذلك، فقال أحمد: «**يا بني، علي بن أبي طالب من أهل البيت لا يقاس بهم أحد**».

وقد جاء الجمع بين أهل البيت(ع) والقرآن بأشكال مختلفة وبألفاظ مختلفة وبتعابير مختلفة، كلها حث من رسول اللّه(ص)، الذي هو أعرف بالقرآن وأعرف بأهل بيته، على وضعهم في الموضع الأعلى بين الأشياء، فقال[6]: «**أدبوا أولادكم على ثلاث خصال: حب نبيكم، وحب أهل بيتي، وقراءة القرآن، فإن حملة القرآن في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفيائه**». وهذا الحديث يعيد إلى الذاكرة ما قلناه في فصل سابق عن حملة القرآن وعن الدعوة لأهل البيت(ع)، أو إحياء أمرهم كما عبروا، حيث إننا إذا أنزلناهم(ع) بأحسن منازل القرآن فإننا نجعل لهم منـزلة حمل القرآن بأن ندعو إليهم، وعند ذاك إذا كان حملة القرآن في ظل اللّه يوم لا ظل إلا ظله فإن الذين يدعون إلى العترة المباركة كما يدعون إلى القرآن سيكونون في ظل اللّه يوم لا ظل إلا ظله.

إن تفرد القرآن الكريم في لغته وفي تشريعاته وفي أطره الأخلاقية وغير ذلك يقابلها التفرّد الذي للعترة الشريفة في ذلك. هذا التفرد لم يبق في الإطار النظري حيث آيات القرآن والأحاديث النبوية، وإنما طبقت على أرض الواقع في سيرتهم وهديهم وأخلاقهم وقيامهم بما يستطيعون رغم الظروف ورغم الدفع عن مراتبهم ودورهم، ولكنهم

---

[4] المجمع، ج 9، ص 172

[5] طبقات الحنابلة، ص 120؛ أيضاً فضائل أحمد، ص 163، نقلاً عن معجم الرجال والحديث، محمد حياة الأنصاري، ج 2، ص 80

[6] كنـز العمال، ج 8، ص 278

أثبتوا فرادتهم في كل مجال. فهذا الخليل الفراهيدي صاحب علم العَروض يُسأل عن السبب في تقديمه علي(ع) على غيره من الصحابة فيقول: إحتياج الكل إليه واستغناءه عن الكل دليل على أنه إمام الكل[7]. وهذا تعبير دقيق جاء من نظر دقيق إلى ما كان عليه الأمر بين علي(ع) والآخرين حيث كانوا يلجأون إليه فيما يصعب عليهم من المسائل. وحصل نفس الشيء مع أولاده الطاهرين(ع) مع حكام زمانهم، في حين لم يسمع أن أحداً منهم(ع) لجأ إلى أحد من الناس في تفسير آية أو حديث أو حل معضلة كائناً ما كانت.

وإذا ما قلنا أن الإسلام هو عبارة عن أصول، أي العقائد، وفروع، أي العبادات والأحكام والمعاملات، وأخلاق ومعارف مختلفة، ومن ثم هناك تاريخ الأمة الإسلامية، إضافة إلى الإطار اللغوي والبلاغي للتعبير عن ذلك، فإن أي باحث يستطيع وبكل سهولة أن يرى كيف أن أئمة العترة النبوية الشريفة هم ليسوا فقط المتفردين بالقيام بتبيان هذه الأمور جميعاً، ولكن بأنهم قد جسدوها تجسيداً حقيقياً فصاروا قرآناً ناطقاً وصار بيدهم النظرية والتطبيق جميعاً.

أكثر من ذلك، فإن الباحث يستطيع أن يرى الفرق بينهم وبين غيرهم من أصحاب رسول الله(ص) أو أئمة المذاهب أو أئمة الحديث أو المؤرخين أو الباحثين أو الخطباء والمتكلمين، وذلك فيما وصل منهم من علوم الإسلام. فإذا ما أخذنا شذرات من ذلك بخصوص القرآن الكريم بالذات نجد مثلاً:

القرآن يقول بأن الله تعالى ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**﴾ الأنعام:103،

فنجد أئمة أهل البيت(ع) يعلمون الناس أن رؤيته سبحانه مستحيلة لا في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك ليس فقط لأن القرآن قال كذلك وهم يؤكدون، بل ويثبتون ذلك منطقياً بقولهم أنه من قال بالرؤية فإنه سيحدّه، ومن حدّه فقد جعله في حيّز معين محدود[8]، مما فشل الآخرون فيه فقالوا بجواز الرؤية في الآخرة اعتماداً على حديث يخالف صريح القرآن[9].

---

[7] أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، ج 6 ص 345

[8] نهج البلاغة، الخطبة 1، وحديث الرضا(ع)، الكافي، ج 1، ص 95، وتوبيخه لهم بأنهم يوقعون باعتقادهم بإمكانية رؤية الله في الآخرة النبي(ص) في التناقض بين الوحي المنـزل الذي ينفي الرؤية وبين مثل هذه الأحاديث الموضوعة.

[9] سنن الترمذي، ج 4، حديث 2679، والمعجم الكبير، الطبراني، ج 2، ص 294، وغيرهما

وفيما يخص العبادات، مثلاً، فإن القرآن الكريم يقول ببدايات ثلاث لأوقات الصلوات الخمس، قوله تعالى: ﴿**أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر**﴾ الإسراء:78، ونجد أن أئمة أهل البيت(ع) يعلمون الناس ذلك في فقههم، في حين أن الآخرين خالفوا ذلك، في الوقت الذي أراد النبي(ص) أن يخفف عن أمته كما قال بعض من روى تلك الأحاديث، أحاديث الصلاة عنه[10].

وفي المعاملات، بينما نجد القرآن الكريم يقول بشاهدين في الطلاق ولا يوجب الشهود في الزواج، نجد أن أئمة أهل البيت(ع) يعلمون الناس لزوم الشهادة بشاهدين في الطلاق وباستحبابها فحسب في الزواج، في حين نجد الآخرين من علماء المذاهب الأخرى عكسوا الآية تماماً فأوجبوا الشهود في الزواج ولم يوجبوه في الطلاق[11].

ونقرأ كيف أن القرآن الكريم يدعو إلى العفو وإلى الحلم وإلى المغفرة عن ذنوب الآخرين والصفح، فنجد أئمة أهل البيت(ع) يجسدون ذلك أروع تجسيد بما يبهر العقول كما ذكرنا في سيرة علي وأولاده الطاهرين(ع) حيث عفوا عن أكثر أعدائهم خبثاً وشراسة، فكانوا المجسدين بحق لما دعى إليه القرآن الكريم: ﴿**ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، إدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**﴾ فصلت:34، فنراهم لا يكتفون بالعفو عمن يعتدي عليهم، بل ويبادرون إلى جواب الاعتداء بالنصيحة والعطاء الجزيل مما يبهر العقول حقاً[12]. هذا في الوقت الذي نجد أن الآخرين مهما بلغوا من التسامح

---

10 منها صحيح البخاري، ج 1، كتاب الأذان، الحديث 20، وصحيح مسلم، ج 2، ص 659، باب 23، حديث 957، وكذا باقي أصحاب الصحاح الستة وغيرهم

11 وإن كان ذلك مشهوراً، ولكن يمكن مراجعة المصادر الفقهية للفريقين كالفقه على المذاهب الخمسة، الشيخ محمد جواد مغنية، فصل الزواج، العقد وشروطه، ص 296، وفصل الطلاق، الإشهاد على الطلاق، ص 415. وتجدر ملاحظة أن الزواج نادراً ما يكون عن إكراه مثلاً بحيث يستدعي الشهود، في حين أن الطلاق تترتب عليه حقوق كما يتضمن مشاكل – وإلا لما حصل – مما يستدعي الشهود من أجل عدم التلاعب؛ هذا، ناهيك عن أن البحث عن شهود للطلاق ربما سيؤدي إلى تخفيف سخونة الموقف وبالتالي العدول عن الطلاق. من هذا تعرف كيف أن فقه العترة المباركة هو الذي يستقيم مع العقل، كما هو شأن باقي الأحكام الشرعية.

12 أنظر مثلاً دلائل الإمامة، لابن جرير الطبري، ص 311، وتاريخ بغداد، ج 13، ص 30، وكيف أن الإمام الكاظم(ع) لم يكتف بالعفو عن العُمَري الذي شتمه، بل بادر إلى زيارته في بستانه وإعطائه المال.

فإنهم لم يستطيعوا أن يجسدوا ذلك، هذا ناهيك عما بدر منهم من بوادر الغضب والعقوبة والتنكيل بشكل واضح[13].

وفي السياسة، لا يزال الناس في الشرق والغرب يعتقدون أن السياسة هي فن الكذب والدجل وخداع الناس الذي يستطيع السياسي إخراجه إلى الناس بطريقة مقنعة، وكلما كان السياسي أكثر قدرة على التلبيس على الناس بحيث يظهر كذبه صدقاً ووعوده ممكنة – على الرغم من أنه أخلفها مرات ومرات – كلما كان أكثر نجاحاً. وقد سار ملوك الدول الإسلامية – الذين تسموا باسم الخلفاء –، بعد أن صارت الخلافة ملكاً عضوضاً ثم ملكاً جبرياً، على هذا المنوال مما أعطى الانطباع لدى المسلمين أن السياسة هي هي ولا يمكن أن يكون فيها أخلاق أو قيم أو صدق. ولكن علياً؏ علم الناس أن السياسة يمكن أن تقوم على الأخلاق والقيم والصدق، تستخدم ذكاء الصالحين لا دهاء الغادرين، ووعود المؤمنين لا وعود المنافقين الذين يعدون ولا يوفون، فكان علي؏ يقول: «**والله ما معاوية بأدهى مني، ولولا كراهية الغدر لكنت أدهى الناس**». ولكن إلى الآن نسمع من يقول بأنه في حقل السياسة كان علياً؏ فاشلاً في حين أن غيره – كمعاوية بن أبي سفيان – كان ناجحاً، وكأن هؤلاء لا يرون أين صار علي؏ في قلوب وعقول أوليائه وغير أوليائه وأين صار الآخرون كمعاوية وأضرابه، فإن دنيا علي؏ زالت ودنيا معاوية زالت ولم يبق منهما إلا الدروس والنموذج، ولا يجادل إثنان فيمن ظهر على الآخر وبما لا يقاس.

والذي يعجب له المرء حقاً أن هؤلاء يتهمون ملوك الدولة الإسلامية بأنهم هم وراء تأسيس النهج اللاعقلاني والنهج الإقصائي والنهج الدكتاتوري والنهج العنفي والذي عانى منه المسلمون ولا يزالون ثم يقولون بأن أولئك الملوك كانوا أعرف بالسياسة من علي؏ الذي كان – هو وأولاده الطاهرون؏ – وراء تأسيس النهج العقلاني والنهج الاستيعابي والنهج التشاوري والنهج السلمي والذي يحتاج إليه العالم الإسلامي وغيره بأشد ما يكون. ولكن البعض يقول الشيء ونقيضه جهلاً بالمصطلحات، لأن السياسة هي إدارة البلاد وليس الكذب والتحايل والمكائد والمؤامرات التي صارت وكأنها هي السياسة أو كأن السياسة إذا خلت منها صارت شيئاً آخر؛ هذا من جهة. من جهة أخرى، هي أن

[13] راجع الإمامة والسياسة، إبن قتيبة الدينوري؛ بل راجع كتب السيرة والتاريخ أياً شئت.

الإمام علي(ع) وإن كان يعلم الطريق إلى السياسة حسبما يفهم هؤلاء (كما في قوله الوارد أعلاه)، إلا أنه مكلف بتأسيس النموذج الحق للسياسي، سواء في المعارضة أو في الحكم، وذلك – ببساطة – لأن دوره(ع) يتجاوز زمن حياته أو المدة التي قضاها معارضاً ثم حاكماً، فهو دور الإمام الذي يوضح الطريق الصحيح في كل شيء، ومنها السياسة والحكم.[14]

نعم، يمكن أن تثار مسألة بخصوص أن الإمام(ع) في الوقت الذي كان ملتزماً بالطريق الحق في واقعه هو وأيضاً لأجل النموذج الذي نشير إليه فإن ذلك الالتزام الصارم – بعيداً عن المؤامرات والمكائد والكذب والغش وغيرها مما صار متلازماً مع السياسة – أدى إلى انتصار أهل الباطل على أهل الحق الذي كان هو يمثله ويمثلهم. والجواب – حسبما أرى

---

[14] في كتاب "كتب وشخصيات" للمفكر الإسلامي المرحوم سيد قطب علق على كتاب "العناصر النفسية في سياسة العرب" لشفيق جبري في هذا الخصوص بالقول: "إن معاوية وزميله عمرا (إبن العاص) لم يغلبا علياً لأنهما أعرف منه بدخائل النفوس، وأخبر منه بالتصرف النافع في الظرف المناسب، ولكن لأنهما طليقان في استخدام كل سلاح، وهو مُقيّد بأخلاقه في اختيار وسائل الصراع. وحين يركن معاوية وزميله إلى الكذب والغش والخديعة والنفاق والرشوة وشراء الذمم لا يملك عليّ أن يتدلى إلى هذا الدرك الأسفل. فلا عجب ينجحان ويفشل، وإنه لفشل أشرف من كل نجاح.

ثم يوضح السبب وراء تلك النتيجة: "على أن غلبة معاوية على علي، كانت لأسباب أكبر من الرجلين: كانت غلبة جيل على جيل، وعصر على عصر، وإتجاه على إتجاه. كان مدّ الروح الاسلامي العالي قد أخذ ينحسر، وارتد الكثيرون من العرب إلى المنحدر الذي رفعهم منه الإسلام، بينما بقي عليّ في القمة لا يتبع هذا الانحسار، ولا يرضى بأن يجرفه التيار. من هنا كانت هزيمته، وهي هزيمة، أشرف من كل انتصار".

ثم يوضح للغافلين إلى اليوم:"فما كانت خديعة المصاحف ولا سواها خديعة خير لأنها هزمت علياً ونصرت معاوية، فلقد كان انتصار معاوية هو أكبر كارثة دهمت روح الإسلام التي لم تتمكن بعد من النفوس. ولو قد قُدِّر لعليّ أن ينتصر لكان انتصاره فوزاً لروح الإسلام الحقيقية: الروح الخلقية العادلة المترفعة التي لا تستخدم الأسلحة القذرة في النضال"

ولم يكتف بإدانة منهج الغدر الذي يدعو إليه الكثيرون، بل ويدعو إلى منهج الطهارة الذي يدينه هؤلاء:"على أننا لسنا في حاجة يوماً من الأيام أن ندعو الناس إلى خطة معاوية، فهي جزء من طبائع الناس عامة؛ إنما نحن في حاجة لأن ندعوهم إلى خطة عليّ، فهي التي تحتاج إلى ارتفاع نفسي يُجهد الكثيرين أن ينالوه".

وينبه إلى عالمية منهج علي(ع): "ولن يحتاج الإنسان أن يكون شيعياً لينتصر للخلق الفاضل المترفع عن (الوصولية) الهابطة المتدنية، ولينتصر لعلي على معاوية وعمرو، إنما ذلك انتصار للترفع والنظافة والإستقامة".

وأخيراً ينبه: "ويخطئ من يعتقد إن النجاح العملي هو أقصى ما يطلبه الفرد وما تطلبه الإنسانية، فذلك نجاح قصير العمر ينكشف بعد قليل ..."

– هو أن الأمة لم تكن مهيئة لقبول وطاعة ونصرة إمام الحق(ع) وأصحابه وأتباعه حتى ولو سلك طريق معاوية في شراء الذمم وبث الإشاعات والافتراءات وسائر التصرفات التي نقلت عنه وذلك لأن المشكلة في النفوس أولاً، وثانياً ولأن معاوية ما كان سيتوقف عن نفس أساليبه بل كان سيزيد في بذل الأموال وبث الإشاعات وقتل الأنصار وشن الغارات فما كانت النتيجة ستتغير كثيراً. والدليل على هذا هو أن الناكثين – طلحة والزبير ومن معهما – خرجا على الإمام(ع) وهو للتو قد بدأ في الحكم، فقد قال: «**ما أمهلاني حولاً ولا شهراً، وهذا طلحة والزبير ليسا من أهل النبوّة ولا من ذرّية الرسول، حين رأيا أنّ الله قد ردّ علينا حقّنا بعد أعصر، فلم يصبرا حولاً واحداً ولا شهراً كاملاً حتى وثبا علي دأب الماضين قبلهما، ليذهبا بحقي، ويفرقا جماعة المسلمين عني**»[15]. هذا عن هذين الصحابيين الكبيرين السابقين إلى الإسلام، فكيف بمعاوية وأضرابه.

وعندما يقرأ الناس القرآن الكريم ويستمعون إلى أعلى ما تصل إليه البلاغة وأرادوا أن يقرأوا كلام الناس فإن أسماعهم تتلذذ بسماع خطب أمير المؤمنين(ع) وأدعية أولاده المعصومين(ع) بما وصف بأنه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين، في الوقت الذي لا تكاد تجد شيئاً يذكر عند غيرهم(ع).

وعندما يكتشف الناس الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، مما أشارت إليه آياته البينات ثم صار الإنسان يكتشفه كل حين، نجد أن أئمة أهل البيت(ع) يقومون بما يوازي ذلك من خلال ما هو مبثوث في خطبهم وأدعيتهم وما إلى ذلك. وإلا فكيف عرف الإمام(ع) أن الغلاف الغازي الذي يحيط بالكرة الأرضية ينتهي في مكان ما بحيث يقول: «**يا من كَبَسَ الأرضَ على الماءِ، وسَدَّ الهواءَ بالسَّماء...**» إلى آخر الدعاء[16]، مما لم يكن يعرفه البشر في حينه.

---

[15] الإرشاد، ج 1، ص 249، وبحار الأنوار، ج 32، ص 114، رواية 91

[16] مصباح المتهجد، الطوسي، ص 79

ومثلما أخبر القرآن الكريم بأخبار مستقبلية، كما في قصة حرب الروم والفرس في أول سورة الروم، فإن الأئمة(ع) أخبروا بالكثير من ذلك. نجد علياً(ع) يخبر عن خراب ديار وظهور أقوام على غيرهم وغير ذلك[17]. ونجد أولاده(ع) يخبرون بمثله، مثل إخبار الإمام الصادق(ع) لعبد اللّه بن الحسن(ع) بمقتل ولديه وبأن الملك سيكون في بني العباس[18]. وكثير غير ذلك مما روي عن الأئمة(ع) بأجمعهم.

وفي إرساء المناهج العامة للتفكير والتربية والتعليم، نجدهم المبرزين في كل ذلك، بحيث كانوا هم الذين أفادوا الأمة، بل الأمم، من الأطر العامة التي في القرآن الكريم، والتي لعله من الصعب على غيرهم أن يتمثلها ويخرجها بأطرها التي يمكن تطبيقها في الواقع. فهذه الحضارة الغربية التي تقوم، فيما تقوم عليه، على المنهج التجريبي، متجاوزة ما كان من الحضارة الإغريقية في الاعتماد على العقل والمنطق فحسب، كل ذلك من تأسيس أئمة أهل البيت(ع) دون أدنى شك.

فهذا علي(ع) يقول: ‹‹**العقل عقلان: عقل الطبع وعقل التجربة، وكلاهما يؤدي المنفعة**››[19]، ويقول: ‹‹**التجارب علم مستفاد**››[20] وغير ذلك الكثير. ولكن لعل الإمام جعفر الصادق(ع) هو المؤسس الحقيقي لذلك[21] (وليس روجر بيكن[22])، في الأمر به تطبيقاً كما نقل عن تعليماته لبعض تلامذته كجابر بن حيان الكيميائي الشهير، الذي قال، مشيراً إلى

---

[17] راجع شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد، ج 2، ص 286، وكتاب الأربعين، الماخوزي، ص 480

[18] ينابيع المودة، ج 3، ص 50، ومناقب أهل البيت(ع)، الشيرواني، ص 268

[19] ميزان الحكمة، ج 3، ص 2042

[20] نفسه، ج 1، ص 376

[21] الفهرست، إبن النديم، ص 420، والذريعة إلى تصانيف الشيعة، الطهراني، ج 5، ص 109، الرسالة 453 المسماة "رسالة الصادق عليه السلام" وص 120، الرسالة 486 المسماة "الجفر الأسود"، ووفيات الأعيان، إبن خلكان، ج 1، ص 327، وأعيان الشيعة، محسن الأمين، ج 4، ص 31 مقالة أحمد فؤاد الأهواني الذي يذكر ريادة جابر بن حيان في إرساء قواعد العلم التجريبي، ومقال محمد يحيى الهاشمي الذي يؤكد على أن الإمام الصادق(ع) هو الذي يقف وراء تأسيس جابر للإطار التجريبي في البحث.

[22] روجر بيكِن (1214-1294م) الذي يعتبره الغربيون من أرسى أسس المنهج التجريبي في البحث، وإن اعترفوا أنه قد اعتمد على التراث الكيميائي في ذلك. (موسوعة وِكبيِديا على شبكة الانترنت)

الصادق(ع): "وحق سيدي، لولا أن هذه الكتب باسم سيدي – صلوات اللّه عليه – لما وصلت إلى حرف من ذلك إلى الأبد"[23].

ولعل المنهج العقلي هو الأوضح في الفارق الكبير بينهم(ع) وبين غيرهم، حتى علموا الناس بأن العقل يعتمد عليه على أساس أن الحسن والقبح العقليين مثبتان، بمعنى يمكن الركون إليهما بعيداً عن الشرع، في حين أن المذاهب الأخرى نفتهما، وكان من أثر ذلك ظهور ما لا يعقل في التفسير والحديث والفقه. فمثلما دعى القرآن الكريم إلى العقل في خطابه للمتفكرين والعالمين ومن يعقلون وأولي الألباب وغير ذلك، وتوجيهه الناس إلى إعمال العقل في الخلق وفي إثبات الخالق والتصديق بالنبوات وغيرها، دعى أئمة العترة النبوية إلى العقل، بل أسسوا المنهج العقلي في الإسلام. فهذا أمير المؤمنين(ع) ينبه إلى الغنى الحقيقي والفقر الحقيقي بقوله: ‹‹**إن أغنى الغنى العقل، وأكبر الفقر الحمق**››[24]. وهذا الإمام الكاظم(ع) يفصل موضوع العقل وتطبيقاته وآثاره في وصية طويلة لتلميذه هشام بن الحكم، منبهاً إلى آيات الكتاب العزيز التي تؤكد على دور العقل والذين يعقلون، وما جاء في الحديث الشريف، ثم يطبق على التقوى وطلب الدنيا والآخرة والثقة بالنفس والكثير من الموارد مما لم يؤثر من غيره[25]. بل إنهم أعلنوا أن الحجة بين اللّه وعباده بعد النبوات هو العقل، يقول الإمام الهادي(ع): ‹‹**العقل، يعرف الصادق على الله فيصدقه، والكاذب على الله فيكذبه**››[26].

وفي المنهج التربوي، نجد أئمة العترة المباركة يوجهون الناس، ليس بما يستفاد منه كنصائح هنا وهناك فحسب، ولكن أيضاً إلى ما يمكن أن يؤطر لمنهاج تربوي يمكن تطبيقه على مستوى الفرد والمجتمع. فهم يتناولون النفس وأهواءها وشهواتها، والعلاقات بين الناس وبعضهم، والعلاقة مع اللّه تعالى، وصراع العقل والشهوة، والحسد والغضب والعُجب، وغير ذلك مما من شأنه أن يعين الفرد على السلوك الصحيح مع نفسه ومع

---

[23] الإمام جعفر الصادق، عبد الحليم الجندي، ص 294

[24] نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ج4، الكلمة 38

[25] وصية الكاظم(ع) لتلميذه هشام بن الحكم، الكافي ج 1، ص13، وتحف العقول، ص 383

[26] الكافي ج 1، ص 25

الآخرين، وهو ما يمكن أن يساعد على حصول جو اجتماعي عام من السلوك الحسن والتوجه الصحيح باتجاه البناء لا الهدم[27].

ومثلما قام القرآن بتعليم الناس أدب الحوار، حتى أنه أمر بعدم مجادلة أهل الكتاب إلا بأحسن ما يمكن[28]، بل إن اللّه تعالى أمر نبيه وصفيه(ص) أن يهيئ أفضل الأجواء للحوار مع الكافرين وغيرهم[29]، نجد أئمة أهل البيت(ع) يحاورون حتى الكافرين الجاحدين المنكرين لوجود اللّه أصلاً، مثلما ورد في محاورات الصادق(ع) مع زنادقة عصره[30]. بل قبل ذلك، في محاورات أمير المؤمنين(ع) مع من خرج عليه من الناكثين والقاسطين والمارقين[31]، ومحاورات الزهراء(ع)[32]، ومحاورات الحسنين(ع)[33]، ثم في المحاورات العلمية بين الأئمة الآخرين(ع) والعلماء والخلفاء[34].

ولعل من أبرز ما يمكن أن يجده الباحث من فارق كبير في مسألة من المسائل بين نهج أئمة العترة النبوية وغيرهم هو في مسألة الحرية، تلك الحرية التي أعطاها اللّه تعالى لخلقه في كل شيء، حتى في أن لا يؤمنوا به[35]. فقد كانت طريقة الآخرين هي القسر والتوجيه الحكومي – إن صح التعبير – في قضايا العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات وكل شيء، في حين كان أئمة أهل البيت(ع) يشجعون الناس على الحرية، أي على تنبيههم إلى حريتهم الكاملة وعلى ضرورة الدفاع عنها، كما في قول أمير المؤمنين(ع): «**لا تكن**

---

27 وصية الكاظم(ع) لتلميذه هشام بن الحكم، الكافي ج 1، ص13، وتحف العقول، ص 383؛ وراجع كلمات الإمام علي(ع) في القسم الثاني من الكتاب في الحديث عن سيرته وأخلاقه(ع).

28 قوله تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ العنكبوت:46

29 قوله تعالى: ﴿وقل أنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ سبأ:24

30 الكافي، ج 1، ص 76، و ص 128، والتوحيد، المفضل بن عمر، ص 7، والتوحيد، الصدوق، ص 133

31 راجع كتب التاريخ في وقعات الجمل والنهروان وصفين، كتاريخ الطبري والكامل في التاريخ لابن الأثير ومروج الذهب للمسعودي وكتاب الفتوح للكوفي

32 بحار الأنوار، ج 29، ص 280، و السقيفة وفدك، الجوهري، ص 144

33 راجع صلح الحسن للشيخ راضي آل ياسين، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ومقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني، ومقتل الحسين، عبد الرزاق المقرم، وكل من كتب في سيرة الحسن والحسين عليهما السلام.

34 راجع الاحتجاج، الطبرسي، وغيره ممن ذكر محاورات الأئمة عليهم السلام مع الفقهاء والحكام وغيرهم.

35 قوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾ البقرة:256

عبد غيرك وقد خلقك الله حرّاً››[36]، وكما في قول الحسين(ع) يوم كربلاء: ‹‹**كونوا أحراراً في دنياكم**››[37]. وهذا الفارق عدّه مناوئوهم وأعداؤهم تجرئة للناس على الحكام[38]!

إن هذا التميز الواضح لأئمة أهل البيت(ع) من شأنه أن ينبه الناس، علماءهم وعامتهم، ومن يتبع مذهبهم الفقهي(ع) ومن لا يتبعه، إلى دور هؤلاء الأفذاذ في الدنيا. ذلك، أنه من غير المعقول أن تكون جماعة على هذه الشاكلة من التفرد في كل شيء ولا يكون لها الدور الأعلى في هداية البشرية إلى الحق، وفي الأخذ بيدها إلى عمارة الأرض وحل المشاكل ودفع عجلة التطور في الحياة. هذا في النظر إلى أقوالهم وسيرتهم فحسب، فكيف إذا جمعنا ذلك مع النصوص القرآنية والنبوية في الإعلان عن هذا الدور القيادي وأمر الناس باتباعه.

بل لو علم غير المسلمين بما كان عليه هؤلاء الأفذاذ، وبمبلغ علمهم وحكمتهم، وبدرجة حلمهم وتسامحهم ومحبتهم للآخرين، ما سجلوه قولاً وفعلاً، بأجمعهم لم يشذ واحد منهم عن ذلك، لوجدوا أن الإسلام الحقيقي هو ليس ما يسمعون عنه أو يقرأون عنه أو ما صاروا يشاهدونه في وسائل الإعلام المرئية مما يعد سبّة على الإنسانية، ولكنه – للأسف الشديد – ينسب إلى الإسلام...

نعم، هناك من يتسمى بالإسلام ممن لم يعرف من هذا الدين إلا الإسم وبعض طقوس اللّه، على سنّة من الخوارج ‹‹**يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم**›› حسب تعبير النبي(ص)[39]، وهناك إسلام العترة المباركة، عترة الطيبين من آل محمد(ص) ممن ذكرنا شيئاً لا يكاد يفي بالحد الأدنى من سيرتهم العليا وطريقتهم الوسطى. لو علم العالم إسلام آل

---

[36] نهج البلاغة (شرح محمد عبده) ج3: ص 51

[37] بحار الأنوار، ج 45، ص 50، وكتاب الفتوح، الكوفي، ج 5، ص 116

[38] كما في قول معاوية لبعض العراقيين الذين كانوا يزورون الشام: "هيهات هيهات يا أهل العراق لقد فقهكم علي فلن تطاقوا" (تاريخ دمشق، إبن عساكر، ج 69، ص 292)، ويقول: "لقد لمظكم علي الجرأة على السلطان فبطيئاً ما تفطمون" (تاريخ دمشق، ج 69، ص 226).

[39] صحيح البخاري، ج 4، ص 179، وغيره

محمد(ص) لما وسعه إلا أن يعترف بأسبقية هذا الدين والإمكانيات الهائلة التي فيه من إجل إصلاح ما خربه ويخربه الظالمون والمفسدون والجاهلون.

وهكذا، كان الأئمة(ع) من العترة النبوية المباركة هم المتفردين في مقابلة جميع منازل القرآن الكريم، فينبغي للأمة أن تنظر إليهم أنهم هم المَفزَع وأن لا تجعل المشاكل الآنية أو الشخصية أو تراكمات الماضي تقف بينها وبين هذا الينبوع الصافي الذي ليس هناك غيره ما يسير جنباً إلى جنب مع كتاب اللّه تعالى.

بعبارة أخرى: ينبغي على الأمة، إن أرادت تغيير الحال من أمة مَقودة إلى أمة قائدة، من أمة متخلفة إلى أمة متطورة، أن تستجيب لقول علي بن أبي طالب(ع) بخصوص عترة النبي(ص) في دعوته: ‹‹**أنزلوهم بأحسن منازل القرآن**››.

الملاحق

ملحق 1

نسبة كتاب نهج البلاغة إلى الإمام علي(ع)

لما كنا قد استخدمنا نصوصاً كثيرة من كتاب نهج البلاغة الذي يحوي الخطب والمواعظ والرسائل والكلمات القصيرة التي اختارها الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع) فإننا نجد من المفيد أن نقول كلمة بخصوص صحة نسبة هذا الكتاب إلى الإمام علي(ع). ذلك أن البعض من علماء المسلمين شككوا في صحة نسبته كلاً أو جزءاً إلى علي(ع)، والسبب واضح وهو أن بعض ما جاء في الخطب والرسائل بل وحتى الكلمات القصار يصادم ما يريد هؤلاء العلماء أن يثبتوه ويحافظوا عليه من عقيدة بعض المسلمين في أحداث التاريخ الإسلامي بالخصوص. وهنا من المناسب أن نذكر ما قاله شارح نهج البلاغة الأشهر وهو عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي في هذا الموضوع حيث أن التشكيك كان موجوداً في زمانه هو.

قال: "إن كثيراً من أرباب الهوى يقولون: إن كثيراً من نهج البلاغة كلام محدث صنعه قوم من فصحاء الشيعة، وربما عزوا بعضه إلى الرضي أبي الحسن وغيره. وهؤلاء قوم أعمت العصبية أعينهم فضلّوا عن النهج الواضح وركبوا بُنيات الطريق، ضلالاً وقلة معرفة بأساليب الكلام. وأنا أوضح لك بكلام مختصر ما في هذا الخاطر من الغلط فأقول:

لا يخلو إما أن يكون كل نهج البلاغة مصنوعاً منحولاً أو بعضه. والأول باطل بالضرورة لأننا نعلم بالتواتر صحة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين(ع)، وقد نقل المحدثون كلهم أو جلهم، والمؤرخون، كثيراً منه، وليسوا من الشيعة لينسبوا إلى غرض في ذلك. والثاني يدل على ما قلناه، لأن من قد أنس بالكلام والخطابة، وشدا طرفاً من علم البيان، وصار له ذوق في هذا الباب، لا بد أن يفرق بين الكلام الرقيق والفصيح وبين الفصيح والأفصح وبين الأصيل والمولّد، وإذا وقف على كراس واحد يتضمن كلاماً لجماعة من الخطباء أو الاثنين منهم فقط فلا بد أن يفرق بين الكلامين ويميز بين الطريقتين. ألا ترى أن مع معرفتنا بالشعر ونقده لو تصفحنا ديوان أبي تمام فوجدناه قد كتب في أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره، لعرفنا بالذوق مباينتها لشعر أبي تمام ونفسه، وطريقته ومذهبه في القريض. ألا ترى أن العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره

قصائد كثيرة منحولة إليه، لمباينتها لمذهبه في الشعر. وكذلك حذفوا من شعر أبي نواس شيئاً كثيراً لما ظهر لهم أنه ليس من ألفاظه ولا من شعره. وكذلك غيرهما من الشعراء، ولم يعتمدوا في ذلك إلا على الذوق خاصة.

وأنت إذا تأملت نهج البلاغة وجدته كله ماءً واحداً ونفساً واحداً وأسلوباً واحداً، كالجسم البسيط الذي ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقي الأبعاض في الماهية، وكالقرآن العزيز، أوله كأوسطه وأوسطه كآخره، وكل سورة منه وكل آية مماثلة في المأخذ والمذهب والفن والطريق والنظم لباقي الآيات والسور. ولو كان بعض نهج البلاغة منحولاً وبعضه صحيحاً لم يكن ذلك كذلك، فقد ظهر لك في هذا البرهان الواضح ضلال من زعم أن هذا الكتاب أو بعضه منحول إلى أمير المؤمنين(ع).

واعلم أن قائل هذا القول يطرق على نفسه ما لا قِبل له به، لأنا متى فتحنا هذا الباب وسلطنا الشكوك على أنفسنا في هذا النحو، لم نثق بصحة كلام منقول عن رسول اللّه(ص) أبداً، وصاغ لطاعن أن يطعن يقول: هذا الخبر منحول وهذا الكلام مصنوع، وكذلك ما نقل عن أبي بكر وعمر من الكلام والخطب والمواعظ والأدب وغير ذلك. وكل أمر جعله هذا الطاعن مستنداً له فيما يرويه عن النبي(ص) والأئمة الراشدين والصحابة والتابعين والشعراء والمترسلين والخطباء، فلناصري أمير المؤمنين(ع) أن يستندوا إلى مثله فيما يروونه عنه من نهج البلاغة وغيره، وهذا واضح". إنتهى كلامه.

وهنا أحب أن أطلب من القارئ الذي يحب الإطلاع على مصادر نهج البلاغة بأن يراجع ما كتب في هذا الباب[1].

إن الذين كتبوا في مصادر نهج البلاغة أثبتوا بما لا يدع مجالاً للشك أن الكثير من خطب أمير المؤمنين الذي أثبتها الرضي في نهج البلاغة، مع المواعظ والرسائل والكلمات القصار، هي مروية ومسندة وفي بعضها إلى عشرات السنين قبل مولد الشريف الرضي رحمة اللّه عليه.

---

[1] مصادر نهج البلاغة، عبد الزهراء الخطيب، دار الكتاب العربي، بيروت، ومصادر نهج البلاغة، الشيخ عبد اللّه نعمة، نشر المؤلف نفسه، 1972

وكلمة أخيرة في هذا المجال أقول: إن الذين ينفون نسبة نهج البلاغة إلى أمير المؤمنين(ع) كلاً أو جزءاً إنما يعرضون أنفسهم إلى الخسارة وأي خسارة، فإن ما في نهج البلاغة للكتاب أو الأدباء أن يستفيدوا منه لوجده بحراً زاخراً يعينه على ما يريد من تأليف أو تدقيق أو نقد أو غير ذلك. قال عبد الحميد بن يحيى الكاتب الشهير حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع ففاضت ثم فاضت[2].

بين الإنكار والتحامل

ولعله مما يشير إلى أن الدافع وراء توجيه الشكوك إلى نسبة ما في نهج البلاغة إلى أمير المؤمنين(ع) ليس إلا إنكار بعض ما جاء فيه والتشويش على البعض الآخر هو ما نجده من اتفاق عجيب بين واضعي المناهج في العديد من الدول العربية، حيث لم يختاروا من نهج البلاغة إلا خطبة واحدة وهي الخطبة رقم 27، والتي سببها وصول الأخبار بغزو جيش لمعاوية منطقة الأنبار في العراق، فجعلوا من ضمن مختارات كتب المطالعة للغة العربية للصفوف المتوسطة قول أمير المؤمنين(ع) فيها: «**يا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلا رِجَالَ حُلُومُ الأَطْفَالِ وَعُقُولُ رَبَّاتِ الحِجَالِ لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً وَاللهِ جَرَّتْ نَدَماً وَأَعْقَبَتْ سَدَماً قَاتَلَكُمُ اللهُ لَقَدْ مَلأْتُم قَلْبِي قَيْحاً وَ شَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً**». تجد ذلك في العراق ومصر والسعودية وحتى في تونس، أما السبب فهو واضح لمن تدبّر، ألا وهو شتم أهل العراق!

فمن جهة هم يشككون في كتاب نهج البلاغة ويعرضون عنه صفحاً، ولكن من جهة أخرى يأخذون منه هذا المقطع من الخطبة من أجل النيل من شيعة علي(ع) من أهل العراق خاصة.

هذا، مع أن الخطبة تتضمن قوله(ع): «**فَيَا عَجَباً عَجَباً وَاللهِ يُمِيتُ الْقَلْبَ وَ يَجْلِبُ الْهَمَّ مِنَ اجْتِمَاعِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَ تَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ**» والتي تعلن أن أهل العراق على الحق وأهل الشام، وسيدهم معاوية بن أبي سفيان، على الباطل.

صحيح أن أمير المؤمنين(ع) يشكو شكوى مرّة في هذه الخطبة، وله الحق في جميع ما قال وما يقول، فيهم وفي غيرهم، ولكن لنا أن نقول أن أهل العراق كانوا على حالين: الأول هو

---

[2] شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد، ج 1، ص 24

نصرتهم أمير المؤمنين(ع) في حروبه، والثاني تثاقلهم ونكوصهم بعد ذلك. كما إن لنا أن نقول أن ليس الجميع كانوا على تلك الشاكلة. ولكن بالمقارنة مع غيرهم، فإن أهل الشام مثلاً، وهم معنيون بهذه الخطبة حيث أغارت خيلهم عليها، كانت حالتهم واحدة من الأول إلى الأخير في الاصطفاف خلف معاوية وهو عدو أمير المؤمنين(ع). إلا أننا لا نجد هذا الحماس لذكر تلك المواقف المعادية لأمير المؤمنين خصوصاً وأهل البيت عموماً.

بل يمكن لمن يريد أن يسير على منوال هؤلاء المشككين، فيقول بأن هذه الكلمات التقريعية لأهل العراق لا تتناسب مع اختلاف أحوالهم مع علي(ع)، وبالتالي هي مدسوسة في نهج البلاغة وموضوعة للنيل من شيعته. إلا أن الحق هو: لكل مقام مقال.

ولكن ماذا نستطيع القول سوى: لك اللّه يا عراق ولكم اللّه يا عراقيون، لا يجدون منفذاً بسيطاً للنيل منكم إلا وتوسعوا فيه![3]

---

[3] ما يؤكد ما قلناه أعلاه، هو أن البعض يحرّف الكلام إلى مدلول آخر للنيل ممن لا يحبهم. من ذلك – وهو ما يدعو إلى السخرية – هو أنه في نسخة صحيح البخاري التي عندي (طبعة عالم الكتب، بيروت، 1986، ج 4، ص 183، الحديث 13) لم يحتمل الرجل الذي وضع تعليقات وتوضيحات على بعض الكلمات – في إدارة الطباعة المنيرية التي "عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه" حسب النص على صفحات عنوان الكتاب - قول النبي(ص) في أن بيت إحدى أمهات المؤمنين هو مصدر الفتنة بقوله: ‹‹هاهنا الفتنة، هاهنا الفتنة، هاهنا الفتنة، حيث يطلع قرن الشيطان››، والذي وضعه البخاري نفسه تحت باب "في ذكر ما جاء في بيوت أزواج النبي(ص)"، وبرواية "حدثنا موسى بن إسماعيل قال حدثنا جويرية عن نافع عن عبد اللّه رضي الله عنه قال: قام النبي(ص) خطيباً فأشار نحو مسكن عائشة فقال: ‹‹ههنا الفتنة›› ثلاثاً ‹‹من حيث يطلع قرن الشيطان››، لم يحتمل هذا فقال الشارح، في الهامش: أي جانب المشرق وهو العراق! فليس فقط أراد تبرئة من يواليهم ويقدسهم، ولكن استغل الفرصة لشتم من يبغضهم، أو عصفورين بحجر! وللّه في خلقه، بل في نفوس خلقه، شؤون.

ملحق 2

الوصيّة

لما كانت كلمة الوصية أو التعبير بأن علياً(ع) هو وصي رسول اللّه(ص) غير معروفة مطلقاً عند المسلمين من غير أتباع أهل البيت(ع) فإنه من المفيد أن نبين ما معناه ذلك من خلال الأحاديث الشريفة.

في مستدرك الصحيحين، وهو كتاب الأحاديث الذي جمعه الحاكم النيسابوري استدراكاً على ما لم يخرجه البخاري أو مسلم أو الاثنان في كتابيهما المسميين صحيح البخاري وصحيح مسلم، أخرج الحاكم[4] أن الحسن بن علي(ع) خطب في الناس بعد مقتل أبيه(ع) فكان مما قاله: «**أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي وأنا ابن النبي وأنا ابن الوصي**».

وأخرج الهيثمي[5] أن سلمان قال: قلت: يا رسول اللّه إن لكل نبي وصيّاً فمن وصيّك؟ فسكت عني فلما كان بعدُ رآني فقال: «**يا سلمان**»، فأسرعت إليه قلت: لبيك، قال: «**تعلم من وصي موسى(ع)؟**» قال: نعم، يوشع بن نون، قال «**لِمَ؟**» قلت لأنه كان أعلمهم يومئذ قال: «**فإن وصيي وموضع سري وخير من أترك بعدي وينجز عدتي ويقضي ديني علي بن أبي طالب**»؛ قال رواه الطبراني.

وفي كنـز العمال[6] أن رسول اللّه(ص) قال: «**يا بني عبد المطلب إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟**» قال: فأحجم القوم عنها جميعاً قلت – أي علي(ع): «**يا نبي الله**

---

[4] المستدرك، ج 3، ص 172
[5] المجمع، ج 9، ص 113
[6] كنـز العمال، ج 6، ص 392

أكون وزيرك عليه – أي على الأمر››، فأخذ برقبتي ثم قال: ‹‹**هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا وله وأطيعوا**››[7] قال أخرجه ابن جرير.

والأحاديث كثيرة في أن علياً(ع) هو وصي النبي(ص) كما في تاريخ دمشق[8] وفي ينابيع المودة[9] وفي المناقب[10] وغيرها أن علياً(ع) هو وصي النبي(ص).

أما ما معنى الوصي، فإن الوصية هي، كما هو معروف، أن شخصاً يوصي لشخص آخر شيئاً للتصرف فيه بعد وفاته، أي يجعله ينوب عنه في التصرف بعد موته كما في إخراج الحقوق أو الولاية على غير البالغين أو غير ذلك. والوصية بين الناس تكون مقصورة على الأموال مثل البيوت والعقارات والأموال السائلة والشركات أو على غير البالغين أو المجانين أو السفهاء الذين كان الموصي ولياً عليهم قبل وفاته. ولكن عندما تكون الوصية للأنبياء(ع) فإنها تتسع لتشمل ولاية الأنبياء(ع) على الناس والتي هي ولاية عامة على الجميع كبيرهم وصغيرهم عاقلهم ومجنونهم والأموال التي بين أيديهم وذلك لأن الأنبياء لديهم ولاية عامة على أتباعهم، قال تعالى: ﴿**النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم**﴾ الأحزاب:6. فهكذا، طالما أن النبي(ع) أولى بالناس من أنفسهم، بمعنى أن النبي(ع) يستطيع أن يأمر الإنسان بأن يقوم بأي عمل وعليه أن يلبي ذلك دون اعتراض، فإذا ما جعل رجلاً منهم وصياً عليهم فإنه ينقل ولايته عليهم إلى ذلك الوصي. وإذا كان هناك لبس في ذلك فإن النبي(ص) قد أوضح ذلك في مواطن كثيرة لاسيما قبل وفاته بفترة قصيرة في غدير

---

[7] ينبغي الالتفات إلى أن هذه الحادثة حصلت في مكة المكرمة وفي أول الدعوة، أي عندما كان علياً(ع) لا يزال صبياً، وإذا بالنبي(ص) يجعله خليفة على عشيرته الأقربين، بل ويأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، وفيهم كبار قومه وبضمنهم أبو طالب والد علي(ع). إن هذا، إن لم يكن من وحي السماء، لا يمكن أن يكون إلا مزاحاً من النبي(ص)، أن يؤمر عليهم أصغرهم من لم يزل صبياً، وهو أمر يستحيل على النبي(ص) الذي اتفق المسلمون على حكمته البالغة وعلى ذكائه ومعرفته بالناس، وعلى حياطته على الدعوة وعمله بكل ما هو مناسب من أجل إنجاحها. فكيف يأتي إليهم بشيء لا يمكن أن يقبله جلّهم، إن لم يكن من وحي السماء؟ وهكذا، فإن تعيينه(ع) خليفة ووصياً للنبي(ص) بدأ مع بدء الدعوة الإسلامية، فبان بذلك زيف الادعاءات المضحكة أن التشيع لعلي(ع) بدأ زمن الفتنة أيام عثمان أو أنه بدأ بعد مقتل الحسين(ع).

[8] تاريخ دمشق، إبن عساكر، ج 42، ص 392

[9] ينابيع المودة، القندوزي الحنفي، ج 1، ص 167، و ج 2، ص 163

[10] المناقب، الموفق الخوارزمي، ص 84، حديث 74

خُمّ عندما سأل الناس: «**أيها الناس ألستم تشهدون أني أولى بكم من أنفسكم**»، وعندما قالوا: بلى، قال: «**فمن كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه**». إذاً، أوضح أن الوصية لعلي(ع) هي بولايته العامة على المسلمين.

وربما سيقول البعض بأن هذه الوصية من الممكن أن تكون وصية خاصة بمعنى الإرث أو خاصة بما كان النبي(ص) له ولاية عليه في خصوص عائلته القريبة أو ورثته. إلا أنه(ص) فرّق ما بين الوصية والوراثة بأن جاءت الأحاديث بذكر هاتين الكلمتين منفصلة. فقد جاء في الحديث (المار ذكر مصادرها في الهوامش أعلاه) الذي رواه إبن عساكر والموفق الخوارزمي والقندوزي الحنفي أنه(ص) قال: «**لكل نبي وصي ووارث، وعلي وصيي ووارثي**»[11]. وقال في حديث سلمان المار أعلاه[12]: «**فإن وصيي ووارثي يقضي ديني وينجز موعدي علي بن أبي طالب**». وهذه الأحاديث مذكورة كما ذكرنا في مستدرك الصحيحين ومجمع الهيثمي وما إلى ذلك.

أيضاً، فإن الوصي بمعنى الإرث لا معنى له هنا لوجود الورثة الأحياء الذين يستطيعون التصرف بما يرثون وهم في هذه الحالة الزهراء(ع).

وقد كانت الوصية لعلي(ع)، أو لقب علي(ع) أنه وصي النبي(ص)، شيئاً متعارفاً عليه بحيث وردت في أبيات شعرية كثيرة تنص على أن علياً(ع) هو وصي رسول اللّه[13]. من ذلك قول عبد اللّه بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

ومنا علي ذاك صاحب خيبرٍ   وصاحب بدرٍ يوم سالت كتائبُهْ
وصي النبي المصطفى وابن عمهِ   فمن ذا يدانيهِ ومن ذا يقاربُـهْ

وقال أبو الهيثم بن التيهان، وهو الصحابي الأنصاري البدري المعروف:

---

[11] تاريخ دمشق، إبن عساكر، ج 42، ص 392، والمناقب، الموفق الخوارزمي، ص 84، حديث 74، وينابيع المودة، القندوزي الحنفي، ج 1، ص 167، و ج 2، ص 163

[12] المجمع، الهيثمي، ج 9، ص 113

[13] تراجع في هذه الأشعار شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد، ج 1، ص 143 وما بعدها

قل للزبير وقل لطلحة إننا — نحن الذين شعارنا الأنصارُ
إن الوصيّ إمامنا وولينا — برح الخفاء وباحت الأسرارُ

وقال حجر بن عدي الكندي في يوم الجمل:

يا ربَّنا سلِّمْ لنا عليّا — سلِّمْ لنا المبارك المضيّا
المؤمن الموحد النقيّا — لا خطل الرأي ولا غويّا
بل هادياً موفقاً مهديّا — واحفظه ربي واحفظ النبيّا
فيهِ فقد كان له وليّا — ثم ارتضاه بعده وصيّا

وقال خزيمة من ثابت الأنصاري البدري المشهور بذي الشهادتين في يوم الجمل:

أعائِشُ خلِّي عن عليٍّ وعيبهِ — بما ليس فيه إنما أنت والدَهْ
وصي رسول اللّه من دون أهلهِ — وأنت على ما كان من ذاك شاهدَهْ

بل أن أعداءه أعلنوا ذلك، قال أحد الضبّيين الذي كانوا يقاتلون مع أصحاب الجمل[14]:

نحن بني ضبَّة أعداء عليّ — ذاك الذي يعرف قدماً بالوصي!

وفي حرب صفين ذكرت الوصية لعلي(ع) أيضاً كما فيما نسب إلى الأشعث بن قيس:

---

[14] نهدي هذا البيت من رجز هذا الشاب لمن يتساءل كيف تراجعت عشرات الألوف عن بيعة الغدير، يوم نصب النبي(ص) علياً(ع) إماماً هادياً من بعده، فهذا الرجل – ومن معه ممن قاتل علياً(ع) من القبائل التي تحالفت مع ناكثي بيعته – يعلن معرفته بأن علياً(ع) هو وصي النبي(ص)، مع ذلك يقاتله، معلناً أنه وقومه "أعداء علي"! واللطيف أنه في البيت التالي يقول "لست على فضل عليٍّ بعَمي * لكنني أنعى ابن عفان التقي"، فهو يؤكد معرفته (وإن كنا لا نفهم كيف تكون المعرفة بعلي(ع) مما تحلل قتاله!) ولكنه يريد الأخذ بثأر الخليفة المقتول عثمان بن عفان، كما قال في آخر رجزه "إن الولي آخذ ثار الولي" (ولا نعرف كيف تكون ضبّة ولي دم من قتل من بني أمية!) ولكن المهم هو أنه يضرب بتعيين اللّه ورسوله(ص) عرض الحائط، مع اعترافه بذلك، لأنه قرر أن يخرج مع قومه لأخذ ثار رجل ليس من قومه. ما أريد أن أقوله هنا هو أن الروح القبلية، من الاصطفاف مع القبيلة والقتال وسفك الدماء الحرام، بغض النظر عن الأوامر الشرعية، حتى ممن يعتقدون بمنـزلتهم، كان أمراً عادياً مستشرياً – بل هو الحاصل إلى يومنا هذا –، لذا ليس مستغرباً النكوص عن الأمر الشرعي مهما كان واضحاً وضوح الشمس.

أتانا الرسول رسول الوصيِّ علىٌّ المهذب من هاشمِ
وزير النبي وذو صهرهِ وخير البرية والعالمِ

وقال عبد اللّه بن العباس بن عبد المطلب:

وصي رسول اللّه من دون أهلهِ وفارسه إن قيل هل من منازلِ

وأخيراً من الشعر المنسوب لأمير المؤمنين(ع) في صفين أنه قال:

يا عجباً لقد سمعت منكرا كِذباً على اللّه يشيب الشعرا
ما كان يرضى أحمد لو أُخبَرا أن يقرنوا وصيّه والأبترا

ملحق 3

إضافة في مرجعية العترة النبوية

إضافة إلى ما ذكرناه من أن النبي(ص) حدد المرجعية بأهل البيت(ع)، فإن هناك الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة ما يشير بشكل واضح إلى أن المرجعية بعد النبي(ص) هي علي وأولاده الطاهرون(ع). ولكن حيث أن هذا الكتاب لا يتركز حول هذا الأمر، فإننا نكتفي باثنين فقط من هذه الأحاديث الشريفة.

الحديث الأول – حديث المنذر والهادي. ففي مستدرك الصحيحين[15] في تفسير قوله تعالى: ﴿**إنما أنت منذر ولكل قوم هاد**﴾ الرعد:7، أن علياً(ع) قال: ‹‹**رسول الله(ص) المنذر وأنا الهادي**››. وقد اعتمده ابن جرير الطبري في تفسيره[16]. أيضاً الفخر الرازي في تفسيره[17] حيث قال رسول اللّه(ص): ‹‹**أنا المنذر**›› ثم أومأ إلى منكب علي(ع) وقال: ‹‹**أنت الهادي، بك يهتدي المهتدون من بعدي**››. وكذا السيوطي في الدر المنثور[18] والآلوسي في تفسيره[19].

الحديث الثاني – حديث المنـزلة. وهو الحديث الشهير الذي يكفي شهرته أنه حتى محمد بن إسماعيل البخاري، الذي كان ظنيناً جداً في إخراج الأحاديث التي تبين فضل أهل البيت(ع) ودورهم، أخرجه[20] حيث روى أن النبي(ص) قال له: ‹‹**أما ترضى أن تكون مني بمنـزلة هارون من موسى**››. وأخرجه أيضاً في باب غزوة تبوك بسند آخر[21] أن النبي(ص) قال: ‹‹**ألا ترضى أن تكون مني بمنـزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي**››.

---

15 المستدرك، ج 3، ص 129

16 تفسير الطبري، ج 13، ص 72

17 التفسير الكبير، ج 19، ص 13

18 الدر المنثور، ج 4، ص 45

19 تفسير الآلوسي، ج 13، ص 107

20 صحيح البخاري، ج 4، كتاب بدء الخلق، باب مناقب علي بن أبي طالب(ع)، ص 208

21 نفسه، ج 5، ص 129

وقد رواه مسلم في صحيحه في فضائل علي بن أبي طالب بأكثر من رواية[22]، واللافت أنه في واحدة منها[23] بسنده عن سعيد بن المسيب عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه سعد أن النبي(ص) قال لعلي(ع): «**أنت مني بمنـزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**» فقال سعيد: فأحببت أن أشافه بها سعداً، فلقيت سعداً فحدثته بما حدثني عامر – أي ابن سعد بن أبي وقاص – فقال: أنا سمعته، فقلت: أنت سمعته؟ فوضع إصبعيه على أذنيه فقال: نعم وإلا فاستكتّا! وهذا يدل على أن سعيداً يعجب للفارق الكبير بين منـزلة علي(ع) التي نص عليها رسول اللّه(ص) وبين ما جرى بعد ذلك من تقدم غيره عليه.

وهذا الحديث أخرجه أيضاً الترمذي في صحيحه في أكثر من رواية[24]، وابن ماجة في سننه[25]، والإمام أحمد في مسنده بعدة روايات[26]، والنسائي في فضائل الصحابة[27]، والبيهقي[28]، والهيثمي[29]، وغيرهم كثير.

ودلالة الحديث أن علياً(ع) هو المرجع بعد النبي(ص) كما كان هارون(ع) هو المرجع في بني إسرائيل عندما ذهب موسى(ع) لميقات ربه؛ وهو واضح جداً. كما أن كلمة «**أما ترضى مني**» هي بمثابة تنبيه من النبي(ص) أن هذه المنـزلة هي منـزلة كبيرة وخطيرة بحيث يقول لعلي(ع) بشكل تساؤل أن هذه المنـزلة هي من الأهمية بحيث لا بد أن ترضي علياً(ع) فلا ينبغي أن يهتم لأنه(ص) خلفه في المدينة ولم يكن معه في الغزوة كما كان من شأنه(ع) أن يكون البطل دون منازع.

---

[22] صحيح مسلم، ج 7، ص 120
[23] نفسه، ص 119
[24] صحيح الترمذي، ج 5، ص 301، حديث 3808، و ص 304، حديث 3814
[25] سنن ابن ماجة، ج 1، ص 42، حديث 115
[26] مسند أحمد، ج 1، ص 170 وما بعدها، و ج 3، ص 32، و ج 6، ص 369
[27] فضائل الصحابة، النسائي، ص 13
[28] سنن البيهقي، ج 9، ص 40
[29] مجمع الزوائد، ج 9، ص 109

ملحق 4

حديث الثقلين

لما كان البحث يختص بدور أئمة أهل البيت(ع) وأنهم ينبغي أن ينـزلوا منـزلة القرآن أو منازل القرآن حسب توجيه أمير المؤمنين(ع) في خطبته موضع البحث فإنه من المناسب، وربما من الضروري، أن نثبت هذا الدور للأئمة(ع) من سنة النبي(ص). ذلك لأن ليس جميع الناس يتعبدون بقول علي(ع)، ولا جميع الناس يعتقدون بصحة كتاب نهج البلاغة أو بعض ما جاء فيه، لاسيما إن كان ذلك يصادم العقيدة التي تبنتها مدرسة الخلافة في صرف الأمر عن أهل البيت(ع). بعبارة أخرى، إنه بإثبات أن عترة النبي(ص) هم المرجعية التي نصبها رسول اللّه(ص) في الأمة بعده يصبح قول علي(ع) ‹‹**وَأنزِلُوهُمْ بِأَحسَنِ مَنازِلِ القُرآن**›› ملزماً لكل مسلم يطلع عليه.

وسنحاول الاختصار ما أمكن، فنبدأ بذكر بعض مصادر الحديث ودلالته، ثم الوسيلة التي أتبعت لدفن هذا الحديث وكتمانه في القديم، ثم كيف صار التعرض إليه في العصر الحاضر، منتهين بنص توراتي في هذا المجال.

حديث الثقلين في صحيح مسلم

هذا الحديث لم يخرجه محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه، ولكن مسلماً أخرجه في صحيحه، ليس برواية واحدة، ولكن بأربع روايات. وهذه الروايات بينها اختلاف يسير ولكنها كلها تنص على أن رسول اللّه(ص) ترك الثقلين كتاب اللّه وأهل بيته. إحدى هذه الروايات تنص أيضاً على أن النبي(ص) قد قال هذا الحديث في غدير خُمّ.

فقد روى الإمام مسلم[30] بسنده عن يزيد بن حيان قال: انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً، رأيت رسول اللّه(ص) وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول اللّه(ص). قال: يا ابن أخي واللّه لقد كبر

[30] صحيح مسلم، ج 7، ص 122

سني وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول اللّه(ص) فما حدثتكم فاقبلوه وما لا أحدثكم فلا تكلفونيه، ثم قال: قام رسول اللّه(ص) يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خُمّاً بين مكة والمدينة وحمد اللّه وأثنى عليه ووعظ وذكر، ثم قال: «**أما بعد ألا يا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وإني تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به**»، فحث على كتاب اللّه ورغب فيه، ثم قال: «**وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي**».
فسأل حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده.

وفي صحيح الترمذي

وأخرج هذا الحديث الترمذي في صحيحه[31] عن زيد بن أرقم أيضاً قال: قال رسول اللّه(ص): «**إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهم**».
وقد رواه الترمذي في صحيحه برواية أخرى مشابهة[32].

وفي كتب الحديث الأخرى

وروى هذا الحديث بألفاظ مشابهة الحاكم في مستدركه[33]، ورواه أحمد في مسنده[34]، والمتقي الهندي في كنز العمال[35]، والطبراني[36]. كما واعتمده أصحاب التفاسير والمحدثون

[31] سنن الترمذي، ج 5، ص 329، حديث 3876
[32] نفسه، ص 327، حديث 3874
[33] المستدرك، ج 3، ص 109، و ص 148
[34] مسند أحمد، ج 3، ص 17، و ج 4، ص 171، و ج 5، ص 181

والمؤرخون الآخرون كابن كثير[37] والسيوطي[38] وابن الأثير[39] وغيرهم الكثير، ربما بما لم يحصل إلا مع القليل جداً من غيره من الأحاديث.

دلالات حديث الثقلين

إن دلالات الحديث هي:

1. أن تركة النبي(ص) هي القرآن والعترة.
2. أن هذين هما الأمران العظيمان اللذان يتركهما النبي(ص) وذلك بتسميتهما بالثقلين.
3. أن التمسك بهذين الأمرين أو هذين الثقلين يعصم من الانحراف والضلالة وذلك على مستوى الأمة وعلى مستوى الفرد بقوله «**ما أن تمسكتم بهما**».
4. أن الأمن من الضلال هو ضمانة أبدية وذلك لكلمة التأبيد «**أبداً**» في بعض الروايات.
5. أن كون أهل البيت جزءاً من الضمانة مع القرآن الكريم يشير إلى عصمتهم(ع) لأنه طالما كان القرآن معصوماً فهم معصومون أيضاً.
6. في بعض طرق الحديث ورد أن الثقلين «**لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض**» يوم القيامة، وطالما أن القرآن باق إلى يوم الدين فإن العترة باقية إلى يوم الدين، وهذا يفيد بأن الأئمة(ع) يوجد منهم في كل زمان وفيه إشارة إلى إمام العصر(ع).
7. أن النبي(ص) سينظر إلى موقف الناس، أمة وأفراد، من هذا الأمر، لقوله «**أنظروا كيف تخلفوني فيهما**». وهذا من أهم أدواره(ص) كشاهد على الناس.

---

[35] كنـز العمال، ج 6، ص 173، حديث 873
[36] المعجم الأوسط، ج 3، ص 374 (وكذا في معجميه الصغير والكبير)
[37] تفسير ابن كثير، ج 4، ص 123
[38] الدر المنثور، ج 6، ص 7
[39] أسد الغابة، ج 2، ص 12

8. أن التذكير بأهل البيت ثلاثاً كما ورد في بعض طرق هذا الحديث يشير إلى معرفة النبي(ص) بأن نفوس الكثيرين من الناس لم تكن راضية بمرجعية أهل البيت(ع) وبالتالي أكد على ذلك. ويشير إلى ذلك أيضاً أنه ظل ستة أشهر، وفي رواية ثمانية أشهر، وفي رواية تسعة أشهر، يقف على باب فاطمة وعلي(ع) ويقول لهم: ‹‹**الصلاة يا أهل البيت**›› ثم يتلو الآية الكريمة ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾ الأحزاب:33، وذلك لقطع الطريق أمام أي مدعٍ أو مدعىً له لصرف الآية عن أهل البيت الحقيقيين كما أرادهم اللّه سبحانه وتعالى.

أمر محيّر!

لو سألنا المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها عن أشهر الأحاديث التي سمعوا بها أو تعلموها في المدارس أو قرأوها في الكتب أو سمعوها من تحت منابر الجمعة أو يسمعونها الآن في المحطات الفضائية وغيرها لوجدناهم يذكرون حديث النبي(ص) الذي يقول ‹‹**إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وسنتي**›› أو كما في رواية مالك ‹‹**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه**››. بل إني أزعم أو أتوقع بأن هذا الحديث هو أكثر الأحاديث انتشاراً عند الناس. وإذا سألت هؤلاء الناس هل سمعتم بحديث الثقلين ‹‹**كتاب الله وعترتي أهل بيتي**›› لأتاك الجواب من جميع الناس من غير أتباع أهل البيت(ع) دون استثناء بأنهم لم يسمعوا بهذا الحديث مطلقاً. وهم صادقون في ذلك إذ أن الخطباء من على المنابر وعلماءهم في كتبهم ومناهج الدراسة والفضائيات لا تذكر حديث الثقلين ‹‹**كتاب الله وعترتي أهل بيتي**›› مطلقاً.

وهنا يتبادر إلى الذهن أننا لو سألنا إنساناً محايداً، أو لو سألنا هؤلاء الناس الذين يعرفون حديث ‹‹**وسنتي**››، سيقولون أن حديث ‹‹**كتاب الله وسنتي**›› قد ورد في صحيح البخاري أو في صحيح مسلم أو في الاثنين معاً على أقل تقدير، لأن حديثاً بهذا الاشتهار وبهذه القوة لا يمكن إلا أن يخرجه البخاري أو مسلم أو واحد منهما على الأقل. وهذا

الإنسان المحايد أو الجهة المحايدة أيضاً ستحكم بالقطع بأن الرواية بشكلها الآخر، أي «**كتاب الله وعترتي أهل بيتي**» لا يمكن أن تكون قد أخرجها البخاري أو مسلم قطعاً، كما أنهم سيحكمون بأنه من المستبعد أن تكون هذه الرواية قد أخرجها غيرهما من أصحاب الصحاح، أي الترمذي والنسائي والقزويني وأبو داود؛ هذا بالإضافة إلى الكتب الأخرى.

إن حديثاً بهذا الاشتهار عند الناس وحديثاً مجهولاً بهذا الشكل، أعني حديث «**وسنتي**» بهذا الاشتهار وحديث «**وعترتي**» المجهول بهذا الشكل، حديثاً بهذه الدلالة وبهذه الخطورة يعلن فيها النبي الخاتم(ص) أن من تمسك بالثقلين كفرد، أو أن الأمة إذا تمسكت بهما كمجموع، فإنه يأمن له ولها من الضلال والانحراف، بمعنى يضمن له ولها الفوز في الآخرة، ومن قبل ذلك الفوز في الدنيا وقيادة العالم في الدنيا عبر العصور؛ إن حديثاً بهذا الاشتهار بهذه الدلالة لا بد وأن يلقى عناية الباحثين. إلا أننا عندما نبحث الموضوع سنجد العجب العُجاب. ذلك بأن الحديث برواية «**كتاب الله وسنتي**» لم يروه لا البخاري ولا مسلم في حين أن حديث «**كتاب الله وعترتي**» لم يروه البخاري ولكن رواه مسلم، ليس برواية واحدة، ولا باثنتين، ولا ثلاث، بل بأربع روايات، وفي إحداها يقول أن النبي قاله في غدير خم، وهو شيء آخر لم يسمع به المسلمون من غير أتباع أهل البيت(ع).

ويزداد العجب من موقف العلماء الذين كتموا ذلك على أتباعهم عندما نجد أن هؤلاء العلماء يأمرون أتباعهم من المسلمين بوجوب التصديق بجميع روايات البخاري ومسلم، بل وبوجوب إتباع هذه الروايات والعمل بها. فمن قرأ الثناء العظيم الذي حصل عليه كتاب محمد بن إسماعيل البخاري وكتاب مسلم النيسابوري يجد ذلك بأجلى صوره. ولعلنا لا نحتاج سوى أن نأخذ بقول النووي الذي يعد من أئمة الحديث عندهم حيث قال في كتاب "تهذيب الأسماء واللغات": وأما صحيح البخاري فقال العلماء هو أول مصنف صنف في الصحيح المجرد، واتفق العلماء على أن أصح الكتب المصنفة صحيحا البخاري ومسلم، واتفق الجمهور على أن صحيح البخاري أصحهما صحيحاً وأكثرهما فوائد. وقال الحافظ أبو علي النيسابوري: وبعض علماء المغرب عندهم صحيح مسلم أصح، وأنكر العلماء ذلك عليهم، والصواب ترجيح صحيح البخاري. وقد قرر الإمام الحافظ أبو بكر الإسماعيلي في كتاب "المدخل" ترجيح صحيح البخاري على صحيح

مسلم وذكر دلائله... إلى أن قال: قال النووي: وأجمعت الأمة على صحة هذين الكتابين ووجوب العمل بأحاديثهما[40].

وبهذا فإن الأمة بعلمائها وطلابها وعامتها مأمورون بأن يتبعوا حديث الثقلين كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي الوارد بأربع روايات صحيحة في صحيح مسلم. فالسؤال هنا من المسؤول عن هذا الكتمان؟ هل هم العامة؟ أم هم العلماء والأساتذة في الجامعات الدينية والخطباء على المنابر؟ وكيف يفعلون ذلك وهم يعلمون قوله تعالى: ﴿**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون**﴾ البقرة:159 وعواقب ذلك؟

إن الناس في القديم كانت الأمية متفشية فيهم وكانت وسائل الطباعة وبالتالي القراءة ووسائل الإعلام بأنواعها لم تكن إلا شيئاً بدائياً وقليلاً، مع ضعف وسائل الاتصال، وبالتالي لم يكن العلماء بحاجة لأن يقوموا بجهد كبير في كتمان حديث الثقلين بنسخته الصحيحة. إلا أن الناس صاروا في هذا العصر، كما يبدو، يقرأون ما يكتبه علماء مدرسة أهل البيت (ع) بعد أن قيض اللّه الفطاحل من العلماء كالسيد شرف الدين الموسوي والسيد محسن الأمين والعلماء من آل الصدر وآل المظفر وآل ياسين وغيرهم كثير، فانتشرت هذه الأحاديث وأصبح حديث ‹‹**وعترتي أهل بيتي**›› ينافح فيه ويجادل فيه صغار طلبة العلم من الشيعة، بل وعامتهم. لذا اضطر علماء المذاهب الأخرى إلى محاولة الرد دفاعاً عن نسخة ‹‹**كتاب الله وسنتي**››. وفيما يلي باختصار بعض المناقشات حول الثقلين بنسختيه.

مقارنة نسختَي حديث الثقلين

(1) مناقشة الحكيم لأبي زهرة

كما قلنا فإن العلماء والباحثين من مدرسة الخلافة (كما سماها العلامة السيد مرتضى العسكري) حاولوا تقوية حديث الثقلين بنسخة ‹‹**وسنتي**›› وتضعيف الحديث بنسخة

---

[40] صحيح البخاري، ج 5، ص 22 (طبعة عالم الكتب، بيروت، 1986)

‹‹**وعترتي**››. ولنأخذ ما ناقشه العالم الأزهري الشهير محمد أبو زهرة في كتابه "الإمام الصادق" في هذا الموضوع، وذلك نقلاً عن كتاب "مدخل في الفقه المقارن" للعلامة السيد محمد تقي الحكيم، فقد ذكر مقطعاً من مناقشات أبي زهرة ثم ردّ عليه، فنورد ذلك باختصار وتصرف[41]. فنقول أن أبا زهرة قال: "أن كتب السنة التي ذكرته بلفظ ‹‹**سنتي**›› أوثق من الكتب التي روته بلفظ ‹‹**وعترتي**››. وبعد التسليم بصحة اللفظ نقول: بأنه لا يقطع بل لا يعين من ذكروهم من الأئمة الستة المتفق عليهم عند الإمامية الفاطميين، وهو لا يعين أولاد الحسين دون أولاد الحسن، كما لا يعين واحداً من هؤلاء بهذا الترتيب، وكما لا يدل على أن الإمامة تكون بالتوارث، بل لا يدل على إمامة السياسة، وإنه أدل على إمامة الفقه والعلم"[42].

وناقش السيد محمد تقي الحكيم ذلك بقوله: مواقع النظر حول نصه هذا تقع في ثلاث:
أولاً – أن حديث وسنتي أوثق من حديث وعترتي. وقال بأن هذه المناقشة غير واضحة لأن رواية ‹‹**وسنتي**››، لو صحت، فهي لا تعارض رواية العترة، باعتبار الصادر شيئاً واحداً بحيث يكون أما هذه أو تلك لا ملجأ له؛ "والحاصل أن الحث وقع على التمسك بالكتاب وبالسنة وبالعلماء بهما من أهل البيت(ع)، ويستفاد من مجموع ذلك بقاء الأمور الثلاثة إلى قيام الساعة"[43]. وإن شئت أن تقول إن ذكر أهل البيت معناه ذكر للسنة لأنهم لا يأتون إلا بها، فكل ما عندهم مأخوذ بواسطة النبي(ص)، أي بواسطة السنة. ولذا فإن كلاً من الروايتين يمكن أن تكون صحيحة ولا حاجة إلى تكذيب إحداهما وتعيين الصادرة منهما بالرجوع إلى المرجحات. وقال بأن حديث التمسك بالثقلين متواتر في جميع طبقاته، والكتب التي حفلت به أكثر من أن تحصى، وطرقه إلى الصحابة كثيرة، ورواته منهم كثيرون جداً، وفي رواياته عدة روايات كانت في أعلى درجات الصحة كما شهد بذلك الحاكم وغيره. هذا، بينما نرى أن الحديث الآخر لا يتجاوز في الاعتبار من كونه من أحاديث الآحاد.

---

41 مدخل في الفقه المقارن، بدءاً من ص 168

42 الإمام الصادق، ص 199

43 الصواعق المحرقة، ص 148

ويكمل الحكيم: "ولقد كنت أحب للسيد أبي زهرة أن يتفضل بذكر الكتب السنية التي روت حديث «**وسنتي**» لنرى مدى ادعائه الأوثقية لها، وأي كتب أوثق من الصحاح والسنن والمسانيد ومستدركاتها التي سبق ذكرها وذكر روايتها للحديث لتُقَدَّم عند المعارضة؟!"

ثم قال: "وفي حدود تتبعي لكتب الحديث واستعانتي ببعض الفهارس، لم أجد رواية «**وسنتي**» إلا في عدد من الكتب لا تتجاوز عدد الأصابع لليد الواحدة، وهي مشتركة في رواية الحديثين معاً، اللهم إلا ما يبدو من مالك حيث اقتصر في "الموطأ" على ذكرها فحسب، ولم يذكر الحديث الآخر – إن صدق تتبعي بما في الكتاب –. يقول راوي الموطأ: وحدثني عن مالك أنه بلغه أن رسول اللّه(ص) قال: تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب اللّه، وسنة نبيه[44]. ويكفي في توهين الرواية أنها مرفوعة ولم يذكر الكتاب رواتها مما يدل على عدم اطمئنان صاحبها إليها... ولعل الموطأ هو أقدم مصادرها في كتب الحديث، كما أن ابن هشام هو أقدم رواتها في كتب السير (أي السيرة النبوية) فيما يبدو".

وأكمل يقول: "وما عدا هذين الكتابين فقد ذكرها ابن حجر في صواعقه مرسلة، وذكرها الطبراني فيما حكي عنه. ثم قال أما من حيث المضمون فتعجب كيف يمكن أن تكون السنة مرجعاً يطلب إلى المسلمين في جميع العصور أن يتمسكوا بها إلى جنب الكتاب في حين هي لم تكن مجموعة على عهد النبي(ص). وأن النبي لم يكن يجمع الصحابة جميعاً ويبلغهم بكل ما يجدّ من أحكام..." فيتساءل: "ماذا يصنع من يريد التمسك بسنته من بعده، ولنفترضه من غير الصحابة؟ يظل يبحث عن جميع الصحابة وفيهم الولاة والحكام وفيهم القواد والجنود في الثغور..." إلى آخر ما قال.

ويكمل: "وإذا كانت هذه المشكلة قائمة بالنسبة إلى من أدرك الصحابة وهم القلة نسبياً، فما رأيكم بالمشكلة بعد تكثر الفتوح وانتشار الإسلام ومحاولة التعرف على أحكامه من قِبل غير الصحابة من رواتهم، وبخاصة بعد انتشار الكذب والوضع في الحديث للأغراض السياسية أو الدينية أو النفسية؟ ومثل هذه المشكلة هل يمكن أن لا تكون أمامه(ص) وهو المسؤول عن وضع الضمانات لبقاء شريعته ما دامت خاتمة الشرائع وقد شاهد قسماً من التنكر لسنته على عهده؟"

---

[44] الموطأ، ج 2، ص 208

ثم قال: "وما دمنا نعلم أن السنة لم تدون على عهد الرسول(ص)، وأن النبي(ص) منـزّه عن التفريط برسالته، فلا بد أن نفترض جعل مرجع تحدد لديه السنة بكل خصائصها، وبهذا تتضح أهمية حديث الثقلين وقيمة إرجاع الأمة إلى أهل البيت(ع) فيه لأخذ الأحكام عنهم، كما تتضح أسرار تأكيده على الاقتداء بهم وجعلهم سفن النجاة تارة وأمانة للأمة أخرى وباب حطة ثالثة وهكذا".

ثانياً – من مناقشات أبي زهرة أن الحديث لم يعين من المراد من أهل البيت، ولا هم الأئمة المتفق عليهم من الشيعة الخ، فإن الحكيم أجاب بأن الناس لم يسألوا النبي(ص) عن من هم أهل البيت عندما سمعوه يرجعهم إليهم في حديث الثقلين وغيره، "فالذي يبدو – والقول للحكيم – أن الصحابة ما كانوا في حاجة إلى استفسار وهم يشاهدون نبيهم(ص) في كل يوم يقف على باب علي وفاطمة وهو يقرأ آية التطهير... ثم يشاهدونه وقد خرج إلى المباهلة وليس معه غير علي وفاطمة وحسن وحسين وهو يقول: ‹‹**اللهم هؤلاء أهلي**››[45]. كما أخرج هذا الحديث الترمذي[46] والحاكم[47] والبيهقي[48] وأحمد[49] وغيرهم".

ثم قال: "على أنا لا نحتاج في بدء النظر إلى أكثر من تشخيص واحد منهم يكون المرجع للقيام بمهمته من بعده، وهو بدوره يعين الخلف الذي يأتي بعده وهكذا". ثم قال: "وقد أغنانا(ص) حين عين علياً(ع) في نفس حديث الثقلين وسماه من بين أهل بيته لينهض بوظائفه من بعده". وطالما أن علياً(ع) دلت الأحاديث على عصمته كما في حديث ‹‹**علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار**››[50] فإن الأئمة الذين يحددهم علي(ع) من بعده هم منصوص عليهم باستحالة الكذب عليه(ع)، هذا من غير الأحاديث التي حددت الأئمة باثني عشر كما سنذكر في آخر هذا الملحق.

---

[45] صحيح مسلم، ج 7، ص 121

[46] سنن الترمذي، ج 4، ص 293، حديث 4085، و ج 5، ص 302، حديث 3808

[47] المستدرك، ج 3، ص 147

[48] سنن البيهقي، ج 2، ص 152، و ج 7، ص 63

[49] مسند أحمد، ج 1، ص 185

[50] شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد، ج 18، ص 72؛ كذلك تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ج 14، ص 322، حديث 7643، وتاريخ دمشق، إبن عساكر، ج 42، ص 449 (وليس فيهما ‹‹يدور معه حيثما دار››)

ثالثاً – وأما ما أشكل عليه أبو زهرة من أن الحديث يدل على إمامة الفقه لا السياسة، فقد قال الحكيم: "فهي لا أعرف لها وجهاً – أي هذه الدعوة – يمكن الركون إليه لافتراضها فصل السلطتين الدينية والزمنية عن بعضهما مع أن الإسلام لا يعترف بذلك لما فيه من تجاهل لوظائف الإمامة وهي امتداد لوظائف النبي(ص) إلا فيما يتصل بعالم الاتصال بالسماء، وبخاصة فيما يتصل في الشؤون التطبيقية. لأن الفكرة – أي فكرة – لا يكفي في تحقيق نفسها أن تُشرّع وتعيش على صعيد من الورق، بل لا بد أن تضمن لها تطبيقاً تتلاءم فيه الوسائل والأهداف، وإلا لما صح نسبة النجاح لتجربتها بحال من الأحوال".

(2) مناقشة القزويني للسالوس

وهناك من يحاول تضعيف نسخة «**وعترتي**» ودعم نسخة «**وسنتي**» في آن واحد وذلك بمخالفة جميع الطرق العلمية في البحث. من هؤلاء الدكتور علي أحمد السالوس، والذي لديه عدة كتب في نقاش حجج الشيعة الإمامية الإثني عشرية[51]، ومنها كتاب باسم "حديث الثقلين" ناقشه الدكتور السيد علاء الدين أمير محمد القزويني في كتابه "الثقلان"[52]. فقال عند الحديث عن الفرق بين النسختين: "خلافاً للدكتور السالوس حيث ضعف هذه الرواية كعادته وقوّى حديث «**وسنتي**»، اعتماداً على مرفوعة الإمام مالك في الموطأ، حيث يروى عن النبي(ص) أنه قال: «**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه**».

[51] بل إن لديه ولعاً في مناقشة الشيعة الإمامية في عقائدهم، ولكن باستخدام اللف والدوران، ولي أعناق الأدلة، وتناسي أدلة واضحة، مع بعض السخرية في طريقة العرض (حيث يسخر من عقائد الإمامية وهو يقوم بعملية فقه مقارن في كتاب في موضوع الفقه المقارن). إني أفهم أن يعرض بعض العلماء عن الحقائق المتصلة بموقع عترة النبي(ص) لأنهم أضعف من أن يواجهوا متطلبات ذلك، على المستويين الفردي والعلمي المهني – وإن كانوا مسؤولين عن ذلك –، ولكني لا أفهم أن يهتم بعض العلماء بمحاججة أتباع أهل البيت(ع)، أو قل يبادروا بالهجوم، ولكن باستخدام أدلة ضعيفة مردودة أو مناهج غير علمية، إذ ما الفائدة من ذلك، لهم ولغيرهم... بل ينبغي أن نسأل، ونحن أمام الكتمان تارة، والافتراء أخرى، والمحاججة دون دليل ثالثة، والكذب رابعة: ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ المطففين:4-6؟

[52] الثقلان، نشر مكتبة الصدوق، الكويت، 1988

ويقول الدكتور السالوس: وهذا الحديث الشريف غير متصل الإسناد، إلا أن ابن عبد البر وصله من حديث كثير بن عبد بن عمر بن عوف عن أبيه عن جده".

ويعلّق القزويني على ذلك بالقول: "ويحاول الدكتور أن يجد له مخرجاً لإثبات الحديث من حيث المتن وإسناده إلى النبي(ص) وإن لم يكن له إسناد، بل وإن كان الراوي مجهولاً، ولهذا استند الدكتور على قول ابن عبد البر بأن مرسلات مالك كلها صحيحة مسندة، وكذلك على قول جلال الدين السيوطي بأن جميع ما في مرسل الموطأ له عاضد أو عواضد". ويعلق "بأن اعتماد الدكتور على هذين القولين دليل على فساد قوله لأن المراسيل لا تفيد علماً ولا عملاً وعلى هذا يقال له من أين علم ابن عبد البر والسيوطي أن مراسيل الإمام مالك كلها صحيحة؟!"

ويذكر قول السالوس: "ونجد في بعض هذه المراجع العشرة الوصية بكتاب اللّه تعالى دون ذكر السنة، من ذلك ما جاء في سنن الدارمي". ويعلق بالقول: "فإذا كان الدكتور يعتقد بأن هذه المراجع العشرة توصي بكتاب اللّه وحده، وليس فيها ذكر لـ«**سنتي**»، فلماذا جعلها دليلاً على الحديث ولماذا أهمل ذكر حديث «**وعترتي أهل بيتي**» كما جاء في سنن الدارمي الجزء الثاني صفحة 431. وهذا هو نص الحديث كما جاء في سنن الدارمي ولم يذكره الدكتور كعادته: حدثنا جعفر بن عون، ثنى أبو يحيى، عن زيد بن أرقم قال: قام رسول اللّه(ص) يوماً خطيباً فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال: «**يا أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيبه، وإني تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فتمسكوا بكتاب الله وخذوا به**» فحث عليه ورغب فيه، ثم قال: «**وأهل بيتي؛ أذكركم الله في أهل بيتي**» ثلاث مرات".

ويعلق القزويني بالقول: "ومما يزيد الطين بلة قول الدكتور: وفي سنن النسائي رواية أخرى لهذا الحديث، وقال السيوطي في شرحه: أوصى بكتاب اللّه أي بدينه أو به وبنحوه ليشمل السنة! وهكذا يحاول الدكتور السالوس أن يتلاعب بدين اللّه وسنة رسوله(ص) مع أن السيوطي في جامعه الصغير خرّج حديث «**وعترتي أهل بيتي**» من حديث صحيح كما في الجزء الأول صفحة 402!"

ثم يذكر قول السالوس: "وشيخ الإسلام ابن تيمية رفض هذا الحديث وقال: وقد سئل عنه أحمد بن حنبل فضعّفه وضعّفه غير واحد من أهل العلم وقالوا لا يصح". ويعلّق القزويني بالقول: "هذا ما يقوله السالوس مقلداً لابن تيمية في تضعيفه لحديث الثقلين مع أن ابن تيمية يقول في كتابه "حقوق آل البيت" ما نصه: وثبت في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم أنه قال... ثم ذكر الحديث[53]، فما نقله الدكتور عن ابن تيمية أما أن يكون افتراء عليه أو يكون ابن تيمية مناقضاً في كلامه لما ذكره في الكتاب. مع أن ابن تيمية حكم بثبوت الحديث فيه، وعلى هذا فلا يخلو ما نقله الدكتور عنه أما أن يكون صحيحاً فقد افترى عليه، أو أنه غير صحيح فقد حكم على نفسه بالكذب..." إلى آخر ما قال.

فيتضح من ذلك...

وبهذا نرى أن العلماء المعاصرين من مدرسة الخلافة يلجأون إلى التناقض وإلى الادعاءات غير المسندة وإلى ضرب أصول البحث عرض الجدار، هذا إن لم نقل بالكذب الصريح، لتأييد ما ذهبوا إليه. وكأنهم بذلك لا يعرفون بأنهم ليس فقط هم أنفسهم من فقد الأمن من الضلال بل وإن ذلك ما يقومون به لمن يتّبعهم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير؛ بعبارة أخرى ضلّوا وأضلّوا.

وهذا ليس حكماً قاسياً لأن علماء أهل السنة حكموا بذلك، كما قال علامة العراق في القرن التاسع عشر محمود شكري الآلوسي ما نصه[54]: وها هنا فائدة جليلة لها مناسبة مع هذا المقام، وهي أن رسول اللّه(ص) قال: «**إني تارك فيكم الثقلين فإن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي: أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله وعترتي أهل بيتي**» وهذا الحديث ثابت عند الفريقين أهل السنة والشيعة، وقد عُلِم منه أن رسول اللّه(ص) أمرنا في المقدمات الدينية والأحكام الشرعية بالتمسك بهذين العظيمي القدر والرجوع إليهما في كل أمر، فمن كان مذهبه مخالفاً لهما في الأمور الشرعية اعتقاداً وعملاً فهو ضال".

---

[53] حقوق آل البيت، إبن تيمية، ص 3، مؤسسة المصري للكتاب، 1981

[54] مختصر التحفة الإثني عشرية، ص 52

وبهذا يتضح لنا جواب هذا السؤال المحيّر وهو انتشار واشتهار الحديث بنسخة ‹‹**وسنتي**›› بشكل لا يضاهيه أي حديث آخر في الوقت الذي يختفي الحديث بنسخة ‹‹**وعترتي**›› بشكل تام في أتباع المذاهب الإسلامية من غير شيعة أهل البيت(ع)، وذلك لأن علماءهم لا يزالون يسيرون على ديدن من سبقهم في كتمان هذا الأمر بكل الوسائل.

بقي أن نشير إلى عدد عترة النبي(ص) هؤلاء بأنهم إثنا عشر، وذلك كما يلي:

أولاً – ما جاء في صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما على نحو الإشارة السريعة. حيث روى البخاري[55] بسنده عن جابر بن سمرة قال سمعت النبي(ص) يقول: ‹‹**يكون اثنا عشر أميراً**›› فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي إنه قال: ‹‹**كلهم من قريش**››.

وأما مسلم فقد أخرج في صحيحه[56] في كتاب الإمارة في باب الناس تبع لقريش بسندين عن جابر بن سمرة نفس الحديث بقول النبي: ‹‹**إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة**›› ثم قال: ‹‹**كلهم من قريش**››. وأخرجه مسلم بسند آخر[57].

كما أخرجه الترمذي في صحيحه[58].

أما الحاكم فقد أخرجه في مستدركه[59] مضيفاً إليه ‹‹**أنهم اثنا عشر عدة نقباء بني إسرائيل**››.

وهو الذي رواه أحمد[60] وأبو داود[61] وغير هؤلاء.

بل روي هذا الحديث بنسخة تقول أنهم "من بني هاشم" وليس "من قريش". أخرج القندوزي الحنفي الحديث[62]، وبرواية جابر بن سمرة عن أبيه أيضاً، قول النبي(ص): "بعدي

---

[55] صحيح البخاري، ج 8، ص 127

[56] صحيح مسلم، ج 6، ص 3

[57] نفسه، ولكن بلفظة ‹‹لا يزال الإسلام عزيزاً إلى إثني عشر خليفة››؛ أيضاً بلفظة ‹‹لا يزال هذا الأمر عزيزاً إلى إثني عشر خليفة››؛ أيضاً بلفظة ‹‹لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون عليهم إثنا عشر خليفة››

[58] صحيح الترمذي، ج 3، ص 340، حديث 2323

[59] المستدرك، ج 4، ص 501

[60] مسند أحمد، ج 5، ص 86، وبروايات أخرى باختلاف بسيط في اللفظ

[61] سنن أبي داود، ج 2، ص 309، حديث 4279

إثنا عشر خليفة" ثم أخفى صوته، فسأل جابر أباه عن ذلك فقال: قال: "كلهم من بني هاشم".

وهناك حديث لافت في كنـز العمال[63] بأن النبي(ص) قال: ‹‹**يكون لهذه الأمة اثنى عشر خليفة قيماً لا يضرهم من خذلهم، كلهم من قريش**››. وأخرجه الهيثمي في مجمعه[64] بصيغة ‹‹**لا يضرهم عداوة من عاداهم**››. ولا نعلم بإثني عشر رجلاً في تاريخ المسلمين، كلهم من قريش، وقد خذلهم الناس، ومع ذلك حكم النبي(ص) بأن ذلك لا يضرهم، بمعنى أنهم على الحق بالرغم من كل شيء، غير أئمة أهل البيت من العترة النبوية الكريمة؛ ومن يعلم غيرهم فليدلنا عليهم.

وكما قلنا فإنه يكفي في تعيين الإثني عشر أن يعين أولهم ليكون بعد ذلك هو الذي يعين من بعده، أي أن إثبات تعيين الإمام علي(ع) خليفة أول يكفي عندما يقوم هو بتعيين ولده الحسن(ع) إماماً ثانياً، وهكذا. على أن هناك أحاديث أوردت الأئمة(ع) بأسمائهم واحداً فواحداً، إلا أنها ليست بتلك الدرجة من الصحة من مدرسة الخلافة فلا داعي لذكرها.

---

[62] ينابيع المودة، ج 2، ص 315، حديث 908. وعلق على هذا الحديث في ج 3، ص 292 بما نصه: "قال بعض المحققين: إن الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده(ص) إثنا عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة، فبشرح الزمان وتعريف الكون والمكان، علم أن مراد رسول الله(ص) من حديثه هذا الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته وعترته، إذ لا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه، لقلتهم عن اثني عشر، ولا يمكن أن يحمله على الملوك الأموية لزيادتهم على اثني عشر، ولظلمهم الفاحش إلا عمر بن عبد العزيز، ولكونهم غير بني هاشم، لان النبي(ص) قال ‹‹كلهم من بني هاشم›› في رواية عبد الملك عن جابر، وإخفاء صوته(ص) في هذا القول يرجح هذه الرواية، لأنهم لا يحسنون خلافة بني هاشم، ولا يمكن أن يحمله على الملوك العباسية لزيادتهم على العدد المذكور، ولقلة رعايتهم الآية ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ وحديث الكساء، فلا بد من أن يحمل هذا الحديث على الأئمة الاثني عشر من أهل بيته وعترته(ص) لأنهم كانوا أعلم أهل زمانهم وأجلهم وأورعهم وأتقاهم، وأعلاهم نسباً، وأفضلهم حسباً، وأكرمهم عند الله، وكانت علومهم عن آبائهم متصلاً بجدهم(ص) وبالوراثة واللدنّية، كذا عرفهم أهل العلم والتحقيق وأهل الكشف والتوفيق. ويؤيد هذا المعنى أي أن مراد النبي(ص) الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته ويشهده ويرجحه حديث الثقلين، والأحاديث المتكثرة المذكورة في هذا الكتاب وغيرها ".

[63] كنـز العمال، ج 6، ص 201

[64] المجمع، ج 5، ص 190

بقيت نقطتان، الأولى هي أننا نجد أن الكثيرين ممن يناقشون مسألة تعيين مذهب أهل البيت إذا وجدوا أنفسهم مجبرين على القبول بحديث الثقلين بنسخة «**وعترتي أهل بيتي**» وبغيره من الأحاديث، فإنهم يذهبون إلى آية التطهير ويقولون أن أهل البيت هم نساء النبي(ص) أو هم النساء والنبي(ص) معهم. وهنا جرت مناقشات كثيرة ونوقش ذلك في إطار دلالة الآية من حيث ألفاظها كلغة، وأيضاً من حيث دلالتها بتبيان النبي(ص) في حديث الكساء الشهير الذي ذكرناه في الأصل من أنه كان يقف على باب الزهراء وعلي(ع) لتسعة أشهر وهو يردد ويقرأ آية التطهير؛ إضافة إلى حديث الكساء الذي ذكر عن أم المؤمنين أم سلمة(رضوان الله عليها) وغيرها.

وهنا نقول ما يلي: أولاً، لم تدّع أي واحدة من نساء النبي(ص) أمهات المؤمنين(رض) أنها داخلة في آية التطهير، ولاسيما وأن منهن من دخلت في السياسة وفي الحروب، خصوصاً أول حرب أهلية بين المسلمين كما في حرب الجمل، وكان سيكون مهماً جداً أن يقال بأنها أذهب اللّه عنها الرجس وطهرت تطهيراً وبالتالي يجوز، بل يجب، متابعتها على ذلك. مع هذا لم نجد أحداً يدعي لها، لا هي ولا من معها ولا من المؤرخين ولا غيرها. ثانياً، أن الأئمة من أهل البيت(ع) ادعوا ذلك لأنفسهم، وهؤلاء لم يجرؤ أحد من الأولين والآخرين على اتهامهم بالكذب. ثالثاً، لو كانت النساء هنّ أهل البيت أو داخلات فيه لكنا وجدنا مدرسة الخلافة نشرت آية التطهير بما لا يصنع مع غيرها! وإلا فإن حديث «**وسنتي**» المرفوع في موطأ مالك والذي لا يفيد بشيء اشتهر وانتشر بهذا الشكل، فكيف بآية من آيات الكتاب العزيز؟!

وننبّه هنا إلى أن أحاديث النبي(ص) يجب أن لا يتم التعامل معها على أنها أقل أهمية من آيات الكتاب. نعم إن القرآن الكريم معصوم من الخطأ وقد تعهد اللّه تعالى بحفظه وأن السنة النبوية قد دخل فيها من الكذب والوضع والنسيان والاختلاط الشيء الكثير جداً، ولكن تبقى حقيقة مهمة جداً أن النبي(ص) هو الذي يبين المقصود في آيات الكتاب العزيز لقوله تعالى: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون**﴾ النحل:44، أيضاً قوله تعالى: ﴿**وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾ الحشر:7.

ثانياً - أن العدد الإثني عشر الذي يحدد أوصياء النبي(ص) من أهل بيته وعترته قد ورد قبل البعثة النبوية بقرون طويلة، وذلك في التوراة الموجودة بين أيدينا. وهنا أذكر بنصه من كتاب "السيرة النبوية" للعلامة السيد سامي البدري[65]: وقال تعالى: ﴿**يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل**﴾ الأعراف:157، وفي التوراة المتداولة نصوص عديدة تُبشّر بالنبي المكي الإسماعيلي وأوصيائه الإثني عشر(ع).

قال أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت 542هـ) حدثني من أثق به قال: مكتوب في التوراة في خروجه(ص) من ولد إسماعيل وصفته هذه الألفاظ: "وليشماعيل شمعتيخه هني برختي أوتو وهفريتي أوتو وهربيتي أوتو بمئد مئد – أو بماد ماد – شنيم عاسار نسيئم يولد ونتتيوا لجوي جادول"[66].

وتفسيره: "إسماعيل قبلت صلاتك له وباركت فيه وأنميته وكثرت عدده بولد له اسمه محمد يكون 92 في الحساب سأخرج اثني عشر إماماً ملكاً من نسله وأعطيه قوماً كثير العدد"[67]. أقول: – القول للسيد البدري –: النص الآنف الذكر هو الفقرة عشرون من الإصحاح 17 من سفر التكوين وترجمتها في النسخ المطبوعة المتداولة هي "أما إسماعيل فقد سمعت قولك فيه ها أنا ذا أباركه وأنميه وأكثره جداً جداً ويلد اثني عشرة رئيساً وأجعله أمة عظيمة".

وقد أجمع علماء المسلمين وعلماء اليهود الذين أسلموا على أن هذا النص يبشر بمحمد(ص) وأن عبارة "جداً جداً" هي ترجمة لعبارة "بماد ماد" العبرية الواردة في النص العبري، أي كانت بالأصل تشير إلى اسم محمد(ص) ثم حرِّفت إلى كلمة متكافئة من ناحية القيمة العددية[68] مع اسم محمد وهي "بماد ماد" إذ كلاهما يساوي 92[69]، وإذا ثبت ذلك،

[65] السنة النبوية، الطبعة الأولى 1420هـ، ص 84

[66] ذكر السيد البدري بأن هذا صححه عن الأصل العبري، ثم ذكر النص بحروفه العبرية.

[67] إعلام الورى، ص 21

[68] والهدف من ذلك هو حصر المعرفة بالبشارة بكهنة اليهود (الهامش للسيد البدري).

[69] وهذا حسب حساب الجمل، حيث أن باء تساوي 2 وميم تساوي 40 وألف تساوي 1 ودال يساوي 4 فيكون مجموع "بماد ماد" يساوي 92. أيضاً ميم يساوي 40 والحاء 8 وميم 40 ودال 4 فإذاً يصبح اسم "محمد" يساوي 92. (الهامش للمؤلف)

وهو ثابت، كان الإثنا عشر بعدها مما يرتبط بمحمد وليس بإسماعيل، وهو ما كان يفهمه علماء اليهود الذين أسلموا حيث كانوا يختارون التشيع على غيره من المذاهب باعتباره مذهباً يقوم على الإيمان باثني عشر وصياً للنبي(ص)[70].

[70] قال ابن تيمية في معرض الرد على الشيعة وعقيدتهم بالإثني عشر المذكورين في حديث جابر بن سمرة عن النبي(ص): «الأئمة من بعدي اثنى عشر كلهم من قريش» قال: وهؤلاء المبشر بهم في حديث جابر بن سمرة وقرر أنهم يكونون مفرقين في الأمة ولا تقوم الساعة حتى يوجدوا، وقد غلط كثيراً ممن تشرف بالإسلام من اليهود فظنوا أنهم الذين تدعو إليهم فرقة الرافضة فاتبعوهم" البداية والنهاية لابن كثير، ج 6، ص250. (الهامش للسيد البدري)

والمؤلف شخصياً يعرف عالماً معاصراً هو المرحوم الدكتور أحمد نسيم سوسه الذي كان من علماء الري والجغرافيا والتاريخ في العراق، له مؤلفات كثيرة في هذه المواضيع منها "اليهود في التاريخ" ومنها حول الري والسدود في العراق، والمؤلف يعرفه شخصياً حيث كان يسكن في محلتنا (بل كان أحد شهود عقد زواجي سنة 1977) ثم توفي سنة 1980، وعند قامت ابنته المرحومة الدكتورة عالية سوسه بنشر مذكراته سنة 1985 كان قد صرح فيها بأنه مسلم شيعي إثنا عشري يتبع أهل البيت(ع) وذكر أسباب ذلك.

ملحق 5

بين إدّعاء الأئمة(ع) وملاحقة الحكام

إدعاء الأئمة(ع) أنفسهم

إن الأئمة(ع) كانوا يعلنون أنهم هم المرجع لهذه الأمة والمفزع إليها فيما اختلفت فيه، وهذا لا يقتصر على أمير المؤمنين(ع) الذي ذكرنا عدداً من أقواله في الكتاب، والذي يقول[71]: ‹‹**أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا، كذباً وبغياً علينا، أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرمهم، وأدخلنا وأخرجهم. بنا يستعطى الهدى ويستجلى العمى. إن الأئمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم، لا تصلح على سواهم، ولا تصلح الولاة من غيرهم**››. وهو أوضح ما يكون في انحصار الإمامة في أهل البيت(ع).

ولكن هناك أيضاً أقوال الأئمة الآخرين، منها قول الإمام الحسن بن علي(ع) الذي ورد في رسالته لمعاوية بن أبي سفيان وهو يدعوه إلى التراجع عن البغي والدخول فيما دخل فيه المسلمون من بيعته(ع) بعد مقتل أبيه(ع). يقول في مقطع منها: ‹‹**فلما توفي** – أي النبي(ص) –، **تنازعت سلطانه العرب، فقالت قريش: نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه، ولا يحل لكم أن تنازعونا سلطان محمد وحقّه، فرأت العرب أن القول ما قالت قريش، وأن الحجّة لهم في ذلك على من نازعهم أمر محمد، فأنعمت لهم، وسلّمت إليهم. ثم حاججنا نحن قريشاً بمثل ما حاججت به العرب، فلم تنصفنا قريش إنصاف العرب لها؛ وأنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالإنصاف والاحتجاج، فلما صرنا آل بيت محمد وأولياءه إلى محاجّتهم وطلب النَّصَف منهم، باعدونا، واستولوا على الخلافة بالاجتماع على ظلمنا ومراغمتنا والعنت منهم لنا. فالموعد الله، وهو الوليّ النصير**››. ثم يقول في تلك الرسالة(ع): ‹‹**ولقد كنّا تعجبنا لتوثّب**

---

[71] نهج البلاغة، خطبة 144

المتوثّبين علينا في حقّنا وسلطان نبيّنا، وإن كانوا ذوي فضيلة وسابقة في الإسلام...›› موضحًا أن السبب في توقفهم عن النـزاع هو الاحتياط على الدين، وهو أحد أهم مسؤولياتهم(ع)، يقول(ع): ‹‹**وأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدّين أن يجد المنافقون والأحزاب في ذلك مغمزاً يثلمونه به، أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا من إفساده**››.

ومنها قول الإمام علي بن الحسين زين العابدين(ع)[72]: ‹‹**وذهب آخرون إلى التقصير في أمرنا، واحتجوا بمتشابه القرآن فتأولوا بآرائهم، واتهموا مأثور الخبر فينا**›› أي أنهم ينكرون ويضعفون ويقللون من أهمية فضائلهم ودورهم أو يحرفون دلالة الأخبار الواردة عن رسول اللّه(ص) في مكانتهم... إلى أن يقول: ‹‹**فإلى من يفزع خلف هذه الأمة، وقد درست أعلام هذه الأمة، ودانت الأمة بالفرقة والاختلاف يكفر بعضهم بعضاً والله تعالى يقول: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾[73]؛ فمن الموثوق به على إبلاغ الحجة وتأويل الحكم إلا أعدال الكتاب وأبناء أئمة الهدى ومصابيح الدجى الذين احتج الله بهم على عباده، ولم يدع الخلق سدى من غير حجة، هل تعرفونهم أو تجدونهم إلا من فروع الشجرة المباركة وبقايا الصفوة الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا؟**››

بل إننا نجد أن الإمام السجاد(ع) يذكر هذه الأمور في أدعيته، فلو أخذنا دعاءه ليوم عرفة وهو الدعاء الذي يبدأ بالقول ‹‹**الحمد الله رب العالمين اللهم لك الحمد بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام**››، يقول فيها: ‹‹**ربّ صلّ على أطائب أهل بيته** – أي أهل بيت النبي(ص) – **الذين اخترتهم لأمرك وجعلتهم خزنة علمك وحفظة دينك وخلفاءك في أرضك وحججك على عبادك، وطهرتهم من الرجس والدنس تطهيراً بإرادتك، وجعلتهم الوسيلة إليك والمسلك إلى جنتك**››. ويقول فيها: ‹‹**اللهم إنك أيدت دينك في كل أوان بإمام أقمته**

[72] ينابيع المودة، ج 2، ص 367، وبحار الأنوار، ج 27، ص 193
[73] آل عمران:105

علماً لعبادك ومناراً في بلادك، بعد أن وصلت حبله بحبلك وجعلته الذريعة إلى رضوانك، وافترضت طاعته وحذرت معصيته وأمرت بامتثال أوامره والانتهاء عند نهيه، وأن لا يتقدمه متقدم ولا يتأخر عنه متأخر، فهو عصمة اللائذين وكهف المؤمنين وعروة المتمسكين وبهاء العالمين، اللهم فأوزع لوليك – ويقصد نفسه الزكية – **شكر ما أنعمت به عليه**».

ويقول في دعائه لعيد الأضحى والجمعة وهو الدعاء الذي يبدأ بالقول «**اللهم هذا يوم مبارك ميمون**»، يقول: «**اللهم إن هذا المقام لخلفائك وأصفيائك ومواضع أمنائك في الدرجة الرفيعة التي اختصصتهم بها، قد ابتزُّوها، وأنت المقدر لذلك، لا يغالب أمرك ولا يجاوز المحتوم من تدبيرك، كيف شئت وأنّى شئت ولما أنت أعلم به، غير متّهم على خلقك ولا لإرادتك، حتى عاد صفوتك وخلفاؤك مغلوبين مقهورين مبتزين، يرون حكمك مبدلاً وكتابك منبوذاً وفرائضك محرّفة عن جهات إشراعك وسنن نبيك متروكة**».

لماذا الملاحقة إذاً؟

وتجدر ملاحظة مهمة وهي أن الشيعة عندما تدّعي إمامة أهل البيت(ع) وتقيم عليها الأدلة من الكتاب والسنة فإنها تأتي بأدلة ذلك من أقوال الأئمة أنفسهم ومن حوادث التاريخ. ذلك أن الأئمة(ع) أنفسهم ادعوا لأنفسهم الإمامة وأوضحوا دورهم ومكانتهم في الإسلام بحيث لم يعد هناك شك في هذا الأمر. أيضاً فإن القارئ لتاريخ الإسلام منذ القرن الأول وحتى منتصف القرن الثالث، وهي المدة التي عاش فيها الأئمة(ع) حتى بدء غيبة الإمام الثاني عشر(ع)، يجد أن جميع الأئمة الإثني عشر دون استثناء كانوا ملاحقين مضطهدين مراقبين أشد درجات المراقبة من حكام الدولة الإسلامية الأموية ومن ثم العباسية، حتى وصل الأمر إلى السجن والقتل. فإننا نجد أن الإمام الحسن السبط(ع) قُتل سماً والإمام الحسين(ع) قُتل في كربلاء بما يعرفه الناس جميعاً ثم كان الإمام زين

العابدين(ع) مراقباً أشد المراقبة هو وشيعته. وبعد فترة العشرين سنة تقريباً التي تنفس فيها الأئمة(ع) وشيعتهم الصعداء في نهاية إمامة الإمام الباقر(ع) وبداية إمامة الإمام الصادق(ع) وهي الفترة الانتقالية في أواخر الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية، بعد أن انتهت رجع الحال إلى ما كان عليه بل أشد في زمن العباسيين، فنجد أن المنصور يراقب الإمام الصادق(ع) أشد المراقبة إلى أن يأتي به زماناً في العراق ليكون تحت نظره مباشرة، ثم بعد ذلك الإمام الكاظم(ع) يقضي سنين طويلة من عمره الشريف في سجون الهادي وأخيه هارون الرشيد ثم يقتل في السجن كما هو معلوم. بعد ذلك الإمام الرضا(ع) الذي يأتي به المأمون ليكون تحت نظره مباشرة ويجبره على خلافة العهد من أجل أن تخمد ثورات العلويين ثم يكون بعد ذلك من أمره أن يسمّه في الحمام في مرو حيث مشهده الشريف اليوم. بعد ذلك ينتقل الأمر إلى الجواد(ع) الذي نرى أنه يموت بعمر خمس وعشرين سنة، وذلك بعد أن يزوجه المـأمون ابنته أم الفضل، ربما لتكون عيناً عليه، والتي روت الأخبار حديث سمّها له وتركه يموت وحيداً في داره. ثم يعود الأمر إلى أن يأتوا بالهادي(ع) إلى سامراء ليكون تحت نظر المتوكل، الذي كان من أشد أعداء أهل البيت(ع) في الدولة الإسلامية، ليبقى تحت نظره ما بين الإقامة الجبرية والسجن، ثم ليكون الشيء نفسه مع الإمام العسكري(ع) مع الخلفاء الذين عاصرهم.

إن هذا ما كان ليكون من خلفاء بني أمية والعباس لولا أنهم يعلمون بأن أئمة أهل البيت(ع) يعتقدون بإمامة أنفسهم، ولولا أنهم يعرفون بأنه يوجد الأعداد الغفيرة من الشيعة التي تلتف حولهم وستنهض معهم لو نهضوا ضد الحكم القائم، وإلا لماذا هذا التضييق والسجن والسم وأنواع الاضطهاد؟

إن هذه الأقوال وغيرها التي أشار فيها أئمة أهل البيت(ع) إلى مكانتهم في الإسلام، وهي أقوال لا يمكن ردها من أحد لأن الأمة أجمعت على صدقهم التام واستحالة صدور الادعاء الكاذب عنهم، إضافة إلى تعامل خلفاء الوقت معهم، كلها تدل بما لا يدع مجال للشك أنهم الأئمة الذين نص عليهم النبي(ص) ونص عليهم القرآن الكريم.
والحمد للّه رب العالمين.